



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان  
كلية الآداب واللغات  
قسم اللغة والأدب العربي  
شعبة : دراسات أدبية



## أعلام الأدب في حواضر المغرب العربي خلال القرنين السادس والسابع للهجرة (القيروان - فاس - بجاية - تلمسان)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه ل.م. د  
تخصص: دراسات أدبية

إشراف:

د. ليلى رحمانى

إعداد الطالبة:

فضيلة بوعياذ

### لجنة المناقشة:

رئيسا

جامعة تلمسان

أ.د. محمد زمري

مشرفا

جامعة تلمسان

د. ليلى رحمانى

عضوا

جامعة تلمسان

أ.د. محمد بن عمر

عضوا

جامعة تلمسان

أ.د. فتيحة بن يحيى

عضوا

جامعة وهران

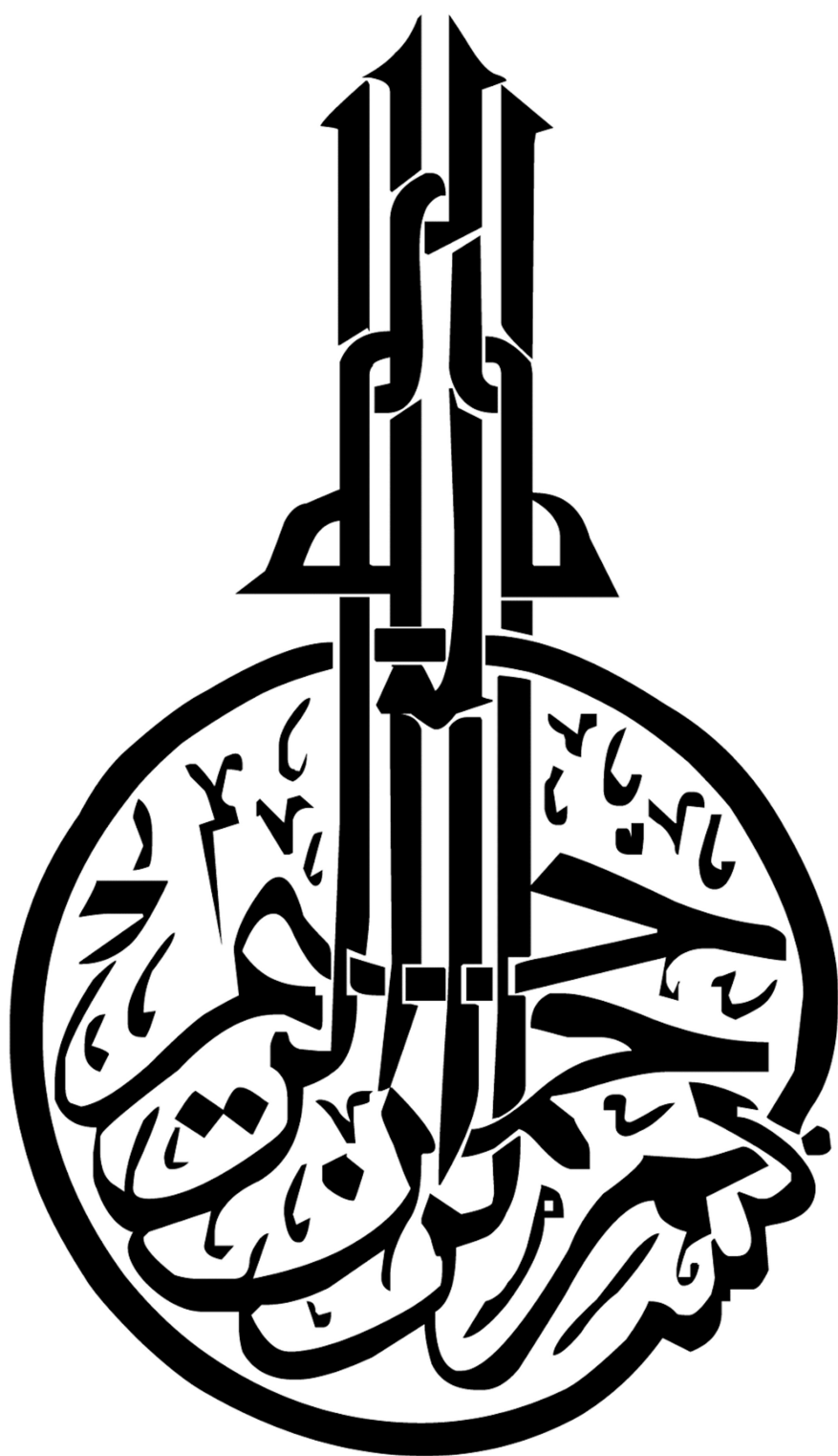
د. سميرة مالكي

عضوا

المركز الجامعي مغنية

د. نورية بن عدي

السنة الجامعية: 1444-1445هـ / 2023-2024م





## **الدعاء الافتتاحي**

**«ربّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري  
وأحلل عقدة من لساني يفقهوا  
قولي»**

# شكر وتقدير

أشكر الله العلي القدير الذي وفقني إلى إنجاز هذا العمل راجية منه سبحانه وتعالى أن يجعله رافعاً في الدنيا ويجزييني الثواب في الآخرة. وعجزاً ألوذ بضعة كلمات تعبيراً عن جزيل شكري وعظيم امتناني لأستاذتي المشرفة الدكتورة «رحماني ليلي» التي رعت هذا المنجز فكرة ومشروعاً، تقوياً وتهذيباً، وأبدأً أبقي شاكراً لفضلها وحافظتها لها. وكـم أودّ أن تسعفني الكلمات للتعبير عن امتناني لأعضاء لجنة المناقشة على صبرهم ورعاية صدورهم وسعة حلمهم في قراءة هذا العمل وتثمينه.

وأشكر أيضاً كل من ساعدني في إنجاز هذه الرسالة ولو حتى بالكلمة الطيبة الخالصة من الأفئدة.

## إهداء

إلى أعمز ما عندي في الدنيا الوالدين، وخاصة أبي الذي كان لي  
سندًا لي.

إلى عمتي اللتان كانتا دعمًا لي، وبجانبتي على طوال هذه الفترة.  
إلى أخي الوحيد، وأختي سعاد التي تساعدني كثيرًا.  
إلى زوجي الذي كان دعمًا لي، وكذلك إلى فلذة كبدي «فتح  
الله الأمين».

إلى من أدين لهم بالفضل في نجاحي إليكم أستاذتي الكرام.

فضيلة

مَقْدَمٌ

يعدّ الأدب المغربي تحفة مليئة بالأعلام الأفذاذ الذين أنجبتهم في شتى النواحي فحاضرة تلمسان لؤلؤة المغرب الأوسط الموجودة في منطقة الشمال الإفريقي عبر العصور؛ فقد أنجبت هذه الحاضرة مجموعة من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والكتّاب والمفكرين والمؤرخين، شاركوا في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية أمثال عائلة العقباني وابن مرزوق وابن خميس التلمساني الذي كان له صدى على الأبواب الثقافية؛ وبرزت الحاضرة في شتى النواحي الفكرية والثقافية وتفننت بوجود عائلة الزيانيين، وهذه جارتها المنافسة لها المغرب الأقصى التي أخرجت هي الأخرى من أضلعها خيرة الأعلام كالقاضي أبو الحسن الزرويلي المعروف بالصُّغَيْر ومالك بن المرحل وابن البناء، وكان لحاضرة بجاية عدّة علاقات وطيدة مع جارتها تلمسان؛ كما لا ننسى أن علماء هذه الأخيرة كانت لهم مكانة عريقة في المجالس العلمية بفاس؛ ومن بين العلماء والمفكرين الذين وضعوا بصمتهم في أرضهم وفي شتى نواحي البقاع الأخرى فهؤلاء العلماء من عائلة زواوة أبو العباس وأبو الروح وابن معطي، وحاضرة القيروان التي استطاعت أن تفرز طوال أربعة قرون متتالية مدراس متعددة الخصائص أبقت على ذكرها خالدة، وكما تعتبر هذه البلاد سوقاً للمعرفة يغترف من مناهلها.

وكانت دول المغرب العربي الثلاث: المرينية والزيانية والحمادية والحفصية يتألقون ويشع نورهم الثقافي والعلمي في شتى منابع التطور والانغماس في بواصر الحضرة وظهر أعلامها في تلك الفترة السادسة والسابعة الهجريين، لهذا ارتأينا أن يكون موضوع الرسالة: «أعلام الأدب في حواضر المغرب العربي: القيروان-فاس-بجاية-تلمسان خلال القرنين السادس والسابع للهجريين - مقارنة تاريخية فنية -»

تكمن أهمية الموضوع هو الإمام على أعلام المغرب العربي فكانت عوامل النبوغ لهذه الحواضر الأربعة أدق وأعلم، فحين أن بعض الحواضر كفاس لم تعنى كفاية من الدراسة.

- الخوض في هؤلاء الأعلام والتعرّف على أهمّ رحلاتهم وآثارهم وميادين نبوغهم العلمي والثقافي.

- لقلة الدراسات فيه بالرغم من غمض بعض الباحثين في دراسة أعلام تلمسان، وإهمال بعض الأعلام الأخرى من الحواضر المجاورة، يكمن الهدف من البحث هو التعرّف على أعلام حواضر المغرب العربي لم تسبق أن تعرفت عليهم والانغماس في كيانها.

- قد تطرق هذا البحث المتواضع لمجموعة من التساؤلات الذي يكمن في إشكاليته:

- ما هي أهم مراكز الإشعاع التي ظهرت في تلك الفترة ؟

- وهل بعض الباحثين قد نقصوا عن الأعلام في كلّ منطقة وحاضرة ودرسوها حق دراسته؟

- وأين تكمن أهم عوامل التبوغ في هذه الحقبة ؟

قد اتبعت المنهج التاريخي: وذلك أثناء تتبع الأحداث والوقائع التي نشأت في جميع حواضر المغرب العربي، القيروان، وفاس، بجاية وتلمسان. وكذلك المنهج الوصفي القائم على التحليل الذي يقوم على تقصي وتتبع مزايا كل حاضرة وأهمّ أعلامها منذ نعومة أظافرهم إلى غاية أن أصبحوا قشاعم.

### وأما الخطة المتبعة في هذا البحث:

فتشمل ثلاثة فصول مسبقة بمدخل ومقدمة ومذيلة بخاتمة، وبقائمة للمصادر والمراجع وفهرس للمواد.

1-تطرقت في المدخل إلى الحياة الثقافية بحواضر المغرب العربي خاصة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بحكم كانت موجة تلاقح وتزاوج مرّت بها هذه الحواضر فالقيروان مهد الثقافة الإسلامية، بحكم موقعها الاستراتيجي فمنذ أن تأسست وبرز علمها في الساحة الفكرية أخذت تستقطب العديد من التحصينات العلمية الفذة في باب معقلها فضحت البلورة المشعّة، فقفزت إلى جانبها حاضرة المغرب - فاس - وذلك بسبب اتسامها بـمميزات جذبت إليها الأنظار من حولها، فمثلت ساحتها الفكرية بالفقهاء المالكيين وجميع شعوب البلاد المجاورة بسبب

تأسيسهم لجامع القرويين وهلم جر كما برز ضوء ساطع على البوابة الثقافية من جهة الشرق حاضرة بجاية التي عدت مركزاً من مراكز الإشعاع الثقافي على العالمين العربي والإسلامي؛ وفي ضفتها الغربية لمع نجم آخر سمي لؤلؤة العبد الوادي الزباني - تلمسان - فكانت لا تقل أهمية عن سابقتها فتنال الكتاب والمؤرخون والرحالة في وصفها وذكر محاسنها ومراكزها العلمية.

2- تناولت في الفصل الأول: حاضرة القيروان وفاس، فقسمته على شكل بحوث، وكل مبحث عنوانه بمعلوماته الخاصة، فخصّصت لكلّ من الحاضرتين في البحث الأول بالحياة التاريخية والجغرافية والمبحث الثاني للحالة السياسية وفي المبحث الثالث الحالة الاجتماعية والمبحث الرابع الحالة الاقتصادية وفي المبحث الأخير الحالة الثقافية.

3- فخصّصت الفصل الثاني لحاضرة بجاية وتلمسان وتطرق في العناوين المذكورة في الفصل الأول.

4- تكلمت في الفصل الأخير عن الجانب التطبيقي لأهمّ الأعلام الموجودة بتلك الحواضر المغربية التي أثمرت الساحة الفكرية بنشاطهم العلمي واكتشافاتهم الفنية والتي لا زالت تحفر وتطبع الملايين منها.

أنهت البحث بخاتمة بسطت فيها مجموع النتائج المتوصل إليها وكذلك ذيلتها بقائمة المصادر والمراجع المهمة.

المصادر المعتمدة بكثرة في هذه الدراسة نذكر من أهمّها:

- "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" لابن زكرياء يحيى بن خلدون حوالي (743هـ / 1333م - 780هـ / 1378م).

- "العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لصاحبه عبد الرحمن بن خلدون (732-808هـ / 1332-1406م)، ويتضمن هذا الكتاب معلومات مهمة في تاريخ دويلات المغرب العربي بما فيها الدولة الزيانية (بني عبد الواد).

- "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" لصاحبه محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، وقد أخرج حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد خياليّ.

- «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة» لأبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني.

- "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن أبي زرع الفاسي.

كذلك لكلّ بحث أن يكون موسومًا بصعوبات لكي تميزه، فقد واجهتني صعوبة قلّة المصادر، وذلك لقلتها لأنّها تعدّ شبه منعدمة، فحاولت أن أصل إلى بعض الدراسات لكن ذلك لم يكن سهلاً.

في الأخير، أتقدم بالشكر الخالص إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة «ليلى رحامي» التي ساعدتني بتوجيهاتها القيّمة وأرشدتني بملاحظاتها الهامّة، والتي لم تبخل عليّ وكانت ملاذاً لي في الأوقات الصعبة، وأعضاء لجنة المناقشة على تكرمهم حسن تتبع الدراسة ومكابدهم العناء لإخراجها لبؤرة النور.

عزائي في الأخير قول النبي ﷺ: «من اجتهد وأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد» وحسبي أنّي اجتهدت وسبحان من «لا تأخذه سنة ولا نوم».

تلمسان في يوم: 01 شعبان 1440 هـ

الموافق لـ 16 أبريل 2019 م

بومعياذ فضيلة.



**مدخل**

**«الحياة الثقافية بالمغرب العربي»**

**القرن 6 – القرن 7 للهجرة**

بعد الفتح الإسلاميّ قسمت بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسامٍ، فكانت مملكة إفريقية هي المغرب الأدنى وقاعدتها القيروان، وقد سميّ أدنى لأنّه أقرب إلى بلاد المشرق ومركز الخلافة، والقسم الثاني المغرب الأوسط فقاعدته تلمسان أمّا القسم الأخير فكان المغرب الأقصى وقاعدته فاس بمراكش، والآن سنفصل في هذه الأقاليم الثلاثة بالتدرّج وهي على هذه الشاكلة:<sup>(1)</sup>

1- المغرب الأدنى: ونعني فيه إفريقية، أمّا حدوده فيمتد من طرابلس شرقاً إلى غاية مدينة بجاية، وتعد مدينة القيروان عاصمةً لهذا الإقليم، ومّا يستدل من المصادر أنّ الرومان أطلقوا اسم إفريقية على منطقة المغرب الأدنى التي تشمل حالياً تونس وبعض من الأجزاء الشرقية من الجزائر.

2- المغرب الأوسط: مهد العلم والعلماء، منبع التدفق الثقافي التي كانت خريطته فريسة للأعداء من كلّ الجهات فيمتد هذا الجزء من بجاية شرقاً حتى وادي ملوية وجبال تازا غرباً، فتعددت عاصمته بتعدد الدول الذي حكمته، ففي عصر الدولة الرستمية كانت العاصمة مدينة أشير، وفي عهد الدولة العبادية أو بني عبد الواد، غدت تلمسان هي العاصمة ثمّ أصبحت جزائر مزغنة حالياً (الجزائر).

3- المغرب الأقصى: يمتد من وادي ملوية وجبال تازا شرقاً، حتى المحيط الأطلسي غرباً، شأنها شأن المغرب الأوسط فعاصمتها تعددت بتعدد الدول التي حكمتها، ففي عهد الأدارسة كانت العاصمة فاس، ثم مراكش، وفي عهد المرابطين فالموحدين، ثمّ تنقلت العاصمة بعد ذلك بين فاس ومراكش إلى أن استقرت في مدينة الرباط إبان الاستعمار الفرنسي.<sup>(2)</sup>

يعتبر القيروان – عاصمة المغرب الأدنى – حيث كان مركزاً للنشاط السياسي والحضاريّ في عصر الولاة الأمويين فالعباسيين، ثمّ في عصور الدول المستقلّة، الأغالبة والفاطميّين وبني زيري

<sup>(1)</sup> ينظر: بخوش عبد المجيد، الأدارسة بتلمسان، فاس وقرطبة وفروع السلالة في بلاد العرب، د، ط، عاصمة الثقافة الإسلامية، الجزائر، 2011، ص. 14.

<sup>(2)</sup> ينظر: محمد مرتاض، أثر جهود علماء الحديث النبوي في تلمسان على المشرق الإسلامي، شقاء على الفقيه، مجلة الفضاء المغاربي إصدار مخبر الدراسات الأدبية والنقدية أعلامها في المغرب العربي، ع (6 – 7)، نوفمبر، 2011، ص. 64 – 66.

الصنهاجين، حيث شهدت نهضة علمية وقفرة لا مثيل لها فكانت أهم مركز إشعاع ثقافي بالمغرب منذ نشأتها.<sup>(1)</sup>

فحاضرة القيروان\* هي من الحواضر العلمية والأدبية في الغرب الإسلامي آنذاك، فقد عدت كعبة العلم في هذه المنطقة، حيث عرفت ازدهاراً كبيراً في جميع مجالاتها الثقافية، كما وجدنا مرحلة الحكم الصنهاجيّ فترة العصر الذهبيّ في العلم والأدب، لكن دون نسيان فترتي القرن السادس والسابع الهجريين تحولاً سريعاً ورهيباً في المجال الثقافيّ؛ فقد كانت كعبة الثقافة والتطور والازدهار فانتشرت العلوم والمعارف وترقت الآداب.<sup>(2)</sup>

عدت حاضرة القيروان مهد الثقافة الإسلامية، بحكم موقعها الاستراتيجي، وباعتبارها كذلك مقر الوالي، ممثل الخليفة الرسمية، لذلك كانت نسبة انتشار التعليم بها أكثر من بقية البلدان الأخرى، فمن أهم العوامل التي ساعدت على نشر الثقافة وازدهارها بحاضرة القيروان والحواضر الإفريقية الأخرى، ففي العهد الأغلبي نجد بل ما كان يتحلى به أمراء هذه الدولة تلك الثقافة المتشعبة بالعلوم، وكانوا كلهم شعراء حتى قيل في حقهم أو عنهم<sup>(3)</sup>: «لا يوجد واحد منهم، لم يقرض الشعر الجيد في سائر أغراضه، سواء منهم من تولى الحكم أو لم يتوله».<sup>(4)</sup>

عرفت القيروان قفزة علمية نشيطة ومزدهرة لم تسبق لها مثيلاً؛ إذ ما كاد العرب أن يستقروا في إفريقية، حتى شعروا بضرورة تعليم أبنائهم، وأبناء مسلمي البربر، فانتشرت المؤسسات التعليمية من كتاتيب ومساجد التي لعبت بدورها مكاناً مهماً باتساع حلقات الدراسة، فانتقل

(1) ينظر: محمد مرتاض، الفضاء المغاربي، المرجع السابق، ص. 66. لفظ فارسي أصله كاروان وهو من الألفاظ المعربة قد سُمّاه قيل إمريّ القيس لقوله: وَغَارَة ذات قَيروان ❁ كأن أسرابها الرعال

(2) ينظر: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الأدب القديم والحديث، ج 2، (د.ط)، تقديم وتصحيح محمد الميلي، مكتبة النهضة الجزائرية، 1932، ص. 124.

(3) ينظر: جودت عبد الكريم بوسيف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص. 110.

(4) محمد حسين العيدروس، المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط. 1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008، ص. 525.

إليها العرب بأعداد هائلة بسبب توفر الأمن والرخاء والطمأنينة، وتجلّى ذلك باهتمام أمرائها بالأساتذة والتلاميذ بتشجيعهم بكلّ ميادين الراحة والإمكانيات.<sup>(1)</sup>

القيروان منذ أن تأسست وبرز علمها في الساحة الفكرية أخذت تستقبل وتستقطب العديد من الشخصيات العلمية البارزة كالفقهاء والوعاظ؛ لأنّها كانت مركز الوالي، ولكن لم ينتصف القرن الثاني حتّى أخذت مدن الزاب تقلّد عاصمة إفريقية الكبرى في العلوم الدينية واللسانية والأدبية؛ وكان أهل العلم بالقيروان أنظارهم متجهة نحو الشرق في اقتباس ونهل حضارتها وفي تغذية عقولهم بثقافتها العلمية والفنية، فشدوا الرّحال إليها فبدؤوا ينهلون من حياض الثقافة الإسلامية سواء في الحجاز والشام والعراق ومصر، حتّى بلمح البصر تكوّن شيوخ وأساتذة بمختلف العلوم وأجادوها خير إجادة.<sup>(2)</sup>

ومّا يستدل على أنّ العلم انقطع وطمس بانقطاع العلماء منها، وكذلك انتقال كرسيّ العرش منها إلى المهدية، وبرز فصول العلماء والأدباء وتركوا بصمتهم على الساحة العلمية أمثال ابن النحويّ، والإمام المازوي، وكذلك أبو الصلت أمية بن عبد العزيز.<sup>(3)</sup>

لقد عرفت مملكة المغرب – فاس – قفزة علمية وحركة أدبية مزدهرة لا مثيل لها، فنجد جهابذة العلماء من مختلف أقطار البلاد المختلفة تنهل من رحيق العلم المتدفق عليها فالأمراء الذين احتلوا تلك المنطقة كانوا أنفسهم يقولون شعراً فعلى سبيل المثال هذا إدريس نفسه كان شاعراً عالماً بليغاً أدبياً عارفاً بكتاب الله و متمكناً بسننه ورواياته، كما كان مولاه راشد أيضاً عارفاً وعالماً بالعلوم العقلية و النقلية من علوم القرآن والحديث والتفسير وكذلك البلاغة، وأيضاً كان على

(1) ينظر: إبراهيم المسدي ومحمد الظريف، الأدب المغربي إشكاليات وتحليلات، ط.1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2006، ص.195.

(2) ينظر: محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، (د.ط)، تقدّم عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص.87.

(3) ينظر: محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج.2، ط.1، خرج. حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص.156.

دراية بالعلوم السياسية، كما أنّ إدريس الثاني لم يكن يقلّ عنهما شأنًا في العلم، فقد أورد الآبار نماذج من شعره، كما أنّه أشار إلى بلاغة القاسم وقدرته على قول الشعر، ومن الملاحظ أنّ الحركة العلمية والأدبية ازدادت وذلك بسبب الوافدين عليها من جلّ أقطار العالم كالأندلسيين والقرويين، دون أن ننسى المسجد الذي لعب دورًا بارزًا في ذلك – مسجد القرويين – بفاس.<sup>(1)</sup>

هاجر علماء الدولة الزيانية إلى فاس، وذلك بسبب اتسامها بميزاتها الخاصة منذ نشوبها قديمًا فقد أكسبها طابعها في الفقه المالكي، وعنايتهم المبحرة في علوم الدين منذ تأسيسهم لجامع القرويين الذي كان ملاذ العلماء.<sup>(2)</sup>

لقد استقطب أو رحبت مملكة فاس بالعديد من الفئات المهمة في المجال العلميّ، كما نجد أنّ إدريس الثاني استخدم أو أحضر 500 أسرة عربية من الأندلس والمشرق وإفريقية إلى موطنه.<sup>(3)</sup> جلّ أمراء الأدارسة الذين ولدوا بالمغرب كانت لديهم سليقة قول الشعر؛ فقد ذكر أنّ المولى إدريس نسبت إليه أبيات كثيرة، وكذلك نفس الشأن لابنه القاسم، كما يذكر في هذا الصدد الفكري شهرة ابن القاسم أحمد بالعلم وإتقانه والتفنن بخبايا معارفه.<sup>(4)</sup>

ومّا يلاحظ أنّه كانت صلات ثقافية بين فاس وتلمسان، فلقد كان رجال الأدب والفكر ينتقلون ويرتحلون من بلد لآخر دون أن تقيدهم الحواجز أو المسافات لذلك، فقد كانت الحدود مغلقة لكن كانوا يخترقونها. دون صعاب أو كللٍ لذلك، فوجدنا ملاذ عدّة لعلماء سواء كانوا

(1) ينظر: محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، المرجع السابق، ص.76.

(2) ينظر: مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية "الأحوال الاقتصادية والثقافية"، ج.2، (د.ط)، منشورات الحضارة، (د.ب.ن)، 2002، ص.218.

(3) ينظر: بخوش عبد المجيد، الأدارسة بتلمسان، فاس وقرطبة وفروع السلالة في بلاد العرب، (د.ط)، عاصمة الثقافة الإسلامية، (د.ب.ن)، 2011، ص.29.

(4) ينظر: إبراهيم المسدي ومحمد الطريف، الأدب المغربي إشكاليات وتحليلات، المرجع السابق، ص.195.

فقهاء أو لغويون أو متصوفون أو أدباء لبلاد تلمسان أو العكس - فاس - فمنهم؛ من دُفن ووري الثرى عليه في أماكن من بقاع تلمسان.<sup>(1)</sup>

كانت فترة المرابطين تزخر بالعلم والعلماء، فقد كان يوسف محباً للعلم والعلماء والفقهاء والصلحاء قرباً إليهم من مجالسه بكل الطرق المغربية من اعطائهم المراتب العليا وإغراقهم بالأموال الطائلة وكذلك كان مشرفاً على رعايتهم وتقريبهم؛ بيد أنه ما شهدته تلك الحقبة من تعصب ديني أثر على بعض العلوم فاضمحلت، وكذلك اهتمامهم ببعض العلوم جعلهم يعرفون عمّا سواه، فاتسم عصرهم بنسمة من الدراسات والعلوم لاقت رواجاً مزدهراً كعلوم القرآن والحديث والفقه والأدب فقد شهد العصر الآخر - العصر الموحيدي - ازدهاراً حضارياً فاكتست بذلك الحياة العلمية حلة أضفت خصوبة وإثراء على الجدول الفكري.<sup>(2)</sup>

ثمّ يستدل على ذلك أنّ قائدها الروحي ابن تومرت كان لا يقل شأناً في العلم، فكان منبجراً وعارفاً بمعامله، وقد شاطره أو شاركه معظم خلفائه في النهل من العلم والأخذ منها وكانت مشاركتهم نفيسة وثمينة في الإنتاج الفكري ونقده، وزاد تدفق العلم خلال القرنين السادس والسابع بفضل ولوج واحتكاك فئة من العلماء عليها والأخذ والامتلاء من خزائنها العلمية والمعرفية.<sup>(3)</sup>

إهتم الأمراء المرابطون في- فاس- بالحركة الثقافية، فاهتموا بالنشاط العلمي وقاموا بترويجه على أنّهم شجعوا العلماء والأدباء بالعطايا، كما أنّهم أعطوا نصيباً وافراً للحركة الفقهية.<sup>(4)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: محمد مرتاض، الصلات الثقافية بين تلمسان وفاس، إصدار مخبر الدراسات الأدبية والنقدية أعلامها في المغرب العربي، مجلة الفضاء المغربي، ع (6 - 7)، نوفمبر 2011، ص.11.

<sup>(2)</sup> ينظر: ديب صفية، التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين بين القرن 6 و 7 هـ الموافق لـ 12 - 13 م، (د.ط)، كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، ص.38.

<sup>(3)</sup> ينظر: ديب صفية، المرجع نفسه، ص.39.

<sup>(4)</sup> ينظر: راجح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ط.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص.70.

فلقد كان المذهب المالكي يحتل أعلى منزلة ودرجة في المغرب، وأصبح شغلهم الشاغل المسائل الفقهية أهم ما يعنى فيه العلماء دون نسيان جميع العلوم الأخرى.<sup>(1)</sup>

«شهدت مدينة بجاية نهضة علمية وفكرية، حيث قامت فيها معاهد علمية وزوايا ومساجد جامعة، ونبغ فيها علماء وفقهاء أجلاء، وأصبحت ملتقى لرجال العلم في المغرب والأندلس والمشرق».<sup>(2)</sup>

برز ضوء ساطع على الساحة الفكرية خلال القرن السابع الهجري كانت حاضرة بجاية التي تعدّ مركزاً من مراكز الإشعاع الثقافي على العالمين العربي والإسلامي وذلك بسبب توافرها على مجموعة من العوامل.<sup>(3)</sup>

علا شأن بجاية مدينة المغرب الإسلامي، وذلك بسبب تراميها أو بما عرفته لانتشار المؤسسات التعليمية خاصة منها الدينية؛ كما حافظت على أوجها وازدهارها في العهد الموحيدي (القرن السادس للهجرة الموافق الثاني عشر الميلادي) من نشاط ثقافي وفكري أكسبها حلة وعظم شأنها بين أوساط المجتمعات المغربية.<sup>(4)</sup>

بجاية لها موقع استراتيجي وهادف فهي تقع في الشمال الشرقي من المغرب الأوسط بين خطي طول 2° و 45° شرقاً وعرض 36° و 45° شمالاً.<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزباني، حياته وآثاره، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984، ص.38.

(2) مريم هاشمي، العلاقات الثقافية بين مدينتي تلمسان وبجاية خلال القرن 7 – 9 هـ، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2010، ص.27.

(3) ينظر: سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، (د.ط)، وزارة الثقافة، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2008، ص.24.

(4) ينظر: رحيم عائشة، المؤسسات العلمية في مدينة بجاية خلال القرون 7 – 10 هجرية، رسالة ماجستير في التاريخ السياسي والثقافي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2008، ص.32.

(5) ينظر: اسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص.183.

ازدهرت الحياة الثقافية خلال القرنين السادس والسابع بحاضرة بجاية، فكانت في القرن السادس مقراً لطائفة من علماء الفقه والكلام والتصوف والأدب وكذلك علوم اللغة: فمنهم: أبو علي المسيلي، أبو محمد عبد الحق الإشبيلي، أبو الطاهر عمارة بن يحيى وابنته عائشة، ابن محشرة الكاتب، الصوفي الزاهد أبو زكرياء الزواوي، والصوفي الكبير أبو مدين وأيضاً الشاعر القسنطيني حسن بن الفكون يسيطرون على هذا العصر؛ بأفكارهم النيرة، ويعلو من سمة العلم والأدب في القمم العليا وهذا الشاعر الأخير، حسن بن الفكون، ينشد أبياتٍ عن حاضرة بجاية منها<sup>(1)</sup>:

|                                                     |   |                                                          |
|-----------------------------------------------------|---|----------------------------------------------------------|
| «دَعِ الْعِرَاقَ وَبَغْدَادَ وَشَامَهُمَا           | ✽ | فَالنَّاصِرِيَّةُ مَا إِنْ مِثْلُهَا بَلَدٌ              |
| بَرْ وَبَحْرٌ وَمَوْجٌ لِلْعُيُونِ بِهِ             | ✽ | مَسَارِحٌ بِأَنْ عَنْهَا اَلْهَمُّ وَالنَّكَدُ           |
| حَيْثُ اَلْهَوَى وَالْهَوَاءُ اَلطَّلُقُ مُجْتَمِعٌ | ✽ | حَيْثُ اَلْغِنَى وَالْمُنَى وَالْعَيْشَةُ الرَّغْدُ      |
| فَحَيْثُمَا نَظَرْتُ رَاقَتْ وَكُلُّ نَوَا          | ✽ | حِي الدَّارِ لِلْفِكْرِ لِلْأَبْصَارِ تَتَقَدُّ          |
| يَا طَالِبًا وَصَفْهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَصْفِ       | ✽ | قُلْ: جَنَّةُ اَلْخُلْدِ فِيهَا اَلْأَهْلُ وَالْوَلَدُ». |

أكد الغبريني أن حاضرة بجاية احتوت على مكتبة كبيرة مملّنة بالكتب النفيسة وهذا حيثما رأى نسخة من أحسن النسخ للشاعرة عائشة\* الموجودة بالخزانة السلطانية ببجاية، وهذا ما قاله شاربونو أن أمير بجاية أعجب بعائشة مما جعله يحتفظ بكتبها القيّمة بتلك المكتبة.<sup>(3)</sup>

«شهدت بجاية نهضة علمية وفكرية هائلة خلال العصر الحمادي وكذلك العصور التي تلتها إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي وقامت بها مدارس ومعاهد علمية ذات شهرة ومساجد جامعة وزوايا صوفية، ونبغ بها علماء أجلاء وفقهاء ذوو الرأي في الشريعة الإسلامية، وشعراء

(1) ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة، تحقيق رابح بونار، ط2، دخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984، ص.21.

(2) سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، المرجع السابق، ص.05.

\*عائشة هي ابنة الفقيه أبو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسن ويكنى أبا الطاهر ومن مناقب الشاعرة عائشة كما ذكرها الغبريني في كتابه عنوان الدراية، إنها أدبية أريية، فصيحة لينة وكان لها خط. حسن ويذكر أنها كتبت بخط. يدها ثمانية عشر سطراً من كتاب الثعالي وفي خاتمة كل سطر منه قطعة من الشعر من نظم والدها رحمه الله ولها رحمها الله ظرائف أخيار ومستحسنات أشعار.

(3) ينظر: رحيم عائشة، المؤسسات العلمية في مدينة بجاية خلال القرون 7 – 10 هجرية، رسالة ماجستير، المرجع السابق، ص.51.



فحول وحكماء متضلعون في الفلسفة والحكمة وعلم التوحيد، ولغويون مبرزون، ومحدثون أمناء، ومدققون في الرواية، ومتصوفون في القمة، ورياضيون مبتكرون، وطلاب علم ومعرفة من كل أنحاء العالم الإسلامي، شرقة وغربه من الأندلس إلى بلاد فارس، ومن بلاد أوربا خاصة إيطاليا وجنوب فرنسا وبلاد اليونان وحسب رواية أبي حماد الصغير الحسين بن محمد المسيلي فإن بجاية كان بها تسعون (90) مفتيا أواخر القرنين 6هـ/12م؛ كما كان بها أطباء ورياضيون ومقرئون، وذكر ياقوت الحموي بأنه حتى العوام والعمي في بجاية كانوا يحفظون عن ظهر قلب كتب البخاري والموطأ والتلقين ويشرحونها للناس من ذاكرتهم وهي شهادة لها مغزاها ومدلولها»<sup>(1)</sup>.

تعدّ بجاية مهد العلم والعلماء وهذا ما وضحه ويّنه أبو عبد الله الشريف التلمساني أنه عندما دخل هذه المدينة وجد كل باب من أبوابها يتدفق علما ويسبح في محيطه المليء بالذهب، رغم الاضطرابات السياسية التي كانت موجودة بتلمسان آنذاك فإنّها لم تمنع قاطنيها من النهل من علمها والاستفادة منه؛ كما اهتم جلّ العلماء خلال القرنين السادس والسابع بمختلف العلوم منها: النقلية والعقلية حتى أصبحت بذلك – بجاية – أهم الحواضر العلمية.<sup>(2)</sup>

بالإضافة إلى كل هذا كانت بجاية تزخر بالعلماء والأدباء الجزائريين وأيضا نزلاء أندلسيين ساهموا في تنشيط وازدهار الجانب الثقافي.<sup>(3)</sup>

«يسمى الحسن الوزان ليون الإفريقي، في كتابه وصف إفريقيا، بالمدينة الكبيرة قائلاً: «ودورها كلها جميلة، وفيها جوامع كافية، ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم بالإضافة إلى زوايا المتصوفة وحمامات وفنادق ومارستانات...»<sup>(4)</sup> ومما يستنتج من كل هذا أن بجاية كانت حاضرة العمران والثقافة في مختلف نواحي الحياة».

(1) يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج.1، (د.ط)، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص.55.

(2) ينظر: مرم هاشمي، اسهام علماء بجاية في الحركة العلمية في المغرب الإسلامي خلال القرنين (7 - 8 هـ و 14 - 15 م)، دورية علمية عالمية محكمة، ع 21، سبتمبر 2013، ص.118 - ص.122.

(3) ينظر: محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص.95.

(4) بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدّهر، مراجعة تاريخه أحسن بومالي، (د.ط)، دار المعرفة، الجزائر، 2010، ص.10.

كانت بجاية مرفأً بشرق الجزائر، وقد لعبت دوراً كبيراً في جلب العلماء إليها<sup>(1)</sup>، ومما يلاحظ أنه شهدت قفزة في ميدان الثقافة وأصبحت مأوى وملتقى لرجال العلم والأدب على غرار عواصم العلوم الأخرى بالمشرق الإسلامي والأندلسي أمثال قرطبة واشبيلية والقيروان والقاهرة وبغداد، ويكفي العودة إلى كتاب «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» للعلامة الغبريني للتأكد مما وصلت إليه هذه المدينة من رقي في جميع النواحي وخاصة الثقافية، ويكفيها فخراً أنها احتضنت مفكر العصر ومفخرته العلامة ابن خلدون الذي ولي خط الكتابة والحجاية للأمير أبي عبد الله الحفصي<sup>(2)</sup>.

«تطور الأدب في هذا العصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين تطوراً كبيراً فنبت في الترسل الديواني والإخواني جماعة من الكتاب منهم: أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف الغساني الجزائري وكان له شعر رائع وكتب أدبي فائق وكان ينشئ البياعات والخطب وكذلك عبد الحق بن ربيع البجائي فكان يكتب على الطريقة الأدبية والشرعية، وكان يقول فيه ابن عميرة؛ أما الكتابة الأدبية فنحن فيها وإياه على نسق، وأما الشرعية فقد انفرد فيها أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي؛ وكان عالماً بالكتابتين الأدبية والشرعية وعليه كان المعتمد في الرسائل السلطانية والوثائق وكان فصيح اللسان بارع الخط<sup>(3)</sup>».

أما الشعراء فقد نبغ عدة في هذا المجال وقد انقسموا إلى شطرين شعراء متصوفة، وكانت مدرستهم مستقلة، أما بالنسبة للشرط الثاني فهم شعراء الأدب، فقد فسح مجالهم وكثروا حسب مختلف اتجاهاتهم الأدبية<sup>(4)</sup>.

(1) محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان " مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شف بني زيان "، حققه وعلق عليه محمود آغا بوعيايد، (د.ط)، موقم للنشر، الجزائر، 2011، ص.241.

(2) يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، المرجع السابق، ص.12.

(3) أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة، المصدر السابق، ص.43.

(4) ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة، المصدر السابق، ص.44.

فعدّت بجاية\* مركز هام لاستقطاب العلماء، والأخذ من مكاسبهم العلمية الفدّة، وجلّ هذا كان بفضل حكامها أو سلاطينها الذين كرموا علمائها وزادوهم مراتب.<sup>(1)</sup>

كان لبجاية خصوصية هامة، تتمثل في كونها نقطة عبور اجباري، وكانت هذه البقعة نقطة لقاءات، وهذا الحدث البارز هو الذي يلعب ويجذب إليه مختلف أمصار العلماء من العالم الإسلامي.<sup>(2)</sup>

يمكن القول بأنّ المراكز الثقافية الحضارية العلمية بالجزائر عموماً وبجاية بشكل أخصّ، شاركت بمجهود كبير في اثناء وبناء معالم الحضارة العربية الإسلامية وإرسائها بالقيم الفنية العلمية.<sup>(3)</sup>

علماء بجاية ساهموا بالنفس والنفيس في اثناء علومهم وتقديمها لطلابهم بشتى الطرق، فوجدناهم قدموا لهم مكتباتهم الخاصة لينهل الطلاب من تلك الكتب النادرة؛ فعلى سبيل المثال كان أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي (- 673هـ) يساعد الطلبة ويقدم لهم الكتب من مكتبته.<sup>(4)</sup>

كان دول المغرب العربي الثلاث: المرينية والعبد الوادية والحفصية يتألقون ويسطع نجمهم في الأفق العالي، فهنا نرى الحاضرة التلمسانية اعتمدت في نهج علمها على البحث والتفكير، دون التقيّد بالحفظ أو دون المساس بأي منهج آخر.<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: صابرة خطيف، فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، ط.1، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص.103.

\*تأسست مدينة بجاية في بداية النصف الثاني من القرنين الخامس الهجري ( 460 هـ ) والحادي عشر الميلادي ( 1027م)، على أيد الأمير الناصر علناس الحمادي، وكانت في الأصل ميناءً بحرياً قديماً يدعى " صلداي "، وعندما أسسها الناصر سمّاها الناصرية ولكن الناس غلبوا عليها اسم "ايقايت" البربري الذي كان اسماً لإحدى القبائل البربرية القاطنة هناك حسب رواية ابن خلدون وما تزال التسمية إلى غاية يومنا الحالي مستعملة عند ذوي الأصول الأمازيغية وهي التي أصبحت بالعربية هكذا "بجاية" في المصادر الغربية والنطق العربي.

(2) ينظر: سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز اشعاع للمعرفة، المرجع السابق، ص.05.

(3) ينظر: يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، المرجع السابق، ص.66.

(4) ينظر: اسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، المرجع السابق، ص.51.

(5) ينظر: طاهر توات، ابن خميس التلمساني، حياته وشعره، ط.1، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007، ص.38.

«وفي الوقت الذي تألق فيه نجم بجاية، برز نجم تلمسان كمركز حضاري آخر هام وهائل؛ فلقد كانت نواة هذه المدينة أقادير التي أسسها بنو يفرن فنشأ بها العلماء واشتهر الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية، فقد قال ابن خلدون: وتَبَارَى كبار الكتّاب والمؤرخين في وصفها وذكر مفاخرها أمثال: البكري والعبدي وابن خلدون وأخيه يحيى ولسان الدين بن الخطيب مما يدل على الشأن الكبير الذي وصلت إليه ومن مدح شاعرها الفحل ابن خميس فيها قوله:

تِلْمَسَانُ لَوْ أَنَّ الزَّمَانَ بِهَا يَسْخُو ❁ مَنِ النَّفْسُ لَا دَارَ سَلَامٍ وَلَا الْكَرْخُ»<sup>(1)</sup>

فعندما نرجع الكفة لما كانت تتمتع به تلمسان، فالميزة الأولى أو المرتبة الأولى ترجع إلى المكانة العلمية والثقافية التي كان يسمو بها سلاطينها وأمرائها، كما كانت الإرادة القوية على النهل من العلم سواء كان داخل البلاد أو خارجها؛ كما أننا لا نغفل على أنهم كانوا يشجعون العلماء بإدماجهم في ساحتهم الفكرية بتقديم العطايا والمراتب المرموقة داخل الحصن المتين لدى بني زيان.<sup>(2)</sup>

كان ملوك الدولة الزيانية خاصة في عهد أبي حمو الثاني وأحفاده كانوا يشجعون العلماء من كل أصقاع البلاد سواء أكان ذلك مادياً أم معنوياً، وقد شهد هذا العصر محور تقدم ورقي ثقافي باهر<sup>(3)</sup>؛ ومما يجدر الذكر في هذا الباب أنه أشاد المؤرخون بهذه المدينة علمياً وعمرانياً وثقافياً وحضارياً كما أنهم أنشدوها في أشعارهم.<sup>(4)</sup>

«قال ابن خميس التلمساني في هذه الوقفة: - ابن خميس شعره ونثره -:

(1) سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، المرجع السابق، ص.13، ص.14.

(2) ينظر: عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج.2، (د.ط)، موقع للنشر، (د.ب.ن)، 2011، ص.319.

(3) ينظر: عبد الله التنسي، تاريخ دولة الأدارسة: من كتاب نظم الدر والعقيان، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص.11.

(4) ينظر: عبد الحميد حاجيات، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط. (مجلة)، إصدار وزراء الاتصال والثقافة، ع 114، الجزائر، 1997، ص.21.

تلمسان جادتك السحاب الروائح ❁ وَأَرَسْتَ بَوَادِيكَ الرِّيحُ اللّوَايحُ»<sup>(1)</sup>.

تعتبر تلمسان الحاضرة العلمية للمغرب العربي ولؤلؤته المسومة بالعلم والازدهار النفيس بالمخطوطات التي طمست وغابت مع أسلافها.<sup>(2)</sup>

استفادت تلمسان – المغرب الأوسط – من بعض الرحلات من مختلف أمصار المغرب من التلاقح الفكري، فكان لها أثر وحظ وافر في صبغة تلك العلوم بطابع مختلف ومن التزاوج الثقافي والفكري المتشبع بالأجراس التي كانت خادمة للإنسانية وتطورها وبعث السرايا من خلال جهابذة هؤلاء الأعلام.<sup>(3)</sup>

عاشت تلمسان – عاصمة المغرب الأوسط – \* فترة ازدهار ورقي عبر عصورها المختلفة في ميادين الفكر والثقافة، خاصة خلال فترة المرابطين والموحدين، والزيانيين، فأنجبت العديد من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمؤرخين، والمحدثين وكذلك المفسرين، فقد استقطبت العديد من العلماء الوافدين عليها من كل أصقاع البلاد كبلاد الأندلس.<sup>(4)</sup>

«فوجدنا تلمسان كانت منبت ومحط أقطار العلماء والمفكرون وطلاب العلم والمعرفة، فكثير من هؤلاء العلماء الأفذاذ لم تكن تعقبهم الحدود والحواجز السياسية، ولم يكونوا يخافون أو يرهبون من الأمراء والملوك».<sup>(5)</sup>

(1) محمد مرتاض، الفضاء المغاربي، أثر جهود علماء الحديث النبوي في تلمسان على المشرق الإسلامي، المرجع السابق، ص.12.

(2) ينظر: صابرة خطيف، فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، المرجع السابق، ص.09.

(3) ينظر: بخوش عبد المجيد، فاس وقرطبة وفروع السلالة في بلاد العرب، المرجع السابق، ص.199.

\* قامت الدولة الزيانية في منطقة أطلق عليها المؤرخون بالمغرب الأوسط؛ وكانت هذه الدولة تحتل موقعاً جغرافياً ووسطاً بين الدولتين الحفصية والمرينية، وظلت حدودها تعرف المد والجزر، فقد كان مؤسسها يغمراسن مواظبا على مجالسة أهل العلم والصالح وزيارتهم والبحث عنهم واستقدامهم إلى بلده

(4) ينظر: فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، ط.1، دار السبيل، الجزائر، 2011، ص.167.

(5) يحي بوعزيز، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، (د.ط)، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007، ص.10.

استفاد أهل تلمسان من العلماء الوافدين عليهم من كلّ جلّ الأمصار فعلى سبيل المثال كما ذكر آنفاً نزع الأندلسيون بكثرة على البلاد؛ وذلك لاهتمام سلاطينها برتبة العلم والتعليم فقد شجعوهم كما قلنا ذلك - مادياً ومعنوياً - كما كان انطباع أمرائها جيّد ومبهر بسبب حفاوة الاستقبال والتكريم فوَلَدَ احتكاكاً فكرياً وعلمياً من كلّ البلدان.<sup>(1)</sup>

«فقد نالت فئة أصحاب الفكر تكريماً عظيماً من قبل السلاطين، وقد تولوا مسؤوليات كبرى في جهاز الدولة، فقد أخذوا حصّة الأسد من التعظيم كأمثال أبو بكر أي عبد الله بن داود بن الخطاب الغافقي، والفقيه عبدون الحباك».<sup>(2)</sup>

جلّ العلماء التلمسانيون كان لهم وقعهم الخاص والتميّز فقد شوهدوا في كافة أنحاء العالم وخصوصاً في أقاليم الصحراء الكبرى فتارةً كانوا فاتحين وتارةً أخرى مرتحلين، عابرين أو ربما المسلكين معاً، وكان التأثير والتأثر حاصل في ميدان الأدب، فقد زادت وتيرة الناحية الفكرية كمّاً وكيفاً ممّا زاد المحصول الثقافي إشراقاً ونوراً.<sup>(3)</sup>

كان علماء الدولة الزيانية لهم بصمتهم الخاصة بأرضهم؛ كما أنّهم تفسحوا في أرجاء البلاد المجاورة من البقاع الإسلامية أو المدن المسلمة.<sup>(4)</sup>

لقد جاب المتعلمون القاطنون بتلمسان للنهل من العلم والاستكثار منه بكل السبل والطرق، والتحاور مع كبار الشيوخ المتفنين في القراءات، دون نسيان أنّهم كانوا يرتحلون لطلب العلم عن المسائل المحمودة، وكذلك تبادل الآراء في مختلف العلوم النقلية والعقلية، فقد انتقلوا

<sup>(1)</sup> ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، الأدب العربي الجزائري عبر النصوص. أو ارشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج.1، ط.1، الصندوق الوطني، تلمسان، 2001، ص.186.

<sup>(2)</sup> خالد بلعربي، تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية، ط.1، دار الأملية، الجزائر، 2011، ص.273.

<sup>(3)</sup> ينظر: محمد مرتاض، الفضاء المغاربي أثر جهود علماء الحديث النبوي في تلمسان على المشرق الإسلامي، المرجع السابق، ص.40، ص.50.

<sup>(4)</sup> ينظر: مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، الأحوال الاقتصادية والثقافية، ج.2، (د.ط)، منشورات الحضارة، (د.ب.ن)، 2009، ص.195.

للتزود العلمي من الجامع الأزهر بالقاهرة، وكذلك إلى مراكز التعليم بمكة المكرمة والمدينة المنورة، كما أنّهم توجهوا إلى معاهد الشام وبغداد للتعلم في الفقه.<sup>(1)</sup>

كانت هناك صلات وطيدة تجمع بين البلدين - تونس وتلمسان - نظراً للموقع الجغرافي القريب من بلدها، كما لكون جامع الزيتونة كان وجهة لكثير من العلماء الجزائريين للدراسة والتنقيب وللتحصيل المعرفي، كما أنّه كانت تونس نقطة عبور إلى المشرق الإسلامي، وذلك من أجل أداء فريضة الحج، وعند العودة كانوا يستريحون بتلك المنطقة.<sup>(2)</sup>

كما نجد علماء تلمسان هاجروا كذلك إلى جارتهم المغرب - فاس - للأخذ من مناهلها العطرة خاصة بعد تأسيسهم لجامع القرويين.<sup>(3)</sup>

ومما يجدر الذكر في هذا الباب أنّه مدينة تلمسان كانت في بعض الأحيان تتدخل في بعض من شؤون فاس الخاصة.<sup>(4)</sup>

وخير ما نختم به هذا المنطلق أنّ هذه الحواضر العريقة والرفيعة التي كانت مركز إشعاعيّ وحضاريّ لجميع العلماء ومغنى لهم، وأنشدوا شعرائها أجمل الأشعار التي لا زالت شامخة وراسخة في الكتب القيّمة، فالقيروان منبع وراحة العلماء، وفاس مجمع جامع القرويين، وتلمسان مهد الصوفية، وبجاية معبر المذهب المالكي.

(1) ينظر: عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، المرجع السابق، ص.327.

(2) ينظر: يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، المرجع السابق، ص.163.

(3) ينظر: مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ص.218.

(4) ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، المصدر السابق، ص.240.

# الفصل الأول

## حاضرة القيروان وفاس



## أولاً: حاضرة القيروان:

المبحث الأول: الحياة التاريخية والجغرافية:

«عندما فتح العرب المسلمون بلاد المغرب العربي كانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام مشهورة كان لكل قسم حدوده الخاصة به فمنها: المغرب الأدنى والمغرب الأوسط وأخيراً المغرب الأقصى<sup>(1)</sup>؛ ولم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة من مدنه ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الإسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي مدة أربعة قرون كاملة؛ وحضارة القيروان التي وضع أسسها وأحكم دعائمها أمراء الدولة الأغلبية ودعم كيائها وأحسن رعايتها خلفاء الدولة الفاطمية، وبلغت أوج ازدهارها وتقدمها على أيدي الأمراء الصنهاجة»<sup>(2)</sup>؛ «فقد قامت مدينة القيروان في بلاد المغرب كما سمي بأفريقية التي كانت تعني ممتلكات قرطاية الفينيقية على الساحل التونسي أطلقها العرب الفاتحون على بلاد المغرب وبامتداد حركة الفتح الإسلامي إلى ساحل المحيط الذي انطلق فيه المسلمون، فأصبح لفظ أفريقية غير كافٍ لتحديد هذا المجال الواسع واتسعت لتشمل كل النطاق الذي يمتد من طرابلس إلى طنجة بل إلى سبتة\* ومع توسع الفتح الإسلامي؛ أخذ لفظ أفريقية يتقلص شيئاً فشيئاً؛ بينما أخذ لفظ المغرب في الظهور؛ وأصبح مدلول أفريقية يقتصر على الإقليم الذي يتوسطه القيروان»<sup>(3)</sup>.

فقد قال عقبة بن نافع: «إن أفريقية إذا دخلها إمام؛ أجابوا إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر»<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر: أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، ط.1، ط.2، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، تونس، دمشق، 1973 — 1989، ص.09.

(2) المرجع نفسه، ص.05.

\*سبتة: مدينة قديمة على بحر الزقاق من ناحية المغرب؛ وكان صاحبها أليان هو الذي أعان طارق بن زياد على دخول بلاد الأندلس.

(3) فطيمة مطهري، المظاهر الحضارية في القيروان وتيهرت إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين — دراسة مقارنة —، أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، 2014 — 2015، ص.12.

(4) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر محمد الناصري، ج.1، (د.ط)، دار النضال، (د.ب.ن)، 1954، ص.78.

فبعد ان انتصر المسلمون على الروم في موقعة سببلة عام 67هـ/648م بدأت ولاية افريقية في الظهور والميلاد، عندما أنشأ عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان، وكذلك مسجدتها الجامع فيما بين سنتي 50-55هـ/670-675 م، وقامت ولاية افريقية الإسلامية ولاية مستقلة بنفسها؛ ولها وليها وإدارتها المستقلة والمتحررة من قيود الإدارة لمصر،<sup>(1)</sup> وكان لاختيار عقبة بن نافع مكان القيروان لتحقيق هدفين ديني وعسكري؛ فقد توجهت أنظاره نحو مكانٍ بعيدٍ عن الساحل حتى لا تتعرض المدينة لأهوال وأساطيل البيزنطيين.<sup>(2)</sup>

«وهكذا اختار عقبة بن نافع موقع القيروان، وهو يبعد عن تونس العاصمة 156 كلم جنوباً؛ وقد حدد الأصطخري المسافة بين القيروان وتونس بثلاث مراحل؛ وبينها وبين مصر بستين مرحلة؛ وكان المكان الذي اختاره عقبة لبناء القيروان غيضة كثيرة الأشجار؛ وكان يعج بالحيوانات المفترسة والحيات؛ وقد قطع المسلمون الأشجار؛ ومهدوا الأرض وبعد فراغهم من ذلك شرع عقبة يخطط للمدينة ويحدد معالمها؛ وخاصةً موقع المسجد الجامع ثم دار الإمارة ثم المساكن والدور التي سيقم فيها الجند وأسرههم وقد استعمل لتشييدها قراميد الآجر لوجود الطين الملائم على عين المكان، ولخلو ضواحي العاصمة من الحجارة»<sup>(3)</sup>

«وقد أعجب رواة المغرب من موقعها وكان محط اهتمامهم، فقد أشار أحد رواة الدباغ الشيخ الصالح الفقيه أبو مهدي عيسى الصُميلي زعم أنّه استبان أنّ القيروان رابعة ثلاثة مكة والمدينة وبيت المقدس؛ كما أثنى كودل على عبقرية عقبة بن نافع وتوفيقه في اختيار المكان بقوله: وكان اختيار المكان موفقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أنّ ولاية المغرب ومن خلفهم من الحكام

(1) ينظر: رقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عرب، (د.ط)، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، 1994، ص.10.

(2) ينظر: سحر عبد المجيد الحالي، القيروان ودورها العسكري والعلمي، م 40، ع 2، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، 2013، ص.252.

(3) المرجع نفسه، ص.253.

المستقلين أقاموا بها زمناً طويلاً، ولم ينتقلوا عنها إلا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة...»<sup>(1)</sup>.

«قال ياقوت الحموي: القيروان معرب وهو الفارسية كاروان؛ وهذه مدينة عظيمة بافريقية غيرت دهرًا؛ وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب بافريقية وقال اليعقوبي: مدينة القيروان التي اختطها عقبة بن نافع الفهري سنة ستين من خلافة معاوية؛ وقال الإدريسي: أم الأمصار وقاعدة الأقطار؛ وكانت أعظم مدن الغرب قطراً وأكثرها بشراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وأتقنها بناء؛ وقال البكري كانت موضع القيروان وادياً كثير الأشجار غيضة مأوى للوحوش والحيتان بينما قال المؤرخ NEVILLE BAROUR كانت القيروان أول عاصمة جديدة أنشئت في بلاد المغرب»<sup>(2)</sup>.

«القيروان لفظة فارسية دخلت إلى العربية وتعني أيضاً استراحة القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب»<sup>(3)</sup>؛ كما أنهم قالوا أنها موضع اجتماع الجيش وقيل أنها محط أثقال الجيش<sup>(4)</sup>. «تعدّ القيروان درة المغرب الإسلامي؛ وغرب الغرب العربي عبر قرنين من الزمان بدءاً من منتصف القرن الرابع الهجري حيث انتقل الفاطميون إلى مصر عام 361هـ/971م لتؤول القيادة لبني زيري وحتى منتصف القرن السادس الهجري حيث فتح الموحدون للمهدية وضم افريقية إلى دولتهم سنة 555هـ/1160م»<sup>(5)</sup>.

«القيروان لغة قافلة الجند؛ ويبدو لمعناها دلالة في اصطلاحها وافتتاحها، فقد كانت قاعدة صراع مغربي منذ أن وطأها جنود الرحمن الفاتحون للمغرب؛ وركيزة كفاح عرب منذ أن شملتها

(1) لمياء عز الدين الصباغ، القيروان ملتقى الأندلسيين، م 18، ع 04، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، 2011، ص.173.

(2) رفيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، مرجع سابق، ص.10.

(3) أحمد سويلم، القيروان، ع 05، سلسلة مدائن اسلامية، سفير للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت.ن)، ص.15.

(4) ينظر: الدبّاغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج.1، (د.ط)، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت.ن)، ص.08.

(5) لطيفة البسام، الحياة العلمية في افريقية في عصر بني زيري، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، (فهد الوطنية)، الرياض، 2001،

الحضارة الإسلامية الإفريقية التي تتقد جذوتها حيناً وتخبو حيناً؛ وحين تواجه إفريقية لدى الجغرافيين اختلافاً بيناً في ترسم حدودها في كل عصر فمثلاً في إفريقية الزيرية فهي المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً والمعروفة حالياً بالإقليم التونسي مع منطقة قسنطينة الجزائرية غرباً ويحدّها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب بلاد الجريد»<sup>(1)</sup>.

«فمع توسع الفتح الإسلامي أخذ لفظ إفريقية يتقلص شيئاً فشيئاً؛ بينما أخذ لفظ المغرب في الظهور؛ وأصبح مدلول إفريقية يقتصر على الإقليم الذي يتوسطه القيروان»<sup>(2)</sup>.  
إنّ القيروان تعدّ عاصمة إفريقية كما قال أحد المؤرخين ومفخرة المغرب العربي ودرته الناصعة والبهيجة<sup>(3)</sup>.

«إفريقية بكسر الهمزة وقيل بفتحها، والنسبة إليها إفريقية»<sup>(4)</sup>، وقد اختلف الجغرافيون في تحديد هذه البلاد فقد ذهب البكري إلى أنّها الأرض الواقعة بين برقة وطنجة فهي تشمل المغرب والجزائر وتونس والجزء الأكبر من ليبيا»<sup>(5)</sup>، وقيل أنّها ما بين برقة وتاهرت أي الجزائر وتونس والجزء الأكبر من ليبيا، وقيل أيضاً حدّها من طرابلس إلى بجاية»<sup>(6)</sup>، فهي إذن تشمل تونس وجزءاً من الجزائر وجزءاً من ليبيا»<sup>(7)</sup>، وإنّ إفريقية من بلاد المغرب وعند أهل العلم أن أطلق اسم إفريقية فإنّما يعنون به بلد القيروان؛ وأمّا أهل السير فيجعلونه اقليماً مستقلاً وله حدود ولهم اختلاف فيه وإفريقية أوسط بلاد المغرب؛ وقيل إنّما سميت بإفريقية لأنّها فرقت بين المشرق والمغرب؛ وقيل أيضاً سميت إفريقية باسم أهلها وهم الأفارقة والأفارقة من ولد فاروق بن مصراتيم وقال آخرون

(1) لطيفة البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري، مرجع سابق، ص. 16.

(2) فطيمة مطهري، المظاهر الحضارية في القيروان وتيهرت، مرجع سابق، ص. 12.

(3) ينظر: حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ط. 1، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1411، ص. 31.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، (د. ط)، دار صادر، بيروت، 1955، ص. 228.

(5) عز الدين الأثير الجوزي، الباب في تهذيب الأنساب، ج. 1، (د. ط)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د. ت. ن، ص. 97.

(6) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج. 1، المصدر السابق، ص. 228.

(7) حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص. 31.

الأفارقة من ذرية قوط بن حام بن نوح، وقيل إنّ افريقش بن ابرهة بم ذي القرنين لما غزا بلاد المغرب ودوخ البلاد بني المدينة سميت باسمه فقالوا افريقية وسموا أهلها الأفارقة».<sup>(1)</sup>

«ذكره المقرئ وقيل اسمه افريقين بن قيس بن صفى الحميري افتتحها وقتل ملكها واسمه جرجير فسميت به ويومئذ قال لأهلها ما أكثر بربرتكم فسموا بربر قال ابن خلكان؛ وقيل كان اسمه افريقس بالسين المهملة فعربتها العرب بالشين المعجمية؛ ونقل ابن الشباط عن بعضهم أنّه كان يقول اسمها ابريقية من البريق؛ فإنّ افريقية كثيرة السحب في غالب السنة؛ فقد قال بعضهم تنشأ السحابة بالقيروان وتمطر بصقلية».<sup>(2)</sup>

تعدّ افريقية اقليم حسن الذوق وكثير المحاسن الجميلة، وفيه عدّة مدن عظيمة، ومزارع كريمة، ومياه عذبة، وفواكه على مختلف أجناسها اليابسة والرطبة، ومبانيها الضخمة، ومعادنها المتألّفة، وعدّة مسارح معدّة للعيان، وبها آثار جمّة تستهوي الزائر، وتستقطب أنفاس الأدباء والشعراء.<sup>(3)</sup>

«فإنّ حدودها من يسب بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحر المحيط من ناحية المغرب؛ وحدّ افريقية بالطول من برقة إلى طنجة وعرضها من البحر الشامي إلى الرمال التي أول بلاد السودان».<sup>(4)</sup> «فالقيروان في اللغة القافلة هي فارسية معربة وهذا بفتح القاف والراء».<sup>(5)</sup>

«فقد تكلم عنها العرب قديماً، كما قال امرئ القيس:

وَتَمَارَهُ ذَاتَ الْقَيَّرَوَانُ ❀ كَأَنَّ أَسْرَابَهَا الرِّعَالُ

<sup>(1)</sup> محمد بن أبي القاسم الرعيبي القيرواني المعروف بابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ط.1، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحبة، (د.ت.ن)، 1286، ص.15، ص.16.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص.16.

<sup>(3)</sup> محمد بن أبي القاسم الرعيبي القيرواني المعروف بابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس، مصدر سابق، ص.17.

<sup>(4)</sup> المصدر نفسه، ص.16.

<sup>(5)</sup> محي الدين سليمان إمام مدبلي، ابن أبي زيد القيرواني، عقيدته وموقفه من الفرق ومقاومته للبدع، رسالة دكتوراه في العقيدة، م 4، جامعة أم القرى، السعودية، 2001، ص.08.

كما يقال أنّ القافلة نزلت بذلك المكان ثمّ بنيت المدينة في موضعها فسميت باسمها وهو اسم للجيش أيضاً<sup>(1)</sup>.

«القيروان بفتح الراء الجيش؛ وبالضم القافلة؛ ذكره ابن خلكان وذكر ابن ناجي أنّ معانيه موضع اجتماع الناس والجيش؛ ومحط أثقال الجيش أو الجيش نفسه؛ ذكره ابن ناجي عن عقبة بن نافع؛ ومما اتفق رأيه ورأي أصحابه ومن معه على ذلك؛ وقالوا نريد أن تقرّبها من البحر ليجتمع لأهلها الجهاد والرباط فقال لهم عقبة- رضي الله عنه- إنّي أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية؛ فيهلكها صاحب البحر لكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا تقتصر فيه الصلاة فأهلها مرابطون<sup>(2)</sup>». فالقيروان موقعها الآن في الجمهورية التونسية في جنوب غرب العاصمة على بعد 180 كلم<sup>(3)</sup>.

قديماً حدّها البكري فقال: «ومدينة القيروان في بسات من الأرض مديد من الجنوب منها بحر تونس؛ وفي الشرق بحر سوسة؛ والمهدية، وفي القبلة بحر صفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقي بينها وبينه مسيرة يوم؛ وبينها وبين الجليل مسيرة يوم؛ وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم؛ وشرقيها سبخة ملح عظيم<sup>(4)</sup>».

عرفت مدينة القيروان بمدينة عقبة، فقد اختارها عن دونها من الحواضر الأخرى؛ فعين مكاناً مهماً وبارزاً عن أعين المتسلطين بها، فكانت بعيداً عن الشاطئ التي يترقبها البيزنطيون؛ وكذلك بعيداً عن الجبال التي يتقنصها البربر؛ وكان هدف عقبة من كلّ هذا انشاء قاعدة حربية ومخزناً لمؤنه؛ كما أرادها معسكراً لجنده في آخر المطاف<sup>(5)</sup>.

(1) محي الدين سليمان إمام مدبلي، ابن أبي زيد القيرواني، عقيدته وموقفه من الفرق ومقاومته للبدع، مرجع سابق، ص. 08.

(2) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، (د.ط)، المكتبة العتيقة، تونس، د.ت.ن، ص. 09.

(3) ينظر: محي الدين سليمان إمام مدبلي، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص. 23.

(4) حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص. 44.

(5) ينظر: أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، (د.ط)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص. 22.

«أطلق المسلمون على المغرب الأدنى اسم افريقية وكان يشمل المنطقة الممتدة من طرابلس وحتى مدينة بجاية وكانت تشمل تونس الحالية مع جزء من ولاية طرابلس وقاعدتها القيروان، ثم مدينة تونس فيما بعد»<sup>(1)</sup>.

كلّ تلك الحدود الجغرافية التي ذكرناها إلا أنّ الجغرافيون اختلفوا في تحديد حدودها فهذا ابن حوقل قال: «جعل افريقية المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً وحتى مدينة وهران غرباً»<sup>(2)</sup>. وقد جعل البكري حدود افريقية أنّها من «برقة شرقاً إلى طنجة غرباً؛ وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان»<sup>(3)</sup>.

أمّا المقدسي فقد جعلها من «برقة شرقاً حتى مدينة تاهرت غرباً»<sup>(4)</sup>.

وأبو الحسن علي بن سعيد بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المتوفى عام 685هـ/1274م فقال: «إنّ أول سلطنة افريقية من الغرب مدينة بونه، وتمتد شرقاً حتى مسراته»<sup>(5)</sup>. وأمّا نظرة الإدريسي لحدود افريقية فقال: «أنّ حدّ افريقية شرقاً هو طرابلس وحدّها من الغرب قسنطينة؛ ولا دخل بجاية إلى افريقية، كما أنّه عدّ المناطق الممتدة من بجاية إلى وهران اقليماً منفصلاً»<sup>(6)</sup>.

(1) جميلة مطيبي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص. منذ قيامها سنة 621 هـ وحتى سنة 893 هـ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2000، ص. 02.

(2) ابن حوقل، صورة الأرض، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص. 64.

(3) البكري (أبو عبيد)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، (د.ط)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت.ن)، ص. 21.

(4) المقدسي، (أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (د.ط)، مكتبة خياط، بيروت، (د.ت.ن)، ص. 216.

(5) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط. 1، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970، ص. 146.

(6) الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني المتوفى 560 هـ / 1166 م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج. 1، ط. 1، عالم الكتب، بيروت، 1989، ص. 217، ص. 309.

«كان إقليم تونس يسمى افريقية وبه كانت في القديم مدينة قرطاجة؛ ويحده من جهة الغرب إقليم قسنطينة؛ ومن جهة الشرق إقليم طرابلس؛ ومن الجنوب جبال الأطلس وإقليم الزاب وجزء من نوميديا وليبيا الشرقية أمّا من الشمال فيحدّه البحر المتوسط»<sup>(1)</sup>.

كما أطلق عليها بعض التسميات منها نذكر: اسم المغرب الأدنى لموقعها الجغرافي؛ كذلك سميت بافريقية والذي يشمل جمهورية تونس الحالية وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر،<sup>(2)</sup> كان لموقع تونس الجغرافي وبروزها في البحر المتوسط إضافة إلى طرقها الساحلية الفاصلة والتي تربط جلّ أقطار المغرب بالشرق أهمية بالغة وأثر كبير في أن تظل تونس منذ عصورها القديمة وجهة التقاء وتقابل؛ وقد بلغت مساحة تونس قرابة 164,15 ألف كلم ويزيد سكانها الذي بلغ مثلاً عام 2000 تقريباً 11,450 مليون نسمة.<sup>(3)</sup>

«اختلفت التسميات التي أطلقت على المنطقة التي قامت عليها الدولة الحفصية ففي العصور القديمة كان يطلق عليها افريقية؛ وهذه العبارة متولّدة عن اللفظ اللاتيني أفريكا؛ أمّا في العصر الوسيط فإنّ المنطقة التي تطلق عليها المصادر العربية اسم افريقية وفي العصر الحاضر نسميها أحياناً بلاد البربر الشرقية تطابق بوجه عام البلاد التونسية الحالية بإضافة إلى البلاد الطرابلسية في الجنوب ومنطقة قسنطينة في الجهة الغربية»<sup>(4)</sup>.

للقيروان خمسة أسماء منها: ترشيش وتونس، كما قيل تانس والخضراء والدرجة العليا؛ فالأولى - ترشيش - كان اسمها في القديم والثانية حادث لها وكذلك اشتقاقه من لفظة تانس؛ والخضراء لأنّها بها حضرة السلاطين من بني حفص؛ وكذلك الخضراء لكثرة زيتونها؛ والزيتون

(1) مارسول كونجال، افريقيا، ترجمة محمد حجي محمد زبير، ج.3، (د.ط)، دار المعرفة، الرباط، 1989، ص.16.

(2) ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، (د.ط)، مؤسسة الثقافة الجامعة، الاسكندرية، 2001، ص.12.

(3) ينظر: أحمد اسماعيل راشد، تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر، (د.ط)، دار النهضة العربية، لبنان،

2004، ص.87.

(4) روبايرنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج.1، (د.ط)، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1988، ص.29.



أخضر اللون وهو الشجرة المباركة؛ والأخيرة - الدرجة العليا - قيل لأنّ بها الجامع الأعظم وقيل لارتفاعها عن غيرها من الأمصار.<sup>(1)</sup>

لكن في العصر الحديث أخذت منحني آخر فقد أصبح يعرف بالمغرب الأدنى وكانت عاصمته القيروان وكان كذلك أيام حكم الأغالبة، ثم سميت المهديّة في فترة الفاطميين، ثم في مدينة تونس منذ عهد الحفصيين إلى غاية يومنا الحالي.<sup>(2)</sup>

فالمغرب الأدنى كان يسمى إفريقية ويمتد من طرابلس\* شرقاً إلى ناحية بجاية غرباً؛ وفتح بعض أجزائه على يد عقبة بن نافع الذي وضع اللينات الأولى للقيروان وخطط بنائها عام 50 - 55 للهجرة الموافق 668 - 672 ميلادية؛ وأكمل بذور الفتح للقيروان بمحيي زهير بن قيس البلوي وكذلك حسان بن النعمان الذي تمكّن من فرض هيمنته ووضع الأساسيات للوجود الإسلاميّ وذلك عند انتصاره على الكاهنة عام 84 للهجرة/الموافق لـ 699 ميلادية.<sup>(3)</sup>

إنّ تسمية القيروان معرّبة عن كلمة كاروان الفارسية والتي تعني المعسكر.<sup>(4)</sup>

أشاد كثير من المؤرخين وأسهبوا في الحديث عنها "القيروان": قال الدباغ\* في كتابه معالم الإيمان في كتابه معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: «أمّا القيروان فهي البلد الأعظم والمصر المخصوص في الشرق الأقدم قاعدة الاسلام والمسلمين بالمغرب، وقطره المأخوذ الذي أصبح لسان الدهر عن فضله يُعرب، وبشرفه يغرب، قرارة الدين والإيمان والأرض المطهرة من رحبين الكافرين وعبادة الأوتان والبقعة التي تخيروها مقر للإسلام والمسلمين، مصرا مؤسس على التقوى إلى يوم الدين».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، (د.ط)، مطبعة الدولة التونسية، (د.ب.ن)، 1286، ص.11.

(2) ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص.12.

\*طرابلس، مدينة من مدن إفريقية تقع في أقصى شرقها على ساحل البحر؛ وتعني باليونانية المدن الثلاث وهي آياس - موضع مدينة طرابلس الحالية - ولذة في شرقها وصيرة (تسيرة) الحالية في غربها.

(3) ينظر: رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص.17.

(4) ينظر: محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص.09.

(5) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (الدباغ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مصدر سابق، ص.6، ص.7.

قال ابن ناجي\*: «إنَّ عقبة بن نافع- رحمه الله- حين أجمع أهل القيروان عليها كان معه في عسكره خمسة وعشرون من الصحابة وأتته جمعهم مع وجوه عسكره وكبار أصحابه فطاف بهم حول القيروان وأقبل يدعو لها هو وأصحابه»؛<sup>(1)</sup> وكانوا يقولون في دعائهم: «اللهم املأها علماً وفقهاً وعمرها بالمطيعين لك والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلاً لمن كفر بك؛ وأعز بها الإسلام، وأمنها من جبابرة الأرض».<sup>(2)</sup>

فهذا الشاعر أبو القاسم الفزاري أشاد بها فقال:

|                                                    |   |                                       |
|----------------------------------------------------|---|---------------------------------------|
| عَدِيلٌ حِينَ يَفْتَخِرُ الْفَخُورُ                | ❁ | «فَهَلْ لِلْقَيْرَوَانِ وَسَاكِينَهَا |
| وَإِسْلَامٌ وَمَعْرُوفٌ وَخَيْرٌ                   | ❁ | بِلَادُ حَشَوُهَا عِلْمٌ وَفَقْهٌ     |
| كَانَ صِفَاخٌ أَوْجُهُهُمْ بُدُورُ» <sup>(3)</sup> | ❁ | بَنَاهَا كُلُّ بَدْرِي كَرِيمٍ        |

«النسبة إليها قيروى وقيرواني وقد تلتبس النسبة الأولى على بعض أهل الشرق بتسمية جامع القرويين في مدينة فاس بالمغرب الأقصى؛ ولكن في الأصل يرجع اسم هذه التسمية إلى مدينة القيروان؛ فإن نحو خمسمائة عائلة من أهل القيروان قد رحلوا منها إلى المغرب الأقصى؛ ففي عهد ادريس الثاني 187-213 للهجرة؛ وسكنوا في منطقة سميت عدوة القرويين التي كانت تمثل نصف

\* هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأسدي الأنصاري وكان مشهوراً باسم الدباغ؛ ولد عام 605 للهجرة؛ أخذ العلم من والده وعن عبد الله الحنفي؛ وعثمان بن شقرو أبي العباس البطري؛ وبلغ عدد شيوخه أكثر من ثمانين شيخاً؛ وقد نعتة العدري بالفقيه المحدث المتقن المتفنن، وافته المنية عام 689 للهجرة.

(1) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (الدباغ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مصدر سابق، ص. 08.  
\* أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني، ولد بالقيروان؛ وقرأ القرآن على الفقيه أبي محمد عبد السلام الصفاقصي وعلى عمه خليفة بن ناجي أخذ العلم عن الشيبلي والبرزالي ومحمد بن قليل ومحمد بن فندار؛ وابن قيراط، وقد ألف كتباً عديدة؛ وقد شرح رسالة بن أبي زيد القيرواني، وأضاف أيضاً شرحاً تهذيب المدونة لأبي سعيد البرادعي، توفي سنة 839 للهجرة.

(2) المصدر نفسه، ص. 09.

(3) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط. 1، دار المنار، القاهرة، 1988، ص. 07.

مدينة فاس ويقابلها عدوة الأندلسيين وكان ضمن الوافدين أميرة فاضلة من آل عقبة بن نافع الفهري قامت ببناء جامع مدينة فاس». (1)

وقد تمّ بناء القيروان سنة 55 للهجرة الموافق 674 ميلادي؛ فعمرت وكان محيطها كما قال ابن الأثير: «ثلاثة آلاف باع وستمئة باع»؛ (2) وقد قال أيضاً ابن عذارى أنها: «ثلاثة عشر ألف ذراع وستمئة ذراع». (3)

كما وصفها الإدريسي فقال: «أم أمصار وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً؛ وأتقنها بناءً، وأنفسها همماً؛ وأربحها تجارة، وأكثرها جباية، وأتقنها سلعة؛ وأنماها ربجاً، والغالب على فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد، والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم، والتفنن في محاسن العلم والميل إلى القصد». (4)

ومما ذكر في فضل افريقية «فقد روى عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة؛ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصاية من أمتي بالمغرب يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة، لا يضرهم من خالفهم حتى يروا يوماً غمماً». (5)

«عن أبي عبد الرحمن الحُبليّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ينقطع الجهاد من البلدان؛ فلا يبقى إلا موضع من المغرب يُقال له افريقية؛ فبينما القوم بإزاء عدوهم، نظروا إلى الجبال قد سيرت فيخرون لله سجداً؛ فلا يترعهم أخلاقهم - يعني ثيابهم - إلا خدّمهم في الجنة». (6)

(1) محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص. 10.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج. 3، (د. ط)، المكتبة الأزهرية، القاهرة، 1301 هـ، ص. 234.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وبروفنسال، ج. 1، ط. 2، دار الثقافة، بيروت، 1982، ص. 21.

(4) سحر عبد المجيد المجالي، القيروان ودورها العسكري والعلمي، م 40، ع 2، دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، 2013، ص. 253.

(5) عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي، الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلّق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التبوخي، تصحيح وتعليق ابراهيم شبوح، ج. 1، (د. ط)، مكتبة الخانجي، مصر، 1968، ص. 04.

(6) المصدر نفسه، ص. 05.

«وعن أبي عمر رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بساحل افريقية بابٌ من أبواب الجنة يقال له المُسْتَبِير؛ من دخله فبرحه الله، ومن خرج منه فبعفو الله»<sup>(1)</sup>

- ذكرُ القيروان وما ورد فيها: «أما القيروان فهي البلد الأعظم، والمصر المخصوص بالشرق الأقدم، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب، وقطرهم الأفخر الذي أصبح لسان الدهر عن فضله يُعرب، وبشرفه يُعرب، قرارة الدين والإيمان، والأرض المطهّرة من رجس الكافرين وعبادة الأوتان، قبلتها أوّل قبة رُسمت في البلاد المغربية، وسجد لله فيها سرّاً وعلانية... وقد كان الشيخ الصالح الفقيه، أبو مَهْدَى عيسى الصّميلي ابن مرزوق، سافر إلى المشرق، وجاور وحجّ إحدى عشرة حجةً، فبعث إلى أصحابه بالقيروان وهو يقول: ما زلت أبحث في الآثار والأخبار، إلى أن وجدت أن القيروان رابعة الثلاثة، المدينة، ومكة، وبيت المقدس، والقيروان»<sup>(2)</sup>.

«فقد دعا للقيروان كبار الصحابة ممّن شهد بدرًا وبايع بيعة الرضوان؛ وحين جمع عقبة بن نافع أهل القيروان عليها، كان معه في عسكره خمسة وعشرون من الصحابة، وأتته جمعهم مع وجود عسكره وكبار أصحابه، فطاف بهم حول القيروان، وأقبل يدعو لها هو وأصحابه»<sup>(3)</sup>.

قال أبو بكر المالكي: «إنّ شعر رسول الله ﷺ بموضع من المواضع إلّا بالقيروان، وذلك أنّ رسول الله ﷺ لما خلق رأسه في حجة الوداع؛ أخذ من شعره أبو زَمْعَةَ الْبَلَوِيّ - رضي الله عنه - وجعله في قلنسوته؛ فلمّا مات بالقيروان دفن بها معه»<sup>(4)</sup>.

كما روى أنّ بعض الصالحين رأى في منامه النبي ﷺ وهو مقبل إلى القيروان على فرس أبيض وعليه ثياب خضر وخلفه عدد من الناس لا يحصون على خيول، فانتهى إلى باب أبي الربيع، أحد أبواب القيروان، فوقف هناك فقال هذه القيروان»<sup>(5)</sup>.

(1) المصدر السابق، ص. 05.

(2) عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي، الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المصدر السابق، ص. 06، ص. 07.

(3) المصدر نفسه، ص. 07.

(4) المصدر نفسه، ص. 13.

(5) المصدر نفسه، ج. 3، ص. 14.

وهذا الفقيه الأديب الفاضل أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني ويُعرف بالحلواني

قال أبياتاً في فضائل القيروان:

- |   |                                                  |   |                                                  |
|---|--------------------------------------------------|---|--------------------------------------------------|
| ❁ | «لله منزلة بالقيروان مَحَا                       | ❁ | آيَاتُهَا الْبَيِّنُ لَا الْإِيَّامُ وَالْقِدَمُ |
| ❁ | شَقَقْتُ جَيْبَ شَبَابِي بَعْدَ فُرْقَتِهَا      | ❁ | حُزْنًا عَلَيْهَا وَلَا شَيْبٌ وَلَا هَرَمٌ      |
| ❁ | إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ عَنْهَا شَمَلَنَا قَلْنَا | ❁ | بصاحب حمص إبراهيم * مُعْتَصِمٌ» <sup>(1)</sup>   |

وقال ابن شرف القيرواني:

- |   |                                                 |   |                                                           |
|---|-------------------------------------------------|---|-----------------------------------------------------------|
| ❁ | «يَا قَيْرَوَانُ وَدَدْتُ أَنِّي طَائِرُ        | ❁ | فَأَرَاكَ رُؤْيَا بَاحِثٍ مُتَأَمِّلٍ                     |
| ❁ | لَا كَثْرَةَ الْإِحْسَانِ تَنْسَى حَسْرَتِي     | ❁ | هَيْهَاتَ نَذْهَبُ عِلَّةً بَتَعْلَلِ                     |
| ❁ | يَا لَوْ شَهِدْتُ إِذَا رَأَيْتُكَ فِي الْكَرَى | ❁ | كَيْفَ ارْتَجَاعُ صِبَايَ بَعْدَ تَكْهُلِ» <sup>(2)</sup> |

<sup>(1)</sup> عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي، الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مصدر سابق، ص. 16.

\* يقصد إبراهيم: هو أبا عبد الله إبراهيم بن محمد الكناي.

<sup>(2)</sup> عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي، الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مصدر سابق، ص. 17، ص. 18.

## المبحث الثاني: الحياة السياسية:

«كانت بلاد المغرب أول من بدأ التفكك السياسي في العالم الإسلامي إذ شهدت أرضه نشوء أولى الدويلات المستقلة، ثم تجزأت وحدثها إلى دول متعددة منها ما كان للعباسيين سيادة شكلية عليّة كدولة الأغالبة 184 للهجرة؛ ومنها ما قام رغمًا عن الخلافة العباسية وخروجًا على سلطانها مثل دولة بني مدرار أصحاب سجلماسة سنة 140 للهجرة؛ والرسّميّين أصحاب تيهرت 160 للهجرة؛ والأدارسة أصحاب فاس 172 للهجرة»<sup>(1)</sup>.

«إنّ بلاد المغرب بدأت بالانشقاق وتعددت فيها الدويلات؛ فسرعان ما تجاوزت هذه المرحلة إلى مرحلة تعددت الخلافات في حدّها ذاتها إذ ظهرت الدولة الفاطمية 296 للهجرة؛ التي ادّعت الخلافة في المغرب قبل انتقالها إلى مصر؛ ثم توالي ظهور الدول في المغرب الإسلاميّ كبني زيري 367 للهجرة؛ وبني حماد 395 للهجرة؛ والمرابطين 450 للهجرة، والموحدين 540 للهجرة؛ وبأنهيار هذه الدولة الأخيرة ورث أملاكها ثلاث دول لعبت دورًا خطيرًا في المغرب الإسلاميّ هي: الدولة المرينية في المغرب الأقصى؛ وبنو عبد الواد 633 للهجرة في المغرب الأوسط؛ وبني حفص 721 للهجرة في المغرب الأدنى»<sup>(2)</sup>.

«لقد كانت القيروان عزًّا للإسلام وأهله حيث كانت مركزًا حربيًا ومدينة للمجاهدين، وأسّرههم وجامعة لتعليم اللغة ومبادئ الدين ومنها انتشر سلطان الإسلام فعمّ المغرب بأجزائه تونس - الجزائر والمغرب الأقصى ثم عبر إلى الأندلس وإلى جزر البحر المتوسط ليصل إلى أوروبا وامتدّ جنوبًا ليصل إلى أعماق وغرب القارة الإفريقية»<sup>(3)</sup>.

قبل أن نخرج على المراحل التي مرّت بها الدولة الحفصية - حاضرة القيروان - لا بد أن نتكلم عن الأطوار السياسية التي حكمتها وعلّت سيادتها؛ فقد أصبحت القيروان منذ عودة عقبة بن نافع الفهري إليها مركزًا للانتشار العربي الإسلاميّ ببلاد المغرب؛ فقد اتخذها قاعدة عسكرية

(1) جملة المبطل المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص. 02.

(2) المرجع نفسه، ص. 03.

(3) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، المرجع السابق، ص. 73.

متينة؛ فامتازت تلك الانتشارات بطابع منظم وثابت بعد أن كانت عبارة عن غارات محدودة؛ وقد تمكن - عقبة بن نافع - هذا المغوار من اختراق شاطئ المحيط الأطلسي داخلا افريقية؛ كما أنه تمكن من هزيمة البزنطيين وضمّ خيرة من قوم البربر؛ فكان هذا الأخير بعد اشهاره للإسلام جزءاً لا يتجزأ من روافد الجيش الإسلامي الذي نظمته عقبة بن نافع.<sup>(1)</sup>

«لقد تم فتح افريقية ونشر الإسلام فيها بشكل منظم ودقيق انطلاقاً من القيروان؛ وممن ساهموا في ذلك بعد عقبة زهير بن قيس البلوي الذي وجهه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إليها سنة 688هـ/688م؛ فقد حقق انتصارات كبيرة على البيزنطيين ومن والاهم من البربر في شمالي افريقية».<sup>(2)</sup>

بعد كلّ تلك الصراعات والمناوشات اندمج العرب والبربر\* في وتيرة الإسلام، كما أن موسى بن نصير جهز حملة عسكرية- بحرية- وكانت بقيادة القائد عيَّاش بن أخيل على مستوطنة صقلية فهاجمها ودخل فاتحاً مدينة سيرقومة فأخذ كلّ ما أوتى له من الخيرات التي غنمها في تلك الحرب الطاعنة؛ وفي إحدى المراحل عام 93 للهجرة الموافق لـ 712 ميلادي دخل موسى بن نصير الأندلس وكان مستخلفاً ورائه في حاضرة القيروان ابنه عبد الله بن موسى.<sup>(3)</sup>

«كان عقبة يعرف أهمية إقامة مدينة القيروان الأولى في المغرب الإسلامي لتقوم بدور رئيس فعال في نشر الإسلام وامتداد نفوذها إلى القارّة الإفريقية وأوروبا الغربية والجنوبية وجزر البحر المتوسط وحوضه العربي، وبهذا فقد لمع اسم المدينة وشمل جميع النواحي العسكرية والسياسية والحضارية والدينية معاً؛ فمن الجانبين السياسي والعسكري كانت المدينة معقلاً لحماية القوات

(1) ينظر: سحر عبد المجيد المجالي، القيروان ودورها العسكري والعلمي، المرجع السابق، ص.254.

(2) المرجع نفسه، ص.254.

\*البربر: هم أقدم الجماعات البشرية التي استوطنت شمال افريقيا منذ عصور عريقة في التاريخ، فقد قال المسعودي أنهم من غيسان؛ وغيره يقول أنهم من لحم وجذام؛ فقد قال الطبري أنهم أحلاط. من كنعان والعماليق؛ وقال آخرون أنهم يمنيون، وقيل أنهم من ولد حام من نوح، ويقول المؤرخ التونسي عثمان الكعاك أن معظم الباحثين يذهبون إلى أن البربر من أصل سامي، أي من أبناء سام ابن نوح...

(3) سحر عبد المجيد المجالي، القيروان ودورها العسكري والعلمي، المرجع السابق، ص.254، ص.255.

العسكرية العربية من هجمات الأعداء المفاجئة، ومن ثمّ ملجأ في حالة التراجع والانسحاب ولحماية الجند كذلك من أي تمرد داخلي ولتكون قاعدة عسكرية تنطلق منها القوات العربية لتحرير البلاد ومقرّاً لتنظيم الجيش العربي وإعداده وتضميد الجرحى بعد انتهاء المعارك»<sup>(1)</sup>.

كانت القيروان هي العاصمة الدينية والسياسية لأفريقية إبان نشأتها فقد شهدت عدّة وقائع حربية وتطورات تاريخية في عهود مختلفة؛ فلمّا انتقلت الخلافة إلى بني العبّاس عام 132 للهجرة؛ تمحورت بقعة انتقالها إلى بغداد؛ فكانت هناك تحركات انفصالية في المغرب، وكان معظم قادة هذه المنظمة من العلويين الذين كانوا يريدون الانطواء على الخلافة؛ وأول دولة أقامها وتزعّمها الانفصاليون كانت دولة الأدارسة التي أسست بالمغرب الأقصى\*<sup>(2)</sup>.

يعد ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب سنة 169 للهجرة المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة فقد بويع بالخلافة سنة 172 للهجرة<sup>(3)</sup>.

«دولة الأدارسة نسبة إلى إدريس، وقد كان هو وأخوه يحيى بن عبد الله صاحب الديلم فرا من موقعة فتح سنة 169 للهجرة\*؛ فاتجه أخوه يحيى بن عبد الله إلى المشرق، واتجه ادريس نحو المغرب الأقصى، والتفا حوله البربر؛ في إقامة أول دولة علوية نسبت إليه؛ وهي دولة قوية كان بها هارون الرشيد لخطورتها وعهد لإبراهيم بن الأغلب\* بولاية تونس ليقف في وجه الأدارسة ومع

(1) لمياء عز الدين الصباغ، القيروان ملتقى الأندلسيين، المرجع السابق، ص. 174.

(2) ينظر: أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، المرجع السابق، ص. 18.

\*المغرب الإسلامي: اسم أطلقه الفاتحون المسلمون على شمال غرب أفريقيا منذ القرن الأول الهجري، وقد قسموا هذا النطاق الجغرافي الشاسع إلى ثلاثة أقسام: المغرب الأدنى، المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى هذا الأخير يمتد من وادي ملوية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وكانت تسكنه في الأغلب قبائل المصامدة، وبرغوطة وصنهاجة، ومطغرة وأورية.

(3) ينظر: أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، المرجع السابق، ص. 18، ص. 19.

\*في سنة 169 للهجرة، ثار الحسين بن علي بن الحسن على عامل العباسيين بالمدينة في عهد الهادي العباسي لما ألحق هذا الوالي بالعلويين من أهله؛ وحدثت بين الطرفين موقعة بين المدينة ومكة؛ وعلى ستة أميال منها تعرف بهذه الموقعة — فتح — قتل فيها الحسين وعدد كبير من أفراد البيت العلوي؛ وكانت تشبه هذه الموقعة حادثة كربلاء في العهد الأموي.

\*إبراهيم بن الأغلب كان قوي العزيمة ثابت المبدأ لا تزعزعه الشدائد وكان عالماً أدبياً خطيباً، ذا نجدة وبأس ورؤوفاً بالرعية؛ ولى الأمر وإفريقية في غاية الاضطراب والاختلاف، شرع سنة 285 في بناء مدينة على ثلاثة أميال من القيروان سمّاها العباسية وكانت تسمى أيضاً بالقصر القديم.



موت إدريس بالسّم سنة 177 للهجرة؛ لم تتوقف جهود العلويين في بلاد المغرب، فقد كانت له أمة حامل فانتظر أشياعه حتى ولدت ذكراً سموه إدريس، والتفوا حوله فكان إدريس الثاني المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة؛ فقد اشتد أمره واتخذ لدولته عاصمة جديدة هي مدينة فاس التي أسسها سنة 192 للهجرة<sup>(1)</sup>.

فقد حكم بعد إدريس الثاني ثماني من الأدارسة الأباطرة فكانوا أشدوا قوة ورهبة؛ ولكن أعظمهم جلاءً وقدرًا وقوة وعزيمة هو يحيى الرابع لبن إدريس بن إدريس بن عمر؛ فقد امتد ملكه على جميع نواحي بلاد المغرب الأقصى، وما يلاحظ أنّ الأدارسة قاموا بتشكيلة في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، وكما أنّ مدينة فاس عاصمة الأدارسة - المرينين - برزت بروزًا ثقافيًا جليًا في الساحة الفكرية؛ فكلّا من القيروان وفاس كانتا تمثلان الشعلة المضيئة لعدّة مدارس إسلامية في المغرب العربي<sup>(2)</sup>.

«لم تكن عملية اقرار الأمن في ولاية إفريقية قضية سهلة بل كانت محاطة بالكثير من العراقيل؛ فكانت مركزاً للحركات الثورية والمذهبية منذ الفتح الإسلاميّ لها، كما أنّ الخطر الأكبر في نشأة الدولة الإدريسية، كما أنّ خطر الجند العرب لم يكن يقل أهمية فقد كان من عوامل الاضطراب الأمني في المنطقة إذ أنّ الجند هم العامل الرئيسي لمعظم الثورات الداخلية»<sup>(3)</sup>.

فعندما أسس إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة 184 دولة بإفريقيا وقد جعل القيروان عاصمة لها؛ فقد كان لهذه الحاضرة أسطولاً بحريًا قويًا في البحر الأبيض ففتحوا بهذا الأسطول عواصم أندلسية كصقلية ومالطة وسردينيا؛ وقد شهدت فترتهم رخاء قويّ في البحر<sup>(4)</sup>.

(1) محي الدين سليمان إمام مدبلي، ابن أبي زيد القيرواني، المرجع السابق، ص.12، ص.13.

(2) ينظر: محي الدين سليمان إمام مدبلي، ابن أبي زيد القيرواني، المرجع السابق، ص.13.

(3) فاطمة عبد القادر رضوان، مدينة القيروان في عهد الأغالبة (184-296هـ)، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى،

المملكة العربية السعودية، 1991، ص.28.

(4) ينظر: أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، المرجع السابق، ص.18.

لقد أظهر إبراهيم بن الأغلب جدارته في السياسة والحكم؛ فقد استطاع أن يترع الخلاف في أسرته ويوطد علاقاتهم مع بعض؛ كما أنه قضى على الثورات التي كانت قائمة في نواحي إقليمية؛ كما أنه تمكن من استعطف وتوطيد عقود مع الطرف الآخر - الأدارسة - واستمالتهم إلى جانبهم لكنّ كلّ هذا بالتفاهم والأخلاق العالية.<sup>(1)</sup> فهذا ابن عذارى يقول في كتابه البيان المغرب: «أنّه كان كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأرفعهم بالريّة مع دين واجتناب للظلم». <sup>(2)</sup>

«كما أنّ إبراهيم بن الأغلب ساهم في عدّة غزوات وأرسل السّرايا إلى مختلف البلدان مثل مدينة شرقوصة ومالطة؛ وقد وجّه المسلمون حملاتهم البحرية إلى صقلية». <sup>(3)</sup>

«استطاع إبراهيم بن الأغلب أن يحقق التزاماته نحو الخلافة فكوّن قوّة قوة عسكرية كبيرة من البربر المستعربة الذين عملوا كجند في الجيش الأغلي كما استكثر إبراهيم بن الأغلب من الصقلية\* وأضاف إليهم بعد ذلك قوة من السود؛ وكان بالرغم من أن عهد ابن الأغلب لم يخل من الثورات والفتن، ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التي كانت تضطرم في إفريقية في العهود السابقة». <sup>(4)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، المرجع السابق، ص. 14.

<sup>(2)</sup> ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط. 3، المكتبة الأندلسية، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1983، ص. 112.

<sup>(3)</sup> محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، المرجع السابق، ص. 14.

<sup>(4)</sup> رقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، المرجع السابق، ص. 29.

\*الصقلية: هم جند من أصل أوروبي كانوا يشترون صغاراً من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من أوروبا وكانوا يربون تربية إسلامية ليكونوا بعد ذلك جنداً وخدماء للدولة في القصور والوظائف.

ومن جمل الظروف التي مهدت لنشأة إمارة بني الأغلب نعددها فيما يلي:

- «تتحور جزء من المنطقة التي سيطرت عليها الخلافة في منطقة الشمال الإفريقي؛ وكان ذلك بظهور دويلات مستقلة؛ فخوفاً من استمرار الثورات والتزاعات أن تستقل وتلد عاصمة لوحدها.<sup>(1)</sup>

- «ظهر دور دولة الأدارسة سنة 182 للهجرة كمنافس قوي تخشاه حكومة بغداد وكان من نتائج أحداث المشرق بين العباسيين والعلويين فرار ادريس بن عبد الله من هناك إلى المغرب الأقصى لإنشاء دولة لهم؛ وكذلك كثرة النفقات الباهظة التي دفعتها الخلافة مقابل القضاء على الثورات في تلك المنطقة».<sup>(2)</sup>

- «حاجة إفريقية إلى شخصية قوية خبيرة بالوضع السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي فيها حتى يتسنى لها وضع الأمور في نصابها وقد وجدت تلك السمات في شخصية ابن الأغلب».<sup>(3)</sup>

«لقد قامت الدولة الأغلبية بإفريقية ما يزيد عن قرن من الزمان؛ يعتبر من أزهى عصور هذه البلاد في المجال العلمي؛ وفي مجال الحضارة العمران والأمن والاستقرار».<sup>(4)</sup>

«تمكن أمراء الأغلبية من تمهيد البلاد، واهتموا بالغزو الخارجي فقد حوا صقلية 212هـ، ومالطة وسرّدانية وسرقوسة 264هـ حتى وصلوا إلى روما؛ كما اعتنوا بالناحية العمرانية، فأسسوا عدة مدن كالعباسية 185هـ، ورقادة 264هـ، وبنوا المحارس والحصون وقصور الرباط ومواجه المياه».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: محمود اسماعيل عبد الرزاق، الأغلبية وسياستهم الخارجية، (د.ط)، مكتبة سعيد رأفت، (د.ب.ن)، 1972، ص.44.

(2) فاطمة عبد القادر رضوان، مدينة القيروان في عهد الأغلبية، المرجع السابق، ص.33.

(3) فاطمة عبد القادر رضوان، مدينة القيروان في عهد الأغلبية، المرجع السابق، ص.34.

(4) حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، المرجع السابق، ص.65.

(5) المرجع نفسه، ص.66.

«فقد وُصف عامة أمراء الأغلبية الأحد عشر بحسن السيرة؛ والإحسان إلى الرعيّة؛ إلّا ما كان من عبد الله بن إبراهيم (196-201) الذي فرض العشر مالا عوض أن يكون حُبًّا؛ فسخط عليه النَّاس، ورفضه الفقهاء، ودعوا عليه فمات بسبب دعوتهم؛ ويمثل عصر الاستبداد في العهد الأغليي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (261-289)؛ فقد فسد فكره بعد مدّة من حكمه، وأتى بمنكرات لا يفعلها عاقل، منها أنّه قتل ابنه وبناته الست عشرة، وثلاثمائة من خدمه؛ كما قتل كتابه وحُجّابه وثمانية من إخوته، وله طرق بشعة في القتل كالخنق، والطرح في النَّار؛ أو البناء على المعاقب حتى يهلك جوعًا وعطشًا وكان يمارس القتل شهوة وبطراً»<sup>(1)</sup>.

يعتبر عهده المرحلة النهائية للدولة الأغلبية، خاصة بعدما قتل سبعمائة من رجال قلعة بَلْزَمَة ظلما بهم؛ فانفتحت أبواب الدفاع التي كانوا يحرصونها أمام داعي الشيعة الإسماعيلية فدخلوا القيروان؛ فتارت معظم أنحاء البلاد على قهر وظلم إبراهيم؛ فنادى إبراهيم بالتوبة وترك الخلافة لابنه أبي العبّاس عبد الله (289-290)، الذي لم يهنأ بالحكم فقد ظفر بسنة واحدة بعد ما قتله بعضاً من خدمه؛ فتولى بعده ابنه الخلافة زيادة الله الثالث (290-296) وقد شهد عصره بقتل جميع أعمامه، حتى عمّه الزاهد الذي كان يقطن بقصر سوسه؛ وأنساه أخوه أبا عبد الله الأحوال الذي كان يقاتل أبا عبد الله الشيعي في الزاب\*<sup>(2)</sup>.

عندما أحسّ زيادة الله الخطر محيطاً به؛ استنجد وتودد إلى العامّة وصاحب العلماء؛ كما أنّه عزل القاضي الخاص به المعتزلي الذي أهلك النَّاس واضطهدهم، وقام بتبديله بآخر كان حِمّاس بن مروان الفقيه المالكي؛ وقام أمير الأغلبية الأخير - زيادة الله - بصرف أموال طائلة لتجهيز الجيوش التي بعتها لمحاربة أبي عبد الله، لكنّه توقف وانصرف في ملذاته، في حين كان الشيعي يحتل البلاد مدينة تلوى الأخرى.<sup>(3)</sup>

(1) المرجع السابق، ص. 67.

(2) حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج. 1، المرجع السابق، ص. 68، ص. 69.

\*الزّاب: إقليم بالمغرب الأوسط. تشمل عدّة مدن منها بسكرة وتُوزر وقسنطينة وطولقة وغيرها...

(3) ينظر: حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج. 1، المرجع السابق، ص. 68.

«فقد كان زيادة الله قد أقبل على اللذات واللّهو ومعاشرة المضحكين وأهمل أمور الملك»<sup>(1)</sup>.

لم يلاحظ الخليفة زيادة الله ما كان يجري من ورائه؛ لأنّه كان منغمساً في ملذاته ومجونه إلّا أنّ وفاته أنباء سقوط مدينة الأربّس وكانت آخر المعازل التي كانت تحميه من الشيعة؛ فجمع ما يحتاجه من أموال، فهرب ليلاً متجهاً نحو مصر؛ وترك سكانها للنهب والطمع المتآكل فيما بينهم؛ وكان ذلك كله في جمادى الآخرة عام 296 للهجرة.<sup>(2)</sup>

«وقد ظلت الدولة الأغلبية تؤدي دورها الذي اضطلعت به في هذا الطرف الغربيّ حتى نجحت الدولة الفاطمية في المغرب في إزاحتها عن الحكم وامتدت إلى تونس فأسقطت هذه الدولة سنة 296 للهجرة؛ وخلف الفاطميون الأدارسة والأغالبة في المغرب الإفريقي ثم امتد حكمهم شرقاً إلى مصر»<sup>(3)</sup>.

فالفاطيون ظهروا في أول الأمر بالمغرب الأقصى عام 296 للهجرة وكان ذلك بقيادة أبي عبد الله محمد عبيد الله المهدي، ولكنّها بعد مرور سنوات فرضت هيمنتها على جميع بلاد المغرب العربي؛ وكان عاصمتها أو مدينتها المهدية وقد أسست عام 300 وقد دام بناؤها نحو خمس سنوات؛ ومن الملاحظ أنّ في عهدهم ظهر مذهب الشيعة وكان ذلك عن طريق الدعاية والتبشير؛ وفي بعض الأحيان عن طريق القوة والسيف، فعندما قوّي شأن الفاطميون توجهوا نحو الشرق عام 357 للهجرة فهيمنوا على مصر والشام واليمن والحجاز.<sup>(4)</sup>

«ففي سنة 333 للهجرة، هاجم أبو زيد القيروان عاصمة العبيديين، وكاد أن يقضي على دولة العبيديين وهي لا تزال ف خطواتها الأولى، وقد استمال إليه شيوخ القيروان من الفقهاء

(1) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر، ج.4، (د.ط)، دار الكتب العلمية الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.205.

(2) حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج.1، المرجع السابق، ص.66.

(3) محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، المرجع السابق، ص.15.

(4) ينظر: أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، المرجع السابق، ص.19.

والعلماء حيث شاركوه ف هجموه على المهديّة سنة 333 للهجرة، بيد أنّه خذلهم عندما تركهم وجهاً لوجه مع قوات العبيديين حيث استشهد منهم خمسة وثمانون عالماً وفقياً زيادة على العامّة»<sup>(1)</sup>.

يعد أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله آخر الخلفاء العبيديين بإفريقية؛ فكان من أعماله أنّه نش الصلح في البربر؛ كما أنّه هاجم المرية من أرض الأندلس عام 344 للهجرة فبعدما اطمأن لكل من إفريقية والمغرب، توجهت أنظاره نحو المشرق فكان له جيش ضخم بقيادة جوهر الصقلي إلى مصر ودخلها فاتحاً مستنصراً<sup>(2)</sup>.

وعند سماع المعز الذي كان بالمهدية نبأ الانتصارات صار صيتها فرحاً وسروراً بهذا الخبر، فأنشد محمد ابن هاني قصيدة طويلة في هذا الباب فقال:

«يَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ فَتَحَتْ مِصْرُ ❀ فَقُلْ لِبَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ»<sup>(3)</sup>.

«لم يمض وقت طويل على استقرار الفاطميين في مصر وتأسيسهم مدينة القاهرة والجامع الأزهر؛ وجعلها عاصمة لهم حتى بدأ نفوذهم في المغرب يضعف ويتلاشى؛ ووجد عمالهم الصنهاجيون الفرصة سانحة؛ فأعلنوا الانفصال عن الفاطميين سنة 435 للهجرة؛ وتمكن يوسف بن بلكين من بسط سلطانه على كامل تونس والجزائر»<sup>(4)</sup>.

«وبنو زيري يرجعون إلى صنهاجة من البربر؛ وقد أرجع بعض النسايب صنهاجة إلى إفريقش بن صيفي بن سبأ الأصغر، وقيل إفريقش بن زرعة وهو حمير الأصغر، وقيل هوقيس بن زرعة بن زهير بن هيسع بن حمير الأكبر؛ وقد نفى لبن حزم نسبتهم إلى حمير أو إلى بر بن قيس

(1) محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، المرجع السابق، ص.22.

(2) ينظر: محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، المرجع السابق، ص.25.

(3) حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، المرجع السابق، ص.117.

(4) أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، المرجع السابق، ص.19.

عيلان، وصنهاجة عند ابن حزم من ولد برنس بن بر، وذكر للبربر نسباً يرجعون إلى كنعان بن حم بن نوح عليه السلام».<sup>(1)</sup>

ومصطلح الصنهاجيين نسبة إلى صنهاجة وهي قبيلة بربرية كبيرة فقد كان لها دور فعال في مناصرة ومكاتفة دعوة الرافضة الخارجة بالمغرب وخاصة في فترة ثورة أبي يزيد الخارجي.<sup>(2)</sup>

تعدّ قبيلة صنهاجة من القبائل الكثيرة العدد؛ فقد ذكر بعض مؤرخو البربر بأن بطونهم كانت تنتهي عند سبعين بطناً؛ ومن أعظم ملوكها وحكامها زيري بن مناد، كما أنّ الصنهاجة كانوا ذا ولاء لعلي بن أبي طالب لذلك جاهدوا وساندوا الموقف الفاطمي إلى جانبهم؛ كما كان زيري ضمن جيوش جوهر الصقلي الذي أتمّ وأكمل فتح المغرب للحاكم المعز لدين الله الفاطمي.<sup>(3)</sup>

«على الرغم من عظم أعداد قبيلة صنهاجة، إلا أنّها لم تكن ذات قدرة على توحيد قبائل المغرب تحت سيطرتها؛ لذا كان اختيار المعز لدين الله موقفاً قد رغب في استغلال قوة صنهاجة لصد أي توسع غربي يقوم به بنو أمية أو أتباعهم من زناتة؛ كما حدّ من سلطة بني زيري بأن ولي صقلية وهي تمثل القوة البحرية أحد أتباعه وجعل طرابلس ذات القوة البرية الإفريقية القريبة من مصر تحت سيطرته».<sup>(4)</sup>

وكانت حدود إفريقية الزيرية المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً إلى منطقة الحدود؛ كما توصل الشاذلي بويحي بأن حدودها هي المنطقة المعروفة بالإقليم التونسي مع جزء من قسنطينة الجزائرية.<sup>(5)</sup>

(1) لطيفة بنت محمد البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري، المرجع السابق، ص.09.

(2) ينظر: حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، المرجع السابق، ص.83.

(3) ينظر: لطيفة بنت محمد البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري، المرجع السابق، ص.10.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص.10.

(5) ينظر: لطيفة بنت محمد البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري، المرجع السابق، ص.06.

كانت العلاقة بين الفاطميين والزييريين منذ تعيين بلكين في صدام وتصارع وتوتر؛ وزاد الصراع بين هاتين الجبهتين؛ ومن الملاحظ أنه كانت هناك فترة هدوء واستقرار في إفريقية خاصة في عهد المعز؛ فقد عقد صلحاً بين زناتة وكتامة وبينه أيضاً؛ فقد ساد الأمن الداخلي وعرفت الدولة أوج ازدهارها.<sup>(1)</sup>

«اشتهر من ملوك الدولة الصنهاجية باديس بن يوسف وابنه المعز الذي حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك، وكان أكثرهم من قبل على مذهب أبي حنيفة وجاء بعد المعز ابنه تميم الذي كان شاعراً كبيراً كما كان أبوه شاعراً أيضاً».<sup>(2)</sup>

بدأ الغزو الهلالي في سنة 442 للهجرة الموافق لـ 1050 ميلادية ولكنه لم يبلغ تأثيره في الحياة في إفريقية إلا باحتلال العرب الهلالية للقيروان وانتقال الدولة الزييرية إلى المهديّة في سنة 449 للهجرة/ 1057 ميلادية؛ ففي الوهلة الأولى استخف المعز بقوة أعراب بني هلال وبني سليم الضاربة، فقلل من شأنهم فلمّا تبين له أنّ عدّتهم أكثر عجز عن ردهم، كما خفق الخلفاء الذين آتوا من بعده.<sup>(3)</sup>

عندما فعل بنو هلال فعلتهم الشنيعة، فقد مسوا جميع النواحي؛ فدمروا الريف؛ وتوقفت الزراعة وأهملت التجارة؛ فالتجأ الناس إلى عرضة البحر وكان أيضاً المعز بنفسه هرب من ويلات قحطهم.<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص. 14.

(2) أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، المرجع السابق، ص. 21، ص. 22.

(3) لطيفة بنت محمد البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زييري، المرجع السابق، ص. 15.

(4) ينظر: عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط. 1، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1983، ص. 95.



«لم ينقذ المدن الإفريقية من السيطرة النورمانية إلاّ أسطول عبد المؤمن بن علي وجيشه اللذين أحكما الحصار البحري والبري على مدينة المهدية، وتمكن من الاستيلاء عليها سنة 555 للهجرة الموافق 1160 ميلادية؛ وطرد النورمان منها وأعاد تنظيم إفريقية».<sup>(1)</sup>

«لقد بلغت دولة الموحدين أوج عظمتها في عهد عبد المؤمن بن علي (- 558هـ)؛ وابنه يوسف (- 580هـ)؛ وحفيده يعقوب المنصور (- 595هـ)؛ وقد استطاعت دولة الموحدين أن تقيم دولة قوية مترامية الأطراف شملت المغرب الإسلامي كله - الأدنى والأوسط والأقصى -، علاوة على بلاد الأندلس التي دانت لهم بالطاعة والولاء خاصة بعد انتصارهم في معركة الأرك 591 للهجرة».<sup>(2)</sup>

لعلّ من أهم العوامل التي مهدت لسقوط الموحدين الصدام العسكري بينهم وبين القوى المعادية لهم في الداخل والخارج؛ وذلك لأنّ دولة الموحدين قامت على عصبية قبلية قوية هي عصبية - المصامدة - التي أخضعت قبائل عدّة في المراحل الأولى من قيامها لذلك كان من الطبيعي أن تتمرد تلك القبائل وتثور تلك العصبية للانفصال عن الدولة؛ كما هو الحال في تمرد قبائل صنهاجة وزناتة - أكبر قبائل المغرب - والتي كانت لها السيطرة على المغرب قبل قيام الموحدين».<sup>(3)</sup>

«كما أنّ ممالك وإمارات اسبانيا كانت تتحين الفرص للانقضاض على دولة الموحدين؛ حين تظهر لها بوادر الضعف والوهن، حتى واتها الظروف بتوجيه ضربة عنيفة للموحدين في معركة العقاب عام 609 للهجرة؛ وحينئذٍ تكالبت قوى الاسبان وأخذت توجه ضربات عنيفة

(1) لطيفة بنت محمد البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري، المرجع السابق، ص. 17.

(2) ابن خلدون، العبر، ج. 7، المصدر السابق، ص. 491، ص. 492.

(3) جميلة مبطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص. منذ قيامها سنة 621 هـ وحتى نهاية سنة 893 هـ، رسالة ماجستير، المرجع السابق، ص. 19.

ومتوالية ضدّ الموحدين في الأندلس حتى أوهنت منها العظم ومهدت لسقوطها وطردها من الأندلس»<sup>(1)</sup>.

ومن الأمور التي أدت لسقوط دولة الموحدين كانت هناك عوامل دينية واجتماعية من أهمها اعتبروا أنفسهم أهل التوحيد؛ وعلى الجميع الالتزام بتلك القوانين التي طبقها الأمر الناهي ابن تومرت عام 524 للهجرة؛ وأنسبوا التهم إلى كلّ من يخالفهم واتهموهم بالكفر إلى عدم المثل لأوامرهم<sup>(2)</sup>.

«كما كان من العوامل التي هيأت لسقوط دولة الموحدين ما قام به عبد المؤمن بن علي(580هـ) من تغيير نظام الحكم من خلافة مبنية على البيعة والشورى وهو النظام الذي وضعه ابن تومرت إلى خلافة وراثية في عقبه ممّا أدى إلى تنافس بين الأبناء والأحفاد حول الاستئثار بكرسي الخلافة، وما نتج عن ذلك من مؤامرات وفتن كانت سبباً رئيسياً في سقوط دولة الموحدين»<sup>(3)</sup>.

ومن الأمور التي هيأت لسقوط دولة الموحدين ظهور الأحزاب السياسية بين رجال الدولة والدسائس التي كانوا يدبرونها ضدّ بعضهم البعض؛ كما كانت هناك منافسات سياسية بين الفرقاء نجم عنها معارك عسكرية دامية، فمست بها الناحية الاقتصادية والاجتماعية وعمّت الفوضى والدمار والخراب وانعدام الأمن بها<sup>(4)</sup>.

(1) المرجع السابق، ص.19.

(2) جميلة مبطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص، المرجع السابق، ص.20.

(3) المرجع نفسه، ص.20.

(4) جميلة مبطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص. مرجع سابق، ص.20.

«تمرد على الدولة ابن مردنيش في شرق الأندلس؛ وشجع تمرده قبائل صنهاجة وعمارة وأوربة في المغرب على الثورة ضد الدولة، ولقد تكلف الموحدون الكثير من الرجال والعتاد والأموال حتى تمكنوا من القضاء على حركات التمرد».<sup>(1)</sup>

«ومن العوامل التي أدت إلى إضعاف دولة الموحدين ثورة بني غانية في جزر شرق الأندلس بعد هزيمة الموحدين قرب مدينة شنترين بالأندلس ومقتل خليفتهم يوسف بن عبد المؤمن؛ فنقض بنو غانية الطاعة وهجموا على المغرب الأوسط، استولوا على بجاية قاعدة الحكم فيه اضطر الموحدون إلى محاربتهم وسحبوا عدد كبير من جيوشهم في الأندلس مما شغلهم عن الدفاع عن هذه الجبهة، وكان ذلك سبباً مباشراً لطردهم من الأندلس».<sup>(2)</sup>

«لقد تعرضت بلاد المغرب في عهد الموحدين إلى هجوم حملات عسكرية قادمة من مصر في العهد الأيوبي بقيادة "قراقوش" القائد والوزير الأيوبي وكان هدفها احتلال بعض مناطق المغريرين الأدنى والأوسط حتى يتم تكوين خط دفاعي يحمي مصر الأيوبية من مخططات الموحدين للاستيلاء على مصر والمشرق الإسلامي؛ هذه الأسباب التي عملت على إضعاف دولة الموحدين والتي ورث أملاكها ثلاث دول لعبت دوراً خطيراً في المغرب الإسلامي وكانوا على النحو الآتي: دولة بني مرين في المغرب الأقصى؛ وبنو عبد الواد (— 633هـ) في المغرب الأوسط؛ والحفصيون 621هـ في المغرب الأدنى».<sup>(3)</sup>

«لقد كانت دولة الحفصيين أسبق الدول الثلاث ظهوراً وأسعها انتشاراً حيث أعلن عن تكوينها رسمياً عام 1227م، واستمرت دولة مزدهرة حتى عام 1574».<sup>(4)</sup>

(1) المرجع نفسه، ص. 20، ص. 21.

(2) جميلة مبطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص. مرجع سابق، ص. 21.

(3) المرجع نفسه، ص. 21.

(4) نجيب زيبب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج. 4، ط. 1، دار الأمير، (د.ب.ن)، 1415هـ/1995م، ص. 21.

«ساعدت الظروف التي مرت بها الدولة الموحدية في ظهور بني حفص كإمارة مستقلة، فحين انقسمت الدولة الموحدية في عام 1204م إلى دولتين إحداهما الدولة المؤمنية نسبة إلى عبد المؤمن بن علي في مراكش».<sup>(1)</sup>

يعدّ الانشقاق والتفكك الذي وقع بين أفراد البيت الحاكم شغلاً شاعراً للذئاب المفترسة فقد وجد أميراه المأمون ويحيى بن الناصر متنازعين فيما بينهم وأيضاً سياسة المأمون الجديدة التي ظننت وشككت في نزاهة المهدي الموحد مما ترك جدلاً بين أنصار وقبائل الموحيدين.<sup>(2)</sup>

فالحفصيون ينتسبون إلى أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد؛ كما أنّهم يزعمون ويتوقعون أنّ انتسابهم يعود أو ينتهي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛<sup>(3)</sup> كما أنّهم ينتمون إلى جذع قبائل هنتاتة البربرية؛<sup>(4)</sup> ولقد قام الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي\* بدور متميز وبارز في قيام الدولة الموحدية فقد مهد لخلافة عبد المؤمن بن علي فقد توفي أبو حفص سنة 571 للهجرة الموافق 1175 ميلادية.<sup>(5)</sup>

لقد ترك أبي حفص العديد من الأولاد الذين تولوا عدّة مناصب مهمة في الدولة ومنهم: إبراهيم وإسماعيل ومحمد ويحيى وعيسى وموسى وعبد الواحد فقد كان الأخير يحظى بمكانة مرموقة فأصبح كبير أشياخ الموحيدين وذا رأي وجاهٍ في قصورهم.<sup>(6)</sup>

«وقد ساهمت الظروف التي كانت تعيشها إفريقية في الربع الأخير من القرن السادس الهجري بدور كبير في ظهور الحفصيين؛ إذ كانت القبائل العربية التي انتقلت إلى بلاد المغرب في

(1) المرجع نفسه، ص. 25.

(2) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، تاريخ المغرب العربي، (د.ط)، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2004، ص. 397.

(3) ينظر: ابن خلدون، المقدمة، (د.ط)، الفكر العربي للطباعة والنشر، بيروت، 2007، ص. 371.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ، ج. 6، المصدر السابق، ص. 371.

\* يعد من أصحاب المهدي بن تومرت العشرة الذين يسمون بالجماعة واسمه الحقيقي فاصحكة بن وامزال، والمهدي هو الذي أطلق عليه اسم أبي حفص. عمر.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص. 372.

(6) ينظر: محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحيدين في المغرب والأندلس، (د.ط)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،

1964، ص. 381.

القرن الخامس الهجري تتحكم في معظم البلاد؛ إضافة إلى انتقال الصراع الذي كان قائماً بين بقايا المرابطين والموحدين من الأندلس إلى إفريقية وتعد ثورة بني غانية مظهراً من مظاهر هذا الصراع<sup>(1)</sup>.

تمكن بنو غانية من فرض هيمنتهم وسيطرتهم على بجاية عام 580 للهجرة الموافق 1184 ميلادية في اليوم السادس من شعبان؛ وذلك بسبب انشغال الموحدين بحركة الاسترداد المسيحية في بلاد الأندلس<sup>(2)</sup>.

تعتبر الدولة الحفصية قسماً أو جزءاً من دولة الموحدين وذلك عندما وكل الخليفة الموحي محمد الناصر مهام إفريقية إلى وزيره وأيضاً يكون صهره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي فقد منحه تولي جميع أمور السلطة التي تخوله أن يحكم هذه الإمارة<sup>(3)</sup>.

عندما ازدادت تصرفات بني غانية السيئة في منطقة إفريقية سلم الناصر الموحي تلك المنطقة إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص وكان سنة 603 للهجرة الموافق 1206 ميلادية، ويعدّ هذا الموقف الذي قام به هذا الخليفة حداً للاستهزاءات التي تقوم بها هذه الدولة - بني غانية - فيجعلها تقف وتصدّ وجهها بالمرصاد وحتى غيرها من المناطق والدول الطامعة في ممتلكاتها<sup>(4)</sup>.

كان للخليفة أبي حفص مكانة راقية بين مجتمعه، وذلك بسبب الصفات التي امتلكها من حسن التصرف، وأيضاً إخلاصه للمهدي وتطبيقاته التي كان يتبعها وينفذها فقد عدّ من العشر الأوائل؛ إذ كان يأتي بعد عبد المؤمن في المرتبة؛ كما أنّه كان يتشارك معهم في الألقاب الرئاسية،

(1) بلحسن إبراهيم، العلاقات الثقافية بين المغربين الأوسط والأدنى من القرن 7هـ إلى القرن 9هـ / 13 - 15م، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2004 - 2005، ص.20.

(2) ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح صلاح الدين الهواري، ط.1، المكتبة العصرية، بيروت، 2008، ص.195.

(3) ينظر: محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي، ليبيا، تونس، المغرب، الجزائر، موريتانيا، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، (د.ب.ن)، 2004، ص.123.

(4) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، تاريخ المغرب العربي، المرجع السابق، ص.396.

فقد كان المهدي يسمى بالإمام، في حين عبد المؤمن لقب بالخليفة، وكان يطلق عليه اسم الشيخ؛ فقد كان الخليفة عبد المؤمن يستشير في أمور الدولة ويأخذ بكلامه بعين الاعتبار.<sup>(1)</sup>

تمتع أبي حفص بمكانة راقية ومتفاوتة في الدولة الموحدية، وقد خلفه أولاده في هذا الشأن؛ فقد تنعموا من بعده في الحكم، كما أنهم تقلدوا مناصب عليا في المغرب والأندلس.<sup>(2)</sup>

أقام بنو غانية الخطبة للخليفة العباسي أحمد الناصر؛ فأصبحت بجاية مرفأً ومسكناً لنشاطات بنو غانية في إفريقية، لكن لم يبق الحال كما هو فقد جهز المأمون الموحي المنطور حملة عسكرية شنّ هجوماته عليهم، واسترد مدينة بجاية عام 581 للهجرة الموافق 1185 ميلادية، فلأدّ بالفرار بنو غانية موجهين الدفة نحو الشرق.<sup>(3)</sup>

ثمّ توالى هذه الأحداث في عهد الخليفة الناصر لدين الله، فتمكّنوا من السيطرة والاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد\*.<sup>(4)</sup>

لقد دعا بنو غانية الخليفة العباسي؛ فلاحظ الناصر أنّ استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لا يتم إلاّ إذا كانت هناك حروب وتكون بالاستيلاء على جزر البليار وهي الجزائر الشرقية التي هي قاعدة بني غانية؛ فوجّه السلاح بحملات بحرية طاعته كانت بقيادة عمّه أبي العلاء إدريس؛ كما أسند مهمة تولي قيادة الجيش إلى أبي سعيد عثمان بني حفص؛ فاستسلم عبد الله بني غانية ولكنّه في النهاية قتل؛ وبذلك تمكن الموحدون من التحرر والهيمنة على جزر البليار فمنها: ميورقة

(1) ينظر: صالح أبو دياك، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2000، ص.259.

(2) ينظر: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج.2، (د.ط)، العصر الاسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص.875.

(3) ينظر: لي تور نوروجي، حركة الموحدين في المغرب خلال القرنين الثاني والثالث عشر ميلادي، ترجمة أمين الطيبي، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982، ص.84.

(4) ينظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر دي سولان، (د.ط)، د. د. ن، باريس، 1965، ص.38، ص.39.

\*الجريد: هي بلاد قسطنطينية التي تشمل على توزر وضواحيها؛ وقنطرار، الحامة، سدادة وتيقوس.

ومنورقة ويابسة وكان ذلك عام 599 للهجرة الموافق لـ 1202 ميلادية من شهر ذي الحجة وقد أعلن عليها ابن طاع الله والياً عليها.<sup>(1)</sup>

بعد أن تمكن الموحدون من القضاء على بنو غانية في جزر البليار؛ استعد الناصر إلى استعادة الأمور إلى نصابها فقصده إفريقية عام 601 للهجرة/الموافق 1204 ميلادية فاسترجع المهديّة؛ وعندما علم يحيى بن غانية بمجيئه لاذ بالفرار نحو قفصه.<sup>(2)</sup>

تمكّنت جيوش الناصر من اللحاق من يحيى بن غانية وكان بقيادة أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر فالتقى عند تاجرا؛<sup>(3)</sup> وكان ذلك بضواحي قفصه التي قصدها للحماية منهم لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد جرت بين الطائفتين معركة طاحنة كان الفوز فيها لأبي حفص وهروب يحيى بن غانية منها متوجّها إلى الصحراء للاختباء منهم مرة أخرى.<sup>(4)</sup>

فبهذا النجاح الذي حققه في هذه المعركة عبد الواحد كان للخليفة الناصر صدى في نفسه، فقد زادت قيمة عبد الواحد في نظرة الخليفة، فأراد له أن يكون والياً على إفريقية، لكن عبد الواحد أبى ورفض لكن هذا الحاكم أقنعه بقوله: «إمّا أن تتوجه أنت إلى المغرب وأجلس أنا بإفريقية؛ وإمّا أن تجلس أنت وأنصرف أنا».<sup>(5)</sup>

لقد قبل عبد الواحد ولاية إفريقية لكنّه شرط على الخليفة بعض الشروط منها: أن يختار من الرجال الموحدين الأكفاء الذين يُساندونه في مهمته، وله حرية اختيارهم فمن أبقى عليه أو أعزله من منصبه؛ كما اشترط أن توفر له كل المساعدات التي يحتاجها في ميدانه، فوافق الخليفة

(1) ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المصدر السابق، ص. 231، ص. 232.

(2) ينظر: الحميري، الروض المطّار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص. 477.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص. 125.

(4) ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النفير، عبد المجيد التركي، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص. 104.

(5) أبي عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط. 2، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت)، ص. 18.

على تلك الشروط بصدر رحب فبقى عبد الواحد والياً على إفريقية، بينما توجه الخليفة إلى مراكش لتولي أموره.<sup>(1)</sup>

بعد رئاسة أبو محمد عبد الواحد على إفريقية، عمل على توفير الأمن والسلام في المنطقة كما وطد أمور البلاد من تنظيم وإصلاح وإستراتيجية تخرجه إلى برّ السلام؛ وألح ما أفسدته بنو غانية؛ كما جعل يوم السبت يوم خاص للتطرق في شؤون الأمة وشكاويهم المتعلقة بهم.<sup>(2)</sup>

عندما توفي الخليفة الناصر خلف ابنه المستنصر ليحكم وكان ذلك في شعبان عام 610 للهجرة الموافق لـ 1213 ميلادية، وقد استمر أبو محمد في رئاسة ولاية إفريقية حتى وافته المنية عام 618 للهجرة الموافق لـ 1221 ميلادية.<sup>(3)</sup>

«لقد خلف عبد الواحد على إفريقية ابنه أبو زيد الذي لم تدم ولايته إلا ثلاث شهور حيث أدرك الخليفة المستنصر أن اختيار أبي زيد للولاية دليل على رغبة الحفصيين في الاستقلال بإفريقية فسارع إلى تعيين السيد أبي العلاء بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن والياً على إفريقية على أن ينوب عنه الشيخ أبو إسحاق بن إسماعيل بن الشيخ أبي حفص لحين وصوله وفي نفس الوقت أرسل إلى أولاد الشيخ أبي حفص يأمرهم بالعودة إلى مراكش».<sup>(4)</sup>

عند اعتلاء أبو العلاء إمارة تونس نهضت من جديد بوادر الاقتحام لبني غانية فتحرك إليهم واليها عام 620 للهجرة الموافق لـ 1223 ميلادية؛ فزاحمهم وقام بطردهم حتى بعثهم إلى الصحراء؛ وعند تولي الخلافة العادل عام 621 للهجرة الموافق لـ 1224 ميلادية رأى أنه من

(1) ينظر: أبو عبد الله الشماخ، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، (د.ب.ن)، 1984، ص.49، ص.50.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص.51.

(3) ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، المصدر السابق، ص.19.

(4) عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس 626-981هـ/1228-1573م، رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1991، ص.48.



الضروري وضع قوانين وأنّ الفضل في استرجاع الأمن والهدوء إلى إفريقية كان بفضل الحفصيين، فعين بصفة مؤقتة أبو عمران موسى بن إسماعيل إلى أن يحين قدوم عبد الواحد.<sup>(1)</sup>

حين وصول أبي محمد عبد الله الحفصي إلى تونس عام 623 للهجرة الموافق لـ 1225 ميلادية بدأت نفوذ الحفصيين يتسع في حاضرة إفريقية، وكان معه إخوته يساندونه في مهمة البلاد.<sup>(2)</sup>

عندما أتى أبي محمد عبد الله الحفصي صحبة إخوته، ولّى كلّ إخوته مكاناً مهماً في الرئاسة ووزّعهم على كلّ ولاية؛ فقد خصّص أبا زكريا يحيى مدينة قابس؛ وأبا إبراهيم بلاد قسطليلية.<sup>(3)</sup>

ثم وضع حدّاً لمجون ثورة بني غانية التي كانت تلد كل جديد وخاصة في أواخر عام 623 للهجرة التي تمكنت من هجوم مدينة بجاية وأيضاً تدلس ومتيجة ومدينة الجزائر؛<sup>(4)</sup> ولقد ترك بنو غانية بصمتهم في كلّ مكان من فسادٍ واضمحلال.<sup>(5)</sup>

وقف الشيخ أبو محمد عبد الله في وجه هذه الدولة الطاغية بالمرصاد فقد لاحقهم أينما تواجدوا، كما أنّه هاجم القبائل التي كانت مساندة لهم وواقفةً معهم؛ فقد تبعهم حتى إلى مدينة سجلماسة\*.<sup>(6)</sup>

في منتصف عام 624 للهجرة الموافق 1126 ميلادية عاد أبو محمد عبد الله إلى تونس في شهر رمضان، وكان قد قضى على بني غانية نهائياً وعلى جميع تحركاتهم وأنشطتهم؛ وبهذا يعتبر

(1) ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني محمد بن تاويت، محمد زبير، عبد القادر زمامة، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ص.291، ص.292.

(2) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.379.

(3) ينظر: الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص.450، ص.480.

(4) ينظر: الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص.132.

(5) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.373.

(6) ينظر: الادريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق إسماعيل العربي، ج.1، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص.258.

\*سجلماسة: مدينة في جنوب المغرب الأقصى تقع على طرف بلاد السودان وتبعد عن فاس بعشرة أيام وهي مدينة كبيرة عامرة كثيرة الخضر.

المحور الأساسي الذي وضع الأسس السياسية الحفصية، إلا أن الأحداث والوقائع التي كانت تجري في مراكش غيّرت مجرى الدفة فقد ترأس يحيى المعتصم الخلافة بعد قتل الخليفة الموحي العادل بمراكش؛ وبعد كل هذا تحرك أبا العلاء الموحي - والي اشبيلة - نحو مراكش وتمكن من السيطرة على الوضع؛ ثم بعث في طلب أبي محمد الحفصي في تولي الولاية لكنّه أبي، وقد أرسل أبا محمد الحفصي في طلب أبي زكريا الحفصي في تولي الأمر فوافق على ذلك.<sup>(1)</sup>

عين المأمون أبا العلاء الموحي أبا زكريا والياً على إفريقية بدل أخيه أبي محمد، فأعلن ولايته على إفريقية في القيروان يوم 18 رجب 625 للهجرة الموافق 1228 ميلادية.<sup>(2)</sup>

وكان قد كسب تأييد ابن المكي زعيم أعيان قابس،<sup>(3)</sup> فعندما اكتشف أبو محمد بهذا الأمر والمستجدات التي طرأت خرج من تونس نحو القيروان لمواجهة، وعندما وصل الهدف تخلى عنه شيوخ الموحيين وذلك لعدم ارضائهم بمواجهة أخيه ورفضهم الأمر؛ فتمكنوا من القبض عليه وأمره بالتخلي عن منصبه؛ وإعطاء المنصب لأخيه أبا زكريا.<sup>(4)</sup>

«ما لبث أبو زكريا أن انتقل إلى تونس في نفس السنة وجددت له البيعة يوم 24 رجب 625 للهجرة؛ وقد استغل أبو زكريا إلغاء المأمون للدعوة الموحدية رسمياً فأعلن عدم الولاء له سنة 626 للهجرة الموافق لـ 1228 ميلادية، ودعا لمنافسه على الخلافة يحيى المعتصم لكنّه سرعان ما عدل عن ولائه ليحيى المعتصم وأعلن انفصاله التام عن الدولة الموحدية سنة 627 للهجرة الموافق لـ 1229 ميلادية وتلقب بالأمير».<sup>(5)</sup>

لقد أعلن أبا زكريا الانفصال والإنحياز عن الدولة الموحدية، فقام بالاستيلاء على ضواحي قسنطينة وكان ذلك عام 628 للهجرة الموافق لـ 1228 ميلادية، وكما أخرج سلطانها الموحي

(1) ابن خلدون، العبر، ج. 6، المصدر السابق، ص. 380، ص. 388.

(2) ينظر: أبو عبد الله الشماخ، الأدلة البنية النورانية، المصدر السابق، ص. 14.

(3) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج. 6، المصدر السابق، ص. 606، ص. 607.

(4) ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، المصدر السابق، ص. 292.

(5) ابن خلدون، العبر، ج. 6، المصدر السابق، ص. 381.

ابن أبي عبد الله بن يعقوب المنصور، ثم خلع أخاه أبا عمران عن بجاية؛ كما أنه أشرط وأمر - أبا زكريا - بذكر اسمه في يوم الخطبة ولكنه فقط اقتصر ذكر اسم الأمير بل أمير المؤمنين.<sup>(1)</sup>

«يعد أبو زكريا يحيى الحفصي المؤسس الحقيقي لدولة الحفصيين بتونس فقد اشتغل بإمارة إفريقية في سنة 625 للهجرة»<sup>(2)</sup>، فعندما تولى أبو زكريا الحفصي عام 627 للهجرة الموافق 1229 ميلادية كانت دولة الموحيدين قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف وكان بنو مرين ينازعونهم السلطة في المغرب الأقصى، فانتهاز أبو زكريا الفرصة وأعلن استقلاله بأعمال تونس والقيروان عن دولة الموحيدين.<sup>(3)</sup>

لقد أعلن أبا زكريا يحيى الحفصي نفسه أنه وريث عبد المؤمن - مؤسس دولة الموحيدين - كما أن الدول الأخرى اعترفت بمكانته وسيادته فمثلاً بعض الأجزاء من المدن الأندلسية نادى بذلك وكذلك مدن المضيق في شمالي المغرب ومكناس.<sup>(4)</sup>

لقد ساند أهل الأندلس الأمير زكريا وبايعوه في العهدة الثانية؛ فلقد أزره أهل بلنسية عام 636 للهجرة الموافق 1239 ميلادية وكذلك أهل مرسية عام 637ه الموافق لـ 1240م؛ فقد كان أبو زكريا الركيزة الرئيسية كانه الأم الحاضنة على أولادها، هكذا بادر الأمير شؤون رعيته سواءاً في القيروان أو الأندلس للحفاظ على القيم الإسلامية.<sup>(5)</sup>

لم يهنأ بال أبي زكريا إلا وأراد أن يقضم من بعض المدن المغربية المجاورة له فاتجه نحو تلمسان - عاصمة المغرب الأوسط - لاحتلالها في جيوش هائلة قيل بلغ عددهم حوالي 64 ألف وكان ذلك عام 639 للهجرة الموافق لـ 1242 ميلادية؛ فلم تنفذ تلمسان من أسنانه الحادة فوجدت نفسها تحت ولايته.<sup>(6)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، المصدر السابق، ص.25، ص.26، ص.27.

<sup>(2)</sup> عبد الواحد ذنون طه، تاريخ المغرب العربي، المرجع السابق، ص.397.

<sup>(3)</sup> شوقي الجمل، المغرب العربي الكبير من الفتح الاسلامي إلى الوقت الحاضر، (د.ط)، المكتب المصري، القاهرة، 2007، ص.27.

<sup>(4)</sup> ينظر: نجيب زيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، المرجع السابق، ج.2، ص.420.

<sup>(5)</sup> ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.385، ص.386.

<sup>(6)</sup> ينظر: الادريسي، القارة الافريقية وجزيرة الأندلس، ج.1، المصدر السابق، ص.248.

لقد توالى الأحداث في عهد الأمير أبو زكريا، فقد بايعته العديد من المدن فمثلاً في سنة 640 للهجرة الموافق 1243 ميلادية بايعه أمير سبته ابن الخلاص.<sup>(1)</sup>

كما توافدت عليه البيعات لما كان له من هيبة وشجاعة وإقدام فقد بايعه أهل الأندلس المتبقين وكان ذلك بداية 641 للهجرة الموافق 1244 ميلادية؛ كما أنه وصل إلى غاية أهل طريق وسكان شريش.<sup>(2)</sup>

وفي سنة 643 للهجرة الموافق 1246 ميلادية بايعه أهل اشبيلية وغرناطة، ومنذ اعتقاله ذلك المكان في نفوسهم أصبحوا - أهل الأندلس - يخطبون الخطبة باسمه.<sup>(3)</sup>

«استقل أبو زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص واستقام له حكم البلاد حيث عمل على نشر الأمن والعدل فيها حتى وفاته عام 647 للهجرة الموافق 1249 ميلادية».<sup>(4)</sup>

نظم الأديب والشاعر أبو عبد الله بن الأبار قصيدته السينية التي يستصرحه فيها المسلمين ومنها الأبيات التالية:

|                                                     |   |                                                  |
|-----------------------------------------------------|---|--------------------------------------------------|
| «أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلَسَا     | ✿ | إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى شُجَاتِهَا دَرَسَا        |
| وَهَبْ لَنَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسْتَ | ✿ | فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا |
| مَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعَدَى بَيْعَا         | ✿ | وَلِلنِّدَاءِ يَرَى أَثْنَاءَهَا جَرَسَا         |

فقد أجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم؛ وبعث إليهم أسطوله مشحوناً بالقوات والأسلحة».<sup>(5)</sup>

عند وفاة أبي زكريا الحفصي أخذت الإجراءات منحى آخر فقد عقبه أو استخلفه في الحكم ابنه أبو عبد الله الذي كان يلقب بالمستنصر بالله؛ ويعتبر أول من تقلد أو تلقب بالخليفة

(1) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، 395.

(2) ينظر: الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص.127.

(3) ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، المصدر السابق، ص.32.

(4) محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي: ليبيا، تونس، الجزائر، المرجع السابق، ص.158.

(5) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، المرجع السابق، ص.877.

وأيضاً تسمى بأمر المؤمنين، وذلك بعد أن وصلته بيعة شرفاء مكة المكرمة عام 675 للهجرة الموافق 1259 ميلادية.<sup>(1)</sup>

عند وفاة أبي زكريا تولى الخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله، فقد بويع عام 647 للهجرة، وكان عمره آنذاك ثمان عشرة سنة؛ وقد ولاه أبوه العهد بعد وفاة أخيه أبي يحيى وكان عمه أبو عبد الله محمد اللحياني هو من عقد له البيعة؛ ثم أعيد تجديد البعثة في شهر رجب في اليوم الثالث عام 647 للهجرة، كما اختار هذا الخليفة الجديدة - المستنصر بالله - علامة كانت «الحمد لله والشكر لله».<sup>(2)</sup>

لم يكن الأمر سهلاً في بداية المطاف على المستنصر بالله عند استلامه أمور الحكم؛ فقد فواجهته بعض الضغوطات وكذلك الثورات؛ فبدأ البدء كانت مصيدة عمه - محمد اللحياني - هي الطليعة والتي كان بسببها الوزير محمد بن أبي مهدي الهنتاتي الذي جشعه أعمى بصيرته، وذلك في السيطرة على الحكم والتقليل من نزوح الأندلسيين الذين احتلوا المراكز المهمة؛ وبالتالي أصبحوا منافسين للموحدين؛ لكن هذا الطامع - ابن أبي المهدي - فشل في التصدي للمستنصر فلجأ إلى أعمامه لكي يغويهم منهم إبراهيم أبي إسحاق، وأبي عبد الله محمد اللحياني، لكن باءت محاولاته بالفشل، فاتجه إلى أحد أبناء محمد اللحياني فاستجاب له المطلب وركع أمامه بكل متطلباته فلما علم الوزير أبو زيد بن جامع بالأمر نصحه لكن ابن أبي مهدي قبض عليه، ولما وصل الأمر إلى المستنصر؛ عقد لفائدة ظافر على محاربتهم؛ فاستطاع أن يهدئ الأوضاع كما أنه قتل ابن أبي المهدي.<sup>(3)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ج.1، القسم الرابع،

(د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ص.1028.

<sup>(2)</sup> ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.7، المصدر السابق، ص.400.

<sup>(3)</sup> ينظر: ابن الشماخ، الأدلة البينية النورانية، المصدر السابق، ص.92.

طار غضب المستنصر لما فعله قائده ظافر من قتل أخويه، فخرج - ظافر - متوجهاً إلى جنوب المغرب الأوسط لاحقاً الذاودة، كما أنه انضم إلى أبي إسحاق وتمكن من الفرار من قبضة المستنصر وذلك عام 651 للهجرة.<sup>(1)</sup>

تبع أبو إسحاق بالذواودة فالتقى مع القائد ظافر؛ وقاما بإعلان الحرب على المستنصر فاستطاع أبي إسحاق الاستيلاء على الزاب وبسكرة؛ ثم قامت دول رياح وقابس بمبايعته؛ فعندما أدرك المستنصر بأمر أبي إسحاق قام بسجن أبناءه بالقصبة؛ كما عمل على خطة للتفريق بين أبي إسحاق وظافر، فنجحت مؤامراته التي خطط لها في إعمال الفرقة بين هؤلاء الاثنين.<sup>(2)</sup>

رحل أبو إسحاق إلى المغرب والأندلس حيث أقام على ابن الأحمر صاحب غرناطة، فأكرمه وأحسن إليه، كما أرسل المستنصر إلى كبار الموحدين ليوقفوا أبي إسحاق ويضعوا له حداً.<sup>(3)</sup>

لقد جرت أحداث كبيرة وفتن في الزاب وذلك كانت بقيادة رجل يلقب أبي حمارة، فخرج عليه المستنصر وقام بمحاربته فقتله، وأرسل برأسه إلى تونس، ثم قام بحملة تويخية تأديبية ضد بني مرداس\* وبني دياب\* فألقي بالكثير منهم في السجن - المهديّة -.<sup>(4)</sup>

«ومن أهم الأحداث التي عرفها عهد المستنصر بالله الحملة التي شنّها ملك فرنسا لويس التاسع على مدينة تونس عام 669 للهجرة الموافق لـ 1270 ميلادية، وقد انتهت بعقد معاهدة بين الطرفين نصت على جلاء القوات النصرانية عن مدينة تونس مقابل أن يدفع الخليفة المستنصر

<sup>(1)</sup> ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، المصدر السابق، ص. 118.

<sup>(2)</sup> ينظر: ابن الزركشي، الأدلة البينية النورانية، المصدر السابق، ص. 64.

<sup>(3)</sup> ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، المصدر السابق، ص. 118.

\* بني مرداس: فرع من قبيلة رياح الهلالية وأشهر بطونهم الذواودة أولاد داودين مرداس وأولاد ضر بن عقيل بن مرداسي وأولاد مسلم بن عقيل وأولادها عامر بن يزيد بن مرداس، ومنهم بنو موسى وجابر، ومحمد ومشهور بن محمد ورتاسة رياح لمرداس طوال عهدهم في إفريقيا؛ ثم انتقلت في عهد الموحدين إلى قبيلة الذواودة.

\* بني دياب: هناك رأيان: رأى القلقشندي والمقريري على أنّ بني دياب هو بن مالك بن بثة بن سليم وأما الثاني لابن خلدون والتجاني على أنّ دياب من ربيعة بن زغب الأكبر، ولهم بطون عديدة منها: الجواري، الحاميد، الصهيب، وبنو سليمان.

<sup>(4)</sup> ينظر: ابن خلدون، العبر، ج. 6، المصدر السابق، ص. 32، ص. 37، ص. 85.

تكاليف الحملة ويضمن عدم التعرض للتجار ورجال الدين المسيحيين المتواجدين فوق الأراضي الحفصية»<sup>(1)</sup>.

استفاد الزيانيون - بنو عبد الواد - من هذه الفرصة فانتهزوا هذا الموقف والتخلص من ولائهم الأخير للحفصيين؛ كما أرادوا توسيع نفوذهم وبقعتهم داخل المحيط المغربي - المغرب الأوسط-<sup>(2)</sup> إلا أن الظروف لم تتيح الفرصة لهم فقد زاد من هيبة وعظمة الدولة الحفصية مراسل المستنصر رؤساء بلاد المغرب يطلعهم على الأخبار أو الأحوال التي آلت إليها الحملة.<sup>(3)</sup>

بعث الخليفة المستنصر الفقيه أبو القاسم بن أبي بكر بن زيتون إلى مؤسس الدولة الزيانية يغمراسن بن زيان بتلمسان لدراسة الأحوال.<sup>(4)</sup>

أمّا جيرانها بنو مرين فقد أثبتوا الولاء والطاعة للحفصيين، فقد أرسل أميرهم أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس مع مشيخة بن مرين 652 للهجرة، وعندما قضى نحبه أبو يحيى خلفه وعقبه أخوه يعقوب، فقام المستنصر بتجديد البيعة له، كما أرسل ملك السودان هدية قيمة للمستنصر عام 651 للهجرة؛ كما في نفس السنة هاجم المستنصر بني النعمان في ولاية قسنطينة وقد كان لزعيمهم علي وميمون وعبد الواحد أدوار كبيرة في مساعدة ونصرة اللحياني ضدّ المستنصر، فقد أرسل الخليفة المستنصر علي إلى الاسكندرية فقد نفاه؛ أمّا الآخر - ميمون - فقد قتله.<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.429.

(2) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ج.7، ص.120.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ج.6، ص.429.

(4) ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، المصدر السابق، ص.132.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص.181.

\*أبو العباس الملياني من كبار مشيخة مليانة، ذو علم وفقه ورواية، فقد كان العلماء يرحلون إليه لأخذ العلم منه، كما أنّه تولى رئاسة الشورى ببلدة مليانة.

أمّا مدينة مليانة فقد خلع أحد أبنائها الذي يسمى أبو علي الملياني\* طاعته للحفصيين، وذلك بعد أن تقلص نفوذهم؛<sup>(1)</sup> فعندما وصل الخير إلى المستنصر لتمرد هذه المدينة، أرسل أخوه أبا حفص وحاصروا مدينة مليانة حتى استسلمت؛ كما قامت فتنة أخرى كان سببها أن المستنصر استحدث سكة جديدة تسمى الحندوس\*.<sup>(2)</sup>

«أعلن السلطان المستنصر إلغاء هذه السكة بعد تمرد الشعب، وأشيع أن الذي تولى كبر هذه الفتنة هو أبو القاسم بن زيد ابن عم المستنصر؛ فخشي أبو القاسم من غضب المستنصر عليه فرحل إلى رياح سنة 661 للهجرة، ونزل على أميرهم شبل بن موسى رئيس الذوادة وباع له، وبلغ أبو القاسم عزم السلطان على قتله وخشي من الذوادة أن يسلموه، فرحل إلى الأندلس ملتحقاً بأبي إسحاق، إلا أنه وبسبب سوء أفعاله في الأندلس طرد منها إلى المغرب حيث مات في تلمسان بعد زمن، ولكن الذوادة بقيادة رئيسهم شبل بن موسى لم يتخلوا عن مناهضة المستنصر الذي أشرف بنفسه على حملتين ضدهم، ففي سنة 664 للهجرة، صدهم جنوباً حتى وصل إلى المسيلة».<sup>(3)</sup>

ساعد المستنصر مجموعة من القبائل لمحاربة هذا الطاعي؛ فقدمت له يد المساعدة قبيلة من الأعراب تسمى الكعوب ودياب وأيضاً قبيلة بربرية تسمى سد ولكيش\* وكان ذلك كله بعد سنتين.<sup>(4)</sup>

«وفي سنة 669 للهجرة أعلنت الجزائر خلع طاعة الحفصيين؛ فبعث المستنصر جيشاً بقيادة أبي هلال الهنتاتي؛ فحاصرها زمناً؛ فامتنعت عليه فرجع إلى بجاية ومات بها سنة 673 للهجرة، وفي

(1) ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.422.

(2) ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ج.1، (د.ط)، مكتبة المنار، تونس، (د.ت.ن)، ص.458.

\*الحندوس: سكة نقدية من النحاس، حاكها المستنصر تقليداً لفلوس المشرق، وسميت بذلك أي السوداء.

(3) جميلة ميطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص، المرجع السابق، ص.34.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.303.

\*سد ولكيش: بطن من بطون كتامة البربرية، وكانوا يسكنون ما بين قسنطينة وبجاية في البسائط، وكانت لهم بطون عديدة وقطنوا في الخيام وكانت رئاسة القبيلة في أولاد سواق وهم فتنان أو بطنان أولاد ملاوة ابن سواق؛ وأولاد يوسف بن حمد بن سواق.



سنة 674 للهجرة أرسل المستنصر جيشاً آخر وعقد لأبي الحسين بن ياسين عليه؛ كما أمر صاحب بجاية بإنفاذ جيش آخر، وحاصرت هذه الجيوش الجزائر؛ وفتحتها عنوة ودانت لطاعة الحفصيين»<sup>(1)</sup>.

لقد شاع في أرجاء العالم الإسلامي قوة ودهاء المستنصر الحفصي، حتى وصلته بيعة من مكة في تونس عام 657 للهجرة، والذي نبأه بهذا الخبر وحمل البشارة كان أبا محمد بن برطلة الاشيلي<sup>(2)</sup>. وقد وصل الدف إلى جميع أرجاء تونس الحفصية وعزم جميع الناس، كما أنه وضع مقرئاً كان يسمى قاضي الجامعة أبو القاسم محمد بن براء وقد قرأها في جامع الزيتونة<sup>(3)</sup>. أشاد بهذا اليوم المسعود أحد الشعراء قائلاً:

|                                           |   |                                                         |
|-------------------------------------------|---|---------------------------------------------------------|
| «أَهْنَأُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِيَعَةٍ | ✽ | جَاءَتْكَ بِالْإِقْبَالِ وَالْإِسْعَادِ                 |
| فَلَقَدْ حَبَاكَ بِمَكَّةَ رَبُّ الْوَرَى | ✽ | فَأَتَى بِشِيرٍ بَافْتِاحِ بِلَادِ                      |
| وَإِذَا أَتَتْ أُمُّ الْقُرَى مُنْقَادَةً | ✽ | فَمِنْ الْمَبْرَةِ طَاعَةُ الْأَوْلَادِ» <sup>(4)</sup> |

ولّت حياة المستنصر الحفصي بوفاته عندما كان في صيد على فرسه فسقط منه؛ وتوفي عام 675 للهجرة؛ وكان عمره خمسون سنة، وقد كانت مدة اعتلائه للعرش ثمان وعشرون سنة<sup>(5)</sup>. «ب وفاة السلطان المستنصر انتهى العصر الذهبي الأول للدولة الحفصية، وبدأ عصر الاضطرابات والتفكك في أنحائها، وكان ذلك بسبب السياسة التي اتبعها أبو زكريا الأول مؤسس الدولة الحفصية؛ التي تتمثل في جعل ولاية العهد قاصرة على أبناء السلطان فقط؛ وهذا الأمر جعل الصراع يشتد بين أبناء البيت الحفصي؛ وقد لاحظنا كيف غضب أبو إسحاق من أخيه المستنصر

(1) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.341.

(2) ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، المصدر السابق، ص.120.

(3) ينظر: محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، تذييل واستدراك ابن المؤلف علي النيفر، ج.1، ط.1، دار الغرب الاسلامي، (د.ب.ن)، 1996، ص.248.

(4) الضياف، اتخاف أهل الزمان، تح لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، ج.1، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1963، ص.204.

(5) المصدر نفسه، ص.207.

ورحل إلى الأندلس، وبقي هناك ينتظر الفرصة حتى يعود إلى إفريقية؛ وكان ذلك بداية الصراع في البيت الحفصي؛ فبعد موت المستنصر خلفه ابنه يحيى الواثق الذي بوع في الليلة التي مات فيها والده<sup>(1)</sup>.

لم يكن ابن المستنصر - يحيى الواثق - كفؤاً لهذا المنصب أو بالأحرى عدم درايته بالأمر السياسي، فلهذا كان يسعى إلى إرضاء شعبه واستمالته إليه فقد رفع المظالم وأطلق السجناء، وألح المساجد؛ إلا أنه كان ضعيف الشخصية تتحكم به أيادٍ أخرى وتتلاعب بمنصبه كانوا الأندلسيين الذين شهدوا مرتبة رفيعة في وقته؛ فسعى وزيره سعيد بن أبي الحسين السيطرة على الواثق إلا أن منافسه يحيى بن عبد الملك الغافقي المسمى بابن الحبير استطاع أن يقلب الدفة إلى جهته، بتشويش أفكار الواثق وتحريضه ضد أبي الحسين، وكان له ذلك فقد قبض عليه يحيى الواثق وصادر أمواله التي بلغت ستمائة ألف دينار ثم قام بتعذيبه بأبشع الطرق وفي الأخير قتله، وهكذا أصبح ابن الحبير المسيطر على شؤون الحكم؛ فقد قام بإهانة الموحدين كما أنه جعل على أشغال بجاية علع يسمى أبا علي فقد أساء معاملة الناس ونهب ثرواتهم<sup>(2)</sup>.

وقعت مخالفات بين العلع وبين والي الحباية محمد بن أبي هلال الهنتاتي، فقد دبر هذا الأخير مؤامرة لقتل هذا العلع وكان بالفعل، فخشى أبي الهلال الهنتاتي من بطش وغضب ابن الحبير فاستنجد بأبي إسحاق، فانتهاز هذا الأخير الفرصة السانحة التي وجد اضطراب الحالة السياسية حجة دامغة في إفريقية وقدم إلى تلمسان، وأيضاً عندما جاءته بيعة والي بجاية جهز جيشاً متيناً ودخل إلى المدينة عام 677 للهجرة؛ ثم اتجه إلى قسنطينة لاحتلالها لكنّها أبت، فعندما علم الواثق بالأمر وجماعته - الوزير ابن الحبير - بقدوم أبي إسحاق إلى بجاية جهز له جيشاً كبيراً، كان الأول بقيادة أبي حفص عم الواثق والثاني بقيادة أبي زيد بن جامع لكنهم فشلوا في التصدي له؛ فانضموا إلى صفوفه وبايعوه، فعندما علم بالأمر الواثق أعلن خلعه للولاية عام 678 للهجرة<sup>(3)</sup>.

(1) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، المرجع السابق، ص. 40.

(2) ينظر: ابن قنفذ القسيطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، المصدر السابق، ص. 135.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص. 135، ص. 136.

وفي سنة 678 للهجرة تقلّد أبي إسحاق المنصب ولقب بالأمر - المجاهد - خلفاً لأسلافه الذين كانوا يلقبون بالخليفة؛ فعند اعتلائه العرش قسّم المناصب المهمة بين الأندلسيين والموحدين فكان من نصيب الحجابة لأبي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسين؛ وأمّا الأشغال فلاّبن أبي بكر بن الحسن بن خلدون، كما عقد للفضل بن علي المزني على الزاب، ولعبد الواحد المزني على قسيطيلة؛ كما أنّه قبض على ابن الحبير وقتله؛ وسمع أنّ الواثق يريد أن يشنّ عليه حرباً؛ فأرسل أولاده الثلاثة - الفضل؛ الطاهر والطيب - لمجابهته فقاموا بقتله وكان ذلك عام 679 للهجرة.<sup>(1)</sup>

«أمّا صاحب تلمسان يغمراسن؛ فقد بقيت علاقته مع الحفصيين جيّدة وطيبة، بل أنّها وصلت إلى حدّ المصاهرة حيث تزوج ابن يغمراسن\* إبراهيم المكنى بأبي عامر بابنة أبي إسحاق في سنة 681 للهجرة».<sup>(2)</sup>

«ثم قامت ثورة قضت على ملك أبي إسحاق؛ وتولى كبر هذه الثورة رجل يدعى أحمد بن مرزوق المسيلي؛ وقد نشأ ببجاية وكان يعمل خياطاً؛ ولحق بصحراء سجلماسة واختلط مع العرب وأدعى أنّه من آل البيت، فلمّا فُضح أمره خرج إلى طرابلس، ونزل على دياب وصحب فتى يدعى نُصير مولى الواثق بن المستنصر وكان يلقب باسم البري»،<sup>(3)</sup> وقيل أنّ اسمه نوبي.<sup>(4)</sup>

«كان أبو إسحاق جهز جيشاً وجعل عليه ابنه أبي زكريا الذي نزل القيروان ومنها إلى قهودة\*، فلمّا بلغه استيلاء الدعي\* على قفصة، أنفض عساكره من حوله، فرجع إلى تونس، واستولى ابن عمارة على القيروان والمهدية وصفاقس وسوسة، وقد أخاف الناس بأفعاله، فجمع له أبو إسحاق جيشاً وخرج إلى المهدية لمقاتلة هذا الدعي ولكن جيش أبي إسحاق انفض من حوله وذلك بإيعاز من شيخ الموحدين موسى بن ياسين؛ فاضطرّ أبي إسحاق إلى الفرار إلى بجاية؛ فأجبره

(1) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.434.

(2) ابن خلدون، العبر، ج.6، المصدر السابق، ص.435.

\*يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد السلطان من بني عبد وكان من أشد سلاطين بني عبد الواد بأساً، فقد كانت له مهابة وقوة؛ ولي

الملك عام 733 للهجرة، دان له المغرب الأوسط. (تلمسان )

(3) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.436.

(4) ابن الشماخ، الأدلة البينية النورانية، مصدر سابق، ص.80.

ابنه أبو فارس صاحب بجاية على التنازل عن العرش، وكان الدعي - ابن عمارة - قد دخل تونس ونودي به ملكاً عليها؛ فجهز أبو فارس جيشاً والتقى به مع جيش ابن عمارة في سهل مرمابنة وكان قد هزم أبو فارس وقتل مع إخوته الثلاثة - عبد الواحد وخالد وعمر - وكذلك ابن أخيه محمد بن عبد الواحد ولم ينجو أي أحد غير أبو حفص»<sup>(1)</sup>.

انقسمت الدولة الحفصية في عهد أبي حفص إلى جهتين شرقية وغربية وكان ذلك كله بسبب كثرة الثورات والفتن التي ظهرت في زمانه، فعندما خرج أبو زكريا ابن أبي إسحاق الذي كان محتبباً عند بني عبد الواد؛ فعند عودته إلى إفريقية استولى على بجاية وتقلد الجزء الشرقي خاصاً به وجعل قسنطينة مركزه؛ فقد كثر الصراع والتراع مابين الطرفين خاصة بين العم وابن أخيه مما جعل الدولة الحفصية تتأثر بهذه الترهات وعرضها لعدة غزوات خاصة الغزو الصقلي؛ فقد شنوا حرباً على جزيرة جربة\* عام 683 للهجرة وقاموا بتجريدتها من جميع ثرواتها، وفي عام 686 للهجرة استولوا على الساحل وحاصروا مدينة المهدية وأيضاً أخذوا كل ممتلكاتها وعادوا إلى ديارهم بالنصر.<sup>(2)</sup>

«في ظل هذه الظروف حاصر الزيانيون مدينة بجاية عام 686 للهجرة الموافق 1287 ميلادية وجددوا بيعتهم لأبي حفص عمر بتونس»<sup>(3)</sup>.

(1) الضياف، اتحاف أهل الزمان، ج.1، مصدر سابق، ص.203.

\*تهودة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية.

\*هو أحمد بن مرزوق المشهور بالدعي، ولد بالمسيلة وتربى ببجاية، كان جامعاً لحرفة الخياطة والصناعة وقد خالط السحرة الذين نجحوا له أنه سيكون له شأن عظيم، وقد لقب بالدعي لأنه ادعى أنه الفضل بن الوائق بن المستنصر.

\*جربة: جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر، وفيها العديد من البساتين، وأهلها ينقسمون إلى قسمين: القسم الأول يسمى الوهابية ويقطنون الجهة الغربية من الجزيرة، أما القسم الثاني يعرفون باسم النكارية ويقطنون في الجهة الشرقية، وكلاً القسمين خوارج. غلاة، وكانت في كثير من المرات تتعرض الجزيرة لهجمات النصارى.

(2) ينظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مرجع سابق، ص.247، ص.248.

(3) ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.450.

«وفي سنة 694 للهجرة، توفي أبو حفص صاحب تونس، بعد أن عهد لابنه أبي محمد عبد الله بولاية العهد من بعده؛ ولكن أهل تونس رفضوا مبايعته لصغر سنه؛ فاستشار الشيخ أبي محمد المرجاني\*؛ فأشار عليه بتولية ابن الوائق محمد الملقب بأبي عصيدة\*»<sup>(1)</sup>.

وقد عزم أبي عصيدة على الحكم وذلك بإخضاع الجزء الغربي وتوحيد الدولة الحفصية، كما أنه كان مؤيداً للحصار المريني الذي ضربوه على مدينة تلمسان عام 698 للهجرة،<sup>(2)</sup> لكن الزيانيون لم يقفوا مكتوفي الأيد بل استنجدوا بصهرهم حاكم بجاية أبو زكريا الحفصي وهو الآخر لى نداءهم، وفي الأخير أعلنوا - الزيانيون - ولائهم وإخلاصهم للدولة الحفصية نهائياً لا مرجع له.<sup>(3)</sup>

عندما انفصلت الدولة الزيانية انفصلاً تاماً عن الدولة الحفصية زاد طمعها في أن تستولي على الجزء الغربي منها؛ فحاولت عدة مرات لكن باءت محاولتها بالفشل السيطرة على عدة مدن منها: قسنطينة، بجاية، والجزائر مستغلة بذلك الظروف التي كانت تعيشها الدولة الحفصية داخلياً؛ ففي عهد أبي تاشفين الزياني تمكنوا من فرض الحصار على بجاية وذلك عام 729 للهجرة، إضافة إلى ذلك دخلوا العاصمة تونس عام 730 للهجرة وذلك لأول مرة وكانت بقيادة ابن أبي عمران\*.<sup>(4)</sup>

«كان عهد أبي عصيدة عهد أمن وسلام، فقد التم شمل الدولة الحفصية بعد انقسامها فقد عقد صلحاً مع صاحب بجاية أبي البقاء خالد والذي خلف والده أبا زكريا بعد وفاته، وكانت

(1) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مرجع سابق، ص. 141.

\*المرجاني: أبو عبد الله محمد المرجاني، صاحب المدرسة المرجانية التي جعلها رباطاً لطلبة العلم؛ يعدّ مؤسس لجامع أبي محمد خارج. باب السويقة بتونس، وهو ثالث ثلاثة الذين اشتهروا بهذه النسبة، توفي عام 633هـ.

\*أبي عصيدة: سمي أو أطلق عليه هذا الاسم أنه لما قتل الوائق وأبنائه، فرت إحدى جوارية وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط. الشيخ المرجاني حتى وضعت حملها فسماه الشيخ المرجاني محمد وعق عليه عصيدة فأطلق لقب أبي عصيدة.

(2) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج. 7، مصدر سابق، ص. 292.

(3) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج. 7، مصدر سابق، ص. 122.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج. 6، مصدر سابق، ص. 487.

\*هو محمد بن أبي بكر صهر أبي يحيى زكريا اللحياني الحفصي وقد اشتهر بأبي أبي عمران، وكان يعيش في البلاط. الزياني.

شروط الصلح تنص على أن من مات منهما - أبو البقاء خالد وأبو عصيدة - قبل الآخر يصير ما بيده لقسيمة الموجود تجتمع المملكة الحفصية من جديد في سلطة واحدة؛ ولكن وحدة الحفصيين لم تستمر طويلاً؛ حيث توفي السلطان أبو عصيدة؛ فخشي أبو البقاء خالد انتفاض أهل تونس لهذا الشرط؛ فقدم إلى تونس فوجد أن أهل تونس قد بايعوا أبا بكر بن يحيى بن عبد الرحمن فحدث قتال بينهما هزم فيه جيش أبي بكر وبويع أبو البقاء سلطاناً على الحفصيين؛ ولكن ما لبث أن عاد الانقسام من جديد حيث خرج أخو أبو البقاء ويدعى أبو بكر وكان عاملاً بقسنطينة على أخيه فوجه له أبو البقاء جيشاً عسكرياً في بجاية، واتفق ذلك مع وصول أمير حفصي آخر كان قد ظهر في طرابلس وهو أبا يحيى زكريا اللحياني؛ ولما علم باضطراب أحوال إفريقية وانقسامها تقدم إلى طرابلس واستولى عليها<sup>(1)</sup>.

«بوع أبو يحيى زكريا اللحياني في سنة 711 للهجرة؛ وكان اللحياني طاعناً في السن فحاول مهادنة الأمير أبي بكر الذي استقل بقسنطينة، ولكن أبا بكر كان أمره قد استفحل حيث انضمت إليه زناتة، بل أنه في سنة 716 للهجرة، نزل على إفريقية وأخذ الجباية من هوارة وعاد إلى قسنطينة ولجأ اللحياني إلى إشراك أعراب الكعوب في سلطانه حيث أقطعهم إفريقية حيث يكونوا في مواجهة أبي بكر»<sup>(2)</sup>.

لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فقد انقلب الوضع عليه فزادت سلطة العرب، وبقيت سلطة الحفصيين حبراً على ورق، ففرّ أبا بكر وأخذ معه جميع الثروات فباع الكتب والتحف الموجودة داخل القصر، كما أنه جمع عشرين قنطاراً من الذهب، كما أنه أوهم الناس أنه يريد الخروج في جولة استطلاعية داخل البلاد، فغادر تونس عام 717 للهجرة، ثم قابس وأوكل مهمة البلاد إلى أبا الحسن بن واندوين<sup>(3)</sup>.

(1) ابن أبي الضياف، اتخاف أهل الزمان، مصدر سابق، ص. 212.

(2) مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، ط. 1، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص. 118.

(3) ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، مرجع سابق، ص. 63.

لقد استعاد السلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر مدينة تونس عام 730 للهجرة من شهر رجب<sup>(1)</sup>؛ وكما أنّه استعان بالسلطان المريني أبي سعيد لمواجهة استبداد الزيانيين فعقد الطرفان اتفاقية للقضاء عليهم.<sup>(2)</sup>

«اغتنم الحفصيون هذه الاتفاقية لشت أركان دولتهم وتقويتها لكن سرعان ما انقسمت الدولة ثانية فانحصر نفوذ الدولة في القسم الشرقي من البلاد بينما سيطر المرينيون على القسم الغربي خلال الفترة الممتدة بين سنتي 754-758 هـ الموافق 1353-1356 م؛ ثم اقتضت السيطرة المرينية على قسنطينة في سنة 761 للهجرة الموافق 1360 ميلادية، وعلى بجاية عام 765 هجرية الموافق لـ 1363 ميلادية».<sup>(3)</sup>

يعدّ أبو العباس أحمد بن المستنصر أحد الزعماء الأذكياء، ففي حلول سنة 772 للهجرة الموافق 1370 ميلادية أخذت منعطفًا جديدًا فقد استطاع توحيد الدولة الحفصية وذلك بفضل حنكته وخبرته السياسية وجهوده التي لا مثيل لها.<sup>(4)</sup>

ففي عام 792 للهجرة الموافق 1390 ميلادية شنّ الأرجوانيون حملة ضدّ مدينة المهدية وأقاموا بها مدّة شهرين، ف وقعت بين الطرفين منازعات وثورات، كان في الأخير النصر لأبو العباس.<sup>(5)</sup>

ككلّ خليفة أو سلطان عندما تتوفاه المنية يعتلي العرش من بعده ابنه، هكذا كان الحال للسلطان أبو العباس فقد خلفه من بعده ابنه أبو فارس عبد العزيز ويعدّ من أبه وألمع السلاطين

<sup>(1)</sup> ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج.1، (د.ط)، د. د. ن، الجزائر، 1980، ص.218.

<sup>(2)</sup> ينظر، ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.497، ص.498.

<sup>(3)</sup> الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ج.1، قسم الرابع، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1970، ص.1054.

<sup>(4)</sup> ينظر: الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، مصدر سابق، ص.1054.

<sup>(5)</sup> ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.579.

الحفصيين؛ وقد وصفه ابن قنفذ في كتابه الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية؛ فقال فيه: «رتب الأحوال وأعطى الأموال وأخذ بالحزم في إمارته...»<sup>(1)</sup>.

أشاد معظم المؤرخين على نزاهة وتوفيق أبو فارس في سياسته وأعماله المنشودة لها بالصلح والمساعدات الخيرية لبعض البلاد؛ كما فعل أو قدّم مساعدات مالية لمسلمي الأندلس وكذلك انشائه أساطيل متعددة تجهزها بكل ما أوتي من عتاد سواءاً كان من خيول أو رجال.<sup>(2)</sup>

تعد أطول وأضخم فترات الحكم الحفصي عندما اعتلى العرش حفيد أبو فارس وهو الأمير أبو عمر وعثمان؛ فقد امتدت فترة حكمه من سنة 839 للهجرة الموافق 1453 ميلادية إلى سنة 893 للهجرة الموافق لـ 1488 ميلادية.<sup>(3)</sup>

وكما هو الحال فعند وفاته سيطر على عرشه أو تولى منصبه ابن عمه أبو زكريا يحيى الحفصي؛ فقد شهدت الدولة الحفصية عند توليه المنصب انخراطاً ووهن في السلطة وذلك بسبب كثرة الفتن والثورات الخارجية وحشر أنوف الإسبان والبرتغال في سواحل بلاد المغرب - المغرب الأدنى -.<sup>(4)</sup>

«ظلت الدولة الحفصية مزدهرة إلى منتصف القرن السادس عشر حيث استولى عليها الأتراك العثمانيين بقيادة سنان باشا\* من انتزاع ملك الحفصيين بعد قتال مرير أسر فيه أمير تونس محمد بن الحسن، وبأسره انقرضت الدولة الحفصية بعد أن حكمت ما يقارب الثلاثة قرون ونصف».<sup>(5)</sup>

(1) ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص.189.

(2) ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، مرجع سابق، ص.116.

(3) ينظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مصدر سابق، ص.157، ص.158.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص.159.

(5) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مصدر سابق، ص.157.

\*لقد وصف معاصرو سنان باشا بأنه أنفع وأعظم وزراء وولاة آل عثمان، وأكثرهم عملاً على راحة الرعية، شديد الاهتمام بالعمران، فأنشأ الكثير من المرافق الهامة، والتي تعرف بلغة العصر الحالي باسم البنية التحتية وكان له عناية خاصة ببناء المساجد والجوامع الكبرى وكان محبا للعلماء والصالحين، خاصة الشيخ أدهم العكاري، وقد وافته المنية في شهر شعبان عام 1004 هـ.



## المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية:

الحياة كل منطقة من مناطق المغرب العربي لها حياة اجتماعية واقتصادية فما هي أهم التميزات؟

«يعدّ بلاد المغرب العربي من أجود وأصلح المناطق للفلاحة، فقد عرفت الحياة الاقتصادية في الدولة الحفصية رواجاً واسعاً فقد تمثلت موارد الدولة في أملاك السلطان الخاصة والضرائب المفروضة على الأراضي الفلاحية ومختلف المكوس\* على الصنائع ونقل البضائع وما تؤديه القبائل من ضرائب فرضت عليها»<sup>(1)</sup>.

«إلى جانب هذا النظام الجبائي شجع الحفصيون نشاط التجارة ومهاجمة السفن الصليبية في البحر كنوع من أنواع الجهاد ضدّ وجودهم البحري في المنطقة البحرية واستخلصوا منهما غنائم هائلة قدرها المؤرخ ابن أبي دينار على عهد السلطان أبي زكريا الأول - بالبيت البيت - والبيت عبارة عن ألف ألف»<sup>(2)</sup>.

«وقد اتخذوا بنو حفص عملة خاصة بهم وذلك لتسهيل مبادلاتهم ومعاملاتهم التجارية، فتمّ صك الدرهم التونسي الذي كان يضرب في دار السكة التونسية وقد جرى التعامل به في كافة بلدان افريقية خلال القرن 7 للهجرة الموافق لـ 13 ميلادية ويذكر الونشريسي أنّ الدرهم الحفصي الجديد يساوي ثلاثة من الدراهم الصغيرة المعروفة بالدراهم الجدودية ومن المعروف أنّ الحفصيين قاموا بسك أجزاء الدينار والدرهم كما سكت في عهد المستنصر عملة نحاسية تسمى الهندوس سنة 660 للهجرة الموافق 1262 ميلادية»<sup>(3)</sup>.

(1) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، مرجع سابق، ص.57.

\*المكوس: أي المكس، الضريبة يأخذها المكّاس ممّن يدخل البلد من التجار.

(2) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، مرجع سابق، ص.131.

(3) كمال أبو مصطفى، جوانب حضارية من نوازل الونشريسي، (د.ط)، شباب العاصمة، الاسكندرية، 1991، ص.80.

«وكان الموظفون في الدولة يتقاضون أربعين ديناراً في كل تفرقة؛ والتفرقة تكون أربع مرات في السنة، فلها مواعيد محددة؛ فهناك تفرقة في عيد الفطر وتفرقة في عيد الأضحى وتفرقة في ربيع الأول؛ وتفرقة أخيرة في رجب».<sup>(1)</sup>

«الملكية العقارية فإنَّ السلطان كانت له أملاك وعقارات خاصّة وتابعة له، وهذه الأملاك والعقارات غير الأملاك المخصصة للدولة، فكان الاقطاع في الدولة يوزع على كبار رجال الدولة أو للبلاط الحكومي ومنهم شيوخ الموحدين العسكريين ثم الفقهاء وبعض الشخصيات السياسية التي لا تنتمي إلى سلك الإدارة العادي، وقد قدرت مساحة الأرض التي تمنح لكل شيخ موحد بمساحة تتراوح ما بين مائتين ومائة هكتار».<sup>(2)</sup>

والفقراء كان يمنح لهم في كل سنة تفرقة تسمى المواساة، كانت تعطى لهم عند تحصيل الغلات وتوضح في مخازن الدولة.<sup>(3)</sup>

«كما يحق للسلطان الحفصي منح اقطاعات لأشخاص أجنب؛ فقد منح السلطان أبو زكرياء إثر انتصاره على الأمير يغمراسن وبعد أن أصبح هذا الأمير تابعاً له اقطاعات في إفريقية يستخلص جبايتها صالحة، وقد أصبح هذا حقاً لأسرة يغمراسن؛ فطالب به أحد أفراد هذه الأسرة بعد خمس وستين سنة في عهد السلطان أبي بكر، وقد تمّ له هذا الحق؛ كما منح السلطان الحفصي أبو بكر جراية وإقطاعاً للأمير مريني كان يأويه في بلاطه، ومنح العرب إقطاعاً يشمل جزءاً كبيراً من وادي إفريقية».<sup>(4)</sup>

<sup>(1)</sup> العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تقديم حمزة أحمد عباس، ج.3، (د.ط)، د. د. ن، أبو ظبي، الامارات، 2002، ص.73، ص.74.

<sup>(2)</sup> برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج.1، مرجع سابق، ص.190، ص.191.

<sup>(3)</sup> ينظر: العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مصدر سابق، ص.168.

<sup>(4)</sup> المصدر نفسه، ص.169.

«وكانت للدولة ضرائب تفرضها على الأسواق، وكانت هذه الضرائب تؤدي إلى نزاع بين السلطان الحفصي والقضاة الورعين فمثلاً قاضي القيروان أبو عبد الله شعيب\* عندما رفعت له شكاية من بعض القيروانيين حول المكوس المفروضة عليهم في العهد الحفصي غضب فقال: ليس في الشريعة مكس، فعندما علم السلطان بهذا الأمر فصله».<sup>(1)</sup>

«كان للضريبة أربعة أنواع منها: العشر\*؛ الحكر\*؛ الوظيفة واللزمة\*؛ وكانت العملة عند الحفصيين هي الدينار ويزن 4,72 مليغرامات، ويتجزأ إلى نصف الدينار، وربع الدينار، وثمان الدينار، وأيضاً الدرهم فكانت الدراهم الحفصية مربعة الشكل وأحياناً تكون مستطيلة ويزن الدرهم غراماً واحداً».<sup>(2)</sup>

«يعدّ الحفصيون هم الأوائل من أصلح المكايل؛ فكانت لهم موازين معينة، مثل الأوعية التي يبلغ وزنها 31,48 غراماً، وتتجزأ إلى الرطل الذي يستخدم في وزن المواد الغذائية، والقنطار الذي يساوي مائة رطل، ويستعمل المثلقال البالغ وزنه 4,72 غراماً لوزن الذهب وكانوا يستخدمونه للمواد الجافة، ووزن القفير\* الذي جعلوه موافقاً للوسق الشرعي أي 175,92 لتر».<sup>(3)</sup>

(1) الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص. 191.

\*أبو عبد الله شعيب: إمام وفقه ومتصوف، عالماً بالمذهب المالكي أصله من المغرب، رحل إلى المشرق، وعند عودته اشتغل بالتدريس في تونس، كما أنه عرض عليه القضاء فأبى، وبعد قرار تولى قضاء ثم عزل، كانت إقامته ببجاية إلى أن وافته المنية.

(2) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ج. 1، ط. 2، مكتبة المنار، تونس، (د.ت.ن)، ص. 457.

\*العشر: ضريبة شرعية تفرض على المزروعات وعلى جميع أنواع الأراضي المنتجة زراعياً وتقدر بحسب المحاصيل، وكذلك على الأنعام والمعادن النفيسة.

\*الجزء: يعرف بالجزء فهو ضريبة على الأرض الموات التي صيرتها اليد العاملة صالحة للإنتاج. بعد الإهمال وتحل هذه الضريبة إلى بيت المال لتكون في صالح العامة.

الوظيفة واللزمة: فهي عسيرة التحديد.

\*القفير: مكيال كان يكال به قديماً، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جراماً.

(3) برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج. 2، مرجع سابق، ص. 260.

كما استخدموا لوزن السوائل كالزيت وغيره وحدة تسمى في المطر وكانت تساوي 20,96 لتراً، كما استخدموا الجرة التي تساوي ثلاثة أمطار\*، كما استعملوا اللمكايل القبضة والحفنة.<sup>(1)</sup>

ففي زمن السلطان أبي عثمان 739-893 للهجرة قام بتجديد ضرب الدرهم الفضة وقد سماه الناصري جمع نواصر، كما استمرت النقود الحفصية على جودتها ودقتها وجمال مظهرها طوال فترة العصر الحفصي إلى آخر عهد فيه شهد الاضمحلال وصارت كتابته رديئة لا يرى خطه كما أنه كان يصعب قراءته.<sup>(2)</sup>

«فقد قام الاقتصاد القيرواني على مصدرين أساسيين هما: الزراعة والتجارة»<sup>(3)</sup>، وكذلك الصناعة وقد بلغ كل منها شأن بعيداً، حتى إن الباب الواحد من أبواب صيرة\* كان يدخله كل يوم 26 ألف درهم، وكثرت الصناعات ورُبِّيت حتى خُصَّت كل صناعة بسوق، وبلغ تجار القيروان أقاصي المعمورة؛ وخاصة بعد فتح صقلية.<sup>(4)</sup>

«فقد نشطت الحركة التجارية فنتج عنها كثرة المنشآت العمرانية، وفي مقدمتها المساجد، وقد قارب عددها بالقيروان ثلاثمائة مسجد».<sup>(5)</sup>

اهتم الحفصيون بالجانب الزراعي وأعطوه رعاية لاسيما أن لحاضرة القيروان كان بها بعض مشاكل الري، وقد توصلوا إلى بعض الحلول منها استخدام المأجل\* وحجز مياه الأمطار بواسطة السدود وكما استخدموا طريقة الفيضانات المسيرة لسقي مزارعهم.<sup>(6)</sup>

(1) ينظر: برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، المرجع السابق، ص. 261.

\*ثلاثة أمطار: أي بمعنى خمسين لتر.

(2) ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية، ج. 1، مرجع سابق، ص. 465.

(3) محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص. 58.

\*صيرة: تسمى أيضاً المنصورة مدينة على بعد نصف ميل من القيروان يسكنها ملوك القيروان.

(4) الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص. 117.

(5) المرجع نفسه، ص. 118.

(6) ينظر: برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج. 2، مرجع سابق، ص. 217.

\*المأجل جمع مأجل وهو الصهريج المزود بماء المطر.

«كما أشار ابن ناجي إلى أن المحاصيل الزراعية في سهول القيروان تروي عن طريق الريّ - الدلو - كما استخدموا إلى جانب الدلو بعض الأدوات الأخرى».<sup>(1)</sup>

تتمثل أهم المزروعات في هذه الحاضرة في القمح والشعير فيعتبران أهم المنتوجات فمثلا مدينة أوربس اشتهرت بإنتاج القمح بكثرة، حتى أن الأعراب كانوا يأتونها ملء جيوبهم بالقمح.<sup>(2)</sup> عندما زار الادريسي حاضرة القيروان في القرن السادس الهجري ذكر أنّها أغنى وأرقى مدينة مليئة بالقمح.<sup>(3)</sup>

يبيّن ليون الإفريقي إنتاج أو محصول باجة السنوي من القمح بأضخم المحاصيل وأكثرها فقد قدّر بأكثر من عشرين ألف ستية\*.<sup>(4)</sup>

كما ينتج بها عدّة نباتات منها: الليمون والخوخ، المشمش، البرقوق، الكرّز، التفاح، السفرجل، الأجاص، الحمص والفاصوليا، الخس، العدس، اللفت، القرع، الجزر والثوم، كما يكثر فيها النباتات الطبية مثل: الكمون، الكروية والحناء، وغيرها من النباتات النافعة.<sup>(5)</sup>

وكانت في إفريقية صناعة المعادن وخاصة الحديد والرصاص، وكانت توجد صناعة الصابون وصناعة العطور، وكذلك صناعة الشمع والفضة، وصناعة البارو، وكذلك صناعة الحصير والإبر وغيرها من الصناعات ذات المنفعة والهامة.<sup>(6)</sup>

«وفي عهد الأغالبة ازدهرت الحياة الاقتصادية في إفريقية ازدهاراً كبيراً لم تشهده منذ القرن الثالث الميلادي، فقد وفر لها الأغالبة الأمن الذي افتقدته وقتاً طويلاً وفي ظل هذا الأمن توفر

<sup>(1)</sup> ابن الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، ت الدكتور محمد الأحدي أبو النور والدكتور ماضور، ج.1، (د.ط)، تونس، 1914، ص.173.

<sup>(2)</sup> ينظر: ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج.2، ط.2، دار الغرب الإسلامي، الشركة المغربية للنشر - المتحدين -، بيروت، لبنان، 1983، ص.66.

<sup>(3)</sup> ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق واختراق الآفاق، مصدر سابق، ص.115.

\*ستية: مكيال قلم يقدر بنحو خمسة أرتال.

<sup>(4)</sup> ينظر: ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ج.1، مصدر سابق، ص.66.

<sup>(5)</sup> ينظر: برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج.1، مرجع سابق، ص.231.

<sup>(6)</sup> ينظر: العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مصدر سابق، ص.170.

السكان على أعمالهم، فزادت المحاصيل الزراعية، وعمرت بالزراعات أراضي لم تكن عامرة وهي الآن تبدو منطقة شبه صحراوية، فقد عمرت المنطقة الممتدة بين قمودة والساحل بأشجار الزيتون والنخيل، كما تقدمت الصناعة وبخاصة صناعة الآلات الحديدية اللازمة للسفن، والسيوف والسروج»<sup>(1)</sup>.

«ازدهرت التجارة وبخاصة في القيروان حاضرة الأغالبة ازدهاراً عظيماً وكثرت في يد أهلها الأموال بسبب هذه التجارة، ويصف الإدريسي نمو القيروان ورخاءها بقوله: «أم الأمصار، وقاعدة الأقطار، وكانت أعظم مدن الغرب؛ وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها حالاً، وأتقنها بناء، وأنفسها همماً، وأربحها تجارة؛ وأكثرها جباية، وأنفقها سلعة، وأنماها رجاً»<sup>(2)</sup>.

«ففي عهد ابراهيم بن الأغلب (184-196هـ) فقد تراجع أو أبي عن أخذ الإعانة التي كانت تقدمها مصر لمعاونة الولاة وكان مقدار هذه المعاونة مائة ألف دينار»<sup>(3)</sup>.

لقد بلغت افريقية في ظل الأغالبة شأنًا عظيمًا من التمدن والحضارة وظهر أثر ذلك في كثرة المنشآت العمرانية كالمساجد والحصون، والقصور، والحمامات، كما أنشئ مستشفى وهو المعروف بالدمنة\* للعلاج وإيواء العجزة، وقد بلغ عدد الحصون والمحارس وقصور الرباط التي أنشئت في هذا العهد ثلاثين ألفاً، كما أمّن الأغالبة طرق القوافل التجارية وقضوا على قطاع الطرق»<sup>(4)</sup>.

(1) محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيروان، مرجع سابق، ص. 61.

(2) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج. 2، مصدر سابق، ص. 20.

(3) ينظر: الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج. 1، مرجع سابق، ص. 116.

(4) أبي بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وقضائهم وأوصافهم، تحقيق حسين مؤنس، ج. 2، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1954، ص. 66.

\*الدمنة: أول هذه المستشفيات هي الدار التي أنشئت بالقيروان في ناحية من أطرافها تسمى الدمنة تقرب من المسجد، المعروف بمسجد السبت، وإنما أطلق على هذه المستشفى اسم الموضع الذي أقيم فيه البناء فصار علماً له، فاقصر في تعريفه على كلمة الدمنة وأسقط اسم بيرستان.

فقد شهدت حاضرة القيروان ازدهاراً لا مثيل له لكن في عهد الأغالبة كان العكس فشهد اضمحلال وضعف خاصة في عهد ابراهيم بن أحمد 261 – 289، فقد اضطر هذا السلطان إلى سبك حليّ نسائه، فقام الناس بالثوران عليه وقد سميت هذه الثورة بثورة الدراهم.<sup>(1)</sup>

فعندما جاء العبريون زادوا الطين بلة وأخذوا أموال الناس بالغصب وقدموها إلى أتباعهم كاليهود والنصارى وصرفوها في المجون والخمور والملاهي.<sup>(2)</sup>

وأما في عهد بني زيري فقد أخذت الحياة الاقتصادية تستعيد حيويتها وازدهارها شيئاً فشيئاً، وخاصة بعد مجاعة عام 395 للهجرة التي خلت بسببها المساجد ومات فيها كثير من العلماء والصلحاء.<sup>(3)</sup>

لقد تنوعت محاصيل القيروان ونمت وازدهر النشاط الاقتصادي بها بعد تعمير الحفصيين فيها؛ فكانت بها ثروة مائية لهذا اتسم منتوجها الزراعي بالوفرة والخصبة لهذا وصفها المؤرخون والقدامى - خصوبتها - كابن حوقل\* والبكري\* والإدريسي\* بأنها مناطق عامرة ذات إنتاج غزير وخصب ووفير.<sup>(4)</sup>

«اعتمدت الصناعة على المواد المنتجة في البلاد اعتماداً كبيراً واقتصروا على استيراد المواد الكمالية من الخارج وتمثلت الصناعات الأولية في طحن الحبوب واستخراج الزيت».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط.3، دار العربية للكتاب، بيروت، 1983، ص119.

(2) ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، المصدر السابق، ص.120.

(3) ابن الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، ج.3، مصدر سابق، ص.127.

(4) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، ج.1، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، دمشق، 1957، ص.49.

\*محمد بن علي بن حوقل النصيبي ( 367 هـ ... / 977 م )، البغدادي، الموصلي ( أبو القاسم ) رحالة، جغرافي، كان تاجراً وقد رحل إلى بغداد، من آثاره: المسالك والممالك.

\*شمس الدين بن أبي السرور بن محمد بن علي بن عبد الرحمن البكري، الصديقي، الشافعي، مؤرخ.

\*عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس بن الحسن الاسترابادي، ويعرف بالإدريسي، حافظ، محدث، مؤرخ، رحل في طلب العلم، قدم بغداد وسكن سمرقند وتوفي بهذه المدينة، من آثاره: تاريخ سمرقند، تاريخ استراباد، تراجم اشيوخ على الأبواب.

(5) برنشفيلك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج.2، مرجع سابق، ص.221.

وكان خشب الزيتون يصنع منه الفحم وكان لكثرتة حطباً للتدفئة به.<sup>(1)</sup>  
لقد أمر المستنصر بتأسيس مصانع للنسيج وخاصة الأقمشة الحريرية، كما اشتهرت سوسة بأقمشتها الكتانية وجرية بالقماش الإفريقي الذي كان يترد به ملوك الحفصيين ذوي الشأن والمقام.<sup>(2)</sup>

يقول ليون في وصف القماش المصنوع في هذه الحاضرة: « يصنعون فيها كمية عظيمة من القماش البالغ حد الإتقان؛ يباع في إفريقيا كلها بأثمان باهظة، لأنه رفيع ومتين، والنساء يُتقن الغزل غاية الإتقان، فيجلسن في مكان مرتفع ويرخين الغزل كثيراً إلى أسفل، يقعدن مثلاً في نافذة ويتركن المغزل يتزل إلى ساحة الدار أو يتزل من ثقب السقف بين طابق وآخر؛ فيتكون الحيط بواسطة ثقل المغزل ويأتي جيد الانبساط والفتل منتظم الغلظ». <sup>(3)</sup>

كما كانت صناعة الجلود فيتم دبغه ثم نقشه وفي الأخير زخرفته وكانت غالية الثمن<sup>(4)</sup>؛ كما كان يتم ترتيبها وتعديلها وهيئتها لبيعها في أسواق السراجين؛ وكذلك أسواق الخرازين؛ وكانت صناعة الجلود والصباغة ذات النوعية الجيدة والنباتية تقام في مكان خارج المدينة تفادياً للروائح الكريهة والمزعجة.<sup>(5)</sup>

«كانت في إفريقية صناعة المعادن وخاصة الحديد والرصاص المتوفر في مدينة عنابة والأوريس وقرب بجاية وكذلك صناعة الملح الذي اشتهرت به مدينة تفرقة».<sup>(6)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ج.2، مصدر سابق، ص.87.

<sup>(2)</sup> ينظر: محمد المهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الأزهار والذبول من القرن السابع الهجري إلى ختم القرن الثالث عشر، (د.ط)، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، (د.ت.ن)، ص.171.

<sup>(3)</sup> ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ج.2، مصدر سابق، ص.74.

<sup>(4)</sup> ينظر: أحمد عامر، الدولة الحفصية، صفحات خالدة من تاريخها المجيد، (د.ط)، دار الكتب الشرقية، تونس، (د.ت.ن)، ص.96.

<sup>(5)</sup> ينظر: عبد العزيز الدولاقي، مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاقي، (د.ط)، دار سداس للنشر، تونس، 1981، ص.70.

<sup>(6)</sup> الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصدر سابق، ص.99.



كما نظمت وعدلت الدولة الصناعات تنظيمًا وتعديلاً جيّداً ومحكماً فجعلت لكلّ صناعة مكان خاص بها وأسواق خاصّة بالصناعات وكان لكلّ صناعة رئيس وحاكم يتولى الحلّ بين التزاعات التي تقع بين الصنّاع وزبائنهم وكان يسمى هذا الرئيس بالأمين، كما أنّ الصناعات النفيسة تقام عند الجوامع.<sup>(1)</sup>

شهدت التجارة ازدهاراً ملحوظاً، فوجدت العديد من الأسواق فكان منها سوق الشماعين\* وسوق العطارين\* الذي وصل عدده إلى سبعمائة دكان وكذلك سوق القماشين\* وسوق النحاسين\* ويوجد سوق أيضاً آخر يسمى سوق الكتبيين\* كما وجد سوق خاص بالسلطان الحفصي سمي بالسلطان الحفصي سمي سوق الربع؛ وقد لوحظ سوق في قلب المدينة كان يلقب بسوق المعرض - العبيد - كما هناك عدّة أسواق متعددة الخدمات منها سوق الجزارين واللبانيين وسوق السمك وحتى أسواق خاصة بالحيوانات.<sup>(2)</sup>

لقد وجدت الأسواق التجارية على صنفين أو نوعين كأسواق السمك والخبازين وسوق الكتبيين يعني الذين ذكرناهم آنفاً، والنوع الثاني وهي الأسواق الأسبوعية على سبيل المثال كسوق الجمعة.<sup>(3)</sup>

«فقد ساعد نظام الإدارة الجمركية على تشجيع التجارة فكانت الحبوب تعفى من الضرائب حتى يتم تمويل البلاد منها؛ ومنحت للتجار الأجانب حقوق التصدير للبضائع معفاة من

<sup>(1)</sup> ينظر: عبد الله الترجمان الميورقي، تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، ت. عمر وفيق الداعوق، ط. 1، دار البشائر الإسلامية للطباعة، بيروت، 1988، ص. 88.

<sup>(2)</sup> ينظر: أحمد عامر، الدولة الحفصية، مرجع سابق، ص. 97.

\* كان في العهد الحفصي يسمى سوق الشماعين، لكن قديماً كان يلقب بسوق البلاغجية.

\* سوق العطارين: أنشأها الأمير أبو زكرياء الأول في القرن السابع الهجري.

\* سوق القماشين: أنشأها الأمير أبي عمرو عثمان في القرن التاسع الهجري.

\* سوق النحاسين: كانت موجودة في بداية الدولة الحفصية في القرن السابع الهجري.

\* سوق الكتبيين: كان موجوداً في بداية الدولة الحفصية.

<sup>(3)</sup> ينظر: التجاني، الرحلة، تقلد حسن حسني عبد الوهاب، (د. ط)، م 1، تونس، 1957، ص. 135.

الضرائب، فانتعش اقتصاد البلاد حتى أنه قدر دخل هذه الإدارة الجمركية على العهد الحفصي بدخل سنوي لا يقل عن 170.000 ألف دينار».<sup>(1)</sup>

«كانت التجارة على نوعين داخلية وخارجية، فالتجارة الداخلية التي تتم في بعض الأحيان بين المدن الإفريقية مثل القمح الذي تستورده تونس من مواطن تكاثره في عناية أو الأربس، أو باجة، والفواكه التي تستوردها صفاقس من مدينة قابس، وتمور الجنوب التي تصدر إلى الوسط والشمال مقابل الحبوب التي يوفرها التل والواحات وكذلك التبادل التجاري بين تفرت وقسنطينة وبين الجريد والقيروان».<sup>(2)</sup>

«أما التجارة الخارجية فقد ساعد موقعها الاستراتيجي وكذلك كونها همزة وصل بين المشرق والمغرب على إقامة علاقات اقتصادية مع كثير من الدول المجاورة وكان اعتمادها في تجارتها الخارجية على ثلاثة طرق اثنان منها بري والآخر بحري».<sup>(3)</sup>

«لقد أولت الدولة العلاقات التجارية بالخارج عناية خاصة لذلك قامت بإبرام عدّة معاهدات مع الدول نذكر منها: مصر التي كانت تصدر ما لا تحتاج إليه وتستورد ما تحتاج إليه واشتهر التجار المغاربة في الأسواق المصرية».<sup>(4)</sup>

«أما عن علاقاتها الاقتصادية ببني مرين فقد كانت تتأثر بالأوضاع السياسية بين المرينيين وبني عبد الواد فهذه العلاقات كانت تنشط في الفترات التي يسود فيها السلم بين عبد الواد والمرينيين أو في الفترات التي يحتل فيها المرينيون المغرب الأوسط حتى يصبح الطريق مأموناً أمام القوافل التجارية المتجهة إلى الحج ومصر والمشرق العربي حيث لعبت هذه القوافل دور رئيسي في النشاط الاقتصادي».<sup>(5)</sup>

(1) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، مرجع سابق، ص.174.

(2) الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصدر سابق، ص.121.

(3) عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، مرجع سابق، ص.73.

(4) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج.5، ط.1، مكتبة مدبولي، (د.ب.ن)، 1994، ص.95.

(5) محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط.2، دار العلم، الكويت، 1987، ص.242.

فمن بين الطرق التي كان تتم فيها التجارة الطريق الأول البري أي شمال جنوبي ربط إفريقيا بالسودان، وكانت المتاجرة مع السودان بواسطة القوافل الذي يقتنون الذهب من هذا البلد عن طريق المقايضة.<sup>(1)</sup>

«أما الطريق الثاني فهو البري برية شرقية غربية تصل إفريقيا بأقطار المشرق من جهة المغرب والأندلس من جهة أخرى، فكانت إفريقيا تستغل هذا الطريق في فرض ضرائب على دخول السلع عند الحدود وخلال مرورها ببعض المدن الإفريقية وتنشط التجارة عن هذا الطرائق في موسم الحج، وكانت مصر استورد من إفريقيا الأسماك وخاصة من مدينة صفاقس، وتستورد الزعفران من جبال غريان، والزبيب والقماش من جربة».<sup>(2)</sup>

«وقد ارتبطت بالإنتاج الزراعي صناعة متطورة ومتقنة وجيدة الصنع هي صناعة الزرابي والبسط والثياب الصوفية والقطنية والحريية، وكانت تونس والقيروان والمنصورية وبلاد الجريد وصفاقس وسوسة والمهدية من أهم الحواضر الإفريقية في هذه الصناعة التي اشتهرت شهرة عالمية ولا زالت إلى الآن حتى غدا الطابع القيرواني على الزربية دليل على الجودة والإتقان».<sup>(3)</sup>

«كما شاعت في القيروان صناعة الخزف المطلي والأبيض واتخذت منه أواني الماء شديدة البياض؛ وبجانب هذه الصناعات كانت توجد صناعة السكريات وصناعة الصابون الذي وجد بالقيروان منذ العهد الفاطمي؛ كما كانت توجد صناعة الورق التي انتشرت في القيروان في آخر أيام الأغالبة وكانت هذه الصناعات منتشرة حتى عند النساء اللواتي يصنعن مدخر الكائد السنوي لأزواجهن الكتاب».<sup>(4)</sup>

«كما كان للقيروان علاقات تجارية ببلاد السودان الغربي - مالي - وما يجاورها من البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد مما ساعد على وجود الذهب المجلوب من تلك الأصقاع إلى القيروان

(1) ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصدر سابق، ص. 121.

(2) عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، مرجع سابق، ص. 73.

(3) محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص. 59.

(4) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج. 2، (د. ط)، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص. 409.

واستطاع تجار القيروان أن ينتقلوا إلى ديار الملتمين وبلاد السودان حيث كانت القوافل تجلب الذهب والعبيد من الجنوب»<sup>(1)</sup>.

كما ذكر البكري أن: « تجارة الزيت كانت رائجة منذ القدم مع الروم ثم توسع في تصديره إلى مصر وصقلية»<sup>(2)</sup>.

إضافة إلى الطريق البري كان يوجد طريق بحري، فعقدت الدول الغربية علاقات مع إفريقية وخاصة المدن الإيطالية كبيزه، البندقية وجنوة على إقامة علاقات اقتصادية معها للأخذ من نفائسها الثمينة.<sup>(3)</sup>

«ففي عهد السلطان أبو زكريا الأول توجه مبعوث إلى تلك الحاضرة، وأبرمت البندقية معاهدة عام 1231 للهجرة، وبيزة 1234 للهجرة، وجنوة 1236 للهجرة، وتحدد من خلال هذه الاتفاقيات مبادئ تعاطي التجارة واستقرار النصارى في إفريقية وتمتعهم بالحرية الكاملة في ممارسة شعائهم؛ وبلغ مدة صلاحية الاتفاقية مع البندقية وبيزة 34 سنة وكان فيها بند يحذر على الجنوبيين تعاطي التجارة والإقامة في غير المراكز المحددة لهم، وعدم تشجيع القرصنة ومعاقبة ومطاردة مواطنيهم الذين يلحقون الضرر بالأفارقة، وذلك بالاشتراك مع المسلمين في البحر، ويتحصلوا مقابل ذلك على حق توريد القمح من إفريقية بدون رسوم خلال سنوات الجذب بشرط أن لا يفوق سعر القفيز في البلد الأصلي ثلاثة دنانير ونصف، وتبلغ الكمية المرخص بتصديرها حمولة خمس سفن؛ بينما تكون الحمولة التي تصدرها البندقية ثمان سفن إلى اثنتا عشرة»<sup>(4)</sup>.

(1) حسن حسني عبد الوهاب، ورققات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ج.5، (د.ط)، مكتبة المنار، تونس (د.ت.ن)، ص.435.  
(2) أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والمرخص. الممالك، (د.ط)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1857، ص.32.  
(3) ينظر: برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، مرجع سابق، ص.57.  
(4) شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية ( تونس، الجزائر، المغرب الأقصى ) من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، ج.2، (د.ط)، الدار التونسية للنشر والتوزيع، الجزائر، تونس، 1398، 1978، ص.195.

«واستمرت العلاقات الاقتصادية في عهد الخليفة المستنصر الحفصي بل وشهدت ازدهاراً كبيراً بعد توقيع اتفاقية الصلح بعد فشل الحملة الصليبية، فالتزم المستنصر الحفصي بموجبها على دفع غرامة مالية لفرنسا، ودفع الضريبة المفروضة من فديريك الثاني ملك صقلية السابق إلى شارل دا نحو الملك الجديد وتضمنت كذلك المصالح التجارية بين الدول المعنية وعدم الاعتداء على الأراضي التابعة للمستنصر الحفصي حاضراً أو مستقبلاً»<sup>(1)</sup>.

«وقد ساعد على رقي التجارة وبلوغها الدرجة من الازدهار الاتصال المباشر بين الأفارقة والتجار الأجانب بالعاصمة حيث تمكنوا من تنظيم شؤونهم التجارية وتعلموا طرق المعاملات في جو من الثقة المتبادلة بالإضافة إلى وجود شركات منظمة لتبديل العملة وتسعيها ومؤسسات للقروض»<sup>(2)</sup>.

وخلاصة القول أنّ القيروان كانت كعبة للقصاد والسائحين؛ كما علا شأن الاقتصاد القيرواني خاصة في المجالات التي ذكرناها: التجارة، الزراعة والصناعة وهذا بفضل موقعها الاستراتيجي ومكانتها؛ وإقامة علاقات اقتصادية مع الدول المجاورة والقيروان من الأمصار الإسلامية التي يطيب فيها العيش.

(1) برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج.1، مرجع سابق، ص.73.

(2) أحمد عامر، الدولة الحفصية، مرجع سابق، ص.100.

## المبحث الرابع: الحياة الاجتماعية:

اتسمت القيروان بأزهى الحضائر بسبب الهجرات المتوجهة إليها ومن هذا المنطلق نستشف أهم عوامل نبوغها.

«بدأت الحياة الاجتماعية في القيروان منذ تأسيسها وجعلها موطنًا لجند المسلمين وأسرههم فكانت تتسم بطابع الجندية في بداية أمرها كمقر لجند المسلمين تتوجه منه الحملات لتوطيد السيادة الإسلامية وكمنازة هداية لنشر التعاليم الإسلامية السامية التي تدعو إلى إقامة مجتمع ناهض قوي الصلة بالله تعالى تسود بين أفرادها الحرية والمساواة والتعاون».<sup>(1)</sup>

فعندما أسس المسلمون مدينة القيروان عام 50 للهجرة على يد عقبة بن نافع سكنها أولاً العرب ومن أسلم من البربر؛ ثم توافدت إليها أجناس متعددة عبر القرون؛ ويفسر هذا القول ما قاله المؤرخ اليعقوبي حين زار القيروان في آخر القرن الثالث حيث قال: « وفي مدينة القيروان أخلاط بين قريش ومن سائر بطون العرب، من مضر وربيعة وقطعان وبها أصناف من عجن البلاد كالبربر والروم؛ وما أشبه ذلك».<sup>(2)</sup>

عدت القيروان من أزهى عواصم العالم العربي في القرن السادس للهجرة إلى جانب دمشق والكوفة وبغداد وقرطبة؛ فقد كانت الحياة الاجتماعية فيها على غاية من النشاط واتساع العمران؛ فانتشر بين أرجاء سكانها حياة الدعة والرخاء والبذخ فعلى حسب قول الأستاذ عبد الوهاب أن الأبلية فيها كانت تتخللها البساتين وأن ما يقرب من ثلاثين ضاحية كانت تمتد حولها، وقد لمعت أسماء بعض الضواحي كاسم ضاحية جلولا، المنصورية؛ الحصر، بني تميم، ورقادة.<sup>(3)</sup>

(1) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص.170.

(2) محي الدين سليمان إمام مديلي، ابن أبي زيد القيرواني عقيدته وموقفه من الفرق ومقاومته للبدع، مرجع سابق، ص.32، ص.33.

(3) ينظر: أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص.24، ص.25.

«كانت أنواع الملاهي وأسباب الارتزاق التجاري كثيرة متعددة كتعدد معاهد العلم وأماكن العبادة ولهذا كثر رواد المدينة والوافدون إليها من أنحاء المشرق والمغرب والأندلس على السواء وكانوا يفتدون للتجارة أو للهو أو طلباً للعلم»<sup>(1)</sup>.

فقد ضمّ المجتمع القيرواني مجموعة من الأجناس المختلفة نحددها كالتالي:

- «العرب: وهم الذين جاءوا أولاً مع عقبة، ثم من جاء بعد ذلك مع حسان بن النعمان وغيرهم من القادة ثم من جاء من بعدهم؛ وجاءت بعدهم وفود كثيرة وكثيفة حتى آخر القرن الثاني؛ وهم الذين قاموا بالتدريس، والتعليم ونشر الدعوة الإسلامية في ربوع القيروان؛ وكانت إدارة البلاد بأيديهم»<sup>(2)</sup>.

- «البربر: وقد كثرت انتفاضاتهم وارتدادهم عن الإسلام في أوّل الأمر؛ ثم أقبلوا على الإسلام والعلم؛ وحسن تديّنهم؛ غير أنّ سوء معاملة بعض العمال لهم شجّعهم على الانتفاض من جديد؛ وكان هذا من أهم عوامل تقبّلهم للنحل الخارجية؛ خاصّة في أطراف إفريقية؛ ممّا تسبب في شلّ الحركة العلميّة فترة من الزمن؛ وقد شاع في إفريقية التصاهر بين العرب والبربر؛ وأدى إلى التمازج وتقوية الروابط الاجتماعية بين العنصرين وكان ذلك من أهم أسباب استقرار الإسلام لدى البربر؛ وانتشار لغته بينهم؛ وسرعان ما شارك البربر المسلمون إخوانهم العرب في طلب العلم؛ وزاحموهم بالمناكب في حلقات الدرس؛ حتى نبغ كثير منهم، فأصبحوا معلمين وساهموا في نشر الثقافة الإسلامية في إفريقية»<sup>(3)</sup>.

(1) أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص.25.

(2) الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج.1، مرجع سابق، ص.111.

(3) المرجع نفسه، ص.112، ص.113.

—«الفئات الأخرى: وهم الصقالبة\*؛ والسودان\*؛ وعجم الروم؛ وقد كان أكثرهم من الرقيق أو الجنود، ولم تكن لهم دور بارز وهادف في إثراء الحياة العلمية».<sup>(1)</sup>

كما كانت البلدان التالية: سجلماسة\* وأودغست\* وبلاد السودان لها علاقات وأدوار اجتماعية متينة مع سكان المغرب العربي؛ كما وُجد العنصر الأسود في الشمال الإفريقي وهذا دليل على قوة الترابط والتكافل الاجتماعي بينه وبين المناطق الإفريقية الأخرى.<sup>(2)</sup>

استوطن في حاضرة القيروان وضواحيها مجموعة من القبائل العربية المندجة في وسطها منها: التميميون، الأنصار، الأوس والخزرج؛ يضاف إليها الأزد القيسيون، تنوخ، بنو جرير والكنديون.<sup>(3)</sup>

—اليهود والنصارى: «لقد وجدت الديانتان قبل الفتح الإسلامي، ولكن لم يكثر انتشارها بين البربر؛ وقد عاش أتباع الديانتين في ظل الإسلام في أمان تام؛ حيث تمكن النصارى من بناء كنيسة لهم في القيروان؛ وكانت لهم صلة بالسلطان، وخاصة العبيديين ومن بعدهم، وقد وقعت مناظرات بينهم وبين المسلمين».<sup>(4)</sup>

(1) الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج.1، مرجع سابق، ص.113.

\*الصقالبة: جيل حمر الألوان صهب الشعور يتأخون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم، وقيل للرجل الأحمر، صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة؛ كما قيل بلاد بين بُلغار وقسطنطينية وينسب إليهم الخزم والصقالبة واحدهم صقلي، وقد قال ابن الكلبي من أبناء يافث بن نوح — عليه السلام — يونان والصقلب والعبدرو برجان وجرزان وفارس والروم فيما بين هؤلاء والمغرب.

\*السودان في اللغة: عن جمع الجمع لكلمة أسود، ودلالاتها السياسية تطلق على الأرض التي تقع في جنوب مصر وتتضمن القطاع الأعظم من حوض النيل الأوسط.

\*سجلماسة: بكسر أوله وثانيه؛ وسكون اللام، وبعد الألف سين مهملة؛ مدينة في الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى بمنطقة تافيلات، تقع أطلالها حول موقع ريسافي على بُعد ثلاثة عشر ميلاً جنوب مدينة ايرفودا وقد اعتقد ليون الإفريقي أن مدينة سجلماسة من بناء الإسكندر أو أحد القادة الرومان لكن علمياً — لدى الدارسين — أنها من بناء المسلمين.

\*أودغست: بالفتح ثم السكون، وفتح الذال المعجمة، والغين المعجمة؛ وسكون السين المهملة، فقد قال ابن حوقل، دون لمطة من بلاد المغرب تامدلت، وعلى جنوبها أودغست مدينة، وعلى سَمَتها في نقطة المغرب وبين سجلماسة إلى أودغست مسيرة شهرين... وهي مدينة لطيفة أشبه ببني مكة لأتباعها بين جبلين.

(2) ينظر: محي الدين سليمان إمام مدبلي، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص.48.

(3) ينظر: محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص.168.

(4) الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج.1، مرجع سابق، ص.113.



دخل القيروان أحد كبار النصارى فوقعت بينه وبين أبو محمد بن التَّبَّان (371 -) مناظرة فأقحمه هذا الأخير، حيث قال له: « أنتم تعتقدون ثلاثة ؟ قال: نعم. فقال له: أخبرني: الواحد مفتقر إلى الاثنين أو مستغن عنهما؟ ف ضرب النّصراني على وجهه وأطرف وعليه كآبة الانقطاع»<sup>(1)</sup>.

كانت نسبة اليهود كبيرة؛ فقد كان لهم حيّ خاص بهم في القيروان لسكانهم يسمى اليهودية، ولهم مقابر وأسواق خاصّة بهم؛ وكانوا مقرّين لبني عُبيد وغيرهم من الملوك؛ كما أكثر أطباء الحكّام منهم في بلاطهم؛ وتصرفوا في التجارة وبرزوا فيها.<sup>(2)</sup>

«وكانوا يتدارسون أمور دينهم؛ ومنهم من يرع فيها حتى كانت الأسئلة ترد عليه من يهود الأندلس ومصر والعراق؛ ومن القيروان يتم تحديد مواقيت مواسم اليهود الدينية، ولهم اتصالات ومراسلات مع يهود بقية الأمصار؛ كما أقبل اليهود على دراسة الطب والفلك ونحوها؛ ولهم في ذلك مصنّفات؛ وقد اشترط الفقهاء على أهل الذّمة صبغ العمامة لتمييزهم عن المسلمين، وقد حاولوا في إحدى الفترات إفساد المجتمع القيرواني بتوسيع الملاهي وإدخال الربا في المعاملات»<sup>(3)</sup>.

ففي هذا الباب تشدّد معهم عبد الله بن طالب القاضي (217 - 275) وجعل على أكتافهم: « رفاعاً بيضاء في كل رقعة صورة قرد وخنزير، وعلى أبواب دورهم ألواحاً مسّمة مصور فيها قردة، وضيق على أهل القيروان في ملاهيهم وملاعبهم وقطع المنكر والملاهي من القيروان»<sup>(4)</sup>.

(1) الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، ج.3، ط.1، مكتبة الخانجي، مصر، المكتبة العتيقة، تونس، 1388، ص.90.

(2) ينظر: الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج.1، مرجع سابق، ص.114.

(3) الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، المرجع السابق، ص.114.

(4) أبي بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج.1، مصدر سابق، ص.476.

«تعددت الأجناس وتنوعت الفئات الاجتماعية في مجتمع الحفصيين وقدر المؤرخ ابن الشماخ عدد منازل هذه الفئات في تونس عام 763 للهجرة بسبعة آلاف منزل\*»<sup>(1)</sup>

«كما ذكر برنشفيك أن عدد السكان في عهد السلطان عثمان آخر عظماء بني حفص قد بلغ ثمان مائة ألف نسمة»<sup>(2)</sup>.

ومن الملاحظ أن مدينة القيروان كانت تستقطب عدّة جاليات من مدنٍ مختلفة وأعراق وأجناس متعددة، وذلك بسبب موقعها الاستراتيجي؛ فمثلاً الموحدون بحدّ ذاتهم غرباء عن إفريقية، وفي الحين أن لديهم حيّ خاص بهم؛ كما تتألف مجموعة القبائل الموحدية والحفصية من مصمودة وهنتاتة؛ وأيضاً القبائل التي ساندتهم في حروبهم كهرغة وهزرجة؛ وتينملل وغيرهم من القبائل؛ ومعظمها كانت تقطن في وسط البلاد، والمناطق الشمالية من تلك البلاد.<sup>(3)</sup>

أمّا القبائل البربرية فكانت منتشرة في جهاتٍ شتى من إفريقية، فقبيلة زواوة\* كانت تقطن في المرتفعات التابعة لمنطقة القبائل الكبرى؛ كما كان يطلق عليها المنطقة الواقعة غرب بجاية أو في منحدرات جبال جرجرة أو المنتشرة شرقاً في المنطقة الغابية من جبل الزاب.<sup>(4)</sup>

وكان يوجد سكان آيت جناد الذين كانوا يقيمون في السلسلة الجبلية الممتدة شمال وادي سباوا.<sup>(5)</sup>

وفي واد السمّام كانت هناك أعداد كبيرة من قبائل صنهاجة البربرية، وفي منطقة القبائل الصغرى؛ وخاصة في جبال البابور كانت قبائل تسمى لواتة.<sup>(6)</sup>

(1) ابن الشماخ، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر محمد المعموري، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص.105.

\*ففي سنة 922 للهجرة عدّها أحد المؤرخين - عدد المنازل - بعشرة آلاف منزل.

(2) روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج.1، مرجع سابق، ص.388.

(3) المرجع نفسه، ج.2، ص.155.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.261.

\*زواوة: قبيلة بربرية من كتامة، تعدّ أكبر قبائل كتامة ولهم عدّة بطن وهم شعوب كثر، وهم من ولد سمكن بن يحيى بن ضري بن زحيك بن مادغيس.

(5) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.261، ص.262.

(6) ينظر: المصدر نفسه، ص.308.

كما قدر ليون الإفريقي عدد سكان مدينة جيجل بستمائة أسرة<sup>(1)</sup> وقد وصفها الإدريسي بأنهم سكان يمتازون بالغلطة والشراسة وينسبون إلى بني زلداوي أو بين زنداي.<sup>(2)</sup>

«وفي سطيف وميلة كانت قبائل كتامة منتشرة إضافة إلى إقليم قسنطينة الداخلي وفي سهل تاغرت وفرجوة كانت قبائل سد ويكش البربرية التي اندمجت مع العرب وفي سلسلة جبال الحضنة أقامت قبائل بربرية مختلفة مثل قبائل العجسية وريفة الموجودة أيضاً في تقرت إلى جانب قبائل زناتة، وفي سهل عنابة كانت قبائل ولهاصة البربرية، وفي جبل أوراس قبيلة بربرية تعرف بالشاوية وهم قوم جمعوا بين حياة الترحال والاستقرار وكانوا خليطاً من لواتة وكتامة وهوارة، وفي منطقة نقاوس والسهول المحيطة بها كان هناك نوعان أو فرعان من لواتة وهما بنو ريمان وبنو باديس، كما كثر صنف سكان لواتة المنحدرين من قبائل مطماطة وأولاد دمار القديمة ومنهم كذلك الورغمة في جبل دمار، أما جبل نفوسة فكانت تقطن بها قبائل مغراوة ونفوسة».<sup>(3)</sup>

«شهد القرن الثالث عشر نزوح قبائل عربية من بني هلال وبني سليم استوطنوا تونس وأضرروا سكان البربر عندما زاحموهم في مساكنهم فأدوا إلى هجرتهم إلى المدن أو التجائهم إلى المرتفعات؛ بينما سيطر هؤلاء العرب على أجزاء متفرقة من البلاد فالأثيج انفردوا بجبال أوراس الشرقية».<sup>(4)</sup>

فقد لجأ عرب الحد إلى المناطق التي تلي زاب قهودة، أما بالنسبة لأولاد ثابت ويعدون جزء من الأثيج\*؛ فنفاهم الحفصيون إلى مكان بجانب أوراس الشرقي والزيبان الشرقية، كما استخدمهم صاحب الزاب كجنود في الجيش؛ كما استقر بني دريد في تلك المنطقة فقد تولوا رئاسة هلال عند

<sup>(1)</sup> ينظر: الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 2، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، الشركة المغربية للنشر - المتحدين -، بيروت، لبنان، 1983، ص. 51، ص. 52.

<sup>(2)</sup> ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصدر سابق، ص. 97.

<sup>(3)</sup> ابن خلدون، العبر، ج. 6، مصدر سابق، ص. 264.

<sup>(4)</sup> ابن خلدون، العبر، ج. 6، المصدر السابق، ص. 22، ص. 24.

\*الأثيج: يزعمون أنهم من ولد أبي ربيعة بن فنيك بن هلال وكانوا أوفر القبائل الهلالية الداخلة إلى إفريقية وأكثرهم بطوناً منهم: كرفة، عياض، بني دريد، العاصم، لطيف.

دخولهم افريقية وكان لهم دور فعال في استقرار القبائل العربية بافريقية فكانت مواطنهم ما بين بونة وقسنطينة إلى قرية طارف مصقلة وما يحاذيها من الفقر؛ أمّا في الزاب استوطن بها بنو

الضحّاك\* بن شرف بن أثيج وبني لطيف\* بعدما تمكنوا منهم الذواودة وأخضعوهم تحت سيطرتهم.<sup>(1)</sup>

بالنسبة إلى قبائل رياح\* الهلالية فقد غير الحفصيون مكان إقامتهم فنقلهم إلى ضواحي القيروان وأيضاً إلى بلاد قسيطة.<sup>(2)</sup>

اختلط مع بني رياح الهلالية فئات من القبائل العربية واندجحت معهم كقبيلة بنو رثاب بن حجر المنتسبون إلى بني ربيعة بن عامر بن صعصعة، وبنو غشرة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وبنو شداد بن الأشجع ابن هلال بن عامر بن صعصعة المستوطنون بنواحي بونة وفرقة من بني سعد بن بكر بن هوزان المستقرون بضواحي باجة الذين كانوا يعسكون مع جند السلطان.<sup>(3)</sup>

عمل أو جهز الحفصيين قبائل تسمى الكعوب وذلك لتقضى وتحارب قبيلة المرادسيين وقد استقروا - المرادسيون - أيام الصيف بالتلول للسيطرة على نواحي قسنطينة.<sup>(4)</sup>

كما استوطنت قبيلة بنو حكيم ما بين سوسة والأجم، بينما استقرت فئات أخرى من بني سليم أمثال أولاد هورة بني عوف\* وأولاد نمي والبدارنة؛ وأولاد أحمد والحمد والمساهمة الحسين

(1) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.221.

\*الضحّاك: يعدون أحد فروع الأثيج، وهم بطون عديدة تصارع على رئاستهم أميران أبو عطية وكتب بن منيع، فقد انتصر هذا الأخير واستفرد بالرئاسة، ورحل ابن عطية إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى، وقد استقر أبناء كتب في الزاب واتخذوا المدن مكاناً لهم.

\*بنو لطيف: جزء أيضاً من الأثيج. ولهم بطون عدّة منهم اليتامي من أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف وذو مطرف وذو واي وأبي الخليل، وذو جلال بن معاصي وأولاد لقمان بن خليفة وأولاد براز بن معن بن محيا وأولاد جريد بن علوان بن لقمان.

\*قبائل رياح: يرجع أصلهم (نسبهم) إلى رياح بن أبي ربيعة بن هيك بن هلال بن عامر وهو أخو الأثيج؛ من بين بطونهم نعدد: عمر، علي، أولاد همان وعامر وسعيد ومرداس وخضر.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص.32، ص.34.

(3) ينظر: القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة لسان العرب، ط.1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1984، ص.258، ص.290.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.74، ص.75.

وغيرهم ما بين الأجم والمباركة من نواحي قابس؛ كما استوطنت بعض قبائل بني يزيد ما بين قابس ونفوسة وما بين التلال والجبال.<sup>(1)</sup>

واستقر أولاد حجر كشيوخ مرغم وذؤيب حول قابس وعلى الطريق إلى صفاقس.<sup>(2)</sup> وجدت علاقات ذو حدين منها السلبية والحسنة؛ فهذه الأخير مكنت العرب والسكان البربر من توطيدها عن طريق المصاهرة؛ فبعض سلاطين بني حفص صاهر بعض القبائل العربية.<sup>(3)</sup> كانت هناك قبائل بربرية اندمجت مع بعض العرب كقبائل ولهاصة وسديوكش وتمازجوا معهم وقلدوهم في عدة نواحي كاللغة والعادات التقليدية؛ وكانوا يعيشون في الخيام كالعرب وكانوا أيضاً يربون الإبل والبقر ويمتطون الخيول؛ كما أنهم تزوجوا منهم ولا تُميّز هذا من ذاك.<sup>(4)</sup>

كان المجتمع الحفصي يتكون من قبائل وهم على شاكلتين الرحل وشبه الرحل وهذا الأخير هو الأمر المطلق في المناطق الداخلية وقد أقاموا فيها نظاماً اجتماعياً وطرق عيش زهيدة؛ ونجم عن هذا الترف انقسام المجتمع وتفتته إلى مجموعات كلها تتمثل في القبائل المستقلة المنفردة بذاتها الخاص ونظامها.<sup>(5)</sup>

في بعض الأحيان شكّل البدو مشاكل عويصة بالنسبة للدولة وذلك أثناء الصراع العائلي على السلطة؛ وسببه كله أنّ زعيم القبيلة البدوية يتراأس وينظم إلى الفرقة المحاذية - الأمير المتنافس.<sup>(6)</sup>

(1) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.82.

\* بني عوف: بن بثة بن سليم وأشهر بطونهم مرداس وأولاد جامع ومنهم أولاد يحيى وأولاد حصن.

(2) ينظر: العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تقديم حمزة أحمد عباس، ج.3، (د.ط)، د. د. ن، أبو ظبي، الامارات، 2002، ص.73، ص.74.

(3) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.112.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص.85.

(5) ينظر: محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط.3، دار سوس، (د.ب.ن)، 1993، ص.58.

(6) ينظر: الغنيمي عبد الفتاح مقلد، موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج.5، ط.1، مكتبة مدبولي، (د.ب.ن)، 1994، ص.97.

وكان رجال تلك القبائل يملكون موارد عيشهم من قطعان وأراضي؛ فلهذا لا تجد أنّهم يشعرون بالحاجة إلى الخضوع للسلطة، وكانوا يعيشون فيما بينهم في ودٍ ووئامٍ وسلامٍ وحتى مع المدن المجاورة، لكنّها تتصادم وتتقاتل فيما بينها أثناء الصراعات.<sup>(1)</sup>

لقد انقسم المجتمع القيرواني إلى عدّة طبقات أهمّها:

— «طبقة الحكام والخواص من الولاة وكبار رجال الدولة وقادة الجيش والحرس الخاص الذي اتخذهُ الأمراء وكذلك أنصار النظام السياسي الحاكم المتمثل في التميميين — أيام الأغالبة — وفي قبيلة كتامة — أيام الفاطميين —.

— «طبقة التجار: التي كان لها دور كبير في الحياة الاجتماعية في القيروان لاسيما بعد أن اتسع التبادل التجاري وتجاوز النطاق المحلي إلى النطاق العالمي؛ وازدهرت الحياة الاقتصادية وصار للتجار علاقات تجارية مع صقلية والأندلس ومصر والروم، وأصبح في القيروان حالات من تلك البلاد تضطلع بالأعباء التجارية».<sup>(2)</sup>

«وكان للعرب دور بارز في انعاش التجارة فكانوا يسيطرون على طرق التجارة، فلا يجتازها غيرهم إلاّ بدفع خفارة أو معلوم حماية، واحتكروا تموين بعض المدن الإفريقية مقابل توزيع منتجاتهم؛ كما سيطروا على التجارة مع السودان ومصر وخاصة تجارة الملح، وكانت لهم مساهمة في النواحي الإدارية فمنهم من تولى ديوان البحر بتونس وجباية سائر أعمال تونس؛ كما أسندت وظائف القضاء والفتيا إلى علماء العرب في المناطق التي يسيطرون عليها».<sup>(3)</sup>

— «طبقة المثقفين: خاصة الفقهاء الذين كان لهم نفوذ قوي في حياة الشعب والحكام وتأثير قوي في الحياة السياسية وتوجيه الحياة الاجتماعية والبت في كثير من المشاكل التي كانت تحت في القيروان، ولم يكن المثقفون من ذوي الثراء وإنّما كانوا من الناحية الاقتصادية متوسطي الحال».<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، مرجع سابق، ص. 59.

(2) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 170.

(3) روبر بارنشفيلد، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج. 1، مرجع سابق، ص. 166.

(4) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 170، ص. 171.

«كما عرف عن الخلفاء الحفصيون اشتهارهم برعاية الأدباء وتشجيع الفنانين وتأسيس المؤسسات العلمية والدينية من جوامع ومدارس ومكتبات تُعدّد على سبيل المثال مكتبة أبي زكريا الأوّل وكانت كتبها لا تقل عن 36000 كتاب والمكتبة الفارسية والمكتبة العبدلية».<sup>(1)</sup> وكان جلّ الأمراء أصحاب دواوين وشعراء؛ كما أنّهم جعلهم لأنفسهم همّة ف البلاط بأنّهم أحضروا العديد من الأدباء والعلماء من المغرب والأندلس؛ وكانوا يقدموا لهم العطايا والجوائز؛ فتلوّن قصرهم بالكثير من الأدباء والشعراء المادحين من كلتا الدفتين - المشرق والمغرب -.<sup>(2)</sup>

ناهيك على أنّه وجدت بعض الأماكن يتردد عليها الرجال ويجمعون فيها خارج حوانيت أو دكاكين العبادة كالحلّ القريب من أبواب المدن وكذلك الأسواق الموجودة في المدن والقرى التي تكون محاذية وقرية من المساجد التي يصلي فيها الناس.<sup>(3)</sup>

ومن بين الأطعمة الأساسية التي كان يتناولها المجتمع القيرواني الخبز الأبيض الذي كان يصنع من لباب الدقيق؛ وكان يعتبر الأكل العادي لكلّ من أوتي الطاقة؛ وأمّا بالنسبة إلى عامة الناس فكان أكلهم من دقيق الشعير وكانوا يغمسونه في الزيت - السمن - وأمّا الفئة الفقيرة فكان أكلهم أيضاً من دقيق الشعير لكن دون طبخ.<sup>(4)</sup>

«وأنواع الأكل والحلويات فقد تفنن فيها الناس وما تزال مدينة القيروان إلى اليوم تحتفظ بجانب من مظاهر هذه الحضارة».<sup>(5)</sup>

«إنّ المرأة القيروانية قد نالت حظاً وافراً من العلم، فقد كانت للبنات كتابات خاصة بهنّ، لأنّ الإمام سحنون كره خلطهنّ بالغلمان؛ وكان المحدث عيسي بن مسكين قد خصّ فترة ما

(1) أحمد الطويلي، دراسات في الحضارة العربية التونسية في العهد الحفصي والحسيني، (د.ط)، دار المعارف سوسة، تونس، (د.ت.ن)، ص.12.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص.13.

(3) ينظر: روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج.2، مرجع سابق، ص.373.

(4) ينظر: مارمول كربخال، إفريقيا، تر محمد حجي محمد زبير، ج.3، (د.ط)، دار المعرفة، الرباط، 1989، ص.24.

(5) أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص.26.

بعد العصر لتدريس بناته وبنات أخيه، كما علّم سحنون ابنته خديجة حتى برعت في الحديث والفقه فكانت لها بعد ذلك حلقة لتعليم النساء»<sup>(1)</sup>.

لقد علّم أسد ابنته أسماء وقد برعت في رواية الحديث وكان هناك الكثير من نساء القيروان الذين برعن في حفظ القرآن الكريم وموطأ الإمام مالك<sup>(2)</sup>.

قال أحمد بن نصر الفقيه: « تزوجت امرأة حافظة لكتاب الله عزّ وجلّ، وحفظت الموطأ؛ ولقد توفي لها ولد أكله السبع؛ فلما بلغها ذلك توضأت وجلست تقرأ ولم تعباً بما طرأ عليها ولم تحزن»<sup>(3)</sup> كما برع البعض منهم في الأدب والشعر؛ والبعض الآخر تفنن في الخط وكما أنّهن كتبن المصاحف<sup>(4)</sup>.

بالإضافة إلى النساء بالقيروان كنّ يعتنين بأنفسهنّ وجماليات ويضعن زينة على وجوههنّ كما يفعلن نساء فاس عند الخروج للتبضع أو للتزّه<sup>(5)</sup>.

«كانت المرأة القيروانية تقوم بشؤون بيتها المنزلية فإذا ما انتهت منه قضت أوقات الفراغ في بيتها في القيام بالأعمال اليدوية كغزل الصوف والقطن والتطريز بالحرير ونسج أو حياكة ثياب الأسرة، وهي تتمتع بشخصية قوية وبالحرية خاصة في شؤون الزواج ويدل على حرية المرأة وقوة شخصيتها»<sup>(6)</sup>.

كانت المرأة القيروانية تلبس رداء قطن أو حرير حسب رتبته وتلبس فوقه غلالة تشدّها بمئزر كما تترين بالحلي المختلفة من أساور مرصعة وخلائيل منقوشة وإذا خرجت لبست الرداء وضربت على وجهها المعجز وتلبس برجليها خفّاً لطيفاً<sup>(7)</sup> كما كان المجتمع القيرواني يتناول

<sup>(1)</sup>الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص.115.

<sup>(2)</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص.116.

<sup>(3)</sup> أبي بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، ج.2، مصدر سابق، ص.186.

<sup>(4)</sup> ينظر: المصدر نفسه، ج.1، ص.476.

<sup>(5)</sup> ينظر: مارمول كرنخال، إفريقيا، ج.3، مصدر سابق، ص.26.

<sup>(6)</sup> محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص.175.

<sup>(7)</sup> محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص.177.



الكثير من اللحم فالبكري يذكر أنه في بعض أيام عاشوراء ذبح في القيروان تسعمائة رأس من البقر غير ما ذبح من أنواع الحيوانات الأخرى؛<sup>(1)</sup> كما كانت توجد أطعمة مختلفة من الحلو كالإسفنج والزلابية والكعك والغسانية\* وكذلك البسكويت المغمس بالسكر.<sup>(2)</sup>

كما عُني المجتمع القيرواني بالشؤون الصحية والنظافة، ومما يلاحظ أنه منذ العهد الفاطمي وجد الصابون بالقيروان، وهذا يدل على ثقافة ووعي المجتمع القيرواني في نظافة البدن واللباس.<sup>(3)</sup> «وقد عرف المجتمع القيرواني تكافلاً كبيراً وتضامناً بين أفرادهِ؛ فقد كان العلماء والفقهاء وصلاح الأغنياء يواسون الفقراء، ويعنون بأمراء المحتاجين، ويتفقدون أحوالهم».<sup>(4)</sup>

أمّا من الناحية العمرانية فقد اهتموا بهذا الجانب فبنوا الأسواق وأقاموا القصور والمتزهات، كما أنّهم شيدوا الحصون.<sup>(5)</sup>

كما كانت المدينة مبنية بالحجر أو الأجر والجير؛ وغير ذلك، وقد وجدت الحمامات أكثر استجماماً وراحة وهدوءاً.<sup>(6)</sup>

لقد عرف المجتمع القيرواني كثيراً من الحركة التجارية ممّا يجعله عرضةً لكثير من المخاطر لهذا وجد حراس للطرق يحفظون الأمن وينتشرون السلام ويمسكون بكلّ من يحاول العبث بالأمن أو انتهاك حرّيات أمن تلك الحاضرة، كما أنّ القيروان أنشئت لتكون مركزاً عسكرياً في الأصل؛ لكن مع مرور الأيام تحول هذا المركز العسكري إلى منتجع سكاني.<sup>(7)</sup>

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية، مصدر سابق، ص. 26.

(2) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 178.

\* الغسانية: نوع من الحلوى يصنع من السمن والعسل وكذلك الزعفران.

(3) ينظر: محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 183.

(4) محي الدين سليمان امام مديلي، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص. 51.

(5) ينظر: أحمد الطويلي، دراسات في الحضارة العربية التونسية في العهد الحفصي والحسيني، مرجع سابق، ص. 23.

(6) ينظر: مارمول كرنخال، إفريقيا، ج. 3، مصدر سابق، ص. 25.

(7) ينظر: محمد علي دبور، تاريخ المغرب الكبير، ج. 2، ط. 1، طبع دار إحياء الكتب العربية، (د.ب.ن)، 1963، ص. 113.

كان الإقبال على حضرات ومجالس العلم بالقيروان كثيفة، فقد وجد العلماء والعباد بكثرة في تلك الحاضرة، كما أنه لم يشمل على هذه الطائفة، بل خصّ حتى المزارعين أنّهم كانوا يتعلمون أمور دنياهم.<sup>(1)</sup>

«وكذلك شهد العصر الحفصي هجرة الكثير من الأندلسيين إلى المغرب وخاصة إلى تونس»<sup>(2)</sup> «فلقد ارتبطت الأندلس وبلاد المغرب بصلات تاريخية وحضارية وثيقة منذ القدم بسبب القرب الجغرافي والرحلات المتبادلة بين القطرين»<sup>(3)</sup> و«يرجع ذلك الارتباط إلى التوسع الفينيقي في سواحل شمال إفريقيا والسواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة الإيبيرية».<sup>(4)</sup> وفي العصر نجد أنّ هذا التلاحم زاد بالآلاف فعقد الترابط الحضاري بين الأندلس والمغرب وذلك بسبب وحدة اللغة والدين معاً.<sup>(5)</sup>

الهجرة الأندلسية كانت على مرحلتين: فالأولى في منتصف القرن السابع الهجري وذلك بعد سقوط بلنسية وشاطبة وجيان، وقرطبة واشبيلية؛ والثانية بعد سقوط غرناطة سنة 898 للهجرة.<sup>(6)</sup>

وقد وصف المقرئ الهجرة الأندلسية آنذاك بقوله: « فخرجت ألوف بفاس وألوف أخرى بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس».<sup>(7)</sup>

(1) ينظر: أبي بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، ج.1، مصدر سابق، ص.269.

(2) برنشفيلك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، مرجع سابق، ص.166.

(3) كمال السيد أبو مصطفى، محاضرات في تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته، (د.ط)، مركز الاسكندرية للكتاب، د.ت. ن، 2007، ص.35.

(4) ينظر: المراكشي ابن عذارى، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح صلاح الدين الهواري، ج.2، ط.1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص.38.

(5) ينظر: عبد العزيز الدولاي، مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاي، (د.ط)، دار سداس للنشر، تونس، 1981، ص.89.

(6) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت. إحسان عباس، ج.4، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1968، ص.528.

(7) ينظر: ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، تر. ذوقان قرقوط، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، د.ت.ن، ص.117.

نتج عن هذا التزاوج تلاحم ثقافي فكري - أندلسي مغربي - فقد وجد هذا الترابط حتى في العصرين الأموي والفاطمي، رغم العداء السياسي والاختلاف المذهبي، فشهدت بذلك القيروان تطوراً فكرياً بسبب تمازج الأفكار، كما قوى هذا الترابط أو الاتصال الحضاري بين المتخصصين في العهد المرابطي والموحدي.<sup>(1)</sup>

ففي العهد الموحد انتقل الكثير من مظاهر الفن الأندلسي إلى المغرب، في حين يقول ابن خلدون في هذا الباب: «وأما المغرب فقد انتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدوائهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس وانتقال العديد من أهلها إليهم طوعاً أو كرهاً... فأبقوا بها وبأمصارها من الحضارة أثراً...».<sup>(2)</sup>

كما شهد العهد المرابطي وحدة فنية ظهرت من خلال تأثر الحكام المرابطين بالحضارة الأندلسية رغم طبيعتهم الصحراوية؛ فأخذوا أبه الحلل في الملبس والمأكل، كما وجدت مجالس الطرب واللهو وسهرات للشعراء.<sup>(3)</sup>

اهتم السلاطين الحفصيون بالموسيقى؛ كما ألغى السلطان أبي فارس ضريبة مفروضة على الموسيقيين والمغنيات؛ وكان جلّ سلاطين بني حفص يستمعون داخل قصورهم إلى المغنيات البارعات.<sup>(4)</sup>

«من ملامح ومظاهر التأثير الأندلسي في العمارة الحفصية زاوية سيدي قاسم الزليجي بمدينة تونس المقامة في أواخر القرن الثامن الهجري؛ والتي اقتبست مظهرها الأندلسي الرائع من زخرفها وقبتها المبنية بالقرميد وهي ذات أصل أندلسي مغربي».<sup>(5)</sup>

(1) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص. 375.

(2) مصدر نفسه، ص. 377.

(3) ينظر: حميدي عبد المنعم محمد حسين، التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في عصر المرابطين، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية،

(د.ب.ن)، 1997، ص. 326.

(4) ينظر: الزركشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 117.

(5) روبر بارنشفيلك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى 15 م، مرجع سابق، ص. 436.

ومن المظاهر الاجتماعية في القيروان نعد: وجود العدل ومحاربة الظلم ومعاقبة كل من يرتكب الظلم في هذا الشأن؛ كما كانت المرأة حرة في اتخاذ قراراتها - الزواج -<sup>(1)</sup> كما كان يتسم العمران الحفصي بأنماط مختلفة من المساكن القديمة كوجود للخيام والأكواخ، وكانوا يصنعونها من الوبر والصوف، لكن دائما الطبقة الكادحة تعيش هذه العيشة؛ أمّا أصحاب المداخل الغنية فكانوا يعيشون في المساكن الجميلة والمنمقة خاصة بعد اتصال بالأندلسيين، فقد عرف عهد السلطان المستنصر هذا الطابع من التتميق والترف.<sup>(2)</sup>

لقد أضاف الحفصيون مباني أخرى كالبرج الجديد الذي شيّده السلطان أبو بكر الحفصي وقد قدر بناؤه بخمسين ألف ديناراً.<sup>(3)</sup>

«كما شيّد السلطان أبو فارس عبد العزيز قصوراً ملكية امتازت بارتفاعها المكون من عدة أدوار اصطفت على حافة طريق عريض وربطت ببعضها بدهليز يتسع لعدة أشخاص».<sup>(4)</sup>

لقد أشاد الرحالة ليون بجمال وروعة دقة المباني الحفصية فقال: «معظم الديار حسنة المظهر مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه، سقوفها مزدانة بالفسيفساء والحص المجزع بطريقة فنية عجيبة ومصبوغة بالأزورد وغيره من الألوان الرفيعة ذلك لأنّ الألواح وأخشاب البناء نادرة جداً وتبلى الحجرات بمربعات لامعة ذات لون فاتح؛ وتبلى الساحات بقطع لامعة؛ وغالب المنازل ليس بها سوى طابق أرضي ومدخلها جميع ذو باين أولهما يفضي إلى الخارج والآخر يتصل بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل ويتنافس السكان في تحميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 180.

(2) ينظر: العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، (د.ط)، د. د. ن، الرباط، 1968، ص. 40.

(3) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج. 6، مصدر سابق، ص. 631.

(4) الزركشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 137.

(5) ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ج. 2، مصدر سابق، ص. 77.

كما كان يوجد في المجتمع القيرواني الطبقة الشعبية التي تتألف من الجنود النظاميين أو المتطوعين المحترفين، وأيضاً تتكون هذه الطبقة من أصحاب الحرف اليدوية فقد كانوا يعملون في مختلف الصناعات سواءً كانت خشبية أو زجاجية أو معدنية وكان يوجد الفلاحون الذين يعملون في الأراضي التي لها أصحابها ذو نفوذٍ وجاهٍ<sup>(1)</sup>.

وصفوة القول أنّ الحياة الاجتماعية عرفت تراجيحاً ما بين التروح والهجرات المتواجدة في تلك الحقبة وبناء العصور والتنميق.

---

(1) ينظر: محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 173.

## المبحث الخامس: الحياة الثقافية:

« كانت القيروان أولى المدن التي تأسست في الإسلام، وقد ظلت طيلة قرون عديدة مركز الإشعاع الثقافي الديني»<sup>(1)</sup>، حيث مثلت مدينة القيروان مهد الحضارة والعلم، كما كانت مصدر إشعاع للحركات العلمية والأدبية والفكرية إلى جميع بلاد افريقية فكانت الحياة الثقافية بالقيروان تتضمن افادات علمية كثيرة عن رجال الفتح ومن دخلها من الصحابة والتابعين ونخبة القادة»<sup>(2)</sup>.

لقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب، فقال صاحب المعالم: « أمّا القيروان فهي البلد الأعظم والمُصَرُّ المخصوص بالشرق الأقدم، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب وقطرهم الأفخر الذي أصبح لسان الدهر عن فضله يُعَرَّب»<sup>(3)</sup>.

ووصفها المقدسي في القرن الرابع، فقال: « كانت مصرًا بهيًا عظيمًا قد جمع أضداد الفواكه والسهل والجبل؛ مع علم كثير، لا ترى أرفق من أهلها، ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة، لا شغب بينهم ولا عصية، فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان وأحج الأركان، أرقى من نيسبور، وهو أكبر من دمشق، وأجل من أصبهان... بها جامع بموضع يسمى السماط الكبير... وهو أكبر من جامع ابن طولون؛ بأعمدة من الرخام ومفروش بالرخام»<sup>(4)</sup>.

«أصبحت القيروان دار العلم بافريقية، برز فيها كبار المحدثين والفقهاء، ضربت إليها أكباد الإبل، ونافع أهلها عن مذهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب العربي»<sup>(5)</sup>.

نهضت الثقافة الإفريقية نهضة شاملة وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية الإفريقية، وساعدها على ذلك وجود أمراء حفصيين أكفاء ساهموا في هذه النهضة والقفزة العلمية، ومن أسباب هذه النهضة الثقافية نعدد مايلي:

(1) محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص.33.

(2) الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، ج.1، مصدر سابق، ص.03.

(3) المصدر نفسه، ص.13.

(4) محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص.34.

(5) محي الدين سليمان، ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص.70.

## 1- إيجاد أماكن للتعليم:

«فلقد كان التعليم يتم في الكتاتيب، ثم في المساجد ثم أخذ مساره الطبيعي في عهد السلطان أبي زكريا الأول، حيث أنشئت أول مدرسة في الشمال الإفريقي»<sup>(1)</sup>؛ وهي المدرسة الشماعية في الثلث الأول من القرن السابع الهجري وهي تقع بسوق البلاغية في زنقة الشماعين»<sup>(2)</sup>.

أمر السلطان والأمير الحفصي أبو زكرياء الثاني وهو ابن السلطان أبي إسحاق بإنشاء مدرسة تسمى المعرضية وكان ذلك عام 642 للهجرة، كما أنه جمع وأحضر عدّة كتب من كل الفنون الثقافية<sup>(3)</sup>؛ وفي زمن السلطان الحفصي محمد المنتصر أنشئت كذلك مدرسة سميت المنتصرية وذلك سنة 839 للهجرة، لكن الأعمار بيد الله فقبل انتهائه منها توفي، لكن أخوه أبو عمر وعثمان أتم إنجازها عام 841 للهجرة.<sup>(4)</sup>

المدارس كان لها دور فعّال؛ ولم تقتصر على السلاطين فحسب، بل لعبت النساء أدواراً في تفعيل التعليم، لهذا شهد العصر الحفصي مبادرة لتعليم المرأة ولهذا أنشئت المدارس لتعليمها، فقد أنشئت الأميرة عطف زوج الأمير الحفصي أبي زكرياء مدرسة تسمى التوفيقية، وكان ذلك كله بعد وفاة زوجها وفي عهدة ابنها المستنصر عام 695 للهجرة.<sup>(5)</sup>

«أنشئت الأميرة فاطمة شقيقة الأمير أبي زكرياء مدرسة في عتق الجمل على نفقتها الخاصة وأطلقت عليها اسم المدرسة العتيقة».<sup>(6)</sup>

(1) محمد لخضر حسين، دائرة المعارف الإسلامية، مادة تونس، مجلد 6، نقلها إلى اللغة العربية أحمد الشناوي، إبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، حافظ جلال، وزارة المعارف العمومية، ص.35.

(2) سليمان زيبس، حول مدينة تونس العتيقة، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، 1981، ص.29.

(3) ينظر: السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم سعد الحبيب الهيلة، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1984، ص.158.

(4) ينظر: سليمان زيبس، حول مدينة تونس، مرجع سابق، ص.29.

(5) ينظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مصدر سابق، ص.134.

(6) سليمان زيبس، حول مدينة تونس، مرجع سابق، ص.29.

كما كانت هناك عدّة مدارس أنشئت للتعليم كمدرسة المعلمة يتم فيها تعليم الفتيات وكما أنّهم يعلمهنّ تعليمًا مهنيًا ومترليًا وحتى الصناعات المختلفة الأنواع كصناعة الخياطة والغزل...<sup>(1)</sup>

وقد وجدت مجموعة من المدارس كمدرسة المرجانية التي أسسها محمد عبد الله المرجاني والمدرسة المغربية التي أنشأها الشيخ أبو عبد الله المغربي وكذلك مدرسة سيدي يحيى وقد بناها يحيى السليمانى وكلها مدارس سميت بأصحاب من بناها.<sup>(2)</sup>

كانت المدرسة العصفورية ثرية وممتلئة بكبار رجال العلم والفكر فهذه المدرسة أنشأها ابن عصفور\*؛ وكما وجدت مدرسة أخرى سميت بالمدرسة الحكيمة التي أنشأها محمد بن علي اللخمي وكان معروفًا باسم ابن الحكيم\*.<sup>(3)</sup>

«كانت المساجد في المغرب كسائر بلدان العالم الإسلامي على رأس معاهد التعليم والثقافة وقد كانت كلمة مدرس مقصورة على من يقوم بالتدريس في المرحلة العالية من التعليم سواء كان ذلك في المسجد أو في المدرسة، أمّا كلمة معلم فكانت تطلق على من يتصدى لتعليم الصبيان في المكاتب في المرحلة الأولى من التعليم، وكان الولدان يرسلون إلى المكاتب - الكتاتيب - متى بلغوا سن التميز في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم».<sup>(4)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: أحمد عامر، الدولة الحفصية، صفحات خالدة من تاريخها المجيد، (د.ط)، دار الكتب الشرقية، تونس، (د.ت.ن)، ص.88.

<sup>(2)</sup> ينظر: محمد العامري، تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الأزهار والذبول من القرن السابع الهجري إلى ختام القرن الثالث عشر،

(د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، (د.ت.ن)، ص.118.

<sup>(3)</sup> ينظر: أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.317.

\*ابن عصفور أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي ولد بمدينة اشبيلية عام 597 للهجرة، هو أديب ونحوي شهير، نزيل تونس، وافته المنية عام 669 للهجرة.

\*ابن حكيم هو محمد بن علي اللخمي، قائد جيش الأمير أبي بكر وسمي بابن حكيم لأنه كان يمارس مهنة الطب التي كان أبوه ممترسًا فيها؛ كان قائدًا حنكًا برز نجمه في احتلال أفريقية الشرقية وكذلك ولاية بجاية، ثم كان ضحية حسد للحاجب ابن تافراكين فقد دبر له مؤامرة جردته من أمواله وتركه بلا ممتلكات، توفي عام 744 للهجرة.

<sup>(4)</sup> محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب وتأثيراتها الأندلسية، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ب.ن)، 1987،



«لقد كان المؤدب يعلم الأطفال القراءة والكتابة وترتيل بعض السور التي كانوا يرددونها». (1)

تمتع الحفصيون بطابع تحضري دون غيرهم من الجيران كبني زيان وبني مرين كما أنهم استغلوا الجانب التراث الحضري الذي توارثوه عن الدولة الموحدية وخاصة ما وصلت إليه الحضارة القيروانية من تميز وثقافة. (2)

«مثلت مدينة القيروان مهد الحضارة والعلم، كما كانت مصدر إشعاع للحركات العلمية والأدبية والفكرية إلى جميع بلاد افريقية فكانت الحياة الثقافية بالقيروان تتضمن إفادات كثيرة عن رجال الفتح ومن دخلها من الصحابة والتابعين ونخبة القادة». (3)

«كما شاهد تاريخ القيروان إلتحاماً كبيراً بعين العلماء والعباد وبين العامة حتى أصبح العلماء هم القادة الحقيقيين للشعب وذلك لما عُرفوا به من التقوى والعزوف عن المناصب، والترفع عن الدنيا، والصبر على المحن، والدفاع عن المظلومين». (4)

«كان إنشاء المدارس في المشرق يخدم هدفاً سياسياً بعيداً وهدفاً تعليمياً قريباً، كذلك كان الأمر بالنسبة لإنشاء المدارس في المغرب إذ قامت مدارس موحدية في أيام عبد المؤمن بن علي هدفها تخريج موظفين حكوميين متشبعين بالمبادئ والآراء الموحدية ولخدمة ولدعم مركز الموحدين». (5)

(1) روبر بارنشفيلك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج.2، مرجع سابق، ص.375.

(2) ينظر: رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، (د.ط)، دار الهدى، وزارة الثقافة، الجزائر، (د.ت.ن)، ص.476.

(3) الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، مصدر سابق، ص.03.

(4) الحسن بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان ج.1، مرجع سابق، ص.117.

(5) نجاح القابسي، المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، مجلة المؤرخ العربي، ع 19، ص.188.

الحالة العلمية بالمغرب كانت دائماً في حالة ميلاد وتجديد، لكن نقطة الوصل التي كانت تأتيها تجيء من المشرق الذي كان حافراً لها.<sup>(1)</sup>

وكانت تنقسم المدارس إلى صنفين: مدارس ذات طابع رسمي وهذه أسست من طرف أشخاص ينتمون إلى الحكم على سبيل المثال الأمراء والسلاطين، والفئة الثانية أو المدرسة فهي الخاصة أو بصفة أخرى الحرة كالمتصوفين وقادة الجيش.<sup>(2)</sup>

«شجع أبو زكريا المدارس على تدريس الفقه المالكي الذي عمل الموحدين على طمس معالمه وأصبحت تلك قاعدة اتبعتها مدارس المغرب عامة؛ لذا قيل عن المدرسة في المغرب أنها كانت كما في المشرق مدرسة حكومية نسبية تنشر المذهب الذي ارتضته الدولة وتعد للتأهيل لكل الوظائف العامة الدينية والشرعية القضائية».<sup>(3)</sup>

«وكانت المدارس مفتوحة ليلاً ونهاراً، ولم تقتصر على إلقاء الدروس واجتماع الطلبة في حلقات حول شيوخهم بل كانت أيضاً مقر السكني للطلبة خاصة من الوافدين عليها من الخارج، وكان لها ولي مكلف بها يرى شؤونها، فقد اقترنت الرحلة بطلب العلم، وارتفاع نسبتها مرتبطاً بنشاط الحركة العلمية في حاضرتي المغرب منذ القرن 6 للهجرة الموافق لـ 12 ميلادية».<sup>(4)</sup>

«كما لقيت الحركة التعليمية اهتماماً وإقبالاً ملحوظاً لدى المدارس؛ وكان الإقبال متزايد على العلوم الإنسانية والدينية كالفلسفة والمنطق والجدل والتاريخ؛ أما العلوم الدينية فلم تلقى من العلماء والطلبة إلا اهتماماً محدوداً؛ وقد اقتضت ميول خلفاء بني حفص إلى الأدب والتاريخ والتراجم».<sup>(5)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: بناصر البعزاتي، العلم والفكر العلمي في العصر الوسيط. بالغرب الإسلامي، (د.ط)، كلية الآداب والعلوم، الرباط، 2001، ص.173.

<sup>(2)</sup> ينظر: محمد الناجي بن مامي، مدارس تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مجلة المؤرخ العربي، ع 34، ص.284.

<sup>(3)</sup> نجاح القابسي، المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص.189.

<sup>(4)</sup> علاوة عمارة، مغرب أوسطيات، دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط، (د.ط)، مكتبة إقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2013، ص.110.

<sup>(5)</sup> محمد الناجي بن مامي، مدارس تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص.285.

كان بنو حفص يولون اهتماماً كبيراً للعلم والتعليم لتلك يعدون هم الأوائل من أدخلوا نظام المدرسة في التربية والتعليم وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي.<sup>(1)</sup>

لقد مجّد المقرري الأمراء الحفصيين وأعمالهم فقال: «اللّهم إنّ الأيالة الحفصية قد أعلّيت مظاهرها نصرت معاشرها فصرت على المصالح الدينية والدنيوية مواردّها ومصادرّها ثم اصطفيت من شرف بينها الصراح ومعدن سؤددّها الوضاح مولانا الأمير الأجل المؤيد المبارك أبا عبد الله فانتضيته حساماً في يدك قائمه وارتضيته أماماً لاتلين في ذاتك صرائمه».<sup>(2)</sup>

«بالإضافة إلى المدارس التي ذكرناها سالفاً نضيف المدرسة المعرضية\* وهي من أقدم المدارس وأجلّها في العهد الحفصي بناها الأمير أبو زكريا يحيى بن سلطان أبي إسحاق إبراهيم في حدود سنة 683هـ/1284 م مكان فندق كان يسكنه أهل السرف».<sup>(3)</sup>

لقد وجدت عدّة تأثيرات مشرقية في هندسة بعض المدارس وهي الشماعية والعتيقة المتمثلة في وجود ايوائين في كل من التي ذكرناها.<sup>(4)</sup>

«فلقد عرفت دولة بني حفص بناء الكثير من المجد والأبهة فقد اجتمع في بلادها الشعراء والعلماء والوفود وقد احتوت المؤسسات التعليمية على مكتبات ضخمة كانت عاملاً مساعداً على النهوض بالمستوى الثقافي والعلمي، كما كانت هناك مكتبات ملحقة بالزوايا والمساجد والمدارس».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: شاكّر مصطفى، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ج. 2، (د.ط)، دار العلم للملايين، لبنان، 1993، ص. 1261.

(2) المقرري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (د.ط)، د. د. ن، (د.ب.ن)، (د.ت.ن)، ص. 574.

(3) خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900 – 1956، (د.ط)، دار البصائر، (د.ب.ن)، 2009، ص. 680.

\*المدرسة المعرضية: عرفت باسم آخر هو الكتبيين لموقعها بسوقهم كما حضر ابن بطوطة دروسها ومن أوائل مدرسيها نذكر: أبو عبد الله محمد بن عبد الستار.

(4) ينظر: محمد الناجي بن مامي، مدارس تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص. 225.

(5) عبد الرحمن حسين العزاوي، المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط. 1، دار الخليج، الأردن، 2014، ص. 157.

«اشتهرت قصور بعض الأمراء بالمكتبات الكبيرة التي احتوت على عدد كبير من الكتب والمخطوطات ومن هذه المكتبات ذكر لنا التاريخ مكتبة القصبة التي أسسها السلطان أبو زكريا يحي عام 627 للهجرة الموافق 1229 ميلادية».<sup>(1)</sup>

«كما خصصت بعض المكتبات في كثير من مدن المغرب وحواضره خاصة في تونس وفاس فيذكر الزركشي بوجود خزانة كتب شهيرة بجامع الزيتونة بتونس أقامها السلطان أبي فارس عبد العزيز أحمد الحفصي لما تولى الحكم سنة 796 للهجرة».<sup>(2)</sup>

«تعتبر مناهم انجازات السلطان حيث أقيمت المكتبة بالمدينة الهلالية بجامع الزيتونة واشتملت على أمهات الكتب والدواوين جلبها من القصر السلطاني وأودعها بالمكتبة».<sup>(3)</sup>

«أنشأ الأمراء المكتبات في قصورهم، ومن ذلك ما قام به السلطان الحفصي أبو زكرياء الأول الذي جمع سائر كتب مكتبة\* الصنهاجيين والأغالبة».<sup>(4)</sup>

لقد جعل المستنصر مهمة تولى الإشراف على هذه المكتبة أبي الحسن بن موسى\* بن معمر الطرابلسي.<sup>(5)</sup>

سئل هذا الخطيب - بن معمر الطرابلسي - عن سير المكتبة وأحوالها وعمّا تحتويه فقال: «أنّها كانت ثلاثين ألف سفر، وأنه الآن اختبرها، فوجدها ستة آلاف سفر».<sup>(6)</sup>

(1) عبد الرحمن حسين العزاوي، المغرب العربي في العصر الاسلامي، مرجع سابق، ص.156.

(2) كمال أبو مصطفى، جوانب حضارية من نوازل الونشريسي، (د.ط)، شباب العاصمة، الإسكندرية، 1997، ص.123.

(3) محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص.590.

(4) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب في سبعة قرون، مرجع سابق، ص.164.

\*المكتبة: جمع ألوف الكتب بما حتى بلغت في عهد السلطان أبو زكرياء 36 ألف مجلد في شتى العلوم والفنون.

(5) ينظر: الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.309.

\*ابن معمر الطرابلسي الهواري التونسي ولد بطرابلس عام 603 هو أديب، فقيه، خطيب، تولى خطة القضاء في بجاية وباجة، توفي عام 682 للهجرة بعد أن قام بسجنه رئيس الدولة أبو الحسن بن أبي مروان في بعض القضايا.

(6) محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، تذييل واستدراك ابن المؤلف علي النيفر، ج.1، ط1، دار الغرب الإسلامي، (د.ب.ن)، 1996، ص.263.

«ولاحظ العبدري أنّ الجامع الأعظم بالقيروان كان يحتوي على كتب قديمة، ومن بينها مصحف كبير الحجم يرجع تاريخه إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان»<sup>(1)</sup>.

«لقد أبدى المستنصر عناية فائقة بهذه المكتبات فكان لا يسمح بترسيم تأليف في فهرستها حتى يدرس وينقد، وقد أوكل مهمة النقد إلى الأديب الكبير حازم القرطاجيني\*؛ وقد استمرت هذه المكتبة منهالاً لرجال العلم وهواة الأدب والفنون حتى عهد أبي يحيى اللحياني سنة 711 للهجرة حتى أتى على معظم هذه الكتب فباعها حتى ينجو بالفرار»<sup>(2)</sup>.

«كان لتشجيع الأمراء الحفصيين أكبر الأثر في نشر العلم، فالأمراء الحفصيون كانوا يحبون العلم ومجالسة العلماء فأبو زكراء مؤسس الدولة كان عالماً ختم كتاب المستصفي\* على الشيخ الرعيني\* السوسي، وناظر في النحو علي ابن عصفور فكان قدوة حسنة لأبنائه»<sup>(3)</sup>.

كما جعل الحفصيون التعليم مجاًناً حتى يقبلوا الطلبة على التعلّم ولتشجيعهم، بل إنّ السلطان أبا زكريا الثاني منح الطلاب في مدرسته - المعرضية - منحةً وكانت هذه المنح عبارة عن ذهب وفضة، كما جعل لمدرستهم عشرة دنانير من الذهب وذلك في الشهر، كما أنّه من الغريب فتح نافذة في عقر داره حتى يسمع الدروس ويستفيد منها»<sup>(4)</sup>.

(1) العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، (د.ط)، د. د. ن، الرباط، 1968، ص.36.

(2) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب في سبعة قرون، مرجع سابق، ص.164.

\*حازم بن محمد بن خلف القرطاجيني هو الأنصاري الأندلسي، نزيل تونس ولد بقرطاجية عام 608 هـ نزل تونس بعد سقوط قرطاجية في يد الإسبان وهو أديب وشاعر، اشتهر بمقصودته التي بلغت ألف بيت في مدح الخليفة المستنصر توفي عام 684 هـ، من آثاره: منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

(3) ينظر: الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج.2، مصدر سابق، ص.146.

\*المستصفي في أصول الفقه "أحد مؤلفات أبو حامد بن أحمد الغزالي الشافعي المولود عام 450 هـ وله عدّة مؤلفات منها: إحياء علوم الدين، تحافت الفلاسفة، وهو حكيم متصوف، توفي عام 505 هـ.

\*السوسي هو محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي، فقيه، ولد عام 567 هـ؛ توفي عام 662 هـ وهو شيخ ابن زكرياء الأول الحفصي.

(4) ينظر: محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب في سبعة قرون، مرجع سابق، ص.118.

ومن أجل اهتمام الأمراء الحفصيين للعلماء أن السلطان أبي فارس عبد العزيز اهتم بالعلم فقد فرض ترتيب قراءة صحيح البخاري كل يوم وذلك بين الظهرين بجامع الزيتونة وقد وضع نظام قراءة الترغيب والترهيب.<sup>(1)</sup>

ذكر القيرواني في كتابه: تاريخ افريقية والمغرب بأن عقبة عند بداية تأسيسه لمدينة القيروان دار حولها وهو يدعو لها ويقول: « يارب املاها فقط، وأعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلاً لمن كفر بك، وأعزها للإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض». <sup>(2)</sup>

«كان جامع القيروان من الجوامع الكبار المتقنة المشرفة ووسطه فضاء متسع وكان المؤسس له والمقيم لقبلة الرجل الصالح عقبة بن نافع...».<sup>(3)</sup>

«ولقد اقترنت القيروان في عصورها المختلفة بسلسلة لامعة من الأسماء الكبيرة الشهيرة التي أضاءت آفاقها الأدبية والعلمية فكانت هداية روحية وإشعاعاً فكرياً لعدد من الأجيال والشعوب العربية الإسلامية».<sup>(4)</sup>

«فأصبحت القيروان عامة بالعلماء في شتى العلوم والفنون والآداب الذين نشأوا فيها والذين سعوا إلى المشرق ليغتربوا من العلوم هناك ثم قدموا بكل إلى القيروان كما امتلأت بالعلماء الوافدين إليها لنشر علمهم فيها، أو استخدمهم الحكام لنشر العلوم فيها، وبذلك صارت القيروان مركزاً علمياً أصيلاً».<sup>(5)</sup>

لقد قارب عدد المساجد بالقيروان حوالي ثلاثمائة مسجد؛ حفت به حلقات التدريس والوعظ، والجلوس للتدبر والتفكير في ملكوات الخالق.<sup>(6)</sup>

(1) ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جماعة من المحققين، ج. 2، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402، ص. 80.

(2) الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، محمد زينهم، (د.ط)، دار القرجاني، (د.ب.ن)، 1994، ص. 43.

(3) أبو عبد الله العبدري، الرحلة، علي إبراهيم كروي، سعد الدين، ط. 2، (ب.د.ن)، دمشق، 2005، ص. 160.

(4) محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص. 07.

(5) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 241.

(6) ينظر: الحسن بن محمد الشواط، مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص. 120.

«ساهمت الجوامع في إنعاش الحركة العلمية، فجامع الزيتونة كان يزخر بعدد كبير من طلبة العلم قدر عددهم بثلاثة آلاف طالب»<sup>(1)</sup>.

«ومن الملاحظ أن الإقبال على حضور مجالس العلم والذكر بالقيروان كان يشمل أغلب أفراد المجتمع ولم يكن خاصاً بفئة معينة، لهذا نجد حتى المزارعين كانوا يشاركون في ذلك»<sup>(2)</sup>. كانت في بلاد افريقية عدّة مساجد وجوامع مشهورة أثرت الحياة الفكرية وفي ظهور عدد من المفكرين والعلماء ومن أهم هذه الجوامع جامع القيروان كما اشتهرت القيروان بمسجدها الجامع الذي بناه عقبة بن نافع ويعدّ أول جامع في شمال افريقية والذي كان بناؤه عام 670 ميلادية<sup>(3)</sup>.

أمر عقبة بن نافع بتنقية الأماكن وذلك بقطع الأشجار واستعمالها في الفائدة — عملية البناء — فهربت الوحوش عندما سمعت هذا النبأ<sup>(4)</sup>.

شرع عقبة في تخطيط المسجد ثم اهتدى إلى وضع القبلة في المكان المخصص لها بعدما أتمته إشارة في المنام كيف يضع القبلة، ولقد دام بناءه خمس سنوات<sup>(5)</sup>.

«لقد كانت القيروان متأثرة بالحياة الفكرية في المشرق، خاصة بالمراكز الفكرية التي اتصلت بها سواء في مكة والمدينة أو الكوفة والبصرة وبغداد وغيرها، ولقد كانت رحلة العلماء والطلاب إلى هذه المراكز لأخذ عن علمائها في مختلف العلوم والآداب فيها وهي المظهر العلمي الواقعي لتأثير القيروان بهذه المراكز والتفاعل معها في حقل الحياة الفكرية»<sup>(6)</sup>.

(1) الدولاتي، مدينة تونس، مرجع سابق، ص. 141.

(2) الحسن بن محمد الشواط، مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص. 117.

(3) ينظر: حسان حلاق، مدن وشعوب إسلامية، (د.ط)، دار الراتب الجامعية سوفير، د.ب. ن، (د.ت.ن)، ص. 158.

(4) ينظر: سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في المغرب من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة، (د.ط)، دار النهضة العربية، لبنان،

2003، ص. 35.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص. 36.

(6) محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 449.

«كما كان للجامع القيروان دور وفضل كبير في ظهور حركة علمية في تلك الفترة فقد تميز كل عصر من عصور حضارة القيروان بعدد من الأسماء البارزة التي طبعت عصرها بطابع شخصيتها وميزته عما سواه، بما تميزت به عن المعاصرين في السياسة أو الدين أو العلم والأدب وغيرها من حقول الحياة والفكر والعلم».<sup>(1)</sup>

«تميز العهد الحفصي على العهود التي سبقته بالدرجة الرفيعة فترتب على ذلك ازدهار في عمراتها وظهور مساجد وجوامع للخطبة كجامع القصبة\* وجامع القصر وجامع الهواء\*».<sup>(2)</sup> كما وجدت جوامع أخرى مثل جامع الحلق وجامع التبانين(النفاتة) وكذلك جامع الصفصافة الذي كان يعقد فيه حلقات العلم للرجال المتصوف.<sup>(3)</sup>

يعدّ جامع الزيتونة أهم معلم حضاري موجود في افريقية، فقد كان أفسح جامع افريقية بعد جامع القيروان.<sup>(4)</sup>

«ويعتبر المعهد الثاني الذي أسهم في بناء القاعدة الثقافية في افريقية بعد جامع عقبة بن نافع فقد وضع أسسه القائد العربي حسان بن النعمان الغساني حوالي عام 80 للهجرة الموافق لـ 649 ميلادية».<sup>(5)</sup>

(1) محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص.07.

(2) خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900 – 1956، مرجع سابق، ص.695.

\*جامع القصبة أسسه السلطان الحفصي أبو زكرياء الأول عام 629 للهجرة.

\*جامع الهواء الذي بنته الأميرة عطف عام 698 للهجرة وهي زوجة السلطان أبو زكرياء الأول وأم الخليفة المستنصر وهي نصانية الأصل.

(3) ينظر: أحمد عامر، الدولة الحفصية، مرجع سابق، ص.106.

(4) محمد سويس، أنماط العمران البشري بافريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، (د.ط)، المركز الجامعي، تونس، 2001، ص.128.

(5) بشير رمضان التيسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن 2 للهجرة الموافق 10 ميلادي، (د.ط)، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2003، ص.77.



أضاف عبد الله بن الحبحاب\* عام 116 للهجرة الموافق 732 ميلادية بعض الترتيبات، ثم أعاد بناءه الأغلب عام 184 للهجرة الموافق 840 ميلادية، ثم قامت باللمسة الذهبية وطورته الأميرة عطف أرملة المستنصر وكان ذلك عام 1230 ميلادية.<sup>(1)</sup>

وفي عهد الحفصيين أخذ جامع الزيتونة منحى آخر للتعليم فقد أصبح في شكله كالجامة خلال القرن السابع للهجرة الموافق للثالث عشر ميلادي.<sup>(2)</sup>

«ومن الروايات في أصل التسمية أن الجامع يبنى في موضع كان مشجراً بالزيتونين قطعت كلها ولم تبقى إلا زيتونة في وسط ساحة الجامع فسمي بها؛ وتزعم رواية مسيحية أن الجامع شيد بالقرب من كنسية قديمة كانت تضم رفات القديسة "أوليف" يعني الزيتون فمناها جاءت التسمية».<sup>(3)</sup>

كما أن جامع الزيتونة من أقدم الجوامع بشمال افريقية بعد الجوامع الأخرى المعروفة كجامع القرويين بفاس والجامع الأزهر الشريف.<sup>(4)</sup>

«يعتبر جامع الزيتونة من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً»<sup>(5)</sup> وقد قال فيه ابن الشماخ: «وجامعها مليح الصنعة، حسن الموضع مطل على البحر، بناه عبد الله بن الحبحاب، ودار الصناعة سنة أربع عشرة ومائة».<sup>(6)</sup>

(1) ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح محمد إبراهيم الكتاني، ط.1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1985، ص.27.

\*عبد الله الحبحاب: هو مولى بن سلول وكان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً بارعاً في الفصاحة والخطابة حافظاً لأيام العرب.

(2) ينظر: حسان حلاق، مدن وشعوب إسلامية، مرجع سابق، ص.156.

(3) خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، مرجع سابق، ص.691.

(4) ينظر: محمد ابن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تر حمادي الساحلي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص.286.

(5) أبو عبد الله العبدري، الرحلة، مصدر سابق، ص.115.

(6) ابن الشماخ، الأدلة البينية في مفاخر الدولة الحفصية، تق. طاهر بن المعموري، (د.ط)، دار العربية، (د.ب.ن)، 1984، ص.32.

وجامع الزيتونة عند انشائه لم تكن له مئذنة شأنه شأن غيره من مساجد المغرب فقط مسجد أو الجامع الأعظم بالقيروان، وذلك تمثيلاً واقتداءً بمسجد المدينة المنورة الذي لم يكن مئذنة آنذاك.<sup>(1)</sup>

وقد عرف الجامع في عهد بني حفص اهتمام من الأمراء تمثلت الأشغال فيه في الزيادة من مساحة الجامع وذلك بإضافة الصحن\* من الجانب الشرقي.<sup>(2)</sup>

«وجامع الزيتونة لم يكن جامعاً فحسب بل هو جامعة أيضاً حيث تمّ التدريس فيه لمواد الأدب والتاريخ والفلسفة الدينية واللغوية، ويتبع الجامع بمكتبة\* تضم مخطوطات نادرة، حقق بعضها المحققون من العرب والمستشرقين وكانت تضم حوالي أربعين ألف مخطوط نقلت بعضها إلى معاهد العلم والجامعات منها جامعة تونس، وذلك ليتسنى للباحثين العرب والأجانب من الاطلاع عليها ودراستها».<sup>(3)</sup>

«كما أولى الأمراء الحفصيين رعاية كبيرة للعلماء حيث كان للسلطان أبي فارس عبد العزيز اهتمام كبير بالعلم حيث فرض ترتيب قراءة صحيح البخاري كل يوم بين الظهرين بجامع الزيتونة وقراءة الترتيب».<sup>(4)</sup>

«استمر التعليم بالزيتونة وتطور بتطور العصر وتطور العلوم حتى أصبح لا يقل مكانة عن جامع القرويين بفاس أو الأزهر، وهكذا كان جامع عقبة بن نافع والزيتونة من منابر العلم بافريقية ولعب دوراً مهماً في تخريج عظماء العلماء في سائر العلوم السائدة يومئذٍ وخاصة علوم اللغة والحديث».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب، مرجع سابق، ص. 78.

(2) ينظر: خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، مرجع سابق، ص. 696.

\*الصحن: حص. هذا الصحن لإقامة الصلاة على الجنازة ولذلك سمي بصحن الجنائز.

\*سميت تلك المكتبة بالعبدية نسبة إلى حفيد المستنصر أبو عبد الله محمد.

(3) حسان حلاق، مدن وشعوب إسلامية، مرجع سابق، ص. 157.

(4) جميلة مبطي السعدوي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص، مرجع سابق، ص. 209.

(5) بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب، مرجع سابق، ص. 81.

لقد كانت المدرسة الأم الثاني للطلبة فقد وفرت لهم عدّة فرص، وحتى الطلبة القادمين من الخارج حظوا بأمن في تلك المدارس وكسبوا منح، كما أنّهم سكنوا في تلك المدارس.<sup>(1)</sup>

ومن الظروف المساعدة للتعليم أو المؤسسات التعليمية نذكر ثاني نقطة وهي الزوايا:

«وهي مرحلة وسطى بين الكتاب الذي هو مدرسة ابتدائية والمدرسة التي هي معهد ثانوي، فالزاوية تشبه ما تُسميه الآن المدرسة الإعدادية».<sup>(2)</sup>

«وللزوايا أنواع منها الزاوية البسيطة ولا تنتسب لطريقة أو لمذهب وهي عبارة عن مجموعة من الأبنية لمبيت الطلبة وتعليمهم، وتتكون من الكتاب وغرفة التدريس ومكتبة وجامع، وهناك نوع آخر من الزوايا وهي أن تكون على ضريح أو تابعة لولي من أولياء الله الصالحين فتكتسب سمعة جيدة وكثر براءاتها من زوارها ونذورهم».<sup>(3)</sup>

«وخلال العهد الحفصي كان الملوك والسلاطين يهتمون بزوايا الشيوخ والصالحين والحبس عليها وتعميرها والنظر في مصالحها لدورها الهام في الحياة العلمية وكانوا يشملون أبناء هؤلاء الشيوخ بعنايتهم من ذلك وإعفائهم من الضرائب».<sup>(4)</sup>

«لعلّ أهمّ زاوية بالقيروان زاوية الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان القيسي الرماح 1349 ميلادية وزاوية أبي عبد الله محمد بن عبد الله السباتي 1384 ميلادية».<sup>(5)</sup>

«ووجد نوع آخر من الزوايا وهي الزاوية التي يتخذها بعض الرجال الذي يدعون التصوف ويمارسون خلالها نشر علومهم بين الناس ثم إذا مات المتصوف أو الولي يقبر في هذا المكان».<sup>(6)</sup>

(1) ينظر: محمد ناجي بن مامي، مدارس تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص 285.

(2) عبد العزيز محمد عادل، التربية الإسلامية في المغرب وتأثيرها الأندلسية، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ب.ن)، 1987، ص. 38.

(3) إلهام حسين دحروج، قابس من الهالين إلى الحفصيين، (د.ط)، جامعة القاهرة، (د.ب.ن)، 2000، ص. 250.

(4) كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1998، ص. 112.

(5) خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، مرجع سابق، ص. 676.

(6) الدولاتي، مدينة تونس، مرجع سابق، ص. 141.

ومن أهم الزوايا وأشهرها زاوية سيدي ابن عروس\* وزاوية سيدي الكلاعي\*، وزاوية سيدي قاسم الزليجي وكذلك زاوية الشاذليين\*، وتوجد عدّة زوايا تقوم بدور التعليم.<sup>(1)</sup>

ففي القرن التاسع أخذت طابعاً آخر وأصبحت هذه الزوايا مكاناً يأوي المسافرين وحتى الغرباء عن المدينة، وقد عدّت هذه الزوايا مقراً للعلم والتعلّم.<sup>(2)</sup>

حسب ابن الشّمع أنّ السلطان أبو فارس عبد العزيز أنشأ زاوية سجّوم\* وكانت غاية في الحسن والاتقان وعمل فيها جامعاً للخطبة ولقراءة العلم ورباط لسكن طلبة العلم وأوقف عليها حبساً بكفيها وجعل فيها سماً للمقيمين بها والواردين عليها.<sup>(3)</sup>

«إن كثر انتشار الزوايا في الدولة الحفصية تدل على انتشار التصوف بها وقد كان التصوف على نوعين تصوف متطرف وتصوف معتدل».<sup>(4)</sup>

إلى جانب المساجد والزوايا كانت هناك الربط فقد ساهمت في تفاعل الحالة الاجتماعية والدينية للمجتمع الحفصي وتعدد وجودها.

(1) ينظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مصدر سابق، ص. 156.

\*ابن عروس هو أبو العباس أحمد بن عروس من الأولياء الذين يدعون التصوف، وزاويته جوار جامع حمودة باشا بتونس، كانت له مكانة كبيرة عند السلاطين الحفصيين، حتى أنّ بعضهم أوصى أن يدفن بجوار قبر سيدي بن عروس، توفي 808 للهجرة وكان عمره آنذاك 90 عاماً.

\*الكلاعي هو محمد بن أحمد بن عبد الله الكلاعي الصوفي، له عدة مؤلفات في التصوف " تحفة الحبيب وأنس اللبيب، ونزهة العين وبلاء الغبن " وافته المنية عام 693 هـ.

\*الشاذلي هو نور الدين أبو الحسن الشاذلي ولد بالمغرب سنة 593 للهجرة الموافق 1197 ميلادية وتلمذ على الوالي الصالح عبد السلام بن مشيش واستقر بتونس وجمع بين دولة جماعة سمو بالأربعين، وبعد أشهر المتصوفين في إفريقية، عرف أتباعه بالشاذلية، ذهب لأداء فريضة الخج. فأدرّكه المنية هناك عام 656 للهجرة الموافق 1258 ميلادية، فدفن على شاطئ البحر الأحمر في قرية يقال لها حميترة وله الآن ضريح يزار ويتبارك به.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص. 146.

\*سجّوم: هو مكان السبخة المعروفة بالسيجومي الآن قرب الملاسين من ضواحي العاصمة بما ضريح أحد الأولياء المدعو حسين السيجومي، ويبدو أنّ نسبة إليه كما هو واضح من اسمه وقد خرجت من الأعراب.

(3) ابن الشّمع، الأدلة البينية النورانية، مصدر سابق، ص. 115.

(4) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات، ج. 9، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، (د. ت. ن)، ص. 165.

فالرباط: «جمعها ربط والرباط في الأصل اسم حربي للشجر الذي يربط فيه الجنود لمجاهدة العدو، ثم أطلق على الدار التي فيها المتصوفون لمجاهدة النفس وكانت الربط من جملة مواضع التعليم»<sup>(1)</sup>.

كما يطلق الربط أو الرباط على المحافظة على أوقات الصلاة وذلك دلالة على حسب الآية الكريمة بقوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} <sup>(2)</sup>.

«لم تكن إلا ربطة حديثة العهد الحفصي بل وجدت منذ عهد الأغالبة وازداد انتشارها في العهدين المراتبي والموحدي»<sup>(3)</sup>.

«وفي عهد الأغالبة قام الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ببناء جامع سوسة الذي يعتبر من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية في افريقية، ومن منشآته رباط سوسة المعروف بقصر الرباط»<sup>(4)</sup>.

«ورباط سوسة عبارة عن طابقين يخصص الأول منهما للمسجد وقاعات الدرس والاجتماع والطعام ويخصص الثاني للحراسة والعبادة وفي العادة يقوم عليه شيخ من أهل التقوى والعلاج»<sup>(5)</sup>.

«كانت الأندلس تزخر بالعديد من العلماء والأدباء في كل فنون الثقافة العربية والإسلامية وبعد سقوط العديد من مدنها وولاياتها جرت طلائع العلماء الأندلسيين إلى بلاد المغرب واستوطن الكثير منهم افريقية؛ وكانت لهم مشاركة فعالة في العلوم النقلية والعقلية والفلسفية والطبيعية»<sup>(6)</sup>.  
من أهم العلوم النقلية نذكر:

<sup>(1)</sup> أنور محمود زياتي، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، (د.ط)، جامعة عين شمس، المملكة الأردنية، 2011.

<sup>(2)</sup> سورة آل عمران، الآية 200.

<sup>(3)</sup> كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مرجع سابق، ص.113.

<sup>(4)</sup> ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، محمد زينهم، (د.ط)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1482، ص.40.

<sup>(5)</sup> المرجع نفسه، ص.42.

<sup>(6)</sup> العامري، تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص.51.

تنوعت العلوم في العصر الحفصي، وأصبحت محط أنظار علماء المسلمين في كل مكان، فتوافد عليها العلماء ينهلون من علومها، ويستفيدون من معارفها؛ وقد أعجب العبدري بتنوع العلوم فيها فقال ممتدحاً لها: «لا تنشُد بها ضالة للعلم إلاَّ وجدتها ولا تلتبس بها بُغية إلاَّ استفدتها...»<sup>(1)</sup>.

لقد عرف ابن خلدون العلوم النقلية فقال بأنّها: «العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل إلاَّ في إلحاق الفروع عن مسائلها بالأصول»<sup>(2)</sup>.

#### أ - علم القراءات والتفسير:

«لقد لقيت العلوم الدينية اهتماماً كبيراً من طرف أهل المغرب عامة ومن قبل الحفصيين خاصة، وبمجرد أن أسست القيروان كان هناك مقرؤون كثيرون يقرئون الناشئة في الكتابات وظلت قراءة الذكر الحكيم ناشطة في القيروان على مدار السنين، واشتهرت بها أسر توارثتها جيلاً بعد جيل»<sup>(3)</sup>.

«ومن كبار القراء في العهد الحفصي نذكر: أبو القاسم الليدي معاصر التجاني صاحب الرحلة وكان الطلاب يقرؤون عليه بمسجد اقرائه كتاب التسيير في القراءات السبع للدائي وأشهر القراء بعده محمد بن بدال المتوفي بمنتصف القرن الثامن الهجري وكان يدرس لطلابه قصيدة الشاطبي في القراءات، حرز الأمازي ويفسر أبياتها لهم؛ ولجمال ترتيله وحسن صوته كانت تشد إليه الرحال لسماعه وكان السامعون من حوله يرون بين خاشع وباكٍ وداع»<sup>(4)</sup>.

(1) العبدري، الرحلة المغربية، مصدر سابق، ص. 142.

(2) المقدمة، ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 435.

(3) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج. 9، مرجع سابق، ص. 189.

(4) المرجع نفسه، ص. 190.

«ومن أبرز من عرف في القراءات أبو الحسن علي ابن الغني المقرئ الفهري المعروف بالحصري كان إماماً في القراءات السبع تسعين ختمة وهو ابن عشر سنين إلى عشرين سنة، وكان له معرفة بالأدب والشعر، ثم رحل إلى الأندلس عندما خربت القيروان»<sup>(1)</sup>.

كمت وجد المقرئ أبو عثمان سعيد بن علي بن زاهر الأنصاري البلسني (- 654 هـ/ 1256 م)، عالم بالرواية وإمام في القراءات، كان يدرس بجامع بجاية إلى أن وافته المنية بها، كما هناك المقرئ أبو العباس أحمد بن محمد الصدي الشاطبي (- 674 هـ/ 1275 م) له تأليف في رسم الخط وكذلك في بيان مذهب ورش.<sup>(2)</sup>

لقد ظهر العديد من المقرئين مع نهاية العهد الحفصي مثل أبو عمرو عثمان الحفصي (- 893 هـ/ 1487 م)؛ وأبو العباس أحمد بن بكر الحفصي (- 796 هـ/ 1393 م) فبهذا الأخير كان من حزب السبع يختم فيه القرآن كل يوم جمعة.<sup>(3)</sup>

«لقد التفسير بالغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري امتداداً لما كان عليه الأمر في القرن السادس قبله، وكذلك الاعتماد على مؤلفات المغاربة مثل ابن الجوزي وابن عطية وابن العربي وابن الفرس وغيرهم، كما ظهر اعتماد تفاسير مشرقية مثل تفسير الزمخشري وتفسير الفخر الرازي والماروردي»<sup>(4)</sup>.

«ومن كبار المفسرين في أوائل عصر الدولة الحفصية نجد عبد العزيز بن محمد القرشي المعروف بابن يزية (- 662 هـ/ 1263 م) وهو من كبار الفقهاء الحفاظ وله تفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية الأندلسي وطريقة الزمخشري»<sup>(5)</sup>.

(1) الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، ج.3، مصدر سابق، ص.202.

(2) ينظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص.116.

(3) ينظر: عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، رسالة دكتوراه، ط.1، دار الغرب الاسلامي، جامعة الأزهر، 1983، ص.479.

(4) ابراهيم أحمد الوافي، التفسير وعلوم القرآن بالغرب الإسلامي من القرن 2 هـ إلى القرن 8 هـ، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1996، ص.49.

(5) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج.9، مرجع سابق، ص.191.

«وقد أطلق ابن بزية على كتابه في التفسير اسم البيان والتحصيل المطلع على علوم التزويل الجامع بين مقاصد الزمخشيرية وابن عطية في تفسيرهما المكمل بزيادات عن غيرهما؛ كما أنه يوجد منه بخزانة القرويين بفاس المجلد السادس تحت رقم 28 يتدنى من آخر سورة القصص وينتهي بنهاية سورة القتال».<sup>(1)</sup>

ومن بين المفسرين أيضاً نذكر: الحرالي أبو الحسن علي بن أحمد بن إبراهيم (638 هـ) كان عالماً ومفسراً، رحل إلى المشرق وناظر العلماء، له كتاب في قوانين التفسير ومفتاح اللباب المقفل على فهم القرآن المتزل، وله تفسير آخر للقرآن كان يورد فيه الآية وينسقها نسقاً بديعاً وكان يسلك في تفسيره سبيل التحرير، فيقف على الآية لفظة لفظة وحرفاً حرفاً».<sup>(2)</sup>

«ومن المفسرين أحمد بن محمد البسيلي الجزائري، كان مدرساً بالمدرسة الحكيمة؛ وهو أحد تلاميذ ابن عرفة له تفسير قيده عن شيخه ابن عرفة وأضاف عليه إضافات عن غيره».<sup>(3)</sup>

«أمّا علم الحديث فقد كان أمراء الدولة الحفصية ينتهجون نفس منهج الموحدين في العمل على إفشاء العناية بالعلوم الدينية وقد أسسوا لذلك الغاية عدّة مدارس؛ ولذلك عمل الحفصيون على تعميم قراءة القرآن والحديث بالمساجد ورتبوا في ذلك أوقاتاً منضبطة وأخرباً تارة يحضرها حلق كثير من عامة الناس ويتلى فيها القرآن الكريم أثناء الليل وأطراف النهار وتقرأ فيها المسانيد وتروى الأحاديث».<sup>(4)</sup>

«وعلم الحديث عند تعريفه فهو علم دراية الحديث وعلم الاسناد وهو مجموعة القواعد العامة التي يعرف بها صحيح الحديث من سقيمه ومقبوله من مردوده، وذلك بمعرفة أحوال الحديث

(1) إبراهيم الوافي، التفسير وعلوم القرآن بالغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص. 54.

(2) الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص. 143.

(3) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج. 11، (د. ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. ن، ص. 190.

(4) عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص. 478.



سنداً وامتناً، لفظاً ومعنى، وما يتبع ذلك من كيفية تحمل الحديث وكتابته وآداب رواته وطالبه». (1)

كما شهدت دراسة الحديث ازدهاراً بالغاً في العهد الحفصي، وبرز في هذا المجال فحول من العلماء الحفاظ، منهم أبو بكر سيد الناس اليعمري، فقد كان رواية حافظاً للحديث عارفاً برجاله وبأسمائهم وبتاريخ وفاتهم ومبلغ أعمارهم، وكذلك أبو عبد الله محمد بن حيان الشاطبي (635هـ/1237م)، فكان رواية مكثراً سماعاً وتقييداً». (2)

«وقد اشتهر من الرواة للحديث الفقيه الشيخ أبو عبد الله محمد المهتار وهواري للحديث في جامع القصة»؛ (3) وكذلك أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن السراج اشتهر بالزهد واستوطن بجاية وظل مواظباً على التدريس حتى توفي بها؛ ورغم التجديد في طرق التدريس للعلوم فإن أساليب إسناد الأحاديث ظلت على منهجها القديم، فكان الأسلوب التقليدي هو المتبع في عرض الرواية وتصحيح السند وتخريج الحديث ومناقشة الآراء المتعلقة بالأحاديث المتصلة بالمسائل الفقهية، فقد جرت العادة أن يقوم أحد الطلبة بقراءة متن أحد الكتب ويتولى الأستاذ شرحه حسب غزارة علمه وسعة اطلاعه والطلبة يقيدون شرح الأستاذ وأجوبته عن الأسئلة». (4)

«لقد كانت دراسة الحديث تجري على مناهج شامل ينحو منحى التوسع في المعاني والتعمق في البحث في كل ما يتعلق بالحديث المدروس من رحال ولغة وفقه وأخلاق». (5)

(1) أنور محمود الزناتي، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 28.

(2) عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص. 481.

(3) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مرجع سابق، ص. 301.

(4) نصر الدين سعيدي، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيري والوجود الأندلسي بالجزائر، مرجع سابق، ص. 109.

(5) عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص. 483.

«وقد تكاثر المحدثون في القيروان كثرة مفرطة أثناء العهد الحفصي»<sup>(1)</sup>، كما تعددت المؤلفات في الحديث، ومنها: «المستوفي في رفع أحاديث المستصفي» و«جوامع الكلم النبوية» و«وسنن القوم في آداب الليلة واليوم» جميعها للمحدث التونسي ابن عربها عثمان بن عتيق القيسي المهدي، (659 هـ)، وأيضاً، عبد المهيم بن محمد الحضرمي؛ محدث؛ ضابط له معرفة برجال الحديث وذكر أنه كانت لديه خزانة كتب نفيسة تزيد عن ثلاثة آلاف كتاب في الحديث والفقه والعربية وله في الحديث «أربعينية تساعية» يحتوي سندها على تسعة رجال»<sup>(2)</sup>.

### ❖ الفقه:

«لقد أبدى المغاربة اهتماماً كبيراً بدراسة العلوم الشرعية من قرآن وحديث وفقه منذ زمن بعيد واستمروا في ذلك إلى مشارف العصر الحديث؛ والملاحظ أن الفقه حظي بعناية فائقة خاصة في العهد الحفصي»<sup>(3)</sup>.

«وأصول الفقه هو علم يتعرف منه كيفية استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية، وموضوع علم أصول الفقه الأدلة الشرعية الكلية من حيث كيفية استنباط الأحكام الشرعية الفرعية منها، ومبادئه مأخوذة من العربية وبعض العلوم كعلم الكلام والتفسير»<sup>(4)</sup>.

«كما هناك تعريف مصطلح فقيه بأنه من ألقاب العلماء يقع على المجتهد دون المقلد إذا صار الفقه له سجية؛ أصل اللفظ منحوت من فقه بمعنى علم أو قطن، فغلب استعمالها في علم الشريعة وأصول الدين»<sup>(5)</sup>.

(1) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج.9، مرجع سابق، ص.192.

(2) المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت. دكتور حسان عباس، ج.3، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1968، ص.423.

(3) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج.9، مرجع سابق، ص.192.

(4) أنور محمود زناقي، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص.28.

(5) مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، ص.339.

«إنّ الفقه يدرس جميع المسائل التي تواجه الإنسان في حياته فيبحث في الفرائض الدينية والأحوال الشخصية والمعاملات الاجتماعية والاقتصادية، أمّا أهم أصوله فهي القرآن الكريم والسنة النبوية إضافة إلى الإجماع والقياس؛ وقد اشتهرت عدّة مذاهب في الفقه منها مذهب الإمام مالك وهو المعتمد والمشهور ببلاد المغرب الإسلامي»<sup>(1)</sup>.

«لقد أظهر الحفصيون تسامح كبير اتجاه المذهب المالكي وعلم الفروع فقد أمروا بتدريسه إلى جانب كتب التوحيد لابن تومرت، كما وجدت العلوم الإسلامية بصفة خاصة في هذه الفترة ما يربطها وينميها بثقافة أندلسية جاء بها أهلها من العدوّة المقابلة لبلاد المغرب وثقافة مشرقية جلبها رجال الفكر من المغاربة الذين شدوا رحالهم إلى بلاد الشرق وتزودوا بمعارفه»<sup>(2)</sup>.

«غير أنّ المذهب المالكي حقق الوحدة داخل المجتمع الحفصي بفضل ما قدمه رجال أمثال ابن عرفة من أعمال جليّة لإعلاء كلمة هذا المذهب وأخرجوه في شكل مبسط في متناول أكبر عدد من الناس»<sup>(3)</sup>.

«ونجد من كبار فقهاء المالكية في القرن السابع الهجري الحافظ الفقيه عبد العزيز القرشي المعروف بابن بزيّة (662 هـ)»<sup>(4)</sup>؛ وفي أواخر القرن السابع وصل من القاهرة كتاب مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي وانشغل بشرحه علماء البلدان المغربية»<sup>(5)</sup>.

«ومن بين علماء العصر الحفصي الذين اشتهروا بمؤلفاتهم الفقهية الفقيه محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد السلام المعروف بابن الطير (675 هـ) اختصر كتاب المستصفي للغزالي في أصول

<sup>(1)</sup> رضوان البارودي، دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، (د.ط)، مركز الاسكندرية للطباعة، (د.ب.ن)، 2007، ص.151.

<sup>(2)</sup> عبد العزيز فيلاي، أبرز علماء قسنطينة وأثرهم في بلاد المغرب والشرق خلال العهد الحفصي بين القرنين 7 و 10 هـ، (د.ط)، مجلة جامعة قسنطينة، دار نوميديا، 1990، ص.20.

<sup>(3)</sup> محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، مرجع سابق، ص.61.

<sup>(4)</sup> شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص.191.

<sup>(5)</sup> المرجع نفسه، ص.196.

الفقه»<sup>(1)</sup>؛ ومنهم أيضاً الفقيه القيسي الصفاقسي إبراهيم بن حمد المولود عام 697 للهجرة؛ والمتوفي 748 للهجرة؛ فله عدة مؤلفات فقهية منها تقييد على ابن الحاجب وجزء ألفه في أسماع المؤذنين خلف الإمام»<sup>(2)</sup>.

«كذلك ابن راشد القفصي (- 736 هـ) كان من أبرز الفقهاء في العصر الحفصي ترك العديد من المؤلفات في الفقه والأصول ومنها الثاقب في شرح الحاجب وهو شرح مختصر ابن الحاجب وهو في ثمانية أسفار، وله مؤلفات في الأصول منها تلخيص الحصول ونخبة الواصل في شرح الحاصل»<sup>(3)</sup>.

«كذلك الفقيه الربيعي محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام المولود سنة 639 للهجرة والمتوفي عام 710 للهجرة، رحل إلى المشرق ولي قضاء الاسكندرية؛ ثم عزل عنها له مختصرات في الفقه منها مختصر قواعد الفروق للقذافي»<sup>(4)</sup>.

### ❖ علوم اللغة العربية:

«حرص المسلمون على دراسة فنون اللغة العربية الثلاثة سواء النحو أو الأدب أو البلاغة؛ وذلك لتعلقها بعلوم الدين وتسهيلها لفهم أحكامه، ففي النحو تدارس طلاب العلم في افريقية كتاب سيبويه\* وألفية ابن مالك\* وكتاب الجمل للزجاجي\* والمفصل للزمخشري وبعض كتب ابن

(1) الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، ج.4، مصدر سابق، ص.30.

(2) ابن حجر العسقلاني، الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ت. محمد سيد عاد الحق، ج.1، (د.ط)، دار الكتب الحديثة، (د.ت.ن)، ص.57.

(3) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ت. محمد ماضور، ط.2، المكتبة العتيقة، تونس، 1989، ص.60.

(4) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج.1، (د.ط)، وكالة المعارف، اسطنبول، 1360، ص.487.  
\* سيبويه هو أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر الحاربي الملقب بسيبويه، إمام النحاة وأول من بسط علوم النحو، ولد سنة 148 للهجرة، وتوفي عام 180 للهجرة.

\* ابن مالك هو أبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك ولد عام 600 للهجرة، إمام في النحو ومن أشهر مؤلفاته كتاب الخلاصة الذي عرف بين الناس باسم الألفية حيث جمع فيه خلاصة علمي النحو والتصريف وأشار فيه إلى مذاهب العلماء وبيان ما يختاره من الآراء، وافته المنية عام 672 للهجرة.

\* الزجاجي هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي شيخ العربية في عصره، من كتبه الجمل الكبرى والزاهر، أوفي عام 337 للهجرة.

عصفور ومنها المقرب، كما وضع أدباء هذا العصر الشروحات والمختصرات على هذه الكتب تسهيلاً لطلبة العلم»<sup>(1)</sup>.

«ومن أبرز الشروحات شرح حاشية الكشف وشرح شواهد المقرب لابن القصار أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التونسي (- 790هـ)، وكذلك علي بن محمد بن علي القرشي القلصادي المولود عام 815 للهجرة، والمتوفى عام 891 للهجرة، وكان يعمل مدرساً في غرناطة ثم رحل إلى المشرق، فعاد واستقر في بجاية وله عدة مختصرات نحوية منها مختصرين في العروض وشرح ألفية مالك وشرح الجمل للزجاجي، ومنهم أيضاً أبو عبد الله بن الحسن التميمي الفلقي كان بارعاً في علوم العربية الثلاثة ولكنه كان أشد ابداعاً في النحو، فكان يسير على سنن أبي الفتح ابن جني وله كتاب في النحو سماه «الموضع في علم النحو»<sup>(2)</sup>.

«والبلاغة لم تحظى باهتمام كبير من أدباء افريقية، ويرى ابن خلدون أن السبب في ذلك أنهم يعتبرون العلوم البلاغية شيء كمالي في العلوم اللسانية»<sup>(3)</sup>.

ولم يأخذوا من علوم البلاغة إلاّ بعلم البديع وذلك لإضفاء جمال على اللفظ، فأكثروا من المحسنات البديعية من جناس وسجع ونحو ذلك، ممّا أدى إلى التكلف والمبالغة في السجع والجناس. ومن أهم ما ألف في هذا العصر كتاب «البديع والسجع الهديل في أخبار النيل ودرة التلي في عيون الأخبار ومستحسن الأشعار لأحمد بن يوسف بن حمدون القفصبي التيفاشي»<sup>(4)</sup>.

(1) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص. 123.

(2) المصدر نفسه، ص. 72.

(3) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص. 552.

(4) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت. د إحسان عباس، (د. ط)، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص. 146.

«فقد أنتجت الدولة الحفصية نتاجاً طيباً في مجال الأدب والفنون وظهر الأدباء والشعراء الذين ساهموا في إغناء وإثراء ذلك الموروث الثقافي؛ وبذلك نشطت حركة التأليف والتدوين وأبدع الكتاب والمفكرين فألقوا الكتب العديدة التي أسهمت بدورها في التقدم الفكري والازدهار الثقافي في ربوع الدولة».<sup>(1)</sup>

«فقد ظهر مع بداية عهد الدولة عدد كبير من الأدباء منهم أبو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي(- 636هـ/1239م) نشأ بتونس من أسرة أندلسية كان عارفاً بالرواية مطلعاً على علم الأدب متفوقاً في اللغة قدم بجاية ودرس بها»<sup>(2)</sup>؛ كما برز في تلك الفترة أبو العباس أحمد بن القاسم بن القصير الإشبيلي وهو المعروف بصلاته مع رجال البلاط الحفصي وبالحصول مع الوزير ابن أبي الحسين العنيسي له في المستنصر ورجال دولته المدائح الكثيرة»<sup>(3)</sup>؛ «وكذلك أبو الحجاج يوسف بن محمد الياسي(- 653هـ/1256م) وتعتبر مجموعة الحماسة أهم مجموعة أدبية».<sup>(4)</sup>

وقد ظهرت عدّة مؤلفات نثرية منها: « تحفة الدروس ونزهة النفوس والدر النظيم ونفحات السريرين في مخاطبة ابن شيرين».<sup>(5)</sup>

وتلك المؤلفات النثرية التي ذكرناها آنفاً هي لعبد الله محمد بن أحمد التجاني المولود عام 675 للهجرة وهو أديب وشاعر اعترف له أسلافه بتفوقه في كلا النوعين، كما أنّه تولى كتابة الإنشاء في عهد السلطان أبي يحيى اللحياني الحفصي.<sup>(6)</sup>

<sup>(1)</sup> عبد الرحمن حسين العزاوي، المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط.1، دار الخليج، الأردن، 2014، ص.156.

<sup>(2)</sup> نصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مرجع سابق، ص.112.

<sup>(3)</sup> محمد رزوق، دراسات في تاريخ المغرب، (د.ط)، الدار البيضاء، (د.ب.ن)، (د.ت.ن)، ص.36.

<sup>(4)</sup> شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج.9، مرجع سابق، ص.186.

<sup>(5)</sup> النيفر، عنوان الأريب، ج.1، مصدر سابق، ص.291.

<sup>(6)</sup> ينظر: المصدر نفسه، ص.291.

كما ألف محمد بن علي بن الشباط التوزي المولود بتوزر عام 618 للهجرة كما أنه تولى القضاء فيها، ووافته المنية عام 684 للهجرة، كما له شرح على قصيدة الشقراطيسية وهي ثلاثة شروحات - كبير، صغير ووسط - وله شهرة في تخميس القصيدة.<sup>(1)</sup>

«أما الشعر فإنه كان أشد نقاوة وأقرب إلى الفصاحة من لغة الثر، وقد شهد تطوراً عظيماً ويعود ذلك إلى اهتمام سلاطين بني حفص بالشعر وتربية أبنائهم على الأدب وحفظ الشعر».<sup>(2)</sup> حتى أن الأمير المؤسس أبو زكرياء كان شاعراً بل أنه كان يتولى الفصل أو الحكم على شعر الشعراء في البلاط الحفصي، كما كان الخليفة المستنصر الحفصي أيضاً مجيد للشعر ومن شعره ما ذكره المقرئ:

﴿مَالِي عَلَيْكَ سِوَى الدُّمُوعِ مُعِينٌ      \*      إِنَّ كُنْتَ تَعْدِرُ فِي الْهَوَى تَخُونُ  
مِنْ مُنْجِدِي غَيْرِ الدُّمُوعِ وَإِنَّهَا      \*      لَمُعِينَةٌ مِمَّا اسْتَعَاثَ حَزِينُ﴾.<sup>(3)</sup>

كما أنه خاطب جنده بأبيات من الشعر عندما كان يدعوهم لأخذ أرزاقهم فيقول:

﴿لِيَحْضَرَ كُلُّ لَيْثٍ ذِي مُنَالٍ      \*      زَكَ فَرَعًا لِإِسْدَاءِ النَّوَالِ  
غَدًا يَوْمَ الْخَمِيسِ فَمَا شُغْلُنَا      \*      بِأُسْدِ الْوَحْشِ عَنْ أُسْدِ الرِّجَالِ﴾.<sup>(4)</sup>

«واشتهر الأمير أبو بكر أيضاً يقول الشعر ونظمه حيث نظم حماسية في وصف معاركه مع بني عبد الواد».<sup>(5)</sup>

(1) يتظر: المصدر نفسه، ج. 1، ص. 260.

(2) محمد العامري، تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص. 121.

(3) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج. 2، مصدر سابق، ص. 323.

(4) المصدر نفسه، ص. 324.

(5) النيفر، عنوان الأريب، ج. 1، مصدر سابق، ص. 423.

لقد حرص السلاطين الحفصيين على مداعبة الأدباء وملاطفتهم، ومن ذلك أنّ الأديب الفقيه محمد بن يحيى بن الحباب\* التونسي دخل على السلطان أبي عسيده فوجده قد أكل عسيده فأنشده أبو عسيده مداعباً:

«لَقَدْ فَاتَكَ الْجَدْيُ يَا بْنَ الْحَبَابِ      ❁      بِخُبْزِ ثَمِيدٍ كَثِيرِ اللَّبَابِ  
وَلَمْ يَنْقِ مِنْهُ سِوَى عَظْمَةٍ      ❁      وَذَاكَ لِعُمْرِي طَعَامُ الْكِلَابِ»<sup>(1)</sup>

«وقد كان الشعراء يتوافدون على البلاط الحفصي من تلقاء أنفسهم أو عن طريق عقد الجلسات الأدبية والتي كثيراً ما تنعقد في البلاط الحفصي أو في بيوت الأمراء»<sup>(2)</sup>.

«وأكثر الشعراء من الشعر الديني حتى إنّ الشاعر أبوعبد الله التميمي القلعي كان في كل عام يكتب ديواناً من الشعر، وقد عاش وهو يدوّن الشعر ثلاثاً وأربعين سنة، ولقد بدأ يقول الشعر عام 630 للهجرة ووافته المنية عام 673 للهجرة»<sup>(3)</sup>.

ومن أغراض الشعر التي شهدتها العصر الحفصي فن الغزل والوصف، فالشاعر قد يصف راحلته أو مدينته، فهذا الفن كان مزدهراً عند الحفصيين<sup>(4)</sup>.

## ب/العلوم العقلية:

### ❖ علم التاريخ والجغرافيا:

«ظهر عدد من المؤرخين الذين اهتموا برواية الأخبار وتدوين الأحداث وبفضل ما قاموا بتسجيله من معلومات استطاع اللاحقون من الأجيال أن يتعرفوا على وقائع في هذه المنطقة في

(1) محمد العامري، تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص.58.

\*ابن الحباب هو محمد بن عمر المعافري التونسي الأصولي إماماً في العقلية أخذ عن ابن القاسم بن زيتون وغيره من الفقهاء، له مؤلفات منها اختصار المعالم الأصولية لفخر الدين الرازي.

(2) أحمد عامر، الدولة الحفصية، مرجع سابق، ص.67.

(3) الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.72.

(4) النيفر، عنوان الأريب، ج.1، مصدر سابق، ص.309.



تلك العصور، ومنذ ميلاد الامارة الحفصية عمل أمرائها على استقطاب الكتاب وتشجيعهم على تدوين الأخبار والأحداث، ومن ثم ظهر في ذلك العهد ما يسمى بالتاريخ الرسمي<sup>(1)</sup>.

«نشطت حركة التأليف التاريخي من خلال توظيف كتاب أندلسيين مهتمين بالكتابة التاريخية كابن الآبار (- 656هـ/1258م) وابن سعيد الأندلسي (- 685هـ/128م)»<sup>(2)</sup>.

«وفي أيام السلطان أبو زكريا يحيى (- 647هـ/1249م) ألف الكتاب الأندلسي البياسي أبو الحجاج يوسف بن محمد الأنصاري (- 633هـ/1256م) كتاب الحماسة وكتاب الأعلام وجمع السلطان أحاديث المصطفى ونبه على الصحيح منها والسقيم وكتب له كذلك كتاباً تحدث فيه عن الحروب الداخلية في بلاد الإسلام إلى عهد هارون الرشيد»<sup>(3)</sup>.

«عاصرت الدولة الحفصية عدد من المؤرخين كان لهم أثر كبير في نقل تاريخ الموحدين والحفصيين إلينا وقد ارتبط التاريخ الحفصي بعدة مؤرخين منهم ابن النخيل محمد بن ابراهيم بن عبد العزيز بن نخيل الذي كان كاتباً عند والي افريقية من قبل الموحدين عبد الواحد الحفصي، وقد ألف كتاباً أسماه «تاريخ الدولتين الحفصية والموحدية» تحدث فيه عن تاريخ أمراء الطوائف وعن الدولة الموحدية وزعيمها ابن تومرت وخلفائه وعن ثورة ابن غانية، وعن عبد الواحد الحفصي وأخلاقه وصفاته وقد أشار إليه التجاني في رحلته، وقد توفي ابن النخيل عام 618 للهجرة، بعد أن سجن من قبل والي افريقية أبي العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن»<sup>(4)</sup>.

«أما الجغرافيا فقد لمع بعض الجغرافيين المغاربة الذين مزجوا علم الجغرافيا والتاريخ فكانت كتب الرحلات من أهم العلوم التي أدت إلى إغناء العلوم التاريخية الجغرافية وكما أدت هذه

(1) عبد الرحمن حسين العزاوي، المغرب العربي في العصر الاسلامي، مرجع سابق، ص. 158.

(2) علاوة عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والمغرب الاسلامي، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص. 141.

(3) ابن الشماخ، الأدلة النورانية، مصدر سابق، ص. 07.

(4) ابن موسى الأندلسي، الغصون اليبانة في محاسن شعراء المائة السابعة، ت. ابراهيم الأبياري، (د.ط)، مطبعة دار المعارف، مصر، 1667، ص. 27.

الرحلات إلى معرفة العالم، وكان من أعظم الرحالة خلال هذا العصر الرحالة ابن بطوطة الذي بدأ رحلته عام 725 للهجرة وانتهى منها سنة 756 للهجرة، فاستمرت ثلاثين عاماً زار خلالها بلاد المغرب والشام والحجاز والعراق ومصر وتركيا والهند وغيرها من بلدان العالم، وقدم لنا من خلال رحلته وصفاً جغرافياً يشمل المدن...»<sup>(1)</sup>

«كذلك الرحالة العبدري الذي مزج في رحلته بين الوصف الجغرافي الدقيق للأحوال المناخية للمدن والبلاد التي زارها مع ذكر المسالك والممرات والوصف الثقافي والعلمي، فهو عندما يتحدث عن إحدى البلاد التي زارها فإنه يذكر العلماء ويذكر مؤلفاتهم وأشعارهم»<sup>(2)</sup>

«ومنها التجاني أبا محمد عبد الله الذي ترك لنا من خلال رحلته وصفاً للطرق والمداخل التي سلكها وتحدث عن القبائل وأقسامها والحياة العلمية والثقافية فيها»<sup>(3)</sup>

«لقد ظهر في العصر الحفصي علم الطب الذي شهد ظهور عدد من الأطباء، ومنهم في عهد السلطان أبي زكريا الأول الطبيب أحمد بن محمد بن الحشا أبو جعفر ألف كتاب في الطب عنوانه مفيد العلوم ومبيد الهموم وهو عبارة عن كتاب يذكر فيه الألفاظ الطبية الموجودة في كتاب المنصوري لأبي بكر الرازي فهو يذكر اللفظ واستقامة من العربية أو الفارسية ويوضح معناه ويأتي بما يقابله في لهجة أهل المغرب»<sup>(4)</sup>

<sup>(1)</sup> ابن بطوطة ( عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي )، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، (د.ط)، دار الكتب العلمية، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، بيروت، لبنان، مكة المكرمة، (د.ت)، ص.07، ص.08.

<sup>(2)</sup> العبدري، الرحلة، مصدر سابق، ص.05، ص.09.

<sup>(3)</sup> برنشفيلك، تاريخ افريقيا، ج.1، مرجع سابق، ص.417.

<sup>(4)</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص.478.

«واهتم الحفصيون بعلم الفلك والنجوم فعرفوا علم الأزياج وظهرت مؤلفات في هذا العلم منها مؤلفات ابن الكماد أحمد بن علي التميمي الذي ضبط الأزياج قبل سنة 679هـ».<sup>(1)</sup>

«يعتبر علم الرياضيات من أهم العلوم التي طورها العرب بعدما نقلوا قواعدها عن الإغريق والهنود، فقد استوعب العرب المسلمون نظام الأعداد الهندي وأوصله إلى أوروبا وأضاف اليعقوبي رمزاً حسابياً جديداً هو الصفر؛ فقد كان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام هذب علماء المسلمين بعضها وكونوا منها سلسلتين».<sup>(2)</sup>

«لقد ركزت الحياة العلمية بصفة عامة في بداية العهد الحفصي بافريقية وقابل ذلك ازدهار العلوم بكل من الأندلس والمغرب، وبدأت الأنشطة الرياضية تظهر من جديد بافريقية خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر انطلاقاً من مدينة بجاية».<sup>(3)</sup>

لقد عرف ابن خلدون علم الرياضيات والحساب قال فيه: «ومن فروع علم العدد صناعة الحساب وهي صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم والتفريق، فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع؛ وبالتضعيف نضاعف عدداً بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضاً يكون في الأعداد إما بالأفراد مثل إزالة عدد ومن عدد وصرفه الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة...».<sup>(4)</sup>

لقد برز في مجال الرياضيات في عهد الدولة الحفصية عدة شخصيات من بينهم: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القلصادي القرشي له 13 مؤلفاً في الرياضيات الذي يعد أهم رياضي أندلسي انتقل إلى تونس في هذه الفترة ومن بين ما ألف في تونس مثل كتاب كشف الجلباب من

(1) برنشفيك، تاريخ افريقيا، مرجع سابق، ص.418.

(2) أحمد عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (العلوم العقلية)، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991، ص.53.

(3) حميدة بن عمر هادي، مساهمة رياض الأندلس في المادة العلمية بافريقية خلال القرون الوسطى، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1996، ص.54.

(4) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص.483.

علم الحساب وكتابه الكليات في الفرائض وقد كان آخر من تقدم بهذا العلم بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط».<sup>(1)</sup>

### ❖ الفلسفة:

«لقد شهدت الفلسفة خلال القرن الثالث عشر ميلادي انحطاط في كامل أنحاء العالم الإسلامي، ففي مستهل العصر الحفصي كاد المجهود الرائع المبذول منذ أكثر من أربعمئة سنة في العالم الإسلامي لاستيعاب ومواصلة التفكير في تلك الميادين يصل إلى نهايته وفي نفس الوقت تواصلت بصورة حديثة الجهود المبذولة عن طريق اسبانيا وايطاليا، في سبيل تلك الذخيرة الفكرية إلى أوروبا المسيحية».<sup>(2)</sup>

وفي الأخير، «يؤكد المؤرخون أن للقيروان اسهاماتها المتميزة في الحضارة الانسانية من خلال ما قدمته من فكر اسلامي مستنير ونشر لقيم الاعتدال والتسامح والحوار بين الحضارات فضلا عن اسهاماتها في نشر الفن الإسلامي والعلوم الصحيحة، وظلت القيروان على مر العصور منبعاً ومصدر إلهام ومنازة مشعة أنجبت العديد من المبدعين والعلماء والمفكرين في الفقه وعلوم اللغة والآداب والشعر والطب وغيرها من العلوم».<sup>(3)</sup>

(1) محمد رزوق، دراسات في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص.38.

(2) برنشفيك، تاريخ افريقيا، ج.2، مرجع سابق، ص.383.

(3) محمد الشواط، مدرسة الحديث في القيروان، ج.1، مرجع سابق، ص.117.

## ثانياً: حاضرة فاس:

### المبحث الأول: الحياة التاريخية والجغرافية:

«المغرب عبارة عن اقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمراني كبير، والمغرب اسم اضافي يدل على مكان ما بإضافته إلى جهة الشرق، ويعتبر المغرب منطقة جغرافية متصلة بعضها ببعض تمتد من مدينة بَرْقَة<sup>(1)</sup>؛ شرقاً إلى البحر المحيط الأطلسي غرباً والبحر الرومي - المتوسط - الذي ينتهي إلى سواحل البلاد الشام شمالاً والصحراء الكبرى جنوباً». (2)

«هذا ويختلف مفهوم المغرب سياسياً من عصر إلى آخر فمثلاً: في عصر المرابطين والموحدين أطلقوا كلمة المغرب على ولاية فاس وسبتة في تنظيماتهم الإدارية». (3)

«يطلق لفظ بلاد المغرب على الأرض التي يحدها من جهة الغرب البحر المحيط أو المحيط الأطلسي» (4)، كما تسميه المصادر الجغرافية والتاريخية الإسلامية البحر الأخضر وبحر الظلمات وبحر أوقيانوس<sup>(5)</sup>، وبحر البالية؛ وتقع على البحر المحيط كثير من مدن المغرب الأقصى كطنجة\* وأصيلا\* وسلا\*؛ (6) وأزمور\* وأسفا ونول\* من بلاد السوس (7).

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص.69.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ( 8 أجزاء )، ج.5، ط.1، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1997، ص.53.

(3) البيدق، أخبار المهدي، تح بروفنسال، (د.ط)، د. د. ن، باريس، 1928، ص.65، ص.79.

(4) الإصطخري، مسالك الممالك، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1927، ص.37.

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح حسين نصار، ج.1، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ص.229.

\*طنجة: تعرف بالبريرية باسم وليلي، وبينها وبين سبتة ثلاثون ميلاً في البر، وتقع على شاطئ بحر الزقاق.

\*أصيلا: مدينة تقع إلى الجنوب من طنجة على البحر المحيط. - الأطلسي -.

\*سلا: مدينة قديمة أزلية، تقع على ساحل البحر المحيط. - الأطلسي - وتبعد عن مراكش تسع مراحل.

\*أزمور: مدينة في منطقة دكالة من بناء الأفارقة، تقع على مصب نهر أم الربيع في البحر المحيط.

\*نول: مدينة كبيرة تقع على نهر ينبع من شرقها.

(6) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص.319.

(7) الحميري، المصدر نفسه، ص.329.

«ويحد بلاد المغرب من الشرق المنطقة الواقعة ما بين الاسكندرية من أرض مصر وبرقة، ويحدها من جهة الشمال البحر الرومي، المتفرع عن البحر المحيط - الأطلسي - وبينهما خليج بين طنجة من بلاد المغرب وطريق من بلاد الأندلس يسمى الزقاق».<sup>(1)</sup>

«أمّا من جهة الجنوب فتجد بلاد المغرب جبال الرمل - الصحراء الكبرى - التي تمتد من البحر المحيط غرباً إلى وراء سجلماسة، وحتى بلاد برقة شرقاً، وكانت هذه الصحراء تعرف بالعرق، وهي تفصل بين بلاد السودان وبلاد المغرب».<sup>(2)</sup>

فإنّ المغرب الأقصى قاعدته مدينة فاس كما أنّه سمي أقصى لآلّه أبعد أقسام المغرب السياسية عن مقر الخلافة ويمتد من وادي ملوية شرقاً إلى البحر المحيط غرباً ومن البحر الرومي شمالاً إلى جبال درن\* جنوباً.<sup>(3)</sup>

لقد قسم بعض المؤرخين والجغرافيين المغرب الأقصى إلى سبعة أقاليم وهي كالتالي:

1- «إقليم تامسنا: يبتدئ غرباً عند وادي أم الربيع، وينتهي عند نهر أبي رقراق شرقاً والأطلس جنوباً، وشواطئ البحر المحيط شمالاً».<sup>(4)</sup>

2- «إقليم فاس: ويبدأ من غرب أبي رقراق حتى نهر ايناون شرقاً، وينتهي شمالاً عند نهر سبو وجنوباً عند سفوح الأطلس».<sup>(5)</sup>

(1) ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.98.

(2) المصدر نفسه، ص.100.

(3) ينظر: الصديق بن عربي، المغرب، (د.ط)، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، (د.ب.ن)، د.ت.ن، ص.111.

\*جبال درن: تسمى اليوم بجبال الأطلس.

(4) الوزان، ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج.1، ط.2، دار الغرب الإسلامي، الشركة المغربية للنشر - المتحدين -، بيروت، لبنان، 1983، ص.194.

(5) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، مصدر سابق، ص.606.

- 3- «ناحية الساييس: وهي من نواحي إقليم فاس وتقع على بعد عشرين ميلاً إلى جهة الغرب وكلها سهول، ومعها ناحية أزغار التي تنتهي عند المحيط الأطلسي شمالاً، ونهر أبي رقراق غرباً وبعض جبال غمارة شرقاً، وجنوباً نهر بونصر».<sup>(1)</sup>
- 4- «ناحية الهبط: تبدأ من جنوب نهر روغة\*، وتنتهي شمالاً على المحيط الأطلسي وتتأخم غرباً مستنقعات أزغار، وشرقاً الجبال المشرفة على مضيق جبل طارق».<sup>(2)</sup>
- 5- «إقليم الريف: يبدأ من تخوم مضيق جبل طارق، ويمتد شرقاً إلى نهر نكور\*، أي على مسافة مائة وأربعين ميلاً، وينتهي شمالاً عند البحر المتوسط، ثم يميل جنوباً على نحو أربعين ميلاً ليصل حتى منطقة فاس».<sup>(3)</sup>
- 6- «إقليم كرط: يبدأ غرباً عند نهر نكور، وينتهي عند ملوية، وجنوباً حتى تخوم الصحراء الكبرى، بينما يحاذي المتوسط شمالاً».<sup>(4)</sup>
- 7- «إقليم الحوز: يشغل ثلث المغرب الأقصى ويمتد من نهر زاغ شرقاً، حتى نهاية نهر تيكريكه غرباً، أي على مسافة نحو مائة وتسعين ميلاً».<sup>(5)</sup>
- «يقول الناصري أن الفرنج قد قسموا المغرب إلى خمس عمالات: عمالة فاس، ومراكش والسوس ودرعة وتافيلالت».<sup>(6)</sup>

(1) الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص. 301.

(2) المصدر نفسه، ص. 306.

\*نهر ورغة: أشهر أنهار المغرب وينبع من جبل كوين.

\*نهر نكور: يقع قرب مدينة نكور شمال شرق المغرب الأقصى، والتي تبعد عن البحر المتوسط عشرة أميال بناها سعيد بن إدريس بن صالح زمن الوليد بن عبد الملك.

(3) المصدر نفسه، ص. 324.

(4) المصدر نفسه، ص. 340.

(5) المصدر نفسه، ص. 348.

(6) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ( 9 أجزاء )، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج. 1، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص. 127.

«أهم ما يميز المغرب الأقصى جغرافياً أنه يشكل التهاية القصوى لبلاد المغرب بسبب وجود المحيط الأطلسي الذي يحده من الغرب، لذلك يمكن اعتباره منطقة معزولة عن غيرها من المناطق خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار قاة وصعوبة المسالك المؤدية إليه من الشرق وخاصة طريق تازا التي تربطه مع المغرب الأوسط وتعتبر مفتاحاً للمغرب الأقصى»<sup>(1)</sup>.

«يتكون المغرب الأقصى من سلاسل جبلية تتخللها هضاب ووديان وتمتد هذه السلاسل من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي تكون موازية للساحل تقريباً، وأهم جبال المغرب جبال الأطلس التي شكلت معظم مظاهر السطح والذي ينقسم إلى قسمين:

أولاً: ساحلي:

«ويقع على بحر الروم وهي على شكل هلال يسمى سلسلة جبال الريق؛ الثاني داخلي ويقع في الشمال الشرقي إلى الجموب الغربي وهي جبال أطلس بأقسامها الثلاثة»<sup>(2)</sup>.

\* «أطلس الكبرى: وهي أكبر هذه السلاسل وقد يصل ارتفاعه إلى حوالي 4100 م وقد تزيد عن ذلك في قممها»<sup>(3)</sup>.

\* «أطلس الوسطى: تقع في شمال أطلس الكبرى وعبرها يتصل المغرب بالأدنى بالمغربين وإلى الشمال من سلاسل جبال أطلس الوسطى.

\* «أطلس الصغرى: تقع موازية لسلسلة الأطلس الكبرى وتشكل جداراً يفصل الإقليم الصحراوي عن بلاد المغرب ويمتد من البحر المحيط متصل بالصحراء حتى جبل نفوسة»<sup>(4)</sup>.

(1) أبو ضيف مصطفى أحمد، أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين 524 - 876 هـ / 1130 - 1472 م، ط.1، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص.36.

(2) الصديق بن عربي، المغرب، مرجع سابق، ص.07.

(3) المرجع نفسه، ص.08.

(4) مجهول، الاسبصار في عجائب الأمصار، تح. سعد زغلول عبد الحميد، (د.ط)، د. د. ن، اسكندرية، 1958، ص.163.



## ثانيا: السهول الساحلية:

«للمغرب الأقصى سهول ساحلية شمالية على بحر الروم غربية على البحر المحيط، السهول الشمالية ضيقة وبها صخور تصل إلى البحر فتقطع السهل إلى أحواض معزولة مثل سهول منطقة الريف الواقعة بين مدينة سبتة ومليلية»<sup>(1)</sup>.

«أما سهول البحر المحيط فتقع بين الهضبة المغربية ومياه المحيط يبلغ عرضها في سهل الشاوية الواقع بين مدينة الرباط والدار البيضاء حوالي 55 كلم أما المنطقة بين مدينة فاس والساحل الشمالي فيسمى سهل الغرب وبه وديان هما وادي لوكوس ووادي مرتفعات شفشاون ووزان حتى يصل إلى السهل الساحلي»<sup>(2)</sup>.

## ثالثا: السهول الداخلية:

«أهمها سهل مدينة فاس، مكناس الذي يحتل الحوض الأوسط بنهر سبو»<sup>(3)</sup>؛ كما ساعد وادي سبو على تكوين هذا السهل الكبير من حيث الامتداد والاتساع<sup>(4)</sup>.  
أما الهضاب فتضم عدّة منها الهضبة الشهيرة المسماة «الميزينا» التي تقع في شمال مدينة فاس ومكناس<sup>(5)</sup>، كما تعتبر الأمطار المصدر الرئيسي للمياه في المغرب، فلهذا تعتبر مدينة فاس من أعلى وأكثر المدن في المغرب أمطاراً فقد تصل إلى 635 م.<sup>(6)</sup>

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص. 79.

(2) محمد سعودي، معالم جغرافية الوطن العربي، (د.ط)، د. د. ن، بيروت، 1991، ص. 195.

(3) المرجع نفسه، ص. 196.

(4) ينظر: محمد رياض، إفريقيا، (د.ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1966، ص. 374.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص. 375.

(6) ينظر: المرجع نفسه، ص. 376.

## أمّا تاريخيا:

«تكتسب حاضرة فاس أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ المغرب الأقصى بصفة خاصة، ليس من موقعها كمدينة أسسها الإمام إدريس الثاني حيث كان لها أثر كبير في مجرى التطورات السياسية المهمة سواء في المغرب أو الأندلس».<sup>(1)</sup>

ففي عام 190 للهجرة الموافق لـ 805-806 ميلادية ركب الإمام إدريس بن إدريس مع خاصة من قومه إلى أن بلغ جبل زالغ، فعزم على أن يبني به مدينة، فظهر له أن الهوام به زمن الفيض فانتقل لوادي سبو؛ وعزم أيضاً أن يبني به مدينة فظهر له أن المدود تصل إليها زمن المطر وبذلك ظلّ تحديد موقع تلك المدينة مثار جدل وصعوبة؛ وفي شهر المحرم من عام 191 للهجرة الموافق نوفمبر 806 ميلادية خرج الإمام إدريس يختار لنفسه موضعاً يبني فيه ما قدم عزم عليه فوصل إلى وادي سبو\*<sup>(2)</sup>.

أعجب إدريس بالموضع وذلك لقربه من الماء، فعزم على البناء، وقد شرع في البناء لكن عندما نظر إلى وادي سبو ورأى ما يأتي به من هلاك أيام الشتاء، فأبطل عملية البناء وهمّ إلى مدينة أوليلي راجعاً إليها.<sup>(3)</sup>

ومن بين الروايات التي اهتمت بقضية التأسيس، فقد قال ابن حوقل: « وفاس مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل ونهرها كبير غزير الماء عليه أرضية كثيرة، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة أحدثها إدريس بن إدريس».<sup>(4)</sup>

(1) عبد السلام بن سوده، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج.2، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1965، ص.272.

(2) علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة عضو أكاديمية المملكة المغربية، ط.2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991، ص.36.

\*سبو: من أشهر أنهار بلاد المغرب يمر على مدينة فاس.

(3) ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، ط.1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 - 1982، ص.80.

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص.89.

قال النوفلي: « ومات إدريس ولا ولد له وجارية من جواريه حبلى، وبعدما تكفل راشد بإدريس الثاني أخذ بيع البربر له يوم الجمعة السابع من ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائة وهو ابن إحدى عشر سنة... ثم نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين وأقام بها شهراً وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة وكانت عدوة القرويين غياضاً في أطرافها أبيات من زواغة فأرسلوا إلى إدريس فدخل عندهم فأسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين...»<sup>(1)</sup>

وقد قال آخر: « ومدينة فاس محدثة، أسست عدوة الأندلس في سنة 192 وعدوة القرويين سنة 193 في ولاية إدريس بن إدريس الفاطمي، ومن ذريته بفاس إلى اليوم ونحن في سنة 587 للهجرة الموافق 1191 ميلادية»<sup>(2)</sup>.

«مدينة فاس هي حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس، كما كانت القيروان حاضرة الغرب، فلما اضطرب أمر القيروان بعيت العرب فيها؛ واضطرب أمر قرطبة ورحل كل من فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة، فراراً من الفتنة فترل أكثرهم بمدينة فاس ولغتهم - حاضرة فاس - أفصح اللغات وبعض المشايخ يدعونها بغداد المغرب، ومن مدينة فاس إلى مدينة مكناس الزيتون يوم تام للمجد ومن مكناس الزيتون إلى مدينة سلا أربع مراحل، ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أقباس وهي في الجنوب ينصب إليها نهر يسمى وادي الرمان يصب في البحر الأعظم»<sup>(3)</sup>.

كما هناك رواية أخرى عن تأسيس مدينة فاس أحد الشيعة أيام الخليفة هارون الرشيد سنة 185 للهجرة، وعزم على أن يغادر الجبل ويؤسس مدينة يستقر فيها؛ وقد جمع لهذه الغاية عدداً من المعمارين والمهندسين فحصبوا بدقة كل السهول المجاورة للجبل ونصحه ببناء المدينة في الموقع الذي

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو دزء من كتاب المسالك والممالك، (د.ط)، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، 1857، ص.123.

(2) مجهول، الاستبصار في عجائب الأبصار، مصدر سابق، ص.180.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تح. محمد سعيد العريان، (د.ط)، القاهرة، 1963، ص.449.

بنيت فيه، كانت هناك عيون عديدة ونهر كبير ينبع من سهل لا يبعد كثيراً عن تلك العيون، ويمر بين تلال صغيرة لينحدر إلى شعاب في غاية الجمال، بعد أن يقطع السهل ويسيل بهدوء وسكينة على مسافة ثمانية أميال، كما كانت هناك غابة كبيرة في الجنوب تنفع المدينة كثيراً وتسد حاجاتها، هذا هو السبب الذي من أجله بنيت على الضفة الشرقية للوادي مدينة صغيرة تضم حوالي ثلاثة آلاف كانون ولما مات إدريس بنى أحد أبنائه مدينة في الجهة الغربية.<sup>(1)</sup>

«كما هناك رأي آخر عندما طلب الإمام إدريس الثاني من وزيره عمير بن مصعب الأزدي أن يتخير موضعاً لمدينته الجديدة، فسار عمير في جماعة من قومه لينظر ما طلب، فاخترق النواحي، حتى وصل إلى العيون التي يخرج منها نهر فاس فرأى عيوناً كثيرة.. فاستطاب الماء ثم سار مع مسيل الوادي حتى وصل إلى موضع مدينة فاس، فنظر إلى ما بين العدوتين، فرأى غضة ملتفة بالأشجار مطردة العيون والأنهار في موضع خيام يسكنها قوم من زناتة، فرجع عمير إلى الإمام إدريس، وأعلمه بما رآه من الأرض، وما استحسنه من كثرة الماء وطيب التربة، ورطوبة واعتدال الهواء فعجب الإمام إدريس ما رأى من ذلك، فسأل من أصحاب الأرض، فقليل له قوم من زواغة يعرفون ببني برغش وبني الخير، فبعث إليهم واشترى منهم موضع المدينة، وذلك في سنة 191هـ/806-807م، وشرع الإمام في البناء.<sup>(2)</sup>

«وفي أصل تسمية فاس فيرى بعضهم أنّ الإمام إدريس بن إدريس لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيديه مع الصّناع والفعلة؛ فصنع له بعض خدمته، فأسأ من ذهب وفضة؛ فكان إدريس يعمل بها؛ فسميت فاس لأجل ذلك، ويقال أنّه عندما شرع في البناء وجد في الحفير فأسأ كبيراً، فسميت به المدينة». <sup>(3)</sup>

(1) الوزان، وصف افريقيا، ج.1، مصدر سابق، ص.218.

(2) جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين 448 هـ / 1056 م إلى 668 هـ / 1269 م، دراسة سياسية وحضارية، (د.ط)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، اسكندرية، 2001، ص.10.

(3) المرجع نفسه، ص.54.

كما هناك رواية يُنسب الاسم إلى مدينة قديمة فهي كالتالي: التقى إدريس بن إدريس براهب كبير السن، لما عزم على بناء مدينة فاس، وأخبره ببشرى سمعها من راهب قبله توفي منذ مئة سنة أنه وجد في كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى ساف خربت منذ ألف وسبعمئة سنة، وأنه يجددها ويحيي دأثرها ويقيم دارسها رجل من لآل النبوة يسمى إدريس يكون لها شأن عظيم وقدر جسيم»<sup>(1)</sup>.

«وهناك رواية أخرى تذكر أن خاصّة الأمير إدريس بن إدريس سألوهم عند بداية تأسيسها كيف يسميها؟ قال: سموها باسم أول رجل يطلع عليكم، فمر رجل اسمه فارس ولكنه كان أثلغ فمطلق اسمه على فاس بعد أسقط الراء؛ كما هناك رواية أخرى والذي ربط سبب التسمية بالفرس الذين استوطنوا في المدينة حين تأسيسها فسميت مدينة الفرس، ثم خفف الناس الاسم فقالوا مدينة فارس ثم أسقطوا الراء من اللفظ اختصاراً فقالوا مدينة فاس»<sup>(2)</sup>.

وهناك رواية رابعة فقد ربطها بالفرس الذين استحوذوا وتمكنوا واستوطنوا فيها؛ فسموا باسمهم<sup>(3)</sup>؛ وكما زعموا أنهم عندما بدأوا في عملية الحفر عثروا على كمية من الذهب تحمل اسم فاس<sup>(4)</sup>.

«فأول ما يخطط في المدينة بدأ إدريس الثاني ف بناء المسجد، فلما أسس إدريس الثاني عدوة الأندلس حتى بنى بها جامعاً برحية البئر وهو المعروف بجامع الأشياخ، وأقام فيه الخطبة، وبعد أن أسس عدوى القرويين أخذ في بناء جامعها وهو المسجد المعروف بجامع الشرفاء، وأقام فيه الخطبة»<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مصدر سابق، ص. 54.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص. 54.

<sup>(3)</sup> ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 54.

<sup>(4)</sup> ينظر: الوزان الفاسي، وصف افريقيا، مصدر سابق، ص. 218.

<sup>(5)</sup> سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج. 2، (د. ط)، منشأة المعارف، الاسكندرية، (د. ت. ن)، ص. 449.

ومن أجل الإسراع بإنجاز مهمة بناء المدينة فقد أشرك الإمام إدريس المواطنين في مهمة البناء وحثهم قائلاً: « من ابتنى موضعاً وغرسه فهو له هبة، فابتنى الناس الديار، واغترسوا الثمار فكثرت العمارة».<sup>(1)</sup>

لقد قام المستشرق « ليفي بروفنسال » ينفي أن تأسيس مدينة فاس على يد إدريس الثاني بل مؤسسها هو إدريس الأول وقد نشر هذا في كتيب عرض فيه نظرية مؤسسها فقد ذكر أن بناء المدينة حدث في سنة 172 للهجرة الموافق لـ 789 ميلادية في الموضع الذي تقوم عليه عدوة الأندلس، وفي حين أن إدريس أسس عدوة القرويين في سنة 192 للهجرة الموافق لـ 808 ميلادية في غرب مدينة والده وذلك على الجهة اليسرى من وادي فاس.<sup>(2)</sup>

«تمتاز فاس بوقعها الجغرافي الممتاز وسط المدن والمراكز المختلفة في المغرب، حيث تتقاطع فيها خطوط الإتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فهي تقع عند ملتقى طريقين رئيسين حددتهما طبيعة الأرض هناك في أقصى المضيق الجبلي الذي تحرس تازا مدخله الشرقي».<sup>(3)</sup>

«تقع فاس في النهاية الغربية لسهل الساييس الغني على موضع في وادي فاس، ويشق في وسطها نهر سبو الكثير الماء».<sup>(4)</sup>

«كما تحيط مدينة فاس مرتفعات وجبال من كل جهة باستثناء الجهة الجنوبية، ففي شرقها جبل مديونه الذي يمتد إلى الجنوب، ويتصل هذا الجبل بجنوبه بجبال درن، وفي شمالها يقع جبل زرهون وزالغ، وتقع جبال عماره في الغرب من فاس».<sup>(5)</sup>

«وتدخل مدينة فاس ضمن المنطقة التي تقع بين خطي عرض 28 درجة، 36 درجة شمالاً، وخطي طول 12 درجة و 11 درجة غرباً؛ وهي تتأثر إلى حد كبير بمؤثرات مناخ البحر المتوسط

(1) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 46.

(2) ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 38.

(3) روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين، ترجمة دكتور نقولا زيادة، (د.ط)، مؤسسة مرتكبين، بيروت، 1968، ص. 15.

(4) حسان عوض، جغرافية المدن المغربية، (د.ط)، مطبوعات المركز الجامعي، (د.ب.ن)، (د.ت.ن)، ص. 63.

(5) ابن سعيد المغربي، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تح. خوان قرنيط، (د.ط)، تطوان، 1958، ص. 257.

الذي تتمثل فيه ثلاث صفات رئيسية وهي سقوط الأمطار في فصل الشتاء ودفعه، وجفاف فصل الصيف، وارتفاع درجة حرارته، ووجود نسبة عالية من ساعات النهار المشمسة، كما تميزت فاس باعتدال بحرّها وبردها، كما يعتدل مناخها في فصلي الخريف والربيع<sup>(1)</sup>.

فعندما كانت فاس في عصر الأدارسة تذكر المصادر أنّ مدينة فاس نمت حيث عمّرت الأرض بالزراعة وكثرت الخيرات، وزادت العمارات، وتوجه إليها التجار من كافة الأقطار، كما كان للمهاجرين الأندلسيين أثر بالغ في تفعيم هذه الحركة وكذلك من بلاد القيروان شاركت هي الأخرى في البناء فتوسعت حاضرة فاس وأخذت من تراث هاتين الحضرتين<sup>(2)</sup>.

بعد وفاة إدريس بن إدريس الذي عاش حوالي عشرين عاما تولى المهام أو الإمامة ابنه من بعده المسمى محمد الذي قسم تركة دولة الأدارسة بين إخوته، وبقي هو بمدينة فاس؛ إلى أن وافته المنية عام 221 للهجرة الموافق 836 ميلادية، ثم خلفاً أب عن ابن كذلك هو أورث لابنه من بعده بوصاية الحكم على تلك الدولة وترعم ابنه علي، وفي وقته شهدت المدينة أمناً واستقراراً إلى أن توفي عام 234 للهجرة الموافق 848 ميلادية<sup>(3)</sup>.

«فمن فضل هذه المدينة وشرفها ما نقله أهلها خلفهم عن سلفهم أنّه وجد في كتاب دراس بن اسماعيل المكنى بأبي ميمونة بخط يده - رحمه الله تعالى - : حدثني علي بن أبي مطر بالاسكندرية؛ قال: حدثني محمد بن ابراهيم ابن المواز عن عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس، عن محمد بن شهاب الزهري، بن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنّه قال: تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة أهلها على السنة

(1) علي الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.36.

(2) ينظر: سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج.2، مرجع سابق، ص.511.

(3) ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج.4، مصدر سابق، ص.14، ص.15.

والجماعة، ومنهاج الحق لا يزالون متمسكين به لا يضرهم من خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة»<sup>(1)</sup>.

كما ذكر ابن غالب في تاريخه: « أنَّ الأمام إدريس حين عزم على بناء مدينة فاس واختطاطها مرَّ به شيخ كبير من الرهبان كان مترهياً في صومعة قريته من تلك الجهات، فوقف للإمام إدريس رحمه الله، ثم قال له أيُّها الأمير، ما تريد أن تصنع بين هذين الجليلين ؟ قال: أريد أن أختط بينهما مدينة لسكنائي وسكني ولدي من بعدي، يعيد الله تعالى بها ويتلا كتابه وتقام حدوده، فقال له أيُّها الأمير: أن لك عندي بشرى؛ قال وما هي أيُّها الراهب ؟ قال له أخبرني راهب كان قبلي في هذا الدير هلك منذ مائة سنة أنّه وجد في كتب علمه أنّه كان بهذا الموضع مدينة تسمى ساف خربت منذ ألف سنة، وأنّه يجددها ويحي أثرها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس، ويكون لها شأن عظيم وقدر جسيم، لا يزال دين الإسلام قائماً فيها إلى يوم القيامة، فقال إدريس، الحمد لله؛ أنا إدريس، وأنا من آل بيت النبوة، وأنا بانيها إن شاء الله تعالى، فكان ذلك ممّا قوى عزمه على بنائها»<sup>(2)</sup>.

كما قال الوراق « أنّه دخلت جامع تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمئة، فرأيت في رأس منبرها لوحاً من بقية منبر قديم قد سُمر هناك، وعليه مكتوب؛ هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومئة»<sup>(3)</sup>.

فمن أحسن ما قيل في ذكر محاسن فاس:

|   |                                            |   |                                                  |
|---|--------------------------------------------|---|--------------------------------------------------|
| ❁ | «يا فاس منك جميع الحسن مُسْتَرْقُ          | ❁ | وَسَاكُنُوكِ لِتَهْنَهُمْ لَقَدْ رُزِقُوا        |
| ❁ | هَذَا نَسِيمُكَ أَمْ رَوْحٌ لِرَاحِيْنَا   | ❁ | وَمَاؤُكَ السَّلْسَلُ الصَّافِي أَمْ الْوَرَقُ ؟ |
| ❁ | أَرْضُ تَخْلَلَهَا الْأَنْهَارُ دَاخِلَهَا | ❁ | حَتَّى الْمَجَالِسُ وَالْأَسْوَاقُ وَالطَّرُقُ   |

(1) علي الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.20.

(2) علي الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.24.

(3) المصدر نفسه، ص.28.



وقال آخر:

يا عَدُوَّيَ الْقَرَوَيْنِ الَّتِي كُرِمَتْ  
ولا سُرَى اللَّهِ عَنْهَا تَوْبُ نِعْمَتِهِ  
❁ لَا زَالَ جَانِبُكَ الْمَحْبُورُ مَحْبُورًا  
❁ أَرْضًا تَجَنَّبْتَ الْآثَامَ وَالزُّورَا»<sup>(1)</sup>

«وقالت الحكماء لا تستوطن إلا بلدًا فيه سلطان حاضر، وطيب ماهر، ونهر جارٍ، وقاضي عادل، وعالم عامل، وسوق قائمة.

وقال الحكماء أيضًا أحسن موضوعات المدن أن تجمع خمسة أشياء، وهي النهر الجاري والحرث الطيب، والخطب القريب، والصور الحصين والسلطان القاهر، إذ به صلاح حالها، وتأمين سبلها، وكف جبابرتها»<sup>(2)</sup>.

وللفقيه القاضي الكاتب البارع محمد بن أبي عبد الرحمن المغيلي يصف فاسًا ويتشوق إليها حين واي القضاء بمدينة أزموور:

«يا فاسُ حَتَّى اللَّهُ أَرْضُكَ مِنْ ثَرَى  
يا جَنَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي أُرْبَتْ عَلَى  
غُرْفٍ عَلَى غُرْفٍ وَيَجْرِي تَحْتَهَا  
وَبَسَاتِينٌ مِنْ سُندُسٍ قَدْ زُخِرَتْ  
وَبِجَامِعِ الْقَرَوَيْنِ شَرَفٌ ذِكْرُهُ  
وَبِصَحْنِهِ زَمَنُ الْمَصِيفِ مُحَاسِنُ  
وَاجِلِسُ إِزَاءِ الْخِصَةِ الْحَسَنَةِ بِهِ  
❁ وَسَقَاكَ مِنْ صَوْبِ الْعَمَامِ الْمُسَيْلِ  
❁ حَمَصٍ بِمَنْظَرِهَا الْبَهِيِّ الْأَجْمَلِ  
❁ مَاءٌ أَلَدٌ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ  
❁ بَجْدَاوِلٍ كَالْأَيْمِ أَوْ كَالْفَيْصَلِ  
❁ أَنْسٌ تَذْكُرُهُ هَيْجُ تَمَلَمَلِي  
❁ فَمَعَ الْعَشِيِّ الْغَرْبِ فِيهِ اسْتَقْبَلِ  
❁ وَاكْرَعْ بِهَا عَنِّي فَدَيْتُكَ وَانْهَلِ»<sup>(3)</sup>

<sup>(1)</sup> علي الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.31، ص.32.

<sup>(2)</sup> علي الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.34.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص.34، ص.35.

## المبحث الثاني: الحياة السياسية:

لقد اكتسبت حاضرة فاس أهمية في شتى نواحيها وذلك بفضل الدويلات الداخلة عليها والتي استعمرتها عدّة قرون، فخلّفت لها عدّة آثار سواء أكانت نعمة أم نقمة ومن بين هذه الدول عاصمة الأدارسة.<sup>(1)</sup>

«بدخول شمال المغرب تحت حكم الأدارسة ظهرت بوادر انفصال هذا الإقليم عن الخلافة بالمشرق عقب عدّة محاولات فتحققت هذه الرغبة بظهور إمارة في شمال المغرب هي دولة الأدارسة سنة 788هـ؛ وقد كان مؤسس هذه الدولة الأمير إدريس بن عبد الله العلوي الهاشمي الذي حلّ بالمغرب الأقصى فاراً من موقعه فخ قرب مكة فاستقر بمدينة ويلي حيث احتضنته قبيلة آورية الأمازيغية ودعمته حتى أنشأ دولته؛ هكذا تمكن من ضمّ كلّ منطقة فزاز ثم تلمسان، لقد اغتيل المولى إدريس الأول بمكيدة دبرها الخليفة العباسي "هارون الرشيد" ونفذت بعطر مسموم، ثم بويع ابنه إدريس الثاني بعد بلوغه سن الثانية عشرة، فهذا الأخير قام ببناء مدينة فاس».<sup>(2)</sup>

«كما تتفق المصادر على أنّ أهم ما حدث لمدينة فاس في فترة حكم الأدارسة التي بلغت حوالي 141 للهجرة وذلك من سنة 172 للهجرة إلى سنة 313 للهجرة ببناء جامع القرويين في العدوّة الغربية والتي أطلق عليها اسم الجامع على اسمها هذا إلى جانب بناء جامع الأندلس في العدوّة الشرقية وأخذ اسم من ذلك المكان وقد تم بناء هذا الجامع - جامع القرويين - في سنة 245 للهجرة في ظل ولاية الأمير يحيى بن محمد بن إدريس».<sup>(3)</sup>

لقد سار هذا الأمير - يحيى بن محمد بن إدريس - على خطى أجداده فكثرت العمارة في زمانه وقصده كافة العلماء والتّجار وعامّة الناس لمنهجهم المتبع والعبادة في ذلك الجامع.<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، مصدر سابق، ص.10.

(2) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، مصدر سابق، ص.450.

(3) علي محمود عبد اللطيف الجندي، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، 2004، ص.76.

(4) ينظر: محمد بن أبي القاسم الرعيبي القيرواني، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ط.1، طبعة الدولة التونسية، (د.ب.ن)، 1286، ص.102.

توفي الإمام إدريس الثاني في عام 213 للهجرة، وكان عمره ثمان وثلاثون سنة أو ست وثلاثون سنة.<sup>(1)</sup>

«تمتعت مدينة فاس في عهد الإمام يحيى بازدياد التحضر وكثرة العمران وبناء المناطق الجديدة ممّا جعلها مقصدا للناس وخاصة من الأندلس وأفريقيا ومعظم بلاد المغرب فضاقت بسكانها فبنى الناس الأراضي بخارجها هذا إلى جانب اهتمام الإمام يحيى عاصمته مدينة فاس بالمباني ذات الفائدة العامة مثل الحمامات التي انتشرت في المدينة بالإضافة إلى الفنادق التي أقيمت لخدمة الوافدين على المدينة من التجار وغيرهم».<sup>(2)</sup>

«في بداية إمارة الإمام يحيى قسم مملكة فاس إلى ثلاثة أقسام إدارية وعهد بها إلى أقاربه على النحو التالي:

\* منطقة القبلة من مدينة فاس إلى أغمات وعهد بها إلى حسين.

\* المشرق من مدينة فاس إلى مكناسة وولى عليها داود.

\* المغرب من مدينة فاس إلى كتامة وعهد بها إلى القاسم».<sup>(3)</sup>

بحلول موجة الطمأنينة والراحة والأمن كثر الوافدون عليها فوجدت الفنادق والحمامات ومجالس اللهو والطرب والغناء، فاستمت تلك الحياة بالبذخ والترف فانغمس فيها الأمير يحيى بن يحيى بتلك الشهوات.<sup>(4)</sup>

أساء الإمام يحيى بن يحيى السيرة وهام بفتاة من بنات اليهود اسمها حنة توصف بأنها كانت من أجمل نساء عصرها فتهور في هيامه بالفتاة حتى دخل عليها الحمام في غفلة من المشرفين عليه وفشلت محاولته في الوصول إلى الفتاة اليهودية الجميلة إذ استغاثت فأجمعت الناس ولم يستطع

(1) ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الأئيس المطرب بروض القرطاس، ج.1، مصدر سابق، ص.70.

(2) المصدر نفسه، ص.75.

(3) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق الجزء الأول كولان وبروفنسال، ج.4 د. إحسان عباس،

ج.1، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1983، ص.211.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص.212.

الإمام يحيى الهروب إلاّ بشق الأنفس»<sup>(1)</sup>؛ وكانت نتيجة هذه المغامرة النسائية سبباً في نهاية مؤلة للإمام يحيى بن محمد وانتقال الحكم من هذا الفرع محمد بن إدريس إلى بني عمر بن إدريس»<sup>(2)</sup>.

على إثر هذه الفضيحة الشنعاء والتصرف المخل بالحياء، ثار عليه أهل شعبه - خاصة مدينة فاس - وتوجهوا إلى قصره، ففر هارباً من بلاطه الذي لم يجد من يحرسه أو يسانده حتى زوجته فقط اكتفت بنصحه.<sup>(3)</sup>

«توفي إدريس الثاني وهو في نهاية العقد الثالث من عمره سنة 213 للهجرة تاركاً مجموعة من الأبناء حوالي - اثني عشر - يتقاسمون دولة أبيهم، ولقد ذهبت الإمامة إلى أكبر أبناء إدريس الثاني وهو محمد بن إدريس\* الذي سعى إلى تقسيم الدولة على إخوته وذلك بهدف تقوية الأسرة بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بقيادة أفرادها».<sup>(4)</sup>

لقد أخذ هذا الأمير بنصيحة جدته - كثر - بتجزئة الحكم وتقسيمه بالعدل؛ لأنّ جدته خضعت لعادة بربرية قديمة - التجزئة السياسية -.<sup>(5)</sup>

فكان التقسيم كالاتي:

- «القاسم، له طنجة، وتطوان، وقلعة حجر النسر، وسبتة وبلاد مصمودة وما إلى ذلك من البلاد والقبائل».<sup>(6)</sup>

- «داود وله مكناسة، وبلاد تسول وتازا وبلاد هوارة وجبال غياتة».<sup>(7)</sup>

(1) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، مصدر سابق، ص. 213.

(2) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 162.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص. 163.

(4) المصدر نفسه، ص. 70.

\*محمد بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب، من صفاته الخلقية أنّه أسمر اللون، مليح الوجه، ومن مهامه أنّه تولى الإمامة بعد وفاة أبيه ثم قسم المغرب بين إخوته آخذاً برأي جدته كثر، وافته المنية بمدينة فاس ودفن بجوار أبيه عام 221هـ.

(5) ينظر: روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج. 1، (د.ط.)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د. ت. ن، ص. 76.

(6) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 70.

(7) الصديق بن عربي، المغرب، مرجع سابق، ص. 200.

- عيسى ويحيى، فالأول له مدينة تامسنا ومدينة سلا، وشاله، أمّا الآخر فملك العرايش وأصيلا.<sup>(1)</sup>  
 - عمر وأحمد وعبد الله وحمزة، فكل واحد كان له مدينة يحكمها ويملكها فالأول تزعم قبائل  
 صنهاجة، والثاني كانت له مدينة مكناسة والثالث تملك أغمات وبلاد المصامدة والسوس الأقصى  
 والأخير مدينة ويلي ومدينة تلمسان.<sup>(2)</sup>

وبطبيعة الحال ترأس حاضرة فاس وجعلها الحصّة الأكبر في كيانه الابن الأكبر محمد؛ لكن  
 دائماً هناك أعاصير تضرب الديار، فقد كان وراء هذا التقسيم نزاعات ومكابدات بين الإخوة في  
 حق التملك والسلطة.<sup>(3)</sup>

«وقفت مدينة فاس بين سيطرة البربر والفاطميين الطامعين فيها وخاصة بعد انتهاء دور  
 الأدارسة في المغرب وذهاب ملكهم وضياح مدينة فاس عاصمة الدولة من أيديهم سنة 305  
 للهجرة، وظهور كلّ من موسى بن أبي العافية وعبد الرحمن الناصر بالإضافة إلى رغبة عبيد الله  
 المهدي في السيطرة على مدينة فاس ونشر المذهب الشيعي كان ظهور هؤلاء ورغبتهم في الاستيلاء  
 على مدين فاس ناتجاً عن عدم وجود سلطة قوية تستطيع أن تدافع عن المنطقة، كما للبربر لم تكن  
 لهم الخبرة الكافية في نظم الحكم والدفاع والسيطرة».<sup>(4)</sup>

فعندما دخل الفاطميون فاس أنكلوا أشد التعذيب بسلطانها يحيى فقد قبض مصالة - قائد  
 الفاطميين - عليه وكما أخذ أمواله ودخائره؛ وفي هذا الصدد يقول أحد شعراء الفاطميين يعرض  
 بمدينة فاس هذه المناسبة:

(1) ينظر: الصديق بن عربي، المغرب، مرجع سابق، ص. 201.

(2) ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 71.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص. 72.

(4) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج. 1، (د.ط)، د. د. ن، الدار البيضاء،

«دَخَلْتُ فَاَسًا وَلِي شَوْقٌ إِلَى فَاَسٍ ❀ وَالْجُنُ يُأْخِذُ بِالْعَيْنَيْنِ وَالرَّأْسِ  
فَلَسْتُ أَدْخُلُ فَاَسًا مَا حَيَّتُ وَلَوْ ❀ أَعْطَيْتُ فَاَسًا بِمَا فِيهَا مِنَ النَّاسِ»<sup>(1)</sup>.

«استمرت السيطرة الفاطمية على مدينة فاس حوالي ثلاثة عشرة 349 - 362 للهجرة وفي سنة 363 للهجرة أرسل الخليفة الحاكم المستنصر الأموي قائده إلى المغرب فأمدّه بالإمدادات التي تساعد في السيطرة على مدينة فاس فاستطاع دخولها»<sup>(2)</sup>.

«استمر النفوذ الفاطمي باقياً بمدينة فاس حتى أرسل المنصور ابن عمه عسكرياً وذلك في سنة 375 للهجرة حتى يستطيع وقف تقدم الحسن بن كنون نحو مدينة فاس، وبالفعل تمكن عسكرياً من دخول مدينة فاس واستولى على عدوة الأندلس وخطب فيها على المنابر للأمويين»<sup>(3)</sup>؛ «بينما ظلت عدوة القرويين تابعة للفاطميين إلى أن استطاع أحد قادة عسكرياً من دخولها عنوة وذلك في سنة 376 للهجرة»<sup>(4)</sup>.

«شهد المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين فترة مزدهرة حتى أصبحت بحق من أخصب فتراته في العصر الإسلامي، حيث نشأت على أرضه أضخم دولتين عرفتهما هذه المنطقة خلال تاريخه الإسلامي، هما دولتا المرابطين والموحدين»<sup>(5)</sup>.

«ينتمي المرابطون إلى قبيلة لمتونة وجدالة ومسوفة وكلها تتفرع من قبيلة صنهاجة الصحراء وكانت قبيلة لمتونة تسكن بالمنطقة الصحراوية الواقعة في جنوب بلاد المغرب وهم رحالة ليس لهم

(1) البكري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.1، مصدر سابق، ص.183.

(2) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.1، مصدر سابق، ص.184.

(3) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص.155.

(4) المصدر نفسه، ج.1، ص.155.

(5) جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (دراسة سياسية وحضارية)، (د.ط)، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2001، ص.412.

متزل دائم وليس لهم مدينة يأوون إليها كانوا لا يعرفون الزراعة ولا الحرث ولا التمر وكانوا يعتمدون على الثروة الحيوانية فأموالهم الأنعام وأقواتهم لحومها وألبانها»<sup>(1)</sup>.

«تميز المرابطون بارتداء اللثام حتى تسموا بالملثمين أو أهل اللثام أو الملثمة وهناك عدة آراء في تفسير اتخاذهم اللثام فيرى البعض أنهم اتخذوه لحماية أفواههم من الغبار الذي تثيره العواصف الرملية في الصحراء، ويرى آخرون أنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسب بذلك في عداد الرجال»<sup>(2)</sup>.

«عُرف المرابطون بعدة أسماء أخرى منها الصنهاجيين اللمتونيين والصحراويين كان دينهم الجوسية قبل الإسلام والذين دخلوا فيه متأخرين في القرنين الثاني والثالث للهجرة وتحمسوا له مع اتصافهم بالشجاعة في القتال»<sup>(3)</sup>.

وقد انتهت رئاسة تلك القبائل إلى يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي ارتحل إلى المشرق من أجل الحج في عام 427هـ الموافق 1035-1036م، فلما قضى حجه قفل إلى بلاده، فمرّ في طريق عودته بالقيروان حيث أتيح ليحيى سماع عالمها وفقهها أبا عمران الفاسي، وتأثر يحيى بن إبراهيم بتعاليم هذا الفقيه، فرغب أن يبعث معه من طلبته من يتق فيه قائلاً: « فينا أقوام يحرصون على تعاليم القرآن وطلب العلم، ويرغبون في التفقه في الدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فعسى ياسيدنا أن تنظر لنا من طلبتك من يتوجه معنا إلى بلادنا ليعلمنا ديننا»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، (د.ط)، نشر وتوزيع دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص.127.

(2) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مصدر سابق، ص.412.

(3) ابن خلدون، العبر، ج.6، مصدر سابق، ص.181.

(4) مجهول، الخلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، (د.ط)، دار الرشاد، الدار البيضاء، 1979، ص.20.

«وجه عبد الله بن ياسين\* إلى قبيلة لمتونة فأطاعته ثم قبيلة لمسوفة التي دخلت في طاعته هي الأخرى فعندما وجدت معظم القبائل المجاورة أنّ الوضع ليس في صالحها، فسارعت قبائل صنهاجة بالانضمام والدخول في طاعة ابن ياسين، فجعل يعلمها القرآن وشرائع الإسلام ثم أخذ في غزو قبائل الصحراء حتى دانت له كثير منها ثم توفي يحيى بن إبراهيم فولى عليهم ابن ياسين يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني».<sup>(1)</sup>

تغيرت رئاسة المرابطين من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمتونة التي كانت تتمتع بميزة رفيعة في مجتمع الملتمين، وسبب ذلك إلى موقعها الاستراتيجي الجغرافي، وكذلك إلى شجاعتها وصمودها في مواجهة الأعداء والثأر منهم بكل بسالة وجرأة.<sup>(2)</sup>

«حقق المرابطون انتصارات أحدثت أصداء واسعة النطاق في معظم بلاد المغرب فقد تلقى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر كتاباً من أهل مدينة سجلماسة ومنطقة درعة بالمغرب يرغبون في التخلص من أميرهم».<sup>(3)</sup>

تميز المرابطون ببربطة شجاعتهم، كما يدل خروج المرابطين وندائهم لأهل سجلماسة هي البذور الأولى لنيته المرابطين على خشبة المسرح وتوجههم نحو الشمال.<sup>(4)</sup>

«بعد أن اطمأن عبد الله بن ياسين على طاعة أهل مدينة سجلماسة عاد مرة أخرى إلى الصحراء وفي سنة 447هـ قتل الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، فقدم ابن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر

(1) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.4، مصدر سابق، ص.03.

\*عبد الله بن ياسين: نبه السلطان يحيى بن إبراهيم إلى عبد الله بن ياسين أنّ له الكثير من الفضل والعلم والدين، فقد كان عبد الله يعلم أهل قبيلة جدالة أحكام الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما تشدد عليهم في محاربة ما هم عليه من البدع، أقام بالأندلس سبعة أعوام في دولة ملوك الطوائف حصل على علوم كثيرة ثم رجع إلى المغرب الأقصى، توفي عام 415 هـ.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ج.4، ص.13.

(3) المصدر نفسه، ص.13.

(4) ينظر: السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.2، مصدر سابق، ص.17.



مكانه فكان كأخيه صالحاً ورعاً وتولى أمر الحرب والجهاد فوجه جيشاً إلى بلاد السوس فاستولى عليها ثم توجه عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة وأذعنوا له بالطاعة»<sup>(1)</sup>.

«وفي عام 454 للهجرة قام الأمير أبو بكر بإعداد جيش قوي مؤلف من قبائل المصامدة وصنهاجة وجزولة حتى يتمكن من ضم معظم مناطق بلاد المغرب، فبدأ بالاستيلاء على بلاد فزاز وجبالها وسائر بلاد زناتة، كما فتح بلاد مكناسة، ثم توجه إلى بلاد لواته واستطاع ضمها بعد مقاومة عنيفة من حاكمها ثم رجع إلى مدينة أغمات»<sup>(2)</sup>.

«نازل أبو بكر بن عمر مدينة لواتة، وافتتحها عام 402 للهجرة غير أن هذه الفتوحات لم يكتب لها الاستمرار، فقد حدث في هذه السنة شقاق بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، فخشي أبو بكر بن عمر أن تفرق كلمتهم وتشتت جموعهم فرأى ضرورة التوجه إلى الصحراء ليصلح بين القبليتين فاستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين في قيادة جيوش المرابطين، وولاه بلاد المغرب مكانة نيابة عنه، وقسم الجيش حيث ترك له الثلث من لمتونة، وشرع هو في التوجه إلى بلاد الصحراء»<sup>(3)</sup>.

«ثم انطلق المرابطون إلى شمال الأطلس الكبير، تحت قيادة رئيسهم يوسف بن تاشفين الذي غزا المغرب الأقصى ثم المغرب الأوسط، فكشفت قيادته للمرابطين عن عظمتهم، وأصبح يوسف بن تاشفين أميراً على البلاد منذ عام 453 للهجرة، وكانت عزمته قوية ونظره بعيد فاخطت مدينة مراكش عام 463 للهجرة؛ لتكون عاصمته لملكة، ثم أنشأ جيشاً كبيراً من قبائل صنهاجة وزناتة والمصامدة وزحف بهم من مراكش لفتح ما بقي من حواضر المغرب»<sup>(4)</sup>.

«ففي عام 454 للهجرة جند يوسف بن تاشفين الأجناد واستكثر القواد واتخذ كثيراً من الطبول وأخرج العمال وكتب العهود، كما جعل في جيشه الأغزاز والرماة، كل ذلك إرهاباً

(1) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مصدر سابق، ص.12، ص.13.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج.3، مصدر سابق، ص.242.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.4، مصدر سابق، ص.20.

(4) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص.148.

لقبائل المغرب فكمل له من الجيش في تلك السنة ما يزيد عن مائة ألف فارس؛ فخرج بهم من مراكش قاصداً مدينة فاس»<sup>(1)</sup>.

«كان ابن تاشفين يدرك أنّ مدينة فاس من المعقل الحصينة التي يتطلب فتحها مثل هذه الأعداد الغفيرة وبالفعل تلقته القبائل الفاسية من زواغة ولماية ولواتة وصدينة وسدارته ومفيلة وبهلولة ومديونة في خلق عظيم وعدد كثير، فكانت بينهم وبينه حرب عظيمة انهزموا فيها وانحصروا بمدينة صدينة»<sup>(2)</sup> «فدخل عليهم بالسيف وهدم سورها وخرّبها وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف رجل، وفتح استلاء يوسف بن تاشفين على مدينة صدينة الطريق إلى مدينة فاس التي ارتحل إليها يوسف لأنّ قلوب المرابطين لم تكن لتطمئن وعدوهم جاثم بمدينة فاس، خاصة وأنّ الوادي الذي تقع فيه كان مركز الثقل في المغرب الأقصى كله»<sup>(3)</sup>.

رأي يوسف بن تاشفين أنّه لا يتم فتح فاس والسيطرة على بلاد المغرب إلّا بفتح مدينة فاس فجهز لها العتاد من جنود وقادة وأبطال للدخول في تلك الوغى، ولقد تناولت عدّة مصادر فتح مدينة فاس من أهمها نذكر مايلي:

«ابن عذارى يذكر: « في سنة سبع وستين وأربعمئة افتتح أمير المسلمين يوسف مدينة فاس ذلك لما جهز أمير المسلمين عسكرياً وقدم عليه ابن عمه يحيى بن واسينوا اللمتوني وأمره بمنازلة فاس فكان وصوله إليها عقب وجب الفرد وكان أمراء فاس يومئذٍ أبناء حمّامة فقاتلهم يحيى قتالاً شديداً سبعة أيام وفي الثامن دخلها عنوة، ومات فيها من أهل فاس بشر كثير وسلبت ديارهم ثم عفا عنهم وانحصر ابن حمّامة الفتوح ودوناس في قصرهما ثم طلبا الأمان فعفى عنهما في نفسيهما فكتب بفتح فاس وبأخبار الفتوح بن حمّامة وأخيه إلى الأمير يوسف بن تاشفين فأمر بتوجيههما حيث شاء فاستوصى الفتوح مغيلة واستولت لمتونة على مدينة فاس»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 139.

(2) المصدر نفسه، ص. 202.

(3) المصدر نفسه، ص. 203.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج. 4، مصدر سابق، ص. 28.

يذكر القلقشندي فتح مدينة فاس: ثم افتتح مدينة فاس صلحاً سنة خمس وخمسين ثم استعادت بعد فتحها ثم فتحها عنوة سنة اثنتين وستين وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين عدوتي القرويين والأندلس وصيرهما مقراً وافداً<sup>(1)</sup>.

يذكر السلاوي أنه: « أقام يوسف على رأس مدينة فاس حتى طفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله ومع ذلك لم يستطع دخولها فقام بمحاصرتها حتى فتحها وهو الفتح الأول وذلك سنة خمس وخمسين وأبعمائة فقام بها أياماً واستهل عاملاً من لمتونة، وفي سنة اثنتين وستين أقبل إلى فاس فترل عليها بجميع جيوشه بعد أن فرغ من جميع بلاد المغرب، وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم خلفاً كثيراً حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الأندلس مايزيد على ثلاثة آلاف وفرّ من بقي منهم إلى أحواز تلمسان وهذا هو الفتح الثاني لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة<sup>(2)</sup>.

كما يقول أيضاً السلاوي: « فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة للمدينة إلى جزأين عدوة القرويين وعدوة الأندلس وصيرهما مقراً واحداً وحصنهما وأمر ببناء المساجد في شوارعها وأزقتها وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله، وأمر ببناء الحمامات والفنادق والإرحاء وأصلح بناءها ورتب أسواقها وأقام بها إلى صفر من سنة ثلاث وستين وأربعمائة<sup>(3)</sup>.

فبعد وفاة دوناس بن حمامة عام 452هـ خلفه ابنه الفتوح على مدينة فاس فما كاد يسافر أمره بعدوة الأندلس حتى نازعه أخوه الأصغر عجيسة واستولى على الجزء الثاني من مدينة فاس عدوة القرويين وقامت حروب بينهما واستعدا الأخوان فقام الأمير بتحسين عدوة الأندلس وبني

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج.3، (د.ط)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، (د.ب.ن)، (د.ت.ن)، ص.190.

(2) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.2، مصدر سابق، ص.26.

(3) المصدر نفسه، ج.2، ص.27.

مقرّاً ليسكن به في المكان المسمى بالكلدان وفتح باباً في الجهة القبليّة من العدوّة سماها باسمه باب الفتوح»<sup>(1)</sup>.

لقد أمر الأمير عجيسة بتحسين عدوة القرويين كما بنى بها أيضاً جهة ليسكن فيها، كما أنّه فتح بها باباً في الجهة الشماليّة وقد سماها باب الجيسة من اسمه.<sup>(2)</sup>

«واستعد الطرفان وصار القتال بينهما يومياً في المكان الذي يسمى الوقادين فكثرت الاضطرابات وقلّ الأمن والهدوء واشتد الغلاء واشتدت المجاعة بالمدينة حتى تمكن الأمير الفتوح بن دوناس من الاستيلاء على عدوة القرويين وقتل أخاه فأصبحت العدوّتين تحت سيطرته هذا التّراع القائم بين الأخوين داخل المينة نتج عنه ضعف في القوة التي تدافع عن المدينة هذا الضعف جعل الأمير الفتوح بن دوناس يتخلى عن إدارة مدينة فاس لأحد أقاربه، وذلك عندما علم بظهور المرابطين على أطراف البلاد وتمكن عبد الله بن ياسين من دخول مدينة أغمات وما يليها»<sup>(3)</sup>.

«استطاع معنصر بن حماد بشجاعته وحزمه من الدفاع عن مدينة فاس وهزم الجيش التابع للمرابطين، ومع إصرار المرابطين على فتح مدينة فاس، وبالفعل فتحت صلحاً عام 455 هـ وهو الفتح الأول لمدينة فاس، أمّا الفتح الثاني فقد استغل معنصر فرصة انشغال المرابطين بالفتوح ودخل مدينة فاس وقتل عاملها»<sup>(4)</sup>.

«لكن أهل مدينة فاس لم يسلموا مدينتهم بسهولة فبايعوا تميم بن معنصر بن حماد فقام المرابطون بحصار شديد لمدينة فاس عانى فيها أهلها من الفتن والغلاء وسوء المعيشة وعندما اكتمل الحصار بعد انتهاء المرابطين من فتح بلاد غمارة سنة 462 للهجرة ثمّ الزحف إلى مدينة فاس والاستيلاء عليها وفتحت هذه المرة بالقوة»<sup>(5)</sup>.

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج.5، مصدر سابق، ص.187.

(2) ينظر: الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.30.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس، مصدر سابق، ص.214.

(4) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.1، مصدر سابق، ص.205.

(5) المصدر نفسه، ص.88.

«وبسقوط فاس في يد المرابطين تنتهي الحلقة الأخيرة من حلقات ذلك الصراع العنيف الذي احتدم بين زناته وبين صنهاجة المغرب، وقد افرق شمل زناته ولم تعد لها بالمغرب الأقصى قوة تذكر، وكان لاستيلاء المرابطين على فاس أهمية بالغة الأثر، فقد فتح الطريق أمامهم ليطمئئوا فتح المغرب الأقصى كله، ويستولوا على السهول الساحلية، كما أنه يميل بدء احتكاك المرابطين بالحضارة المغربية الأندلسية التي كانت مزدهرة بفاس وبالسفوح الساحلية من إقليم الريف»<sup>(1)</sup>.

«لم تكن مدينة فاس عاصمة للمرابطين، ولكن كانت إحدى مدنها الرئيسية فهي وإن كانت مدينة لإدريس الثاني بنشأها الأولى، فإن يوسف بن تاشفين هو مؤسسها الثاني، حيث اهتم ابن تاشفين بمدينة فاس على الرغم من اتخاذه مدينة مراكش عاصمة لدولته»<sup>(2)</sup>.

«عمل يوسف بن تاشفين على تحويل فاس إلى قاعدة عسكرية، إذ كانت إلى ذلك الحين لا تحتوي سوى حاميات متواضعة، فأصبحت فاس مع ابن تاشفين القاعدة الرئيسية لعمليات المرابطين سواء تعلق الأمر بالزحف إلى الشرق نحو تازا وملوية»<sup>(3)</sup>؛ «وتلمسان وحتى الجزائر لو أراد يوسف إخضاع قبائل الريف وجباله، وإلى جانب ذلك أسس ابن تاشفين بمدينة فاس القلعة داخل أسوار المدينة وفي وسطها، وقلعة المرابطين هذه كانت في أعلى الحي الذي يسمى القطانين كما يوجد السجن الذي كان يسمى بسجن القلعة، مضافاً إليها السرج الذي كان من توابع القلعة المرابطية»<sup>(4)</sup>.

ومن أعمال المرابطين في مدينة فاس: «وفي أيام لمتونه هدمت الأسوار التي بأعلى الوادي الكبير بقرب حوض السفرجل والصور الذي أسفله حيث الرميطة الذي بناه دوناس حين أدار الأسوار على سائر أرباضها، وكان قد جعل بين العدوتين قناطر للمجاز لمن في كل عدوة إلى

(1) محمد الهادي شعير، المرابطون وتاريخهم السياسي، (د.ط)، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1969، ص.55.

(2) عبد القادر زمامة، معالم وأعلام من فاس القديم، مجلة البحث العلمي، ع 17، 1970، ص.87.

(3) مجهول، الاستبصار في عجائب الأبصار، مصدر سابق، ص.193.

(4) عبد القادر زمامة، معالم وأعلام من فاس القديم، مرجع سابق، ص.88.

الأخرى، فالأولى قنطرة أبي طوبة، الثانية قنطرة أبي برقوق، الثالثة قنطرة باب السلسلة، الرابعة قنطرة الصباغين، الخامسة قنطرة كهف الوقادين، السادسة قنطرة الرميلة».<sup>(1)</sup>

على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المرابطون لتوحيد المدينة وجعلها نسيجاً واحداً، إلا أنّ المدينتين الموحدين احتفظتا بذاقهما وأسلوب عيشهما يؤكد هذا الجغرافي الإدريسي في منتصف القرن السادس الهجري أي بعد قرابة قرن من قرار يوسف بن تاشفين بتوحيد المدينة و« في كل مدينة منهما جامع ومنبر وإمام وبين المدينتين أبداً فتن ومقاتلات بالحملة، إنّ أهل مدينتي فاس يقتل فتيانهم بعضهم بعضاً».<sup>(2)</sup>

«حاول يوسف بن تاشفين إجراء عدّة اصلاحات مختلفة بمدينة فاس حتى تستطيع أن تمضي في رقيها وكان هو الوحيد الذي جهد على أعمال عذا الاصلاح:

- فقد جمع سكان العدوتين في مدينة واحدة على الرغم من التناقض الواضح والقديم بينهما.
- إزالة الفواصل سواء كانت حواجزاً أو أسواراً.
- بناء ستة قناطر للربط بين العدوتين حتى تسهل عملية الاتحاد والاندماج.
- تقسيم المدينة إلى عشر نواح كما زاد يوسف بن تاشفين في السقايات والحمامات والفنادق والمساجد في أحياء المدينة التي لم تكن فيها مساجد».<sup>(3)</sup>
- كما من مهام يوسف بن تاشفين أنّه أحضر صناعاتاً إلى مدينة فاس من الأندلس وخصوصاً من قرطبة، الذين تفننوا في الصناعات.<sup>(4)</sup>

(1) الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.31.

(2) حسن محمد أحمد محمد، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، (د.ط)، القاهرة، 1967، ص.65.

(3) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص.63.

(4) ينظر: الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.32.

«عمل على تحويل مدينة فاس إلى قاعدة عسكرية، وكانت على ما يتضح أنه لا يوجد بها وسائل الدفاع عنها؛ فقط يوجد بها الأسوار والبرجين اللذين شيدهما الفتوح وعجيسة في القسم الأعلى من المدينة خلال الصراع بينهما»<sup>(1)</sup>.

«اهتم المرابطون بالمنشآت الدينية وخاصة جامع القرويين فنجد العاهل المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين عندما ضاق الجامع بالمصلين حيث كانوا يصلون بخارجه في الشوارع والأسواق، أمر بشراء الأملاك التي كانت مجاورة للجامع وحين كمل لهم الشراء تم البناء في هذه الزيادة سنة 529 للهجرة والتي كانت عبارة عن عشر بلاطات من صحنه إلى قبلته التي بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين، ثم بدأ العمل في مقام القبلة حيث يدخل على مصلى الجنائز ولم يكمل هذا البناء إلا في سنة 537 للهجرة»<sup>(2)</sup>.

«لقد ترك يوسف بن تاشفين لإبنه علي دولة كبيرة مترامية لها جيش قوي ونظم في الحياة واستقرار في المدن وقد قال في هذا الصدد المراكشي: «واختل حال أمير المسلمين - رحمه الله - بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً فظهرت في بلاده منكرات كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم للاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح وصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر المتونة ومسوفة مشتملة على مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ويقوى ضعفه وقنع باسم إمارة المسلمين وبما رفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبطل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً بذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاحتل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس، وكانت تعود إلى حالها الأول»<sup>(3)</sup>.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.4، مصدر سابق، ص.29.

(2) الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص.57.

(3) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص.147.

«فلم يكد ينعم المغرب الأقصى ومدينة فاس بالاستقرار في ظل دولة المرابطين حتى ظهر على مسرح الأحداث داعية ديني قام بحركة تجديدية سرت في أعماق نفوس كثيرة، سقطت على إثرها دولة المرابطين، وبنيت على أنقاضها دولة الموحدين؛ فتعد هذه الدولة من الدول العظيمة التي قامت في بلاد المغرب على مدار التاريخ الإسلامي، حيث استطاعت توحيد بلاد المغرب بأقسامه المختلفة من برقة شرقاً إلى البحر المحيط غرباً، ومن سواحل البحر الرومي إلى مشارق إفريقية المدارية جنوباً، بالإضافة إلى سيطرتها على الأندلس».<sup>(1)</sup>

«كانت بداية هذه الدعوة عندما ظهر المهدي بن تومرت\* في عام 514 للهجرة بعد عودته من المشرق، فقيهاً مشغلاً بالعلم والفتيا والتدريس آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ونزل المهدي في بداية دعوته لمدينة بجاية في قرية تعرف بملالة، ولقبه بهذه القرية عبد المؤمن بن علي الذي انضم إلى خدمته وأخذ عنه العلم وعلم بما يقصد إليه من طلب الخلافة».<sup>(2)</sup>

«أخذ ابن تومرت منذ اللحظات الأولى لدعوته يستنقص المرابطين أمراء المغرب وينسبهم الكفر، ويدعو إلى خلع طاعتهم ويمشي في الأسواق يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويكسر المزامير وآلات اللهو، ويريق الخمر حيثما وجده يفعل ذلك في أي بلد به وأي موضع نزل، إلى أن وصل مدينة فاس».<sup>(3)</sup>

«نشأ ابن تومرت بين قومه نشأة كريمة حيث كان أبوه يحمل لقب «أمغار» أي الرئيس حفظ القرآن الكريم في طفولته، اشتغل بالعلوم الدينية وفضل التقشف والخشونة عن حياة الترف اشتهر بالذكاء والنشاط كان يحلم بالذهاب إلى المشرق الإسلامي رغبة في تحصيل الدروس العلمية

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 230.

\*محمد بن تومرت هو عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطار بن رباح بن أصرار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ولد سنة 485 للهجرة في منطقة السوس بالمغرب الأقصى من قبيلة هوغة كانت تسكن جبل يعرف بـ " أجليز "، نشأ ابن تومرت بين قومه نشأة كريمة حيث كان أبوه يحمل لقب أمغار - الرئيس - حفظ القرآن الكريم في طفولته ثم اشتغل بالعلوم الدينية وفضل التقشف عن حياة الترف، اشتهر بالذكاء والنشاط.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص. 127.

(3) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 173.



باعتباره مصدرًا للعلوم ومنيعًا للحضارات، ثم قصد الشام وقابل أبا حامد الغزالي الذي علم ما فعله علي بن يوسف بكتبه التي وصلت المغرب من إحراقها وإفسادها ومطاردة وعقاب من حازها وكان ابن تومرت حاضراً في ذلك المجلس»<sup>(1)</sup>.

فقد أورد صاحب الحلل الموشية في كتابه مايلي: «حكى ابن صاحب الصلاة عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي مسن من سكان فاس قال: كنت ببغداد بمدرسة الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي، فجاءه رجل كثر اللحية على رأسه كرزي (عمامة) صوف؛ فدخل المدرسة وأقبل على الشيخ أبي حامد، فسلم عليه فقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل المغرب الأقصى.

قال: دخلت قرطبة؟ قال: نعم.

قال: كيف فقهاؤها؟ قال: بخير.

قال: هل بلغهم كتاب الإحياء؟ قال: نعم.

قال: فماذا قالوا فيه؟ فصمت الرجل حياء، فعزم عليه ليقولن ما طرأ، فأخبره بإحراقه وبالقصبة كما جرت، قال: فتغير وجهه ومد يده إلى الدعاء، والطلبة يؤمنون، فقال: اللهم مزق ملكهم كما مزقوه؛ وأذهب دولتهم كما أحرقوه، فقال أبو عبد الله بن تومرت السوسي الملقب بالمهدي؛ أيها الإمام، أدع الله أن يجعل على يدي، فتغافل عنه، فلما كان بعد أيام، أتى الحلقة شيخ آخر على شكل الأول فسأله الشيخ أبو حامد، فأخبره بصحة الخبر المتقدم، فدعا بمثل دعائه الأول فقال له المهدي، على يدي إن شاء الله، فقال: اللهم اجعله على يدك، فقبل الله دعاءه، وخرج أبو عبد الله بن تومرت من بغداد وصار إلى المغرب»<sup>(2)</sup>.

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 178.

(2) مؤلف مجهول الاسم، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق أس. علوش، (د.ط)، الرباط، 1936، ص. 85، ص. 86.

«فأول لقاء تم بين ابن تومرت عبد المؤمن بن علي الكومي\*، حيث كان عبد المؤمن متوجهاً إلى المشرق لطلب العلم فلما وصل إلى مدينة بجاية نزل في مسجدتها فلما صلى الصبح سمع الناس يقولون سيروا بنا نحو الفقيه السوسي ولما سمعهم عبد المؤمن يذكرون صلاح دينه وكثرة علمه وإدراكه وتعمقه لكتاب الله ذهب لرؤيته وسماعه هؤلاء الداهيين»<sup>(1)</sup>.

«لقد فضل عبد المؤمن بن علي البقاء مع ابن تومرت فقضي عدة أشهر يقرأ عليه وكان أكثر الطلبة فهماً وإدراكاً فسماه بسراج الموحدين»<sup>(2)</sup>.

«وفي سنة 517 هـ أعدا ابن تومرت جيشاً كبيراً من المصامدة معظمهم من أهل تنمال مع من انضم إليهم من أهل السوس وقال لهم، اقصدوا المارقين المبدلين الدين تسموا بالمرابطين فادعوههم إلى إمارة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المعصوم»<sup>(3)</sup>.

«يذكر البيدق ثلثي غزوات للمهدي بن تومرت ضد القوات المرابطية، لكن أهمها الغزوة الثامنة وهي المعروفة بوقعة البحيرة، فتلك الغزوة التي استعد لها الموحدون غاية الاستعداد حتى بلغت قواتهم على حد قول صاحب الحلل الموشية أربعين ألفاً يتقدمهم أبو محمد البشير أحد أصحاب المهدي العشرة، حيث نزلت القوات الموحدية بالبحيرة ومكثت بها أربعين يوماً ثم أقيمت بعدها عساكرهم نحو العاصمة المرابطية مراكش، فخرج إليهم المرابطون في أزيد من مائة ألف ما بين فارس وراجل»<sup>(4)</sup>.

(1) البيدق، المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص. 54.

\*عبد المؤمن بن علي بن علوي: ينتمي إلى قبيلة كومية وهي بطن من بطون زناتة فهو بربري الأصل يلقب بأمر المؤمنين، كان عاملاً حازماً سديد الرأي حسن السياسة للأمور، جمع الناس على مذهب الإمام مالك وكان الطالب على محبة أهل العلم والدين أول خلفاء الموحدين كانت ولايته بعد وفاة المهدي بن تومرت في سنة 524 للهجرة، وكانت وفاته 557 هـ.

(2) البيدق، أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين، تحقيق ليفي برونسسال، (د.ط)، باريس، 1928، ص. 56.

(3) السملالي، الإعلام بما حل بمراكش وأغماث من الأعلام، ج. 24، (د.ط)، المطبعة المالكية، الرباط، 1993، ص. 71.

(4) البيدق، المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص. 39.

«انتهت هذه الغزوة بهزيمة الموحدين هزيمة منكرة، حيث اتبعهم المرابطون من مراكش إلى أغمات فأمنعوا القتل فيهم ولم ينج منهم إلاّ اليسير، وقتل في هذه الموقعة البشير قائد الموحدين، كما خسر الموحدون أكثر أصحاب المهدي العشرة».<sup>(1)</sup>

تعدّ معركة البحيرة من أشد وأعنف المعارك التي دارت بين المرابطين والموحدين.<sup>(2)</sup>

بعد هذه المعركة الطاحنة بأيام قليلة توفي المهدي بن تومرت في شهر رمضان سنة 524 للهجرة.<sup>(3)</sup>

عند وفاة المهدي بن تومرت خلفه من بعده زميله وصديقه المقرب علي بن عبد المؤمن، وكانت خلافته في البداية تصدها العقبات وصعبة المراس، وكان لابد أن ينهي ما بدأه الخليفة "المهدي بن تومرت" وهو القضاء على المرابطين بعدما ما شهدته من ملحمة عصبية كانت الخسارة نتيجتها؛ كما دخلت عدّة قبائل في مضمار الموحدين وكان لهذا الدخول أثر بالغ الأهمية في النتائج الحربي، فزادت قوتهم وعددهم فقد انضمت إليهم قبيلتي صنهاجة وهسكورة وحتى قبيلة زناتة.<sup>(4)</sup>

توجه عبد المؤمن بن علي بجيوشه إلى مدينة تلمسان عام 539 للهجرة، وقصد تاشفين بن علي نحو مدينة وهران، وهناك شدت المواجهة بينهم، فاستولى الموحدون على وهران كما أنّهم قتلوا المرابطين الذين كانوا متواجدين هناك بالسيف.<sup>(5)</sup>

كانت تلمسان وفاس من المواقع الحصينة والمعقل المهمة التي تمثل قاعدة لانطلاق القوات المرابطية في حربها ضدّ الموحدين لذا عمل عبد المؤمن بن علي، على السيطرة عليهما واتخاذهما قاعدتين تنطلق منهما جيوشه للدفاع أو للهجوم على المغرب الأقصى والأندلس، فعزم عبد المؤمن أن يخرج بجمعه إلى جهة فاس وتلمسان لحشد أهل طاعته وجلبهم من كل مكان، وبلغت الجيوش

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 260.

(2) ينظر: عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، (د.ط)، دار المعارف، مصر، 1971، ص. 79.

(3) ينظر: النويري، نهاية الأرب في فنون العرب، تحقيق د. حسين نصار، مراجعة د. عبد العزيز الأهواني، ج. 24، (د.ط)، المجلس الأعلى

للثقافة بالاشتراك مع الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ص. 289.

(4) البيذق، المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص. 44.

(5) مجهول الاسم، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، مصدر سابق، ص. 111.

الموحدية في سيرها الجبال المجاورة لفاس»<sup>(1)</sup>؛ وإزاء ذلك جند تاشفين جنوده وحشد حشوده وخرج لمواجهة عبد المؤمن بن علي، فاتجه بالقوات المرابطية إلى مدينة فاس، فاستقر بها بعضاً من الوقت وحوله رجال قيادته ليدرسوا خطة حاسمة ونهائية للقضاء على الموحدين، ولكن ذلك لم يتحقق للمرابطين، فقد نقصت عنهم القوات».<sup>(2)</sup>

"وبعد أن استقر عبد المؤمن بن علي وأدخل وهران إلى هدفه، حمل جيوشه وتوجه إلى مدينة فاس، ومن الجدير الذكر أنه توجد عدة مصادر ذكرت فتح مدينة فاس فنعددها كآلاتي: فابن الأثير بقول: «وسار إلى مدينة فاس سنة أربعين وخمسمائة فترل على جبل مطل عليها وحاصرها تسعة أشهر... فلما طال مقام عبد المؤمن من عمد إلى نهر يدخل إلى البلد فسكّره بالأخشاب والتراب وغير ذلك فمنعه من دخول البلد وصار بحيرة تسير فيها السفن ثم هدم السور فجاء الماء دفعة واحدة بسور البلد... وكل ما يجاور النهر من البلد وأراد عبد المؤمن أن يدخل فقابله أهلها خارج السور فتعذر عليه ما قدره من دخوله وكان بفاس عبد الله بن خيار الحيلاني عاملاً عليها وعلى جميع أعمالها فاتفق هو وجماعة من أعيان البلد وكاتبوا عبد المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس فأجابهم إليه ففتحوا له باباً من أبوابها فدخلها عسكري وكان فتحها آخر سنة أربعين وخمسمائة ورتب عبد المؤمن أمر مدينة فاس، وأمر فنودي في أهلها من ترك عنده سلاحاً وعدة قتال حل دمه فحمل كل من البلد ما عندهم من سلاح إليه فأخذه منهم»".<sup>(3)</sup>

يقول صاحب الحلل الموشية: « فترل على مدينة فاس وبها أحد أولاد علي بن يوسف والمدبر لها ومشرفها أبو محمد الحياتي فاجتمعت عليه بها الوفود من كل جهة ومكان وبالغ في حصارها وأقام محاصراً لها ستة أشهر وأهلها يقاتلون خارج البلاد ومن أشد ما دهاهم به أن الوادي الذي يشق مدينة فاس سده عليهم وأمر الناس أن يسووا الحطب والخشب ويرفعوا التراب

(1) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، قسم الموحدين، تح. محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت وآخرين، مصدر سابق، ص. 16.

(2) محمد أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت.ن)، ص. 64.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج. 25، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د.ت.ن)، ص. 581.

على ذلك سداً بعد آخر حتى احتبس الماء وخسر الوادي فسار الفحص كله بجرّاً وأقام الماء يرتفع إلى أن صار بجرّاً تجري فيه السفن استعان على ذلك بكثرة الآلات والعالم واتساع الفحص ثم هدم السد بمره فوقهم عليهم السور وكان عبد المؤمن يريد أن يدخلها فوق له أهل فاس على متهدم السور وقتلوه من خارجها ولما طال عليهم الحصار وجه الحياني مشرفها في خفية لعبد المؤمن فأمنه وأدخله من باب الفتوح وذلك أنّ واليها من المرابطين طلبه في مال وضيق فيه عليه فلم يكن في وسعه من أين يعطيه له فحينئذٍ عمل الحيلة في دخول عبد المؤمن وخروج صاحبها عنها واستولى الموحدون على فاس»<sup>(1)</sup>.

كما يقول السلاوي: «وقصد مدينة سبته إحدى وأربعين وخمسمائة... فحاصروها سبعة أشهر ثم داخلهم ابن الحياني فسرب البلد وأدخل الموحدون ليلاً... وانتهى خبر فتح فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها ودخلها»<sup>(2)</sup>.

«تمكن الموحدون من دخول فاس بعد حصارها تسعة أشهر بقيادة عبد المؤمن بن علي وذلك في شهر ذي القعدة عام 540 للهجرة/1146 ميلادية وأمن عبد المؤمن أهلها إلاّ من كان بها من المرابطين فأنّه لم يمض لهم أمان وقتلهم قتلة كفر»<sup>(3)</sup>.

«كانت مدينة فاس قد أقلّ نجمها بعض الشيء بسبب الحروب التي شنها عليها الموحدون، وما أن دخلها الخليفة الموحي - عبد المؤمن بن علي - حتى بدأ بجمع الأسلحة من أهلها منادياً في أهلها من وجده عنده سلاحاً وعدّة قتال حلّ دمه، فحمل أهل المدينة ما عندهم من سلاح إليه»<sup>(4)</sup>.

(1) مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مصدر سابق، ص.111، ص.112.

(2) السلاوي، الاستقصا لأخبار الأندلس، ج.2، مصدر سابق، ص.96.

(3) ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص.189.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج.8، مصدر سابق، ص.300.

«فكان عامل مدينة فاس بمثابة وزير للإقليم، له نائب خاص، يليه كتّاب موظفون أصغر منه رتبة، ففي عام 448هـ/1153م عيّن أبو الحسن علي بن عبد المؤمن عاملاً على فاس ومعه وزيره أبو يعقوب بن سليمان لتدريبه، ومعه من الكتّاب أبو العباس بن مضاء يعلمه ويقرأ عليه»<sup>(1)</sup>.

ففي عام 553 للهجرة الموافق 1158 ميلادية كلف الخليفة عبد المؤمن يوسف بن سليمان بتوليّه أعمال فاس بدلاً من ابنه أبي الحسن أثناء غياب الخليفة.<sup>(2)</sup>

تابع الخليفة الموحي بنفسه خلال مدة إقامته بفاس مهمة القضاء على المفسدين من العمال والولاة الذين يتبين له أنهم يستغلون مناصبهم فأوقع بعبد الرحمن بن يحيى المشرف بمدينة فاس حيث صحّ عند الخليفة أنه خانته، وحمل على الرعية وأذاهم كثيراً؛ فأنزل الخليفة به العقاب وهو من تبعه في هذا الظلم مثل إبراهيم بن عبد الله الجياني الخازن على المال الذهبي، كما ألحق العقاب أيضاً بالخازن على الطعام، وكانت خطته الخلافة في القضاء على مثل هؤلاء المفسدين أن تصدر أموالهم ودورهم وتدخل إلى خزانة الدولة»<sup>(3)</sup>.

«وفي الثامن عشر من ربيع الآخر من عام 580هـ الموافق 1184 ميلادية توفي الخليفة الثالث للموحدين يوسف بن عبد المؤمن، وبويع لابنه يعقوب المنصور بالخلافة في التاسع عشر ربيع الآخر من نفس العام»<sup>(4)</sup>.

ازدهرت مدينة فاس في أيام يعقوب المنصور فقد اتخذت سياسته إجراءات كانت تنط على العدل وإطلاق سراح المساجين وتكريم الفقهاء والصلحاء، كما أنه يطمأن على رعيته ويهتم لشؤونها.<sup>(5)</sup>

(1) عبد القادر زمامة، اكتشاف نص. جديد يتعلق بتاريخ الموحدين، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، ع (4-5)، 1981-1982، ص. 318.

(2) ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، مصدر سابق، ص240، ص241.

(3) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص215، ص216.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص186.

(5) ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص186.

«وقد شهدت مدينة فاس في أيام يعقوب المنصور الموحيدي أكبر السفارات من الدول الأخرى، ففي عام 586 للهجرة الموافق 1190 ميلادية وصل أسامة بن منفذ - أبو الحارث عبد الرحمن بن منفذ - رسولا عن صاحب الشام ومصر وصلاح الدين الأيوبي الذي استرخ الخليفة يعقوب المنصور يطلب إعانته بالأساطيل البحرية الموحدية لاستخدامها ضد النصارى الذين كانوا يستعدون لغزو الشام»<sup>(1)</sup>.

توفي المنصور عام 596 للهجرة وخلفه ولي عهده أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالناصر لدين الله وكان آخر خلفاء الموحدين الأقوياء وفي عهده بدأت أسباب انهيار دولة الموحدين تتضح كالاتي:

1. «فوضى الإدارة وتفكك وحدة القبائل الموحدية.
2. ضعف الخلفاء الذين تولوا بعد الناصر وتفكك المغرب في ظل هؤلاء الخلفاء الضعاف»<sup>(2)</sup>.
3. «ضعف الجبهة الداخلية الموحدية وتعرض أمنها الخارجي للخطر والتهديد»<sup>(3)</sup>.
4. «الصراع على السلطة واستبداد الوزراء وسوء تصرف الشيوخ ويعد ذلك من أبرز ملامح المرحلة التي أعقبت هزيمة العقاب\* عام 609هـ/1212م خاصة منذ وفاة الخليفة محمد الناصر بن المنصور يعقوب الموحيدي عام 610هـ/1213م»<sup>(4)</sup>.
5. «الكوارث الطبيعية والبيئية لقد تعرضت دولة الموحدين لموجات متلاحقة من الكوارث الطبيعية والبيئية كوباء الطاعون الذي عمّ بلاد المغرب والأندلس عام 610هـ الموافق 1213م؛ كما اجتاحت الجراد بلاد المغرب عامي 617هـ و624هـ/1220م و1226م فحلف قحطاً شديداً، وفي سنة 626هـ/1229م كان السبيل العظيم بفاس الذي أدى إلى عدم سورها القبلي ومنشآت

<sup>(1)</sup> ابتسام المرعي، العلاقة بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، سنة 1985، ص158.

<sup>(2)</sup> النويري: نهاية الأرب في فنون العرب، مصدر سابق، ص349.

<sup>(3)</sup> ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، مصدر سابق، ص311.

<sup>(4)</sup> ابن خلدون، العبر، ج6، المصدر السابق، ص250.

\*العقاب: موضع بالأندلس بين حيان وقلعة رباح، وتسمى معركة العقاب في المصادر الأجنبية "لاس نافاس دي تولوزا" (LAS NAVAS de TOLOSA)

أخرى، وعاد الوباء عام 635هـ/1238م؛ إلى بلاد المغرب فدفن كل مائة شخص في حفرة واحدة<sup>(1)</sup>.

6. «بروز الثورات وحركات التمرد والترعات الاستقلالية، فمثلاً في عهد المأمون بن منصور ثار بجبال غمارة عام 625هـ/1227م محمد بن أبي الطواين المتنبّي، ثم ارتحل إلى سبتة وادعى النبوة<sup>(2)</sup>.

7. «الهزائم المتوالية التي منيت بها الدولة الموحدية على يد الممالك النصرانية وأهمها هزيمة الموحدين في معركة العقاب عام 609هـ/1212م في أيام الخليفة الموحدي محمد الناصر بن يعقوب المنصور أمام ملك قشتالة ألفونسو\* الثامن على الأراضي الأندلسية<sup>(3)</sup>.

«يعتبر الخليفة الناصر الموحدي أكثر خلفاء الموحدين اهتماماً بمدينة فاس ونالت من رعايته الكثير فقد طلب منه أهل مدينة فاس إقامة دار للوضوء بجامع الأندلس فأجابهم إلى هذا وأقام دار الوضوء وجعل لها خمسة عشر ديناً في سقف كل بيت فتحة لدخول الضوء نهاراً وعلق في وسطها ثريا بها قوارير زجاجية تضيء أول الليل وآخره، وفي كل بيت أنبوبة من نحاس ينصب فيه الماء ثم فرش بالرخام الأبيض وكتب على حجر منقوش بخط جميل» بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً وإن من الحجاره لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون عمل في شهر جمادى الآخرة سنة تسع تسعين وخمسمائة<sup>(4)</sup>.

(1) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص262.

(2) السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب، ج2، مصدر سابق، ص234.

(3) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص234.

\*ألفونسو الثامن النبل وشكلت وفاته 1214م مقدمة لتوحيد الممالك النصرانية الإسبانية.

(4) علي الجزنائي، زهرة الآس، مصدر سابق، ص63، ص64.



«اهتم الموحدون بجامع الأندلس بمدينة فاس اهتماماً يفوق جامع القرويين فقد أمر الخليفة الناصر سنة 600هـ ببناء الباب الكبير الجوفي وصنع بأعلاه قبتين إحداها مصنوعة من حص مقوس من داخله والثانية من خشب الأرز من خارجها بالإضافة إلى سقاية ومدخل لبيت الصلاة»<sup>(1)</sup>.  
هذه من بين أعمال الموحدين التي قاموا بها في مدينة فاس:

فعندما قاربت دولة الموحدين من نهايتها يشهد لها الاستقرار والازدهار النص الآتي للجغرافي الإدريسي: «ومدينة فاس ضياع ومعاش ومبان سامية ودور وقصور لأهلها اهتمام بجوانبهم ومبانيهم وجميع آلائهم ونعمها كثيرة، والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها وفواكهها كثيرة وخصبها زائد وبها في كل مكان منها عيون نابعة، ومياه جارية وعليها قباب مبنية، ودواميس محينة ونقوش وضروب من الزينة وبخار بها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة وجهاؤها مخضرة موفقة وبساتينها عامرة وحدثتها ملتفة وفي أهلها عزة ومتعة... ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى... ومدينة فاس في حضرتها الكبرى، ومقصدها الأشهر، وإليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل، ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة وأهلها مياسير ولها من كل حسن أكبر نصيب وأوفر حظ»<sup>(2)</sup>.

«بدأ الوهن والضعف يذب في حسم الدولة الموحدية بعد هزيمتهم في وقعة العقاب، ففي عام 613هـ/1216م بدأ بنو مرين، يشنون هجماتهم على مدن الدولة الموحدية، حيث وصلت عساكر من قبائلهم إلى جهة فاس فخرج إليهم واليها السيد أبو إبراهيم بمن كان معه من أجناد الموحدين بفاس، ولكن القوات الموحدية منيت بالهزيمة أمام بني مرين، حتى وصل الأمر بالقبض على والي المدينة؛ ولكن أطلق بنو مرين سراحه بعد ذلك فتأكدت بينه وبينهم المودة»<sup>(3)</sup>.

(1) السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب، ج2، مصدر سابق، ص96.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، د.ب، د.ت، ص246.

(3) عبد الصمد كنون، جني زهرة الآس في شرح نظم عمل فاس، (د.ط)، مطبعة الشروق، مصر، د.ت، ص24.

«يرجع نسب بني مرين إلى مجموعة قبائل زناتة البربرية وذلك بقولهم أنّ بني مرين فخذ من زناتة ويعتبر بنو مرين أنفسهم أعلى قبائل زناتة حسباً وأشرفها نسباً».<sup>(1)</sup>

«وقبائل بني مرين فكثيرة العدد منها: بنو عبد الحق، وبنو عسكر وبنو وطاس، وبنو الكاس، وبنو يابان، وبنو فودود، وبنو برنيان».<sup>(2)</sup>

لم يكن لقبيلة بني مرين بقعة جغرافية محددة تقيم فيها شأنها في ذلك شأن البدو الرحل الذين وصفهم ابن خلدون (-808هـ - 1405م): « بالمتوحشين الذين ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يحتجون إليه، فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء، فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أفقهم بل يظفرون إلى الأقاليم البعيدة».<sup>(3)</sup>

«ورغم ذلك فقد اتفق كثير من المؤرخين أنّ بني مرين كانوا يتمركزون ما بين "فكيك"<sup>(4)</sup> و"ملوية"<sup>(5)</sup>.

«لم تخضع قبيلة بني مرين لنفوذ الموحيدين فآثروا الهجرة إلى الصحراء جنوباً على عكس أبناء عموماتهم بني زيان وبني وطاس، ولكنهم بالمقابل لم يقفوا على الحياد حيال الأحداث السياسية والقبلية التي شهدتها المغرب خلال عصري المرابطين والموحيدين بل كانوا من القبائل النشطة ذات الفعالية في أحداث التاريخ، فقد نشأ جدهم الأكبر مرين بن ورتاجن بن ماحوخ الزناتي في موقع قيادي، وأهله شخصيته القوية والجادة لتبوء ذلك».<sup>(6)</sup>

«ب وفاة الخليفة الموحيدي المستنصر في عام 620هـ/1220م بدأت الخلافات تدب في الأسرة الموحدية، وبدأ الخلفاء ينازع بعضهم البعض على تولي الخلافة، فما أن بويح لأبي محمد عبد الواحد

(1) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط2، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، سنة 1972، ص13.

(2) ابن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، (د.ط)، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، سن1962، ص11.

(3) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص145.

(4) الوزان، وصف إفريقيا، ج1، مصدر سابق، ص132.

(5) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص176.

(6) الغنيمي، موسوعة، ج5، مرجع سابق، ص199.

بالخلافة في مراكش في 13 ذي الحجة عام 620هـ/1223م، وخلص الأمر لمحمد العادل الذي بويع بمدينة مرسية»<sup>(1)</sup>.

«فعندما توفي الخليفة المأمون، اجتمعت قبائل الموحدين على بيعة ابنه الرشيد بيعة خاصة لا عامة وذلك عام 630هـ/1232م في حين خرج الناصر بجيش من الموحدين وبمن كان معه من العرب والمجندين لمنع هذه البيعة وإثناء صاحبها عن الخلافة ودارت بينهما الحرب، فكانت الهزيمة على جيش يحيى الناصر، حيث دخل الرشيد مراكش منتصراً، واستطاع الرشيد تجديد دولة الموحدين وتمهيد البلاد»<sup>(2)</sup> و«في خلافة الرشيد ظهر عرب الخلط بإفريقية وعظم أمرهم وأعلنوا رفض طاعتهم للموحدين، ممّا أدى إلى توحيد الرشيد إليهم، فهابوا قدومه وتفرقوا في البلاد والقبائل، ثم توجه الخليفة إلى الغرب، قاصداً مدينة فاس التي كانت الأوضاع بها سيئة للغاية، حيث وافق وصول الخليفة الرشيد لفاس أزمة شديدة، والمدينة على حد قول ابن عذارى تقشعر جلود أهلها من ارتفاع السعر لها، فاستقبلتها أهلها بنفوس تشتاقي إلى لقاء حاكمها، داعين له بالنصر فعمل الخليفة على جلاء غمة أهلها في وقت قريب»<sup>(3)</sup>.

«وفي هذه الأوقات كانت قبائل بني مرين تشد وطأها، وكان الخلفاء الموحدون يهبونهم العطاء لإرضائهم وعدم قيامهم بأعمال ضدّ دولتهم، فعندما توجه الخليفة الرشيد إلى مدينة فاس عام 634هـ/1236م واستقر بها وصلته رسائل من بني مرين، دعت الخليفة إلى استضافتهم بفاس حيث وصلهم الإحسان وكثير من الكسوات الفاخرة»<sup>(4)</sup>.

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص416.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص255.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب - قسم الموحدين -، مصدر سابق، ص236.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب - قسم الموحدين -، مصدر سابق، ص358.

فعندما توفي الخليفة الرشيد بدأت نفوذ القبائل المرينية بالتوافد بأعداد هائلة وكثيرة وخاصة بعد توليه أبي بن عبد الحق المنصب عام 642هـ/1244م والذي كان تعيينه خاصاً من طرف المرينين وكذلك القبائل الزناتية، فسمع جلّ من في مدينة فاس وأطاعوه، فعلى شأن المرينين آنذاك.<sup>(1)</sup>

«بذل الخليفة الموحيدي جهداً كبيراً، لإنقاذ دولته من ضغط القبائل المرينية عليها، فتحرك من مراکش في سنة 642هـ/1244م قاصداً مواطن بني مرين مستعداً لحربهم وقتالهم، وتقدم في تحركه هذا حتى وصل إلى مدينة فاس، فاستقر بها أياماً».<sup>(2)</sup>

«توفي الخليفة الموحيدي أبو الحسن المعتضد "السعيد" في شهر صفر من سنة 646هـ/1242م الذي في عهد بدأ بنو مرين في توجيه ضربات قاسية للدولة الموحدية عاملين على الاستيلاء على بعض المدن الموحدية واستحوادها وتملكها ففي عام 646هـ/1248م استولى أبو يحيى بن عبد الحق المريني على رباط تازا منها سهل لهم مهمة الاستيلاء على مدينة فاس».<sup>(3)</sup>

«لقد تحركت القوات المرينية للسيطرة عليها بعد شهر من فتحهم تازا، ونجحت في الاستيلاء عليها حيث كانت الحامية الموحدية بالمدينة قليلة لا تقوى على مدافعة القبائل المرينية، فلم يكن بفاس حينئذ سوى نحو مائتي فارس من أجناد الدولة الموحدية تحت قيادة قائدهم المسمى شديد الرومي، فانحصروا بفاس وهلك منهم أعداد غفيرة، ودخل بنو مرين فاس في 18 ربيع الآخر عام 646هـ/أغسطس 1248م، وطاعت 33 لهم المدينة».<sup>(4)</sup>

«عين المرينيون عاملاً على فاس من قبلهم وهو المسعود بن حربش الحشمي الذي أحكم قبضته مع حملة من المرينيين على المدينة، فحبس من تبقى من الحامية الموحدية».<sup>(5)</sup>

(1) المصدر السابق، ص 366.

(2) ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مصدر سابق، ص 128.

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، مصدر سابق، ص 173.

(4) المصدر نفسه، ص 174.

(5) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص 295.

كان من بين أهالي مدينة فاس من يستنصر الموحدين، فقد أكنوا لهذا العامل - المسعود بن خربش - الضغينة والكراهية له فعزموا على قتله، فوجهوا لهم الطعنات الأخيرة التي ألزمتهم قتيلا، ففرح وسعد أهالي مدينة فاس لقتل هذا العامل، كما عرفوا أنه ستأتي بعثات عسكرية للنجد بهم من الطغيان المريني.<sup>(1)</sup>

«ظلّ أهل فاس يفاد معرن ضغط بني مرين نحو تسعة أشهر أملاً في انتظار المدد العسكري الموحي؛ وعندما رأى أماليها أنّ أحوالهم قد ضاقت بالجوع وطول مدّة الحصار؛ طلبوا العفو من السلطان يحيى المريني».<sup>(2)</sup>

بدأ المرينيون يستقرون بفاس، ويتخذونها مقراً لهم، ويبدو أنّ المرينيين عملوا على إصلاح أحوال فاس، حيث هدأت الأحوال من الفتن، وصار ملك تلك البلاد للأمير أبي يحيى بن عبد الحق المريني الذي استقر بفاس في عام 653هـ/1255م فاجتمعت القبائل عليه».<sup>(3)</sup>

«وبهزيمة الموحدين استولى بنو مرين بصفة نهائية على مدينة فاس حيث دخلها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق فملكها في عام 657هـ/1258م وطاعت له بلاد المغرب ما بين نهر ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كتامة».<sup>(4)</sup>

سقطت تلك المدينة الشائخة بعدما هيا لها المرابطون والموحدون الوسادة المريحة، فافترتها الوحوش المرينية وجعلتها قاعدة لهم.<sup>(5)</sup>

«فالمرينيين استطاعوا أن يقضوا على دولة الموحدين نهائياً بالمغرب الأقصى، ونقلوا كرسي المملكة من مراكش إلى فاس، ثم وجهوا أنظارهم نحو مملكة بني عبد الواد، فكان خطرهم أبقى وأمر من خطر بني حفص لقرب فاس من تلمسان التي صارت معرضة لغاراتهم المتوالية».<sup>(6)</sup>

(1) ابن أبي زرع الفاسي، الأئيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص.295.

(2) ابن أبي زرع الفاسي، المصدر نفسه، ص.296.

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (العبر)، ج7، مصدر سابق، ص.177.

(4) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (العبر)، ج7، مصدر سابق، ص.177.

(5) ينظر: القلقشندي، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تح.عبد الستار أحمد خراج، ط3، عالم الكتب، بيروت، سنة 1980، ص.101.

(6) رمضان شاوش، باقة السوسان، مرجع سابق، ص.399.

### المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية:

«تكوّن المجتمع الفاسي في عصري المرابطين والموحدين من عناصر مختلفة من البربر والعرب إلى جانب العناصر الأخرى من العبيد وأهل الذمة».<sup>(1)</sup>

«يعد البربر العنصر الأغلب من عناصر السكان في بلاد المغرب، فمنهم وعلى أكتافهم تأسست دولة المرابطين ثم الموحدين، ومن ثم فمن الطبيعي أن يشكل البربر أهم عناصر السكان في مدينة فاس، وخاصة قبائل صنهاجة وقبائل المصامدة، فقد تبادلت القبيلتان المواقع في عهد كل من الدولتين ويقوم النظام الاجتماعي عند البربر على أسس قبلية محضة، فالقبيلة هي عماد النظام ومحور الحياة سواء كانت تعيش على الريادة أو كانت مستقرة».<sup>(2)</sup>

منذ تأسيس مدينة فاس قطنت العناصر البربرية من صنهاجة ولواتة ومصمودة في مختلف أحياء المدينة، كما توافد بربر التل والجبال وبربر الصحراء من لمطة»<sup>(3)</sup> «فقد حوت فاس صنفين البربر البرانس والبتري، وتنتمي طائفة البربر البتري إلى مادغيس، ومنهم بطنان: نفزاوة وهم بنو لوا الأكبر، ولواتة بنو لوا الأصغر المسمى باسم أبيه؛ وانتشرت بطون وفروع قبيلة لواتة بفاس».<sup>(4)</sup>

«لقد ذكر ابن أبي زرع أنّ قبيلة لواتة كانت بين القبائل البربرية التي خرجت لقتال يوسف بن تاشفين عندما توجه لحصار مدينة فاس عام 454هـ/1062م، كما كان لهذه القبيلة ذكر بمدينة فاس في عصر الموحدين».<sup>(5)</sup>

<sup>(1)</sup> حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين، (د.ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة 1980، ص11.

<sup>(2)</sup> ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص111، ص112.

<sup>(3)</sup> ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج4، مصدر سابق، ص125.

<sup>(4)</sup> ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص99.

<sup>(5)</sup> الجزنائي، زهرة الآس، مصدر سابق، ص431.

ومن قبائل البربر أيضاً التي سكنت بحاضرة فاس، ناس أداسه ولقد استق جماعة منهم بجبل زالغ المطل على فاس، كما أن باب وشتاته ينسب إلى هذا الموضع الذي قطن به هؤلاء.<sup>(1)</sup>

كما وجدت قبائل ضريسة\* البترية التي قطنت بفاس قبيلة مطغرة.<sup>(2)</sup>

«ومن القبائل الموحدية نجد قبيلة ابن تومرت: وهي قبيلة تسمى هرغة وهي قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين، ثم قبيلة عبد المؤمن فتسمى الكومية وهي كثيرة العدد جهة الشعوب، كانوا أصحاب فلاحه ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والخطب وأهل تينمل وهم قبائل شتى ثم قبيلة هنتاغة فيها رياسة وشرف في الدهر القديم».<sup>(3)</sup>

كما وجدت قبيلة تنتمي إلى الموحدين وهم جنفيسة وهي قبيلة عزيزة منيعة ولغتها أجود اللغات وأفسحها لساناً، ثم قبيلة جدمتوه وقبيلة هسكورة.<sup>(4)</sup>

«ومن بين القبائل البترية التي قطنت مدينة فاس، والتي كان لها وجود في عصر المرابطين والموحدين قبيلة مغيلة».<sup>(5)</sup> إخوة مطماطة ولماية وكان جمهورهم بالمغرب الأقصى وهذه القبيلة إحدى القبائل التي قامت بنصرة الإمام إدريس بن عبد الله أثناء دخوله بالمغرب».<sup>(6)</sup>

«كما قطنت المدينة في هذين العهدين بعض من بقايا زناتة الذين استولوا على السلطة في فاس مرات عديدة، وتنضوي تحتهم قبائل كثيرة وبطون عديدة».<sup>(7)</sup>

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 276.

(2) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 126.

\*ضريسة: ينتسبون إلى ضريس بن زحيك بن مادغيس الأتر.

(3) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المصدر السابق، ص. 429.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص. 430.

(5) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 126، ص. 129.

(6) المصدر نفسه، ص. 132.

(7) المصدر نفسه، ص. 255.

«كانت قبيلة زاوغة، وهي من بطون البربر من ولد شمعان بن يحيى بن ضريس بن مادغيس الأبر، من ضمن القبائل الفاسية الخارجة لقتال يوسف بن تاشفين أثناء محاولاته لدخول فاس».<sup>(1)</sup>

«فمع دخول الموحدين فاس بدأت القبائل المصمودية تقطن المدينة، حيث كانت الإدارة في المدينة تقوم بها عناصر موحدية، فاشتهرت البيوتات المصمودية بسكني مدينة فاس في هذا العهد فبت بني حنوسة من مصامدة السوس كانت لهم شهرة كبيرة بفاس في العصر الموحي».<sup>(2)</sup>

«لاحظ الجغرافي العربي الإدريسي في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، بعضاً من القبائل البربرية التي كانت تسكن حول مدينة فاس، منهم بنو يوسف، وفندلاوة وزواوة ومجاصة وحياته».<sup>(3)</sup>

«فقد وجد العنصر العربي من العناصر المؤسسة لمدينة فاس، فعلاوة على مؤسسها العربي العلوي إدريس بن إدريس، وفدت على المدينة وفود العرب من بلاد إفريقية والقيروان والأندلس والعراق من القيسية والأزد، ومدلج وبني يحصب والصدف وغيرهم، فأسكنهم الإمام إدريس بن إدريس بالمدينة وجعلهم بطانته دون البربر».<sup>(4)</sup>

ومن القبائل العربية التي سكنت حول فاس بنو المنتفق الذين ينتمون إلى عامر بن عقيل من الأثيج، الذين دخلوا المغرب مع الغزوة الهلالية، ويعرفون بالخلط؛ وتقع مواطنهم بين فاس ومراكش في سهول إقليم أزغار».<sup>(5)</sup>

«ولما خلاص أمر المغرب للموحدين عام 541هـ/1146م ودخل الخلفاء الموحدون في وقائع كثيرة مع العرب الهلالية وأدرك الخلفاء الموحدون أنّ الغريزة الحربية متأصلة في العرب لا يمكن تخليهم عنها فأروا أن يستغلوا طبيعتهم وطاقتهم لمصلحة الدولة ضد أعدائها لقد ذكر صاحب

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج5، مصدر سابق، ص.155.

(2) المصدر نفسه، ص.157.

(3) مارمول، إفريقية، ج2، مرجع سابق، ص.256.

(4) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج5، مصدر سابق، ص.177.

(5) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص.44.



بيوتات فاس أنّ البيوتات العربية المؤلفة من اثنتين وعشرين عائلة؛ والتي ذكر منها في عهد المرابطين والموحدين سبع بيوتات»<sup>(1)</sup>.

«شهد مجتمع مدينة فاس في عهدي المرابطين والموحدين تنوعاً في طبقاته وطوائفه نتيجة للظروف السياسية والاتجاهات الدينية والفكرية التي مرت بها المدينة ومنطقة المغرب الأقصى يضاف إلى ذلك تنوع النشاط السكاني الذي أسفر عنه تعددًا في أصحاب المهن والحرف التي قامت بهذا النشاط، ممّا جعل المدينة تجمع بين أسوارها فئات متباينة من الناس، يشكلون طبقات متعددة تشكل كل منها لينة في البناء الاجتماعي للمدينة، فانقسم مجتمع مدينة فاس في هذين العهدين على أربع طبقات رئيسية هي: الطبقة الحاكمة، وطبقة الفقهاء، والقضاة والطلبة، وطبقة العامة، وطبقة أهل الذمة»<sup>(2)</sup>.

«وإلى جانب العرب والبربر وجدت عناصر أخرى سكنت المدينة في هذين العهدين منهم الأندلسيون، ويطلق لفظ الأندلسيين على المسلمين من أهل الأندلس باستثناء البربر الطارئيين كقوة سياسية مسيطرة مرابطية كانت أم موحدية»<sup>(3)</sup>.

"ويذكر عبد الواحد المراكشي: «أنّه لما اضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت محمد بن أبي عامر وابنه رحل مها من كان فيها من العلماء والفضلاء من كلّ طبقة فراراً من الفتنة فترل أكثرهم مدينة فاس، وقد اتسمت حياة الأندلسيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين بالهجرة إلى بلاد المغرب»"<sup>(4)</sup>.

«وقد بلغ عدد هذه الهجرات الاستيطانية قرابة الثمانين هجرة من مختلف المدن الأندلسية»<sup>(5)</sup>.

(1) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، (د.ط)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة 1973، ص45.

(2) المصدر نفسه، ص46.

(3) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص139.

(4) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص443.

(5) ابن الزبير، صلة الصلة بالشكوالية، صححه وعلّق عليه ليفي برونفيسال، ج7، (د.ط)، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، سنة 1937، ص212.

كما وجد العنصر السوداني بمدينة فاس خاصة في العصرين المرابطي والموحدي، وقد كان يهتم بجلب هذا العنصر من المناطق السودانية من مختلف بلاد السودان؛ وكانت أعدادهم هائلة، كما أنهم أصبحوا عنصراً مهماً في تلك المنطقة فقد استخدم المرابطون هذا العنصر السوداني في مختلف تشكيلاته العسكرية.<sup>(1)</sup>

«لقد صحب قيام دولة المرابطين ظهور ظاهرة اجتماعية لم تكن مألوفة في المغرب من قبل ويعني بها ظهور المرأة الصنهاجية في المجتمع ومشاركتها في الحياة العاملة، وتمتعها بنوع من الحرية والمساواة».<sup>(2)</sup> فاشتهرت بعض الأميرات المرابطيات الفاسيات بحب الأدب والشعر، مثل الأميرة بنت يوسف بن تاشفين، أخت علي بن تاشفين، ومثل أم صلحة واتي وُصفت بأنها كاملة الحسن راجحة العقل مشهورة بالأدب والكرم فقد روى أن الأميرة تيممة بنت يوسف كان لها كاتب قد أمرت بمحاسبته يوماً في قصرها بفاس، وعندما برزت لذلك وظهرت إليه، فبهت من حسنها الفائق وجمالها، فظنت أنه يتطلع إليها ويرغب فيها فأنشدته:

هي الشمسُ مسكنُها في السَّماء \* فَعِزُّ الْفُؤَادِ عِزًّا جَمِيلاً  
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ \* وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ التُّزُولَا.<sup>(3)</sup>

«ومن النساء الفاسيات الشهيرات، ورقاء بنت بنتان الفاسية النابغة الأدبية الشاعرة الصالحة الحافظة للقرآن الكريم، والتي وصفت بأنها بارعة الخط؛ وقد توفيت ورقاء عام 540هـ/1046م».<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: المراكشي، البيان المغرب، ج4، مصدر سابق، ص32.

(2) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، مرجع سابق، ص415.

(3) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص173، ص174.

(4) عبد العزيز ابن عبد الله، المرأة المراكشية في الحقل الفكري، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد السادس، ع 1-2، مدريد،

سنة 1958، ص282.

«وفي العصر الموحي اشتهرت سيده بنت عبد الغني العبد ربه، وتكنى أم العلاء نزيلة فاس، والتي كانت تقوم بتعليم القرآن الكريم بغرناطة، واشتهرت بتلاوة القرآن الكريم، والحفاظ على الأدعية والأفكار والسعي في الخيرات والقيام على أعمال البر من فداء الرقاب وغير ذلك وقد توفيت عام 647هـ/1249م»<sup>(1)</sup>.

«أمّا عن نشاط النساء في شوارع فاس وأسواقها ومتزهاتها، فكان ذا مجال واسع، حيث كان النساء يبشرون معظم أمور الشراء من الأسواق، خاصة أسواق البزازين والصاغة وغيرهما، وكن يفعلن ذلك جهاراً»<sup>(2)</sup>.

«ونتيجة للمسعة الدينية التي سادت مدينة فاس في هذين العصرين، كانت بعض النساء يخرجن لتأدية الصلاة بالمساجد، ولذا خصص لهن بمسجد القرويين» بيت النساء«التي يتوضأن فيه قبل التحاقهن بالجامع»<sup>(3)</sup>.

كما وجدت في مدينة فاس مؤسسات اجتماعية عديدة كانت ذا صبغة اجتماعية محصنة كالحمامات والبارستانات\*، كما ما وجد منها ذا صبغة دينية أو تجارية؛ كما كانت هناك ما حوّت على صبغة اجتماعية كالفنادق والمساجد<sup>(4)</sup>.

لقد ذكر البكري» أنّ عدد حمامات فاس في العصر المرابطي عشرون حماماً، ثم أخذت أعداد هذه الحمامات التي كان يستخدمها الناس بفاس تزداد حتى بلغت في العصر الموحي ثلاثة وسبعين حماماً»<sup>(5)</sup>.

(1) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص521، ص522.

(2) ابن الحاج الفاسي، المدخل، ج1، المجلد الأول، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة، سنة 1981، ص245.

(3) الجزنائي، زهرة الآس، مصدر سابق، ص77.

(4) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص141.

\*البارستانات: حارات المرضى.

(5) ابن الوزان، المغرب في ذكر إفريقيا، مصدر سابق، ص116.

«أمّا بخصوص المؤسسات العلمية والدينية في مدينة فاس؛ فيلاحظ أنّ نشاطها لم يكن يخلو من أوجه اجتماعية لها دلالتها وأهميتها، فالجوامع والمساجد كانت دائماً مركزاً لنشاط متعدد الألوان بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية في الصلاة وإقامة شعائر الدين».<sup>(1)</sup>

«وكان من أجمل ما شهدته شوارع مدينة فاس موكب الحجّ؛ ويشير ابن القاضي المكناسي، إلى إحدى هذه الموكب التي خرجت من وادي سبو قرب مدينة فاس عام 503هـ/1109م، كما أشار البيدق إلى وجود هذا الموضع بفاس وكان يطلق عليه منزل الحجّاج، وتطوّر هذا الموكب في أواسط العصر الموحيدي».<sup>(2)</sup>

«لقد وصفت مدينة فاس بطيب مطعمها ومأكليها، ومن أنواع الطعام الذي عرفته المدينة الثريد ويعد من أطعمة الخلفاء والأمراء والوزراء».<sup>(3)</sup>

«كما اتسم طعام المتصوفين من أهل فاس بمظاهر التقشف، فلم يكن يتعدى عيش مع عسل أو خبز مع لبن».<sup>(4)</sup>

عدّ زيّ أهل فاس زياً من البرانس، فقد تواضع علماء وفقهاء فاس في اللباس إلّا في أيّام الأعياد يلبسون ألبسة جميلة ومتباهية، فقد كانوا يرتدون برانس بيضاء أو صفراء ويضعون العمائم».<sup>(5)</sup>

«أمّا اليهود فيبدو أنّهم طيلة العصر المرابطي ومنتصف العصر الموحيدي كانوا يلبسون مثلما يلبس المسلمون، ولكن ميزوا في آخر حكم الخليفة المنصور الموحيدي بزي خاصّ، وهو عبارة عن ثياب كحلية مفرطة الأكمام تصل إلى قريب من أقدامهم، كما وضعوا على رؤوسهم بدلاً من

(1) الجزنائي، زهرة الآس، مصدر سابق، ص94، ص95.

(2) محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، (د.ط)، مطبعة المخزن، تطوان، سنة 1953، ص15.

(3) مجهول، كتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تح.أويثي ميراندا، المجلد التاسع والعاشر، (د.ط)، معهد الدراسات

الإسلامية، مدريد، سنة 1961 - 1962، ص179.

(4) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص70، ص71.

(5) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص72، ص73.

العمائم علوتات على أشنع صورة كأنها براديع تبلغ إلى تحت أذانهم، وفي عهد الخليفة محمد الناصر استبدل هذا الزي بثياب وعمائم صفراء»<sup>(1)</sup>.

«كان الفاسيون يحبون الموسيقى كثيراً، واشتهرت بعض حوانيت أزقة مدينة فاس مثل زقاق بزقاله يبيع أدوات في الموسيقى حيث كانت تمتلئ حوانيت هذا الزقاق بالدفوف والمزامير وجميع آلات اللّهو التي كان يستخدمها أهل المدينة في قضاء أوقات فراغهم بالتسلية بالموسيقى»<sup>(2)</sup>.

«على الرغم من أنّ مؤسس دولتي المرابطين والموحدين يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي كانا من العزوفين عن متع الحياة إلّا أنّ الناس على اختلاف فئاتهم بمدينة فاس وغيرها من المدن المغربية شغفوا بالغناء والموسيقى، وثابروا في ذلك بالحياة الأندلسية فأصبحت مجالس الغناء والموسيقى تعقد في قصور الولاة والأمراء ممّا دفع الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إصدار تعليمات عام 556هـ تتضمن عدّة أوامر لمحاربة أصحاب الملاحية ومصادرة آلاتهم»<sup>(3)</sup>.

«ووصفت مدينة فاس بأنّها أعلى همة في المباني واتخاذ الديار الحسنة؛ فكانت دور وقصور ومباني مدينة فاس سامية، ولأهلها اهتمام بمبانيهم؛ فكانت المدينة في نهاية العمارة والجمال والدقة، وقد بنيت في أبيه العمران والتفاني فيها»<sup>(4)</sup>.

فكان الوضع الاجتماعي في بني مرين يختلف فمثلا في المدينة القديمة يختلف اختلافاً شاسعاً فقد كان يتحكم في شؤون هذه المدينة ثلاثة من أصحاب المناصب الرفيعة، يعيّن كلاً منهم السلطان أو وزرائه، الوالي والقاضي والمحتسب»<sup>(5)</sup>.

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص 383.

(2) البيذق، أخبار المهدي، مرجع سابق، ص 23، ص 24.

(3) المرجع نفسه، ص 65.

(4) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 43.

(5) ينظر: روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، ترجمة د. نقولا زيادة، (د.ط)، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك،

سنة 1967، ص 62.

«كانت المدينة القديمة مقسمة إلى ثمانية عشر حياً؛ اثنتا عشر منها في عدوة القرويين وستة في عدوة الأندلس، وقد كان لكل منها رئيس يختاره الوالي بناءً على توصية أصحاب النفوذ في الحي، ولذلك فقد كان رئيس الحي في الوقت ذاته يمثل الإدارة المركزية، إذ أنّها هي التي كانت تعينه، كما كان يمثل أولئك الذين يوكل إليه أمرهم لأنّهم هم الذين اقترحوا اسمه».<sup>(1)</sup>

لعلّ أهمّ الخدمات العامّة في مدينة فاس كانت تلك المتعلقة بالمياه؛ لقد كانت المدينة تتمتع بنظام فريد لتوزيع المياه وتصريفها؛ ومثل هذا النظام كان بحاجة إلى صيانة مستمرة، وإلاّ كان يفقد قيمته؛ وكان يشرف على الأعطاب نوعان من التقنيين: عمال مهرة كان باستطاعتهم الاهتمام إلى أي عطل غير منتظر وإصلاحه مع القيام بكلّ ذلك بسرعة متناهية؛ كما وجد النوع الثاني فهم خبراء في مجال المياه.<sup>(2)</sup>

<sup>(1)</sup> المرجع السابق ، ص.78.

<sup>(2)</sup> ينظر: روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، مرجع سابق، ص.83.

## المبحث الرابع: الحياة الاقتصادية:

«لم تكن الحياة الاقتصادية بمدينة فاس قبيل قيام دولة المرابطين بأسعد حظاً من الحياة السياسية، إذ أصابها الاضطراب والتأخر نتيجة للحروب المستمرة والثورات والفتن التي شهدتها المدينة في هذه الفترة فالضعف السياسي وما صحبه من تمزق انعكست صورته على اقتصاديات البلاد»<sup>(1)</sup>.

لقد فرض الزناتيون على سكان فاس مجموعة من الضرائب، وكذلك المكوس وذلك قبيل عصر المرابطين، مما أدى إلى اضمحلال الثروة الاقتصادية وتدنيها في الهاوية بسبب تلك الاضطرابات التي غمرت البلاد.<sup>(2)</sup>

عند دخول المرابطين مدينة فاس والاستيلاء عليها شهدت تلك الحاضرة فترة من الاستقرار في عهدهم، فازدهر ونما النشاط الاقتصادي، كما انتهج أمرائها مجموعة من التدابير منها نشر الأمن والنهوض بمستواها في مختلف نواحي المجالات، فعمّ الرخاء وزاد الدخل المالي للبلاد.<sup>(3)</sup>

«كما كان المرابطون لهم سياسة في تملك الدولة للأراضي، فقبل خروجهم من الصحراء كانوا يأخذون ثلث أموال من ينضم إليهم من صنهاجة الصحراء لتطبيب أموالهم»<sup>(4)</sup>.

«ولكن عندما بدأت بوادر الدعوة الموحدية، شهدت المدينة فترة اضطرابات أمنية فاضطربت الأحوال الاقتصادية منذ خروج عبد المؤمن بن علي في حملاته ضدّ دولة المرابطين، تلك الحملات التي انتهت بسقوط دولة المرابطين عام 540هـ/1146م، فكثر في تلك الفترة المجاعات وعمّ الغلاء»<sup>(5)</sup>.

(1) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مرجع سابق، ص.11، ص.12.

(2) ينظر: ابن حوقل النصبي، صورة الأرض، (د.ط)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، سنة 1979، ص.99.

(3) ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص.149.

(4) البكري، المغرب، مصدر سابق، ص.163.

(5) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص.261.

«فعندما دخلوا الموحيدين المدينة لم يقوموا بفرض ضرائب جديدة بل أسقطوا ما فرضه المرابطون فألت ملكية أراضي دولة المرابطين إلى الموحيدين وخاصة أراضي الأمراء المرابطين وأتباعهم واعتبار ما فُتح عنوة أرضاً خراجية أو ملكاً للدولة هذا إلى جانب مصادرة أملاك المعارضين لهم تأديباً وعقاباً ووارته من لا وريث له»<sup>(1)</sup>.

«أمّا إدارة هذه الأراضي التابعة للدولة فقد أخذ الموحدون النظم عن المرابطين حيث تركوا إدارة أراضي الدولة للمشرف فقد حدث هذا في مدينة فاس حين فتحها عبد المؤمن الموحيدي فقد أقرّ أحد المشرفين عليها عندما نفى زعماء قبائل هرغة وتتملل عندما خالفته إلى مدينة فاس»<sup>(2)</sup>.

بدأت حياة الشعب في العصر الموحيدي تستقر وتنعم بالطمأنينة والرخاء وازدهرت الحياة الاقتصادية بها؛ كما امتد الرخاء بمدينة فاس ونشاطاً اقتصادياً لا مثيل له خاصة في عهد الناصر الموحيدي عام 610هـ/1214م.<sup>(3)</sup>

ومن مظاهر الحياة الاقتصادية في مدينة فاس خاصة في عصري المرابطين والموحدين:

#### ❖ الزراعة:

«فإنّ أراضي مدين فاس توزعت ملكيتها على القبائل التي كانت تسيطر عليها، وعندما دخل المرابطون فاس أصبحت الدولة هي المالك لكثير من الأراضي»<sup>(4)</sup>.

«وورث الموحدون ملكيات عامّة متناقصة، واتبعوا في طور الثورة والدولة سياستين مختلفتين، ففي مرحلة الثورة وجهت أفكار ابن تومرت الموحيدين لاستغلال أراضي المخالفين إذ طعن ابن تومرت في المرابطين ورماهم بالكفر وجعل غزوهم واجباً وكفر ابن تومرت كل من لم

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص 244.

(2) البيذق، أخبار المهدي، مصدر سابق، ص 166.

(3) ينظر: الجزنائي، زهرة الآس، مصدر سابق، ص 43، ص 44.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحيدين، مصدر سابق، ص 16.



يؤمن بأفكاره حيث قام بتقسيم الغنائم التي غنمها من عساكر المرابطين بعد تخميسها على الموحدين، وسار عبد المؤمن بن علي على نفس هذه السياسة<sup>(1)</sup>.

### ❖ الأحباس (الأوقاف):

«بالرغم من عظمة سلطان المرابطين والموحدين، إلا أنهم لم يهيمنوا بالأحباس، فلم توقف أي من الدولتين شيئاً؛ بل كانت أصول الأحباس من الملكيات الخاصة وحدها وكان أغلب التحبيس على المساجد والأولاد والنساء والمرضى والمساكين، ومع انتشار التصوف كثر التحبيس دلالة على الزهد والورع»<sup>(2)</sup>.

لقد نمت أموال الأحباس بفاس، حيث بلغت أو وصلت أحباس مسجد القرويين سنة 528هـ/1134م أكثر من ثمانين ألف دينار<sup>(3)</sup>.

### ❖ الري:

«استفاد المرابطون من التجارب السابقة للعهد الروماني في الكشف عن آثار الري القديمة وتجديدها في مناطق أخرى وهذا ما حدث لمدينة فاس»<sup>(4)</sup>.

«ويعتبر عصر الموحدين امتداداً لجهود المرابطين في تطوير مصادره وقد بذلوا جهوداً كبيرة لتوفير المياه سواء للشرب أو الزراعة فاستنبطوها من باطن الأرض»<sup>(5)</sup>؛ كما أنهم جلبوها من عدّة أماكن؛ كما أن الخليفة عبد المؤمن أحضر المياه إلى عدّة مدن كالرباط وسلا وغيرها من المدن<sup>(6)</sup>.

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 260.

(2) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص. 59.

(3) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص. 59.

(4) البكري، المغرب، مصدر سابق، ص. 137، ص. 138.

(5) الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، مصدر سابق، ص. 121.

(6) ينظر: البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، مصدر سابق، ص. 113.

«وكانت المياه تحفظ في آبار وصهاريج وهذه الأخيرة كانت أكثر شيوعاً في المغرب، ففي بني الخليفة يوسف عدداً منها في مدينة مراكش، وشيّد الخليفة يوسف عدداً آخر في مدينة الرباط ومراكش»،<sup>(1)</sup> وأقام الخليفة المنصور عدداً آخر في كل من مراكش ومكناسة ومدينة فاس.<sup>(2)</sup>

فقد كان الموحدون يكثرون من غرس الأشجار حول هذه الصهاريج وذلك للتقليل من نسبة تبخر تلك المياه المتفرعة في جداول للري.<sup>(3)</sup>

«وفي عصر الموحدين فقد بذلوا جهوداً كبيرة في هذا المجال فعلى قدر مساحة الأراضي المستصلحة يكون الجهد المبذول، ويظهر في أعمال الخليفة يوسف استصلاح أراضي للزراعة في عدة مدن كمراكش ومكناسة ومدينة فاس مما شجع الناس على الزراعة ففي سهول مدينة فاس انتشرت الزراعة حتى الأماكن المالحة بعد إصلاحها».<sup>(4)</sup>

ومصادر الري في المغرب بمدينة فاس لديها منابع رئيسية ثلاثة، فالمنبع الأول؛ مياه المطر؛ والثاني؛ مياه الأنهار؛ والأخير العيون.<sup>(5)</sup>

### ➤ الحاصلات الزراعية بمدينة فاس:

«تمتعت مدينة فاس بتربتها الخصبة حتى وصفت بأنها من أحصب الجهات»؛<sup>(6)</sup> حيث وفر لها نهر سبو تربة فيضية خصبة؛ بالإضافة إلى اعتدال مناخها وانقسام سطحها إلى مناطق ذات ارتفاع وانخفاض، وهي في مجملها عوامل جعلتها من المناطق الزراعية فمنها»:<sup>(7)</sup>

(1) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، ص. 210.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، مصدر سابق، ص. 157.

(3) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص. 287.

(4) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ج2، مصدر سابق، ص. 41.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص. 42.

(6) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص. 89.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، مصدر سابق، ص. 153.

1-«الحبوب الزراعية:وصفت مدينة فاس في العصرين المرابطي والموحدي بأنها مخضرة وكثيرة الزرع والحرث، فالقمح والشعير والخضر والبقول بها كثيرة، حيث تنتشر زراعة الفول والحمص والعدس، والأرز، وكان السكان يقومون بزراعتهما بكميات قليلة»؛<sup>(1)</sup> كما «وجدت عدّة حقول صالحة للزراعة خاصة في منطقة جبل زلاغ وكانت هذه تسقى بماء النهر بواسطة الناعورات وكان سكان تلك المنطقة يهتمون بأمورها، وانتشرت حقول القمح في سهل الجبل المطل على فاس من الجهة الشرقية والجهة الغربية من المدينة - فاس - سهل سايس».<sup>(2)</sup>

### ➤ زراعة الزيتون والقطن والكتان:

لقد كانت زراعة الزيتون متوفرة بكثرة ومنتشرة بحاضرة فاس قبيل مجيء العصر المرابطي والموحدي، فقد زاد من زراعته،<sup>(3)</sup> كما حفز الموحدون على زراعته في عدّة مناطق جديدة وقد اهتموا به اهتماماً بالغاً.<sup>(4)</sup>

وجد القطن والكتان في غرب فاس، فقد اتخذ في الحقول والسهول والهضاب المجاورة للمدينة؛ وهذا بفضل السمات والخصائص التي ميزت تلك الجهة فقد هيأت التربة الأفضلية لذلك وكذلك وفرة السقي بكثرة.<sup>(5)</sup>

2-«صناعة الورق والوراقة: تتصل صناعة الورق بالمنسوجات لأنّ الورق قد يصنع في المغرب من القطن والكتان فظهرت مراكز جديدة لصناعة الورق في العصر الموحدىكمدينة سبتة ومدينة فاس».<sup>(6)</sup>

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص90.

(2) ينظر: ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، مرجع سابق، ص301.

(3) ينظر: مجهول، الاستبصار في عجائب الأبصار، مصدر سابق، ص185.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص187.

(5) ينظر: عبد العزيز العلوي، صناعة النسيج. في المغرب الوسيط، مجلة كلية الآداب بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، العدد2، سنة

1986، ص50، ص52.

(6) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ج2، مصدر سابق، ص26.

«وكان يوجد في مدينة فاس وحدها أيام المنصور والناصر أربعمائة بيت متخذة لصناعة الورق فهذا العدد الكبير يدل على انتشار وازدهار صناعة الورق في عصر المرابطين والموحدين وخاصة في المغرب الأقصى والأندلس بصفة عامة وهذا راجع إلى تمتع المدن الكبيرة بمركز القيادة الأساسية والإدارية والدولة تحتاج إلى الورق لتسجيل شؤون الإدارة وخاصة المالية منها كما أن القيادتين المرابطية والموحدية قامت على رسالتين دينيتين فكثيراً ما استخدمت الرسائل للدعاية السياسية إلى جانب الاهتمام بالكتب والعناية بها مما جعل لها سوقاً جديدة».<sup>(1)</sup>

**3-«الصناعات الخشبية:** شهد عصر المرابطين والموحدين انتشاراً واسعاً في الصناعات الخشبية وظهرت مناطق جديدة لإنتاجها إلى جانب مدينة فاس وقد اشتد الطلب عليها من جانب الموحدين لاستخدامه في أغراض متعددة منها الأغراض العسكرية كإقامة الجسور وبناء السفن فعلى الرغم من جعل مدينة سبتة قاعدة لأسطولهم فقد قاموا بتوسيع قواعد أخرى لهم على السواحل كتونس ووهران هذا إلى جانب تأسيس دور جديدة كمنطقة الحبالات قرب مدينة فاس».<sup>(2)</sup>

«كما وجدت صناعة الزيوت والصابون وكذلك ماء الورد: لقد استخلص الزيت من شجر الأرقان، ونظراً لموقع فاس القريب من الأراضي المزروعة بالزيتون فإن أعمال الزيتون كانت تتجه إليها يومياً، وذلك حتى يقوم الصناع باستخراج زيت الزيتون منه».<sup>(3)</sup>

«كما أدت كمية الإنتاج الوفيرة من الزيت خلال العصر الموحيدي إلى ازدهار صناعة الصابون في فاس التي كان فيها في عهد المنصور الموحيدي 47 داراً لصناعة الصابون».<sup>(4)</sup>

(1): المصدر نفسه، ج2، ص27.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص34.

(3) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص263.

(4) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص48.

اشتهرت مدينة فاس بجليها الطبيعي المنبثق من أزهارها كالياسمين؛ والأزهار العطرية والرياحين، مما شجع على ازدهار صناعة ماء الورد.<sup>(1)</sup>

«شهد عصر المرابطين والموحدين انتشاراً واسعاً في الصناعات الخشبية وظهرت مناطق جديدة لإنتاجها إلى جانب مدينة فاس وقد اشتد الطلب عليها من جانب الموحدين لاستفادته في أغراض متعددة منها الأغراض العسكرية كإقامة الجسور وبناء السفن فعلى الرغم من جعل مدينة سبتة قاعدة لأسطولهم، فقد قاموا بتوسيع قواعد أخرى لهم على السواحل كتونس ووهران هذا إلى جانب تأسيس دور جديدة كمنطقة الجبال قرب مدينة فاس».<sup>(2)</sup>

كما وجدت المطاحن فقد كانت الحبوب في مدينة فاس تطحن عن طريق أو بواسطة الأرحاء، فكثير إنتاج الشعير والحنطة والقمح في المغرب الأقصى وبمدينة فاس، مع توافر عدد السكان ووجود المياه فلجأ المرابطون إلى إدخال الأرحاء المائية بكميات كبيرة، وبقيت على هذا المنوال حتى في العصر الموحيدي، ويقال أنه في عهد الخليفة المنصور الموحيدي بلغت حوالي 472 رحي.<sup>(3)</sup>

«كانت الخمر تباع في الأسواق في المغرب على الرغم من محاولة المرابطين منع ذلك في البداية إلا أنه قد انتشر شرب هذه الخمر بين بعض أمراء المرابطين».<sup>(4)</sup>

«ضرب المرابطون العملة من الذهب والفضة واختصت مدينة فاس بضرب وضاحة العملة فـيا العصر المرابطي وقد انتهج الموحدون هذا النهج حيث توجد في مدينة فاس داران لسك العملة وقد أقدم الناصر الموحيدي على جعل مقرهما في دار واحد».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: مارمول، إفريقيا، ج2، مرجع سابق، ص159.

(2) الجزنائي، زهرة الآس، ج2، مصدر سابق، ص34.

(3) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ج2، مصدر سابق، ص26.

(4) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص194.

(5) أبو الحسن الحكيم، الدوحة المشتركة في ضوابط دار السكة، (د.ط)، طبعة مدريد، د.ب، 1958، ص91.

«كانت مدينة فاس مركزاً هاماً لصناعة الفخار حيث كان يوجد بها في أيام المنصور والناصر حوالي 188 معملًا للفخار خارج أسوارها».<sup>(1)</sup>

كما كان الصّناع المتميزون يصنعون بعض الأواني الفخارية ذات طابع متميز من خلال زيادة بعض الرسوم الهندسية وكذلك الفسيفساء التي عليها بعض الألوان المختلفة.<sup>(2)</sup>

لعبت التجارة في عصري المرابطين والموحدين أهمية كبيرة نظراً لطرق الاتصال الموجودة بين مدينة فاس وكل من ساحل البحر المتوسط أو مضيق جبل طارق، فمدينة فاس تقع بين دفتين هادفتين للاتصالات بين الدول المجاورة فالأول أنّها تمتد من الشمال إلى الجنوب بين ساحل البحر المتوسط إلى ما وراء بلاد الزنج. وثانياً تمتد من الغرب إلى الشرق بين ساحل المحيط الأطلنطي ووسط الغرب.<sup>(3)</sup>

#### أ-التجارة الداخلية:

«هي تقل السلع داخل المدينة من الأسواق إلى الفروع ومن مناطق الإنتاج إلى أماكن التوزيع فقد كان أهل عدوة الأندلس أكثرهم ينتحل الحراثة والفلاحة وأهل عدوة القرويين، أكثرهم تجار وسوقة».<sup>(4)</sup>

ب-التجارة الخارجية: «استطاع المرابطون لأول مرة في تاريخ المغرب توحيد المناطق الساحلية المغربية الأندلسية إلى جانب المناطق الداخلية إلى بلاد السودان ممّا أثر بقوة في نشاط التجارة المغربية، فأصبح في الإمكان أن تنتقل القوافل من أقصى السودان إلى أقصى بلاد الأندلس

<sup>(1)</sup> ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ج2، مصدر سابق، ص.26.

<sup>(2)</sup> ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، مصدر سابق، ص.202.

<sup>(3)</sup> ينظر: هنري ترأس، موجز دائرة المعارف الإسلامية - فاس -، مجلد 25، (د.ط)، مركز الشارقة للإبداع الفكري، د.ب، سنة

1998، ص.7685.

<sup>(4)</sup> ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ج1، مصدر سابق، ص.58.

ثم إلى العالم العربي شرقاً والعالم الأوروبي شمالاً ونشطت مراكز جديدة في المغرب - فاس - سجلماسة للتبادل التجاري بين هذه المناطق»<sup>(1)</sup>.

«وفي العصر الموحدى كانت الأندلس تمد المغرب بالخشب والزرع والمنتجات الصناعية كما تبادل المغرب مع تونس وبجاية وقسنطينة ووهران وتلمسان المنتجات والواردات الشرقية»<sup>(2)</sup>.  
«ومدينة فاس تعتبر من أهمّ المراكز التجارية في بلاد المغرب الأقصى لأنها قريبة من وادي سبو الذي تسيل منه القوارب والسفن إلى البحر المتوسط»<sup>(3)</sup>.

ستفادت الصناعة من توجيهات المرينيين التي كان لها أثر في طابع الصناعات المرينية، وكان لكل فرقة من الصنّاع رؤساء يختارونهم ويسمون الأمناء؛ حيث كانت لهم حرية التصرف في مصالح المهنة التي يرأسونها، فقد أسس أمناء التجار صندوقاً احتياطياً»<sup>(4)</sup>.

«وقد قاوم المرينيون الغش والتدليس في الصناعات، ولما كان الذميون اشتطوا في هذا الميدان، فقد خصوهم بصناعات معينة، وحظر عليهم الاشتغال بغيرها، كما وقع هذا في عهد أبي الحسن»<sup>(5)</sup>.

«وجدت السكة في عهد المرينيين وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديدي ينقش عليه صور ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم النقوش عليها

(1) الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ت، ص.199.

(2) الحبيب الجناحي، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة 1986، ص.96.

(3) الجزنائي، زهرة الآس، مصدر سابق، ص.33.

(4) عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني التلمساني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، نسخة الخزنة العامة، الرباط، ك.691، ص.258.

(5) عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني التلمساني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، مصدر سابق، ص.259.

ظاهرة مستقيمة»؛<sup>(1)</sup> وقد نقش المغاربة بشكل عام والمرينيون خصوصاً على عملتهم اسم السلطان وعبارات دينية».<sup>(2)</sup>

«يعتبر السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني أول من اهتم بالسكة وعمل على تنظيمها، حيث اختار النقد الموحدى نموذجاً وضرب عليه النقد المريني الجديد عام 674هـ/1275م».<sup>(3)</sup>

«وصنع المرينيون معظم نقدهم من الذهب والفضة حيث استوردوا الذهب من بلاد السودان والفضة من المناجم المحلية المغربية».<sup>(4)</sup>

«لقد سكّت الدولة المرينية الدينار الذهبي التذكاري والذي بلغ وزنه مائة دينار عن الدينار الذهبي العادي، وقد سكّت السلطان أبو عنان فارس خلال فترة حكمه بهدف تقديمه للشخصيات المرموقة في الأعياد الدينية».<sup>(5)</sup>

«عقد أبو عنان معاهدات صلحية مع دول البرتغال وقشتالة وأرغون وميورقة وصقلية وجنوة، وقد كان من أثر المعاهدة مع جنوة وبالخصوص أن تدفقت تجارتها على المغرب، وامتألت بتجارهم دواوين أقطاره».<sup>(6)</sup>

ومصدرات المغرب إلى أوروبا - خلال القرن الثالث عشر الميلادي - فمنها الصوف والخرفان والجليل والجلود والزراي والأحزمة المزخرفة والقطن والشمع.<sup>(7)</sup>

(1) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص. 261.

(2) المصدر نفسه، ص. 262.

(3) محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، ط3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية، سنة 2000، ص. 127.

(4) الغنيمي، موسوعة، ج1، مرجع سابق، ص. 289.

(5) محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، مرجع سابق، ص. 130.

(6) المرجع نفسه، ص. 145.

(7) محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، مرجع سابق، ص. 146.



«وكان للتجارة الداخلية أنظمة بأنّها كلها مرينية، وإنّها مزية هذا العصر في المحافظة على القديم منها؛ ونجد أوّل مظهر لهذا في أسعار الموادّ الأوّلية التي تقدمها أربعة مصادر عن هذا: - الذخيرة السنينة، الروض القرطاس، مسالك الأبصار، تحفة النظار».<sup>(1)</sup>

«كما كانوا يقاومون ارتفاع سعر القمح بالخصوص؛ ففي مجاعة 724 و 725 هـ أخرج أبو سعيد الأوّل القمح من مخازن الدولة، حيث صار يباع بأربعة دراهم للمد بدل خمسة عشر درهماً التي كانت ثمن المد».<sup>(2)</sup>

«كما كان بفاس العتيق بمقرية من قصبتها مخزن حكومي للغلال يسمى المرسى وهو يشتمل على مطامير».<sup>(3)</sup>

«لم يهمل سلاطين بني مرين الناحية القضائية لدى الجند والعسكر، إذ كان لديهم منصب يوازي ما يعرف حالياً بمفتي القوات المسلحة، وقد شغل هذا المنصب في دولة السلطان أبي سالم إبراهيم قاضي العسكر أبو القاسم محمد بن يحيى الأندلسي البرحي».<sup>(4)</sup>

«كما استطاع المرينيون تنظيم جيشهم وجعلوا منه مؤسسة عسكرية قائمة بذاتها لا تستند إلى أي تميز قبلي أو عرقي خاص، وقد بلغ تعداد أفراد الجيش المريني البري في عهد السلطان أبي الحسن علي المريني مائة وأربعون ألفاً».<sup>(5)</sup>

«قسّم المرينيون الرتب القيادية في الجيش إلى أشياخ كبار وأشياخ صغار»<sup>(6)</sup>، فالفتة الأولى هي التي تخوض وتقود عدّة جنود -ألف جندي-، أمّا الثانية فهي التي تقود أقل - مائة جندي.<sup>(7)</sup>

(1) المرجع السابق، ص. 146.

(2) محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، مرجع سابق، ص 146، ص 147.

(3) المرجع نفسه، ص 148.

(4) الناصري، الاستقصا، ج 4، مصدر سابق، ص 39.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، مصدر سابق، ص 209.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، مصدر سابق، ص 203.

(7) ينظر: محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، مرجع سابق، ص 101.

«أما معسكرات الجيش المريني فقد عرفت بجامها المرقمة والمكسوة بالقماش الشامي والعراقي وتميزت أقبية كل فرقة بلون وراية وشعار خاص».<sup>(1)</sup>

«ومن تقاليد الجيش المريني في الحروب أن يتقدم الشعراء الصفوف يتغنون بقصائد البطولة».<sup>(2)</sup>

«وخلال الحرب كان المرينيون يمارسون فناً خاصاً يقوم على استخدام الدروع الجلدية والفيل الخفيفة ذات الركاب المرتفع، واعتماد الحركات والوثبات السريعة، وهذا ما جعل الإسبان يقتبسوا هذا الفن الحربي ويطبقوه على بعض فرقهم التي سموها بنفس الاسم (Zenetes) أي الزناتيون، وتطور هذا اللفظ في اللغة الإسبانية إلى (Jinete) ويستعمل الآن بمعنى الفارس».<sup>(3)</sup>

«تكون الأسطول المريني من مجموعة من القطع البحرية توزعت على موانئ الدولة كسبتة وطنجة وسلا وبادس»<sup>(4)</sup>، وكان أول من اهتم بالأسطول السلطان يعقوب بن عبد الحق الذي أمر ببناء دار صناعة السفن بسلا، ولعب محمد بن علي بن عبد الله الاشبيلي دوراً رئيسياً في عملية البناء وواصل السلطان يوسف بن يعقوب الاهتمام بصناعة السفن والقوارب السريعة في سلا، وقام ببناء دار للصناعة في تطوان، ثم بنى سوراً لمدينة قصر المجاز، مصمودة بجوار طنجة عام 686هـ/1287م وذلك بهدف تطوير عمل صناعة السفن فيها»<sup>(5)</sup>، كما أنّها كانت تسمى كما أنّها كانت تسمى في بعض الأحيان دور صناعة السفن بدور الإنشاء».<sup>(6)</sup>

<sup>(1)</sup> النميري، فيض العباب وإفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1990، ص106.

<sup>(2)</sup> ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص258.

<sup>(3)</sup> العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (د.ط)، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، د.ت، ص17.

<sup>(4)</sup> محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، مرجع سابق، ص107.

<sup>(5)</sup> العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص380، ص381.

<sup>(6)</sup> المرجع نفسه، ص385.

## المبحث الخامس: الحياة الثقافية:

شهدت مدينة فاس منذ قيام دولة المرابطين وفي عصر الموحدين نهضة علمية، نظراً لما تضمنته تلك الفترة من القيام بدعوتين دينيتين وما صحبهما من صراع فكري واتجاهات دينية ولم يتجه التعليم في هذين العصرين وجهة دينية، بل ازدهرت الحياة العلمية في شتى الميادين، وقد ساعد على ثراء هذه النهضة اهتمام الأمراء المرابطين ومن بعدهم الخلفاء الموحدين بتدعيم الحركة الفكرية والعلمية بمدينة فاس وغيرها من مدن المغرب العربي؛ وقد كانت هناك عدّة عوامل ساعدت على نمو الحياة العلمية بهذه الحاضرة منها:

—«العامل السياسي: عاشت مدينة فاس قرن ونصف من الاضطرابات السياسية والحمول قبل دخول المرابطين المدينة؛ حيث تناحر للسيطرة عليها الأمويون والفاطميون وقبائل زناتة، وقد تخلّصت المدينة من حالة الفوضى التي عاشتها بسيطرة المرابطين على مقاليد الأمور، وتوحيدهم للمدينة في ظل حكومة مركزية واحدة، ثم جاء الموحدون في أعقابهم وقد أحكموا سيطرتهم على المدينة أيضاً، وفي مناخ الاستقرار السياسي الذي شهدته فاس في هذين العصرين تحت الحركة العلمية وازدهرت»<sup>(1)</sup>.

—«العامل الاقتصادي: ونتيجة لاستقرار الأوضاع السياسية ازدهرت الحياة الاقتصادية بفاس حيث حرص الأمراء المرابطين والخلفاء الموحدين على النهوض بالأوضاع الاقتصادية بالمدينة فاتجه الأهالي إلى توجيه أبنائهم للتعليم، كما كان لهذا الاستقرار الاقتصادي أثره في دفع الأهالي إلى وقف الأوقاف لتعليم الصبيان، فكان لهذا أثره في نهضة العلوم»<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس، السفر الأول، القسم الأول، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، 1964 - 1965، ص. 239، ص. 240.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص. 242.

«وكان أهل فاس ثلاث طبقات لا رابع لها عالم معلم، أو طالب متعلم، أو محترف — تجارة أو عملاً — ملازم لهما مستفيد منهما، في مجالس العلم في البيوت، أو حلقات الدرس في المساجد، كثير من العوام والأميين أصبحوا طلاباً محصلين وفيهم من أصبح من العلماء إلا أنهم لا يقرؤون ولا يكتبون»<sup>(1)</sup>.

«أيضاً من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية، البيوت والأسر العلمية فقد كانت تعقد في البيوت العريقة مجالس للعلم والعلماء، وكانت معظم هذه المجالس تعقد في المساجد بمدينة فاس وخاصة جامع القرويين»<sup>(2)</sup>.

«ومن البيوت العلمية بمدينة فاس بيت يعرف ببيت بني الحاج منه أشرة غفجوم وهي أحد فروع قبيلة زناتة هذا البيت كانت له من النباهة والعلم حيث استطاع أن يكون له أحد العلماء ذات الشهرة الواسعة في كافة أنحاء المغرب وإفريقيا الفقيه أبو عمران الفاسي»<sup>(3)</sup>.

«بيت بني الملجوم من بيوتات المجد والعلم والثقافة بمدينة فاس نبغ منهم عدّة أفراد في الفقه والحديث والأدب نذكر منهم عيسى بن الملجوم الذي يرجع نسبه إلى الملهب بن أبي صفرة، وكان عيسى عارفاً بعدد من العلوم المختلفة»<sup>(4)</sup>.

«بيت بكار بن برهون بن العز ديس وهو من البيوت الشهيرة بمدينة فاس وهو من رجال الأدب والحديث والرواية»<sup>(5)</sup>.

—الهجرة إلى فاس: «على الرغم من أنّ الصلات الثقافية لم تنقطع بين المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي للمنطقة، إلا أنّ هذه الصلات ازدادت رسوخاً وازدهاراً بعد أن أصبحت

(1) عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهرة الآس في بيوتات فاس، تح. د. علي بن المنتصر الكتاني، ج1، ط1، منشورات مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة 2002، ص05، ص06.

(2) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، دن، بيروت، سنة 1961، ص91.

(3) السلاوي، الاستقصا، ج2، مصدر سابق، ص184.

(4) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، (د.ط)، دن، بيروت، لبنان، د.ت، ص102.

(5) عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ج1، مرجع سابق، ص76.

الأندلس إقليمًا تابعًا للمغرب الأقصى في عهدي المرابطين والموحدين، فكانت هناك هجرات كثيرة من علماء الأندلس خلال هذه الفترة فرارًا من المعارف الطاعنة التي شهدتها منطقة الأندلس ضد نصارى اسبانيا مما دفع العلماء إلى الانتقال إلى مدن المغرب، ومنها فاس لينعموا بالاستقرار فضلاً عن التكريم والترحيب من ولاة الأمر والشعب المغربي»<sup>(1)</sup>.

«وكان لهذا الاحتكاك أثره في توجيه أنظار أهل البلاد إلى الأخذ بأسباب العلوم يقتبسون من علماء الأندلس ويأخذون بأدواتهم وما لبثوا أن شاركوهم في جميع العلوم، ونبغ من أهل المدينة أفراد كثيرون كان لهم قيام حسن على فنون من العلم»<sup>(2)</sup>.

«كما شهدت مدينة فاس هجرات كثيرة من مختلف المدن المغربية وكان أغلب هذه الهجرات من أجل طلب العلم بالمدينة، حيث صارت فاس نجماً يتألق بما فيها من تيارات ثقافية، وبما مجموع بداخلها من حركة علمية، دفع عبد الواحد المراكشي أن يصفها: بأنها حاضرة المغرب وموضع العلم منه»<sup>(3)</sup>.

«كانت الرحلة في طلب العلم أمراً شائعاً بين طلاب العلم في العصر الإسلامي؛ حيث كانت فكرة ضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس إليه لها أهمية كبرى في التعليم في تلك الفترة، فلم يكتف الطالب بقراءة مصنفات الأستاذ وحده وإنما حرص يقرأها عليه أو يسمعها منه حتى يكون قد تفقه في مادته وصحبه في علمه»<sup>(4)</sup>.

«لقد شملت الرحلة العلمية تدفق طلاب العلم من مدينة فاس على مراكش بالأندلس وأسهمت المصادر الإسلامية وكتب التراجم في الحديث عن طلاب العلم الذين وفدوا على

(1) عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ج1، مرجع سابق، ص77.

(2) عبد الله كنون، التعاشيب، (د.ط)، د.ن، د.ب، د.ت، ص96.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص443.

(4) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج2، (د.ط)، نشر برجشتراسر، مطبعة السعادة، مصر، 1923، ص218.

الأندلس من مدينة فاس لينهلوا العلم من معاهدها حتى أنّ الكثيرين من علماء وقضاة فاس كانوا ممن تلقوا تعليمهم في مراكز العلم الأندلسية».<sup>(1)</sup>

«كما كان طلبة فاس يرحلون إلى المشرق في رحلات علمية حافلة يقضون فيها الأعوام الكثيرة من أجل نهل العلم ولقاء الشيوخ، فمثلاً محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي المتوفى عام 604هـ الموافق 1207م قد رحل إلى المشرق ولقي هناك أكثر من مائة شيخ أخذ عنهم وجمع في ذلك فهرست سماه "النجوم المشرقة في ذكر من أخذ عنه من كل ثبت وثقة"».<sup>(2)</sup>

«كما أنّ مدينة فاس لم تقتصر جهود مؤسسيها على تأييدهم لمذهب الإمام مالك ونشرهم له بل شجعوا مختلف الثقافات الوافدة إليهم من القيروان وقرطبة تلك الثقافات التي حملتها إليهم الهجرات العربية المتتالية إلى مدينة فاس عاصمة البلاد وأخذت مدينة فاس تكون شخصيتها المستقلة وتبنت العلم لنشره في ربوع ذلك القطر».<sup>(3)</sup>

«كان ممّا ساعد على النهضة الفكرية والعلمية أيضاً إنشاء المكتبات العامة والخاصة التي كان أصحابها يفتحون أبوابها لطلبة العلم، فتجلت النهضة العلمية في المكتبات العديدة حيث عرف من علماء فاس أنّهم يتبارون في اقتناء الكتب ونسخها، فكانت المكتبة العلمية بجامع القرويين في عهدي المرابطين والموحدين على غاية من الكمال».<sup>(4)</sup>

(1) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا، تح. ليفي بروفنسال، (د.ط)، دار الكتاب المصري، القاهرة، سنة 1948، ص102.

(2) ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقيّر، نشره محمود الفاسي وأودلف فور، (د.ط)، المركز الجامعي، مطبعة أكران، الرباط، سنة 1965، ص13.

(3) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، مرجع سابق، ص79.

(4) المرجع نفسه، ص80.

فقد وجد عدّة علماء بحاضرة فاس كانت لهم مكتبات خاصّة بهم فمنهم أحمد البيراني التحيي (540هـ/1146م)؛ يعدّ هذا العالم من أضخم العلماء الذين لهم كتب نفيسة اقتناها من الأندلس.<sup>(1)</sup>

«ومكتبة القاضي أبي القاسم عبد الرحيم بن الملجوم والتي كونها من مكتبة والده عيسى الأزدي الزهراني ومكتبة أستاذه أبي عبد الله محمد بن أحمد الخزرجي الجياني، ثم أضاف إلى هذه وتلك من النفائس والذخائر».<sup>(2)</sup>

«ومن مكتبات فاس الخاصة مكتبة الأستاذ المؤلف أبي القاسم عبد الرحمن الملجوم الذي شيد غرفة ضخمة كان يقصدها كبار البلد وعيونها؛ جمع لها من الكتب والدواوين الشيء الكثير حتى صارت خزانة جليلة الشأن لم تكن لأحد من أهل العصر مثلها، تركها لابنته التي باتت أوراق المكتبة الغير مجلدة بعد وفاة أبيها بستة آلاف دينار».<sup>(3)</sup>

"كما كان للمعلمين دوراً هاماً في العهدين "المرابطين والموحدين" لما يلعبه هؤلاء من ليونة في العلم فيقول ابن خلدون: «أنّ الحذق في العلم والتفنن فيه إنّما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئ وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً، ولهذا كان السند في التعليم في كل علم إلى مشاهير المعلمين فيه معتبراً عند كل أهل أفق وجيل»<sup>(4)</sup>.

«فلهذا اهتم العرب والمسلمون بالمعلمين لخطورة دورهم في المجتمع؛ فكان من هؤلاء المعلمين من يصير من جلساء أصحاب الأمر».<sup>(5)</sup>

(1) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص258.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص415، ص416.

(3) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص396.

(4) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص359.

(5) ابن سعيد المغربي، الغصون الياينة في شعر المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ج1، (د.ط)، دار المعارف، مصر، د.ت، ص91.

«قامتا كلتا دولتي المرابطين والموحدين على أساس ديني ودعوة إصلاحية؛ فكان المبدأ الديني هو الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين وبالتالي تمتع العلماء والفقهاء بمكانة رفيعة في المجتمع هذا فضلاً على التقدير والاحترام من جانب أمراء المرابطين فقد كان يوسف بن تاشفين مؤثر لأهل العلم والدين كثيراً لمشورة لهم»<sup>(1)</sup>.

«وقد بلغ من نفوذ ومكانة العلماء والفقهاء في عهد الأمير علي بن يوسف أنه نزل على رأيهم في قضية حرق كتاب إحياء علوم الدين لما رأوا به من الآراء التي تنقص من مهام عملهم»<sup>(2)</sup>.

«هذه المكانة الخاصة التي أولاها أمراء المرابطين للفقهاء والعلماء جعلت منهم فئة موهوبة الجانب مسموعة الكلمة في كافة أنحاء دولة المرابطين وأصبح لهم دور بارز في السياسة العامة للدولة المرابطية، ولعلّ سيطرتهم على مقاليد الأمور هي التي جعلت ابن تومرت يهاجم ويحارب جمودهم الفكري»<sup>(3)</sup>.

«واختلف وضع العلماء والفقهاء في عهد الموحدين فقد عمد ابن تومرت إلى محاربة تسلط الفقهاء، فقد عمد منذ البداية إلى توزيع السلطات والمهام على هيئة طبقات لكل طبقة مهامها، ولم يدع فرصة للعلماء للسيطرة على الدعوة الموحدية»<sup>(4)</sup>.

### ➤ طرق التعليم بمدينة فاس في عهدي المرابطين والموحدين:

«لطرق التدريس أهمية خاصة في التعليم بوجه عام، إذ هي الوسائل التعليمية التي تنفذ بها أهداف التعليم وغاياته، وقد كان للتعليم الإسلامي الطرق الخاصة التي تميز بها وسار على نهجها

(1) السلاوي، الاستقصا، ج1، مصدر سابق، ص52.

(2) ابن عذارى، البيان، ج1، مصدر سابق، ص59.

(3) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص240.

(4) هنري تراس، فاس، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج21، ط1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، د.ب، 1998، ص179.



وكانت حلقات الدرس التي يلتف فيها الطلاب حول أستاذهم هي الطريقة السائدة في التعليم الإسلامي». (1)

وكانت هناك طريقتين للتدريس أولهما طريقة التلقين (التحفيظ): وكانت هذه الطريقة تقام في الكتاتيب، حيث أنّ المدرس - المعلم - يقوم بتحفيظ طلبته - تلميذه - وبعض الرسومات أو المبادئ التي تلقن أو تسجل في المصحف. (2)

### ➤ المؤسسات التعليمية بمدينة فاس:

\* «المساجد: إنّ تاريخ التربية الإسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد؛ فهو المركز الرئيسي لنشر الثقافة العربية الإسلامية، ولعلّ السبب في جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو أنّ الدراسات في شتى الإسلام الأولى كانت دراسات تهدف إلى شرح تعاليم الدين الجديد؛ وهي تتصل بالمسجد؛ فاتخذوه مكاناً للعبادة، ومعهداً للتعليم». (3)

«شهدت مدينة فاس اهتماماً بالغاً بإنشاء المساجد خاصة في العهدين - المرابطي والموحدي - والعناية بها فأمر المسلمون يوسف بن تاشفين أمر سكان كلّ شارع بالمدينة ببناء مسجد وإلاّ تعرضوا للعقاب وذلك منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها المدينة». (4)

وجد في العهد الموحي عدد المساجد - فاس - سبعمائة واثنين وثمانين مسجداً في ذلك الوقت. (5)

(1) محمد عبد الرحيم غنيم، تاريخ الجامعات الإسلامية، (د.ط)، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1953، ص 177.

(2) ينظر: ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 473.

(3) محمد بن تاويت، ومحمد الصادق، الأدب المغرب، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960، ص 96.

(4) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص 141.

(5) الجزنائي، زهرة الآس، مصدر سابق، ص 44.

«ومن أشهر مساجد فاس التي قامت بدورها كمعهد للتعليم جامع القرويين الذي وضع حجر أساسه عام 240هـ/859م ليكون دار فقه وعلم».<sup>(1)</sup>

«وفاس مدينة العلم والفقه والأدب والحضارة، فجامعتها القرويين مضى على وجودها أحد عشر قرناً، وقد سبقت في الظهور الزيتونة والأزهر؛ وقصدها طلاب العلوم من الآفاق المغربية، الأندلس وإفريقيا، لتلقي علوم التفسير والحديث والفقه والأصول، وعلوم الآلة والفلك والطب والهندسة وعلوم العربية من لغة وشعر وأدب».<sup>(2)</sup>

«وقديماً قيل: إنّ العلم ينبع من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها؛ وقيل: ولد العلم بالمدينة ورُبِّيَ بمكة، وطحن بمصر؛ وغربل بفاس».<sup>(3)</sup>

واهتم المرابطون ومن بعدهم الموحدون بهذه المؤسسة الدينية العلمية، وقد عهد للقاضي محمد بن داود بأن يصلح المسجد ويقوم بتوسيعه؛ وقد قام هذا القاضي بشراء الأسلاك المحادية له لكي يتم الزيادة فيه، فبنى الباب الكبير الغربي - باب الشماعين - كما جعل لهذا الجامع عدة أبواب كبيرة ولا مثيل لها.<sup>(4)</sup>

«شهد هذا الجامع اهتماماً آخر من خلفاء الدولة الموحدية حيث صنعوا له الخصة عام 599هـ/1202م كما صنعوا له المستودع والساقية الكبرى في أيام الفقيه أبي محمد يشكر؛ أمّا التريا الكبرى لهذا الجامع فصنعت أيام الفقيه الصالح عبد الله بن موسى المعلم عام 599هـ/1202م».<sup>(5)</sup>

(1) الجزنائي، جني زهرة الآس، مصدر سابق، ص45.

(2) عبد الكريم بن هاشم الكتاني، زهرة الآس في بيوتات فاس، ج1، مصدر سابق، ص05.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص06.

(4) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص59، ص60.

(5) المصدر نفسه، ص66، ص67.

«واستمرت الدراسة بجامع القرويين منذ إنشائه ولم تغلق أبوابه حتى في الفترات التي كانت تتم فيها أعمال الإصلاح والزيادة، وحتى عندما اتخذ المرابطون مراكش عاصمة لهم، وبني بها جامع علي بن يوسف، ظلت القرويين مركزاً للإشعاع العلمي».<sup>(1)</sup>

«بداية التعليم بجامع القرويين فإنّ أقدم رواية نذكر أنّ محمد بن جراح الأنصاري كان يعطي درساً له بالجهة الغربية منذ عام 515هـ/1121م؛ كما نذكر النصوص أيضاً أنّ أحمد بن عبيده الأنصاري القرطبي (582هـ/1186م) درس فيه وأخذ عنه جماعة به علم الحديث».<sup>(2)</sup>

وتوجد عدّة مساجد أخرى منها: «مسجد زقاق الماء الذي كان يدرس فيه أبي بكر عثمان بن مالك من شيوخ أبي الحسن بن حرزهم».<sup>(3)</sup>

«وجامع فاس\* الذي تلقى فيه الشيخ أبو مدين التعاليم الدينية في بداية دخوله المدينة».<sup>(4)</sup>

واشتهر في العصر الموحدى عدّة مساجد التي جلس فيها العلماء لإلقاء دروسهم لمختلف أجناس الطلبة وأصقاعها نذكر مسجد: زقاق الرواح الذي كان فيها للإقراء يوسف بن عبد الصمد بن نموى الفاسي (614هـ/1217م).<sup>(5)</sup>

«وجود المكتب أو الكتاب كان هذا النوع من الكتاتيب\* أسبق أنواع المعاهد التعليمية انتشر في شوارع فاس وأزقتها في عصري المرابطين والموحدين ووردت ترجمات عديدة لها فكان

(1) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، ص503.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، مصدر سابق، ص239.

(3) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص457.

(4) ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، مصدر سابق، ص12.

\* لفاس توأمان: غرناطة الأندلس ودمشق الشام، باستثناء ما جدّ من هذه البنايات.

(5) ينظر: ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص468.

\*الكتاتيب: اشتق اسم هذا المعهد (الكتاب) من التكتيب وتعليم الكتابة.

أبو عبد الله التاودي المعلم لكتاب الله (- 580هـ/1184م) من أهل مدينة فاس كان يقوم بتعليم الصبيان القرآن الكريم في المكتب». (1)

لقد درّس الفقيه - موسى المعلم - في هذه الكتاتيب فكان يعلم الصبيان في معهد قنطرة في رؤوس بفاس، كما أنه أقدم على تقديم الخطبة في جامع القرويين. (2)

كما وجد عدة معلمين قاموا بتدريس الصبيان وتعليمهم القرآن الكريم وطرقه، فمثلاً وجد الفقيه إبراهيم العشاب الأنصاري (- 583هـ/1187م) (3)، وتاشفين بن محمد (- 609هـ/1212م) (4)، وكذلك الفقيه أبو محمد القضاعي (- 615هـ/1218م). (5)

«أنارت مدينة فاس مدارس حفتهم الطلبة الذين تكالوا عليها للنهل منها من كل أصقاع العالم؛ فنجد أن كتب تراجم تناولت الحديث عن العلامة الهزميري (- 706هـ/1306م) بمدينة فاس أنه دفن على مقربة من مسجد الصابرين\*». (6)

ظلت مدرسة المرابطين والصابرين تهم باستضافة الطلبة من كل فج لكي ينهلوا العلم؛ كما يعد يوسف بن تاشفين أول من بنى هذه المدرسة بعد دخوله فاس عام 462هـ/1069م، ويفيد هذه المدرسة تحتفظ بكيانها. (7)

«أمّا بالنسبة للمدارس في عهد الموحدين، الذين ازدهرت في عهدهم المعارف بما أنشأوه من معاهد ومدارس في إفريقية والأندلس وكانت مدارس فاس في عهدهم تأوي الطلبة». (8)

(1) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص219.

(2) ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص72.

(3) ينظر: الحميري، الروض المعطار، مصدر سابق، ص60.

(4) ينظر: ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص172.

(5) ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص74.

(6) ينظر: ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص415.

\* مسجد الصابرين: المعروف الآن بروضة أبي مدين، وقد كان في القديم مدرسة.

(7) ينظر: عبد القادر زمامة، معالم وأعلام من فاس القديم، ع74، سنة 1975، ص105.

(8) عبد العزيز عبد الله، الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب، مجلة الدارة، السنة الخامسة، ع03، سنة 1980، ص61.

«تجاوز الفكر العلمي بفاس فشمّل كل مجالات المعرفة، فقد كانت تسمى - فاس - بغداد المغرب»<sup>(1)</sup>.

روى لسان الدين بن الخطيب هذه المدينة بأنّها: «مصلّى القاصي والداني... بلد المدارك والمدارس والفهارس والمشايخ... ألسنتها باللغات المختلفة لا منه»<sup>(2)</sup>.

➤ أهم العلوم التي ازدهرت في فاس في عصري المرابطين والموحدين:

أ - العلوم النقلية:

1- علم القراءات والتجويد:

«تداول القراء قراءات القرآن الكريم ورواياته السبع حتى صارت علماً منفرداً تناقله الناس بالمشرق والأندلس»<sup>(3)</sup>.

يقول عبد الواحد المراكشي: «فصلت عن مدينة مراكش وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس فلم أزل فيها إلى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هناك مبرزين في علم القرآن»<sup>(4)</sup>.

ومن أشهر العلماء الذين تصدروا لتدريس هذا العلم بفاس المرابطية والموحدية محمد بن قرقاشش من أهل طليطلة، نزل بمدينة فاس قبل عام 512هـ/1118م كان مقرئاً ماهراً له تأليف صغير في اختلاف القراء السبع، وأقرأ هذا العلم بفاس التي اتخذها وطناً له<sup>(5)</sup>.

وكذلك محمد بن محمد بن عبد الله بن معاذ اللّخمي من أهل اشبيلية الذي استوطن مدينة فاس، وكان إماماً في صناعة الإقراء على الرواية (533هـ/1138م)<sup>(6)</sup>.

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص443.

(2) ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، (د.ط)، (ب.د.ن)، (د.ب.ن)، (د.ت)، ص111.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص446.

(4) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، مصدر سابق، ص153.

(5) ابن القاضي الكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص275.

(6) الحميري، الروض المعطار، مصدر سابق، ص113.

«ومن أهل فاس النابغين في هذا العلم قاسم بن محمد الزقاق الأموي (- 559هـ/1163م)؛ والذي كان مقرئاً فاضلاً، تصدر لإقراء هذا العلم بفاس، وأخذ الناس عنه».<sup>(1)</sup>

أمّا أهمّ المؤلفات العلمية التي كان الطلبة يقومون بدراساتها في هذا العلم فمنها كتاب محمد بن عبد الله اللّخمي المسمى "الإيماء إلى مذاهب السبعة القراء"<sup>(2)</sup> وكتاب "تبيين المعاني المبهمة"<sup>(3)</sup> وكتاب "الإشارة في قراءة الأئمة السبعة المختارة"<sup>(4)</sup> وكتاب "الشمس المنيرة في القراءات السبع الشهيرة".<sup>(5)</sup>

## 2- علم التفسير:

«احتاج الناس منذ العصور الأولى للإسلام إلى تفسير القرآن الكريم ويقسم ابن خلدون علم التفسير إلى صنفين: تفسير نقلي مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف؛ وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآيات وكل ذلك يعرف بالنقل عن الصحابة والتابعين، أمّا الصنف الثاني هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب».<sup>(6)</sup>

اهتم أمراء المرابطين والموحدين بهذا النوع من العلم فقاموا بتفسير آيات القرآن الكريم، لكن بمعاونة من الأندلسيين والمغاربة.<sup>(7)</sup>

(1) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص513.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص264.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص479.

(4) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ج1، ص263.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص265.

(6) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص366، ص367.

(7) ينظر: ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص367.

ومن العلماء الذين قاموا على ذلك العلم وتدريسه، أحمد بن عبد الصمد ابن عبيده الأنصاري الخزرجي أصله من الأندلس واستوطن مدينة فاس (582هـ/1186م) له كتاب «نفس الصباح في غريب القرآن وناسخة ومنسوخة»<sup>(1)</sup>.

ومن علماء فاس الذين نبغوا في علم التفسير، محمد بن يوسف بن عمران المزدغي (655هـ/1257م) له كتاب «تفسير القرآن»، انتهى فيه إلى سورة الفتح<sup>(2)</sup>؛ وأبو العباس أحمد بن فرتون السلمي (660هـ/1201م) ألف في الأعلام المبهمة في القرآن، وله كتاب آخر سماه «الاستدراك والإتمام، استدرك فيه على السهيلي في كتابه التعريف والإعلام بما أجهل في القرآن من الأسماء والأعلام»<sup>(3)</sup>.

### 3- علم الحديث:

«بدأ الاعتماد على كتب فروع مذهب الإمام مالك، وزاد هذا الاعتماد في عصري علي بن يوسف بن تاشفين الذين لم يكن بقرب إليه ويحظى عنده إلا من علم الفروع، فنفتت في عهده كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبد ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ فلم يكن أحد من مشاهير ذلك العصر يعنى بهما كل الاعتناء»<sup>(4)</sup>.

«بالرغم من عدم اهتمام المرابطين بعلم الحديث، إلا أنه ظهر بمدينة فاس في ذلك العصر محدثون تصدروا لتدريس هذا العلم؛ ونشره بين أهل المدينة والمغرب الإسلامي، منهم محمد بن علي بن الصقيل الأنصاري من أهل مدينة شاطبة، قام بتعليم علم الحديث بفاس، وكان من أهل صناعته، وقد توفي بفاس عام 500هـ/1106م»<sup>(5)</sup>.

(1) ابن عبد المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، مصدر سابق، ص239.

(2) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص222.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص177.

(4) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص236.

(5) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص251.

وكذلك وجد العالم المحدث والعارف برجاله محمد بن مسعود الخصال الغافقي فقد سكن مدينة فاس وقد وافته المنية عام 540هـ/1145م.<sup>(1)</sup>

«ومن العلماء الأندلسيين الذين قاموا بتدريس هذا العلم بفاس عياض بن موسى الحسبي المتوفى عام 549هـ/1149م الذي كان يجمع من الحديث كثيراً، وله عناية به، حيث كان يجمعه ويفيده، وكان من أهل التفنن فيه، وقد أخذ عنه بفاس جماعة كثيرة».<sup>(2)</sup>

«لكن العصر الموحي شهد ازدهاراً كبيراً لعلم الحديث لم يكن له من قبل، وقد استمدت نهضة من اهتمام الخلفاء الموحدين به اهتماماً كبيراً وتجلّى ذلك في المكانة التي أولوها بالرجوع لكتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ وإحراق كتب الفروع، وأيضاً في المكانة التي كانت لطلاب علم الحديث في دولتهم، وبخاصة في أيام يعقوب المنصور».<sup>(3)</sup>

«وكان من أثر اهتمام الموحدين بعلم الحديث، أن ظهر بمدينة فاس في هذا العصر محدثون كبار، كان من أبرزهم محمد بن عمر الكاتب المالقي الذي استوطن مدينة فاس، وتوفي بها عام 563هـ/1167م، وكان بصيراً بعلم الحديث مقيداً ضابطاً».<sup>(4)</sup>

«وكان من أبرز علماء الحديث في العصر الموحي محمد بن حماد العجلاني من أهل فاس وتوفي عام 609هـ/1212م، كان من أهل العناية بسماع الحديث وروايته مخصوصاً بقراءته على الأمراء».<sup>(5)</sup>

«ومن علماء الحديث بفاس إبراهيم بن الكماد المرادي الفاسي المتوفى عام 663هـ/1264م والذي كان أحفظ أهل زمانه لحديث رسول الله ﷺ وكان يقوم على كتب الحديث قياماً حسناً

(1) ينظر: ج1، المصدر نفسه، ص257، ص258.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص498.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص354.

(4) ابن القاضي الكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص274.

(5) ابن القاضي الكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص396.



ويتكلم عن أسانيده وامتونه، ويستوفي خلاف الفقهاء ويوعظ الناس كل جمعة؛ ويتكلم عن الحديث وفهمه كل يوم»<sup>(1)</sup>.

أمّا من أهمّ الكتب التي ألّفت في هذين العصرين وكانت متداولة بين أيدي العلماء والدارسين فمنها كتاب «آفاق الشمس وأعلاق النفوس» وكتاب «مقاطع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان»، وهما من تأليف أحمد بن عبد الصمد بن عبيده الخزرجي المتوفى عام 582هـ/1186م.<sup>(2)</sup>

#### 4- علم الفقه وأصوله:

«علم الفقه وأصوله من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرًا وأكثرها فائدة، وهو معرفة أحكام الله في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهية والإباحة وهي أحكام مستقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشرع لمعرفة من الأدلة فإذا استخرجت تلك الأحكام قيل لها فقه»<sup>(3)</sup>.

«أمّا أهل المغرب فقد اختصوا بمذهب الإمام مالك، ولم يتخذوا غيره مذهبًا إلا في القليل، لأنّ رحلتهم كانت غالبًا إلى الحجاز؛ لذا اقتصر على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ مالك وشيوخه من قبله، وتلاميذه من بعده، لذا كان المذهب غضا عنهم»<sup>(4)</sup>.

«وقد اتجهت المادة الفقهية، نتيجة لتأثر أهل فاس بالمذهب المالكي اتجاهًا خاصًا، وأصبحت المؤلفات التي دونها رفاق الإمام مالك هي التي تحتل المكانة الأولى في الدراسة بالقرويين، ومساجد فاس الأخرى، واستمر الفقه المالكي في ازدهار طيلة أيام المرابطين»<sup>(5)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ج1، ص141.

(2) ابن القاضي الكناسي، جذوة الاقتباس، ج1 ص196.

(3) المصدر نفسه، ص197.

(4) محمد الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج3، (د.ط)، مطبعة النهضة، تونس، د.ت، ص64، ص65.

(5) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص368.

«وقد رحل من علماء الأندلس لمدينة فاس للقيام بدراسة هذا العلم، محمد بن أحمد بن إبراهيم بن لواء الأنصاري الذي توفي بفاس عام 546هـ/1151م كان فقيهاً حافظاً عارفاً بأصول الفقه وصنف مسائل في الخلاف في سبعة أسفار، وذكر أنه حين قدم فاس بعث بشتي منها إلى أبي موسى بن الملجوم، وقام محمد بن أحمد بفاس يدرس الفقه وصل مسائل الخلاف»<sup>(1)</sup>.

«لكن عندما أخذ الموحدون بزمام الأمر، غيروا من المنهج الذي كان في نظرهم إجهازاً على الفكر والاجتهاد»<sup>(2)</sup>.

«فكان المذهب الظاهري محبباً عند خلفاء الدولة الموحدية، حيث كان المهدي بن تومرت داعية الموحدين له رحلة في طلب العلم إلى مدينة بغداد، فأخذ بها شيئاً من علوم أصول الفقه والدين»<sup>(3)</sup>.

«كذلك وجد في العصر الموحدى برنامج منهجي جديد يدعو إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه؛ ولقد عاد اسم الإمام الغزالي إلى الظهور مرة ثانية»<sup>(4)</sup>؛ بعد أن كان المرابطون قد قاموا بإحراق كتبه التي وصلت إلى المغرب والأندلس، وكان لهذا الأمر أثره على الحركة الفكرية والعلمية بمدينة فاس؛ حيث نبغ العلماء الذين يستنبطون الفقه من الكتاب والسنة، ويفنون ويحكمون بها، وقد انتحل العديد من أهل فاس هذا المذهب، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هارون المرادي الفاسي المتوفى عام 613هـ/1274م»<sup>(5)</sup>.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشره محمد الدين عبد الحميد، ج3، (د.ط)، القاهرة، سنة 1948، ص284.

(2) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص245.

(3) المصدر نفسه، ص251.

(4) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج4، مصدر سابق، ص59.

(5) ابن القاضي المكناشي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص84، ص85.

ظهرت عدّة تآليف مهمة في أحاديث الأحكام استدراكاً ونقداً وشرحاً، فألف ابن القطان كتاباً في الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام سماه: «شرح الأحكام».<sup>(1)</sup>

«وكذلك وجد الفقيه علي بن أحمد بن محمد الخزرجي الفاسي (610 هـ/1213م) الذي علم أصول الفقه، وله تآليف فيه مثل: كتاب «البيان في تنقيح البرهان».<sup>(2)</sup>

## 5- علم اللغة:

«يقصد بها علوم اللسان العربي، وتتكون من أربعة أركان هي اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية لأهل الشريعة».<sup>(3)</sup>

## أ- علم اللغة العربية:

«كانت مدينة فاس واقعة لراية اللغة العربية منذ انبثاق فجر النهضة العلمية في المغرب على عهد المرابطين، ولقد درس في جامع القرويين ومساجد فاس الأخرى ومدارسها العديد من علماء اللغة العربية الذين أثروا نهضة هذا العلم؛ فمن الوافدين على فاس للقيام بتعليم اللغة العربية، محمد بن أغلب بن موسى المرسى المتوفى عام 511 هـ/1117م والذي كان عالماً باللغة العربية».<sup>(4)</sup>

أمّا في العصر الموحد فقد اشتهر العديد من علماء اللغة العربية بمدينة فاس؛ وكان من أبرز هؤلاء أحمد بن عبد الجليل التدميري من الوافدين على المدينة، كان عالماً باللغة العربية، وله حظ في قرص الشعر، كما أنّ له كتاب في اللغة العربية أسماه "التوطئة في اللغة العربية"، وله شرح على كتاب "الفصيح"؛ وله كتاب في شرح أبيات الجمل سماه "شفاء الصدور"، وتوفي أحمد بن عبد الجليل عام 555 هـ/1160م.<sup>(5)</sup>

(1) المصدر نفسه، ج.2، ص471.

(2) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص479.

(3) المصدر نفسه، ص481.

(4) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص254.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص137.

ونجد مصعب بن محمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني الجبالي المتوفى عام 604هـ/1207م الذي سمع علم اللغة العربية من أبي الحسن بن حنين، وأبي عبد الله بن الرمامة بفاس، وأصبح رئيساً في صناعته؛ عالماً به، قام بتدريسه طيلة حياته كلها، فوفد إلى فاس العديد من طلبة المدن الأخرى للأخذ عنه، له تأليف صغير في العروض، وقام الخشني يدرس اللغة العربية بفاس، حتى أنه بعد صيته فيها.<sup>(1)</sup>

## ب- علم النحو:

«شاعت دراسة علم النحو بفاس في عصري المرابطين والموحدين وبلغت غاية كبرى»<sup>(2)</sup>. «وكان من أشهر الشخصيات التي تصدرت لتدريس هذا العلم، أبو جعفر بن باق، وأحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي (- 519هـ/1125م) الذي كان بارزاً في علم النحو حافظاً للغات»<sup>(3)</sup>.

«ومن أهم المؤلفات العلمية النحوية التي تدرس في مؤسسات فاس التعليمية في هذين العصرين كتاب سيبويه؛ ذلك الكتاب الذي أصبح إماماً لكل ما كتب في هذا العلم من بعده»<sup>(4)</sup>. وكتاب «الرد على النحاة والمشرق في النحو» لابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن حارث اللخمي»<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، عني بطبعه وتعليق حواشيه ألفريدل، ابن أبي شنب، محرط، ج2، سنة 1886، المصدر السابق، ص700، ص701.

<sup>(2)</sup> ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، (د.ط)، المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة 1954، ص41.

<sup>(3)</sup> ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص397.

<sup>(4)</sup> ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، مصدر سابق، ص43.

<sup>(5)</sup> ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، مصدر سابق، ص36.

ج-الأدب: «وصف بعض المؤرخين أهل فاس بأنهم أدباء أذكاء، وأن مدينتهم قلعة لرجال الأدب والمثقفين أكثر من أي مدينة أخرى، حيث أنها مركز عظيم يجتمع فيه عدد كبير من الحكماء والعاملين بالأدب والشعر».<sup>(1)</sup>

لقد هيا للمغرب الأقصى، ومدينة فاس على الخصوص بعض العوامل التي ساعدتها للنهوض العلمي منها: - هجرة أهل القيروان وإفريقية إلى المغرب.

- فتنة قرطبة كان لها أثر كبير في هجرة الأندلسيين إلى مدينة فاس.<sup>(2)</sup>

- الرقي السياسي والتفوق الاجتماعي والنهوض الثقافي في العصرين - المرابطي والموحدي - كان له بروز في نهضة الأدب.<sup>(3)</sup>

«ومن الفنون الأدبية النشر، ومن فنونه التي ظهرت في هذين العهدين فن الكتابة الإخوانية ومن تلك الرسائل رسالة التي كتبها الفقيه القاضي عيسى بن عمرات قاضي الجماعة بمراكش إلى ولده بمدينة فاس قبل عام 570 هـ/1174م».<sup>(4)</sup>

«كما اشتهر بهذا الفن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأزدي المتوفى عام 576 هـ/1180م، من أهل غرناطة، ممن وفد على فاس واستقر بها، حيث كان صاحب خطب ورسائل ومقامات، جامعاً لمناقب من أدركه من أهل عصره».<sup>(5)</sup>

«كما ظهر فن المقالة على نطاق واسع بمدينة فاس في العصر الموحدي على يد محمد بن أحمد بن حبير الذي استوطن فاس، وكانت له أسفار كثيرة في فضل مناسك منها مقالة سماها»

(1) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص36.

(2) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص443.

(3) ينظر: محمد بن تاووت، محمد الصادق، الأدب المغربي، مرجع سابق، ص138.

(4) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص268.

(5) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، مصدر سابق، ص482.

رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» كتب بها إلى وليه أبي الحسن بن مقتصر من فاس بعد عودته للمشرق في عام 593 هـ/1196م<sup>(1)</sup>.

«ومن برزوا في هذا المضمار؛ أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني الذي ولد بوهران أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي؛ وتحول في بلاد المغرب، وأكثر من مناهل العلم والأدب وبرع في فن الترسل والإنشاء، وأقام الوهراني بفاس مدّة<sup>(2)</sup>.

الشعر: «ظهر اسم فاس في الأعمال والمختارات الأدبية وراج بها سوق الشعر في العصرين المرابطي والموحدي، وإن كان عدد الشعراء محدودًا لسوء الحظ مقارنة بما شهدته المدينة من تقدم وازدهار<sup>(3)</sup>.

«ومن الشعراء الذين برزوا بفاس في العصر المرابطي؛ الشاعر محمد أبو بكر بن الصائغ المتوفى عام 533 هـ/1138م؛ ومحمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي (- 540 هـ/1145م) سكن فاس وكان من أهل المعارف الكثيرة وإمامًا في الكتابة والنظم<sup>(4)</sup>.

وفي العصر الموحدي نما وتطور هذا الشعر، ووجد عدّة شعراء أسهموا وأطنبوا الساحة الفكرية الأدبية من بينهم نذكر الشاعر يحيى ابن عبد الجليل بن سهيل اللخمي اليكي يعد من الشعراء الفطاحل أصله من يكة\*<sup>(5)</sup>.

كما أنّ الوافدين على مدينة فاس أثروا في الساحة الشعرية منهم: محمد بن غالب الرصافي من رصافة بلنسية والذي وافته المنية عام 572 هـ/الموافق لـ 1176م فدخل مدينة فاس وقد قال شعراً وأجاد فيه<sup>(6)</sup>.

(1) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني، مصدر سابق، ص 595.

(2) سعيد أعراب، المقامة الفاسية، مجلة البحث العلمي، ع 06، سنة 1965، ص 195.

(3) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج 1، مصدر سابق، ص 256.

(4) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج 1، مصدر سابق، ص 257.

(5) ينظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ج 2، ط 3، دار المعارف، د.ب، سنة 1980، ص 269.

\* يكة: حصن في شمال مرسية بالأندلس.

(6) المصدر نفسه، ص 342.

«ومن الشعراء أيضاً نجد أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن خلف الأنصاري الجبالي الأندلسي، الذي جعل من مدينة فاس سكناً له، وتولى الخطابة في جامعها، وكانت وفاته عام 593هـ/1196-1197م؛ وكان أبو الحسن أديباً شاعراً حتى سموه: شاعر الحكماء وحكيم الشعراء، له شعر في الكيمياء قيل فيه إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك صناعة الأدب، وينسب إليه كتاب: «شذرو الذهب» وهو ديوان شعر في الكلام على الكيمياء مرتب على الحروف».<sup>(1)</sup>

«ومن شعراء فاس النابغين في العصر الموحي الشاعر الشهير «ابن الياسمي» أبو محمد بن عبد الله بن حجاج، أصله من بني حجاج من قلعة فندلاوة، سكن مدينة فاس، بزغ نجمه في عدة علوم كالمنطق والهندسة والحساب والعدد وقد خدم ابن الياسمين الخليفة الموحي يعقوب منصور ثم ولده الناصر من بعده، وبلغ من خلال اتصاله بهم منزلة عزيمة، وعلى الرغم من ذلك توفي ذبيحاً بمراكش عام 601هـ/1204م؛ وقد بلغ ولعة بالجبر أن فرغه في قالب أرجوزته التي قرئت عليه وسمعت منه بإشبيلية عام 587هـ/1182م فكان هو الذي نشر ذلك العلم بها ونجد في هذه الأرجوزة قوانين الجبر وقواعده، وقد صنعت شعراً، وصنعت في شكل ينم عن أدب رائع وسيطرة عجيبة على فنون الكلام».<sup>(2)</sup>

والشاعر الأديب أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي (الكرواتي) نسبة إلى جراوة وقد درس في تادالا ومراكش وفاس والأندلس.<sup>(3)</sup>

«وكان الجراوي صاحب المكانة الأدبية الرفيعة في عهد الموحدين ولد في العقد الثالث من القرن السادس وتوفي عام 609هـ/1212م، واتصل بالخليفة عبد المؤمن بن علي، فأعجب به الخليفة وقال له: «يا أبا العباس إننا نباهي بك أهل الأندلس»، هكذا قال عبد المؤمن للجراوي وقد كان أبوابه من شعراء المغرب والأندلس آنذاك مئاة منهم، وقد أموه بقصائد أمداحهم».<sup>(4)</sup>

(1) ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، مصدر سابق، ص 109.

(2) قدر طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ط3، دار القلم، القاهرة، سنة 1973، ص 377.

(3) ينظر: عبد الله كنون، ذكر مشاهير رجال المغرب، (د.ط)، مطبعة كرمادس، تطوان، د.ت، ص 07، ص 08.

(4) محمد بن تاويت، محمد الصادق، الأدب المغربي، مرجع سابق، ص 193.

«ومن شعراء فاس الذين بلغوا شأنًا عظيمًا الشاعر أبو عمر ميمون بن علي الخالقي الخطابي المعروف بابن خبازة، يرجع أصله إلى قبيلة صنهاجة من أهل مدينة فاس، وكان هذا الشاعر سريع البديهة نظمًا ونثرًا مع الإجادة والتفنن في أساليب الكلام، كان مولده بفاس عام 570هـ/1174م وكانت وفاته عام 637هـ/1239م، وكان ابن خبازة شاعرًا مكثرًا مطيلاً سهل القول متين العبارة؛ أبرز فنونه: المدائح النبوية، كما كان له شيء من فن الرثاء، والتصوف وله ترسل أيضًا»<sup>(1)</sup>.

فمن قصيدته التي مدح بها النبي ﷺ:

«رَسُولُ بَرَأَهُ اللَّهُ مِنْ صَفْوِ نُورِهِ ❀ وَأَلْبَسَهُ بُرْدًا مِنَ الثُّورِ صَافِيًا  
وَمَا زَالَ ذَاكَ الثُّورُ مِنْ عَهْدِ آدَمَ ❀ يُنِيرُ بِهِ اللَّهُ الْعُصُورَ الْخَوَالِيَا»<sup>(2)</sup>.

توافد على مدينة فاس في العصرين المرابطي والموحدي عدد من الوشاحين الأندلسيين حيث اتصلوا بأهل المغرب؛ وأقام غير واحد منهم بمدينة فاس، وقد ظهر لنا من فن الموشحات الفاسية موشحات الشاعر أبو حفص عمر التي منها:

«حَسَانَةُ رُخَيْمَةٍ ❀ عَانَقَتْ فِيهَا الْبَانَهُ  
والتقى الزجاج ❀ وأشواقى لحسانه»<sup>(3)</sup>.

## 6- علم الكلام:

«هو علم يتضمن الحجج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعين المنحرفين في الاعتقادات؛ وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد»<sup>(4)</sup>.

«وكان موقف الدولة المرابطية من علم الكلام في غاية التشدد ففروا كل من ظهر منه الخوض في شتى من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين علي ابن يوسف بن تاشفين

(1) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص400.

(2) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص348.

(3) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، مصدر سابق، ص53.

(4) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص382.



تقبيح هذا العلم، وكرهية السلف له، ولما دخلت كتب الإمام أبي حامد الغزالي - رحمه الله - إلى المغرب أمر علي بن يوسف بإحراقها متوعداً بسفك الدماء»<sup>(1)</sup>.

«ولكن عندما جاء الموحدون أذاعوا مذهب الأشعري لأن ابن تومرت كان يقترب من معنية، وقد ألف ابن تومرت في هذا العلم عقيدة باللسان البربري هي «المرشدة»؛ كما صنف في هذا العلم أيضاً كتاب سماه «أعز ما يطلب»<sup>(2)</sup>.

«وكان من أعلام هذا العلم في دولة الموحدين، أبو الحسن علي ابن محمد ابن خليل الأندلسي الإشبيلي (- 557هـ/1161م)؛ الذي تصدى لشرح عقيدة ابن تومرت بجامع القرويين بفاس معلماً لعلم الأصول والكلام»<sup>(3)</sup>.

«ومن نبغاء فاس في هذا العلم محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي المعروف بالكتاني المتوفى عام 596هـ/1199م، كان إماماً في علم الكلام، حيث عكف على تدريسه طول حياته، فرحل إليه الكثير من طلبة الأمصار ليأخذوا عنه هذا العلم وغيره من العلوم»<sup>(4)</sup>.

## 7- علم التاريخ والتراجم:

«نتيجة لتقدم الحركة العلمية بمدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين ظهر الكثير من المؤرخين، والمؤلفات التاريخية التي للأسف الشديد ضلّ أكثرها مثل: كتاب القاسم بن جنون في تاريخ فاس، وكتاب عبد الملك بن محمود بن الوراق: "المقباس في أخبار المغرب وتاريخ فاس" الذي يؤرخ للمدينة في أيام المرابطين والموحدين»<sup>(5)</sup>.

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص 236.

(2) مصدر نفسه، ص 251.

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، مصدر سابق، ص 226.

(4) ابن قنفذ، تحقيق عادل نويهض، كتاب الوفيات، (د.ط)، منشورات المكتب التجاري، بيروت، سنة 1971، ص 288.

(5) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 24.

«ومن المؤلفات التاريخية في السيرة النبوية كتاب "اللمعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأولاده السبعة" من تصنيف أبي عبد الله محمد بن القاسم بن عبد الرحمن التميمي الفاسي المتوفى عام 603هـ/1206م»<sup>(1)</sup>.

«ومن اعتنى بالتاريخ والقيام عليه بمدينة فاس، عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري الذي سكن المدينة؛ وكان من مصنفاته التاريخية "مختصر السير والمغازي" من يسر ابن إسحاق و"مختصر تاريخ أبو جعفر الطبري في سفر متوسط" و"منتخب سير المصطفى" لأبي سعيد بن عبد الملك الخرساني (- 523 هـ/1129 م)»<sup>(2)</sup>.

أمّا كتب التراجم فقد نفق سوقها بفاس خلال هذين العصرين ومن هذه الكتب "ذيل الصلة البشكوالية" لأبي العباس أحمد بن يوسف ابن فرتون السلمي الفاسي (- 660 هـ/1261 - 1262 م)<sup>(3)</sup>.

«أمّا كتب البرامج والفهارس، وهي في عداد كتب التراجم، فقد ظهرت منها التأليف الكثيرة بفاس في هذين العصرين، منها برنامج عبد الرحمن بن الملجوم وبرنامج ابن القطان الفاسي، وكذلك برنامج القاضي أبو القاسم بن بقي»<sup>(4)</sup>.

«ومن فن التراجم "تقييد" أبي زيد عبد الرحمن بن الملجوم الفاسي، الذي كان من أهل المعرفة والشعر والأنساب والحفظ للتواريخ، وقد وقع النقل من هذا التقييد في زوائد التكملة»<sup>(5)</sup>.

(1) محمد المنوني، العلوم والآداب على عهد الموحدين، (د.ط)، المطبعة المهدية، تطوان، سنة 1950، ص 66

(2) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص 276.

(3) محمد المنوني، العلوم والفنون والآداب، مرجع سابق، ص 67.

(4) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص 140.

(5) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 390.

## 8- علم التصوف:

«عاش في مجتمع مدينة فاس خلال عصري المرابطين والموحدين الكثير من الصالحين الذين اتخذوا التصوف منهجاً لحياتهم وتجمع هؤلاء الأتباع ينهلون من علمهم ومعرفتهم؛ وكانت الملامح البارزة في عهد التصوف هي الزهد ومجاهدة النفس والإكثار من العبادة والأذكار، ولم يكن تصوفاً فلسفياً».<sup>(1)</sup>

«ولم يأخذ التصوف صيغته المتميزة في العهد المرابطي حيث لم تتكون الطرق والجماعات إلا مع بداية العصر الموحي، فكان أقطاب التصوف الذين ظهوروا في العصر المرابطي قد عاشوا قسطاً كثيراً أو قليلاً من حياتهم في عهد الموحدين».<sup>(2)</sup>

«ومن كبار المتصوفة الذين ترددوا على مدينة فاس وألقوا بها علوم التصوف الشيخ محي الدين بن عربي - أبو بكر محمد علي بن عربي (560-638هـ/1164-1240م)، فدرس علوم الدين والأدب دراسة شاملة، وبعد أن قام ابن عربي بسياحات متعددة في نواحي المغرب والأندلس، استقر في فاس عام 591هـ/1194م، حيث انصرف إلى الدراسة والرياضة الصوفية، وذلك في جامع عين الخليل بفاس».<sup>(3)</sup>

«كما كان أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالعطار المتوفى عام 604هـ/1207م من كبار الصوفية عارفاً بعلوم الاقتصادات، له منظوم محفوظ في معاني التصوف، وأيضاً الشيخ أبو إسحاق الأندلسي من أهل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، الذي استوطن مدينة فاس، وكان من كبار الصوفية، وقد بنى رابطة خارج باب الحبسه من أبواب مدينة فاس، وانقطع فيها».<sup>(4)</sup>

(1) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج2، مصدر سابق، ص564.

(2) جمال الدين الشيال، الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الإسكندرية، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية، المجلد(م) السادس والسابع،

سنة 1952-1953، ص151.

(3) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مصدر سابق، ص108.

(4) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص361.

## ب- العلوم العقلية:

### ❖ علم الفلك:

لم يهتم علماء المرابطين بعلم الفلك، لكن أهل فاس في العهد الموحي أبلوا بلاءاً حسناً واهتموا بعلم الفلك والنجوم، لارتبط حياتهم بحساب أوقات الصلاة وغير ذلك.<sup>(1)</sup>

شجع الخلفاء الموحدون هذا العلم- علم الفلك-، فقد نقل الخليفة أبو يعقوب المنصور كتباً جمّة من الأندلس وتعلموا عدّة خبايا لم يكونوا يعلموها كوجهة القبلة وكذلك أوقات الليل والنهار؛<sup>(2)</sup> ومن أهمّ علمائه نذكر: محمد أبو بكر الصائغ (-533هـ/1138م).<sup>(3)</sup>

### ❖ علم الحساب والهندسة:

كذلك هذا العلم لم يلقى رواجاً عند أهل فاس خلال العصر المرابطي، لكن في العهد الموحي وُجد وأخذ نهضة علمية كبيرة وذلك بفضل تشجيع الخلفاء لهذا العلم.<sup>(4)</sup>

«وعن الهندسة المعمارية فكان من أهلها أبو عمران موسى بن حسن بن أبي شامية، الذي استعمل الهندسة المعمارية في البناء وذلك وقع البيلة والخصبة بصحن جامع القرويين».<sup>(5)</sup>

«أمّا بالنسبة لعلم الحساب فقد دعت الحاجة طلاب العلم لدراسته وذلك لمباشرة المهام الحسابية وكان من أعلام الحساب بمدينة فاس أبو الحسن بن فرحون الذي كان يقوم بتعليم هذا العلم بها، وألف فيه كتابه «الباب في مسائل الحساب»، وقد توفي أبو الحسن عام 601هـ/1204م».<sup>(6)</sup>

(1) ينظر: عبد الله العمراني، فاس وجامعتها، مجلة البحث العلمي، ع 11 - 12، سنة 1967، ص 168.

(2) ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص 310.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 375.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 385.

(5) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص 64.

(6) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، مصدر سابق، ص 375.

## ❖ علم الطب:

«إنَّ عصري الازدهار المrabطي والموحدي يقترن بالخصوص بتقدم علم الطب بالمغرب والأندلس ويتجلى من كتاب الطب والأطباء بالمغرب»<sup>(1)</sup> فالعناية التي كان يوليها الأمراء المrabطين والخلفاء الموحدين للدراسات الطبية مع تشجيع القائمين وتأسيس البيمارستانات وتنظيم مهنة الطب والحث على وضع المؤلفات فيه، واتخاذ التدابير الوقائية أيام الأوبئة»<sup>(2)</sup>.

«من فحول أعمدة الطب والصيدلة في العهد - المrabطي والموحدي - إبراهيم بن أبي الفضل بن صواب الحجري من أهل مدينة شاطية»<sup>(3)</sup> وكذلك أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه - هو شيخ ابن رشد - وقد استوزره الأمير أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين عامًا، وكان يشارك الأطباء في علومهم، فحسدوه على ذلك فقتل مسمومًا بفاس عام 533هـ/1138م»<sup>(4)</sup>.

## ❖ علم الكيمياء:

كان من شيوخ هذا العلم أبو الحسن بن علي بن موسى الأنصاري الجياني المعروف بابن التقرات المتوفى عام 593هـ/1196م، فقد نزل مدينة فاس، وتصدر للإقراء وولى خطابة جامع القرويين، وهو صاحب كتاب «شذور الذهب» في صناعة الكيمياء<sup>(5)</sup>.

«شكلت بلاد المغرب في العصر المريني ملاذًا لكثير من المسلمين الذين أتوا من الأندلس فرارًا من الزحف النصراني؛ واستفادوا من أجواء الاستقرار التي سادت المنطقة وكان من بين هؤلاء عدد كبير من العلماء الذين باشروا العمل والتدريس في فاس ومراكش وسبتة وطنجة وغيرها،

(1) عبد العزيز عبد الله، الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب، (د.ط)، د.ن، الرباط، سنة 1960، ص58.

(2) المرجع نفسه، ص59.

(3) ينظر: الحميري، الروض المعطار، مصدر سابق، ص337.

(4) ابن القاضي الكناسي، جذوة الاقتباس، ج1، مصدر سابق، ص259.

(5) محمد المنوني، العلوم والفنون والآداب، مرجع سابق، ص121.

فنهلوا من التراث الثقافي الذي خلفه المرابطون والموحدون واستفادوا من الانفتاح العلمي وظروف التشجيع والإبداع، خاصة وأنّ بني مرين لم يقيموا دولتهم على فكر ديني<sup>(1)</sup>.

«ودعم المرينيون مؤسسات التعليم العالي حتى قيل أنّ جامعة فاس أقدم الجامعات في العالم، فقد ورثت تقاليد مدرسة القيروان»<sup>(2)</sup>.

«شهد عصر بني مرين ظهور فطاحل العلماء والفقهاء وتحول الشعر والأدباء الذين انصهروا في هذه البيئة، ومنهم ابن الخطيب الذي تتلمذ على يد السلطان أبي عنان فارس المريني»<sup>(3)</sup>.

«وبلغ اهتمام سلاطين بني مرين بالعلم والعلماء درجة كبيرة، فدعوا إلى قصورهم كبار العلماء وفحول الشعراء والأدباء للمناظرة والمحاضرة ومطارحة الأفكار، وكوفئ كل مبدع وفق إبداعه مالا وكسوة وجواري، ثمّ شجع حركة التأليف والكتابة»<sup>(4)</sup>.

«وكان أكثر من شجع على ذلك من سلاطين بني مرين أبو الحسن علي المريني وابنه أبو عنان فارس اللذان وجها اهتمامهما بعلوم القرآن والحديث إضافة إلى القانون والنحو، حيث كان السلطان أبو عنان فارس نفسه فقيهاً وعارفاً وخبيراً بالمنطق وعلوم الرياضة والفلك وأصول الدين»<sup>(5)</sup>.

(1) زمامة عبد القادر، أبو الوليد بن الأحمر، (د.ط)، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، سنة 1978، ص44.

(2) الغنيمي، موسوعة، ج5، مرجع سابق، ص274.

(3) النميري، فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1990، ص131.

(4) الوزان (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ج1، مصدر سابق، ص260.

(5) السلاوي، الاستقصا، ج3، مصدر سابق، ص205.

➤ من أهم المدارس المرينية:

- «مدرسة الصفارين: من أقدم المدارس المرينية، بناها السلطان يعقوب بن عبد الحق عام 670هـ/1271م بسوق النحاس في فاس وزودوها بمكتبة غنية ما لبثت أن نقلت كتبها ومخطوطاتها فيما بعد إلى مسجد القرويين»<sup>(1)</sup>.

- «مدرسة فاس الجديد:» بنيت عام 720هـ/1320م بأمر من الأمير علي بن أبي سعيد عثمان المريني ونفذت بإتقان وجمال، وعين فيها الفقهاء لتدريس العلم فأمرها الطلبة والدارسون»<sup>(2)</sup>.

- «مدرسة الصهريج:» بنيت عام 721هـ/1321م بفاس غربي جامع الأندلس في عهد السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني وبني حولها سقاية ودار وضوء ودار سكن الطلبة»<sup>(3)</sup>.

- «مدرسة العطارين:» شيدت عام 723هـ/1323م بأمر من السلطان أبي سعيد عثمان بإزاء جامع القرويين بفاس على يد الشيخ أبي محمد بن عبد الله بن قاسم المزوار وكانت من أعجب ما صنع؛ وأجرى بها الماء وشحنها بالطلبة ورتب فيها إماماً ومؤذنين، ورتب فيها الفقهاء وأجرى عليهم الأرزاق، ووقف عليها أملاً كماً كثيرة»<sup>(4)</sup>.

- «المدرسة العظمى:» بنى هذه المدرسة السلطان أبو الحسن علي المريني، فزخرف جوانبها وجعل عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش على رخامة كبيرة ثم نصبها بالحائط الداخلي بهدف المحافظة على النقوش من الزوال»<sup>(5)</sup>.

(1) البهنسي عفيف، الفن الإسلامي، ط1، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، سنة 1986، ص198.

(2) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، مصدر سابق، ص411.

(3) المصدر نفسه، ص412.

(4) السلاوي، الاستقصا، ج3، مصدر سابق، ص112.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص112.

—المدرسة المصباحية: « شَيِّدها السلطان أبو الحسن علي المريني عام 747هـ/1346م بفاس، وتقع في جوف جامع القرويين، وتحتوي على غرف للتدريس، ولها ظلة من الخشب المنقوش، وسميت بالمدرسة المصباحية نسبة إلى أبي الضياء مصباح بن عبد الله الياصلوتي الفقيه المشهور الذي كان أول من تصدى للدرس بها فنسبت إليه». <sup>(1)</sup>

—المدرسة البوعنانية: « تعدّ من أعظم مدارس فاس وأجملها، بناها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن عام 756هـ/1355م». <sup>(2)</sup>

«من العلماء الذين كان لهم اهتمام بعلوم اللغة والنحو هو محمد بن يحيى العبدري المعروف بالصدفي وإبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الحاج، وله مؤلفات من أهمها كتاب في التورية، والعالم عبد بن المنعم الصنهاجي الذي كان حافظاً للغات العرب». <sup>(3)</sup>

«فشاعت الحركة الأدبية في العهد المريني، ومنها النثر الأدبي عامة، كما نال السجع دوراً في الأوساط الثقافية، وبدأت الحركة الأدبية نشاطها منذ حكم الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني حيث كانت اهتماماته في بناء المدارس والجوامع». <sup>(4)</sup>

كما أخذ الشعر منحى ملحوظ في العهد المريني، حيث آتته تلقى اهتماماً من الذين كانوا يتذوقون الشعر في الحلبات الأدبية التي تعقد في قصور أمراء بني مرين ومثال على ذلك الأمير أبي الحسن المريني الذي كان له موهبة في قول الشعر؛ <sup>(5)</sup> ومن أشعاره:

أَرْضِي اللَّهَ فِي سَيْرٍ وَجَهْرٍ ❁ وَأَحْمِي الْعِرْضَ عَنْ دَنْسٍ أَرْتَابٍ  
وَأَعْطِي الْوَفْرَ مِنْ مَالِي اخْتِيَارًا ❁ وَأَضْرِبْ بِالسُّيُوفِ طَلِي الرِّقَابِ. <sup>(6)</sup>

<sup>(1)</sup> السلاوي، الاستقصا، ج3، مصدر سابق، ص.176.

<sup>(2)</sup> النميري، فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب، مصدر سابق، ص.94.

<sup>(3)</sup> المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مصدر سابق، ص.109.

<sup>(4)</sup> محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مصدر سابق، ص.249.

<sup>(5)</sup> محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، مرجع سابق، ص.321.

<sup>(6)</sup> حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، (د.ط)، دار الرشاد والحديث، الدار البيضاء، سنة 1993، ص.166.



ومن أبرز الشعراء في العصر المريني «محمد بن محمد القشتمالي»<sup>(1)</sup> وكذلك «مالك بن المرحل»<sup>(2)</sup> ويقال عنه أنه شاعرًا رقيقًا سريع البديهة، نافذ الذهن شديد الإدراك»<sup>(3)</sup> كما أوصى أن تكتب على قبره بعض الأبيات منها:

«زُرْ غَرِيْبًا بِمَغْرَبٍ ❁ نَازِحًا مَا لَهُ وَلِي  
تَرْكُوهُ مُوسِرًا ❁ بَيْنَ تَرْبٍ وَجُنْدَلٍ  
وَلْتَقُلْ عَلَى قَبْرِهِ ❁ بِلِسَانِ التَّذَلُّلِ  
رَحِمَ اللَّهُ عَبْدَهُ ❁ مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ»<sup>(4)</sup>.

«لقد شهد العصر المريني دراسة شاملة في العلوم الإسلامية، وقد شجع أمراء بني مرين العلماء والفقهاء على هذه الدراسات التي تختص في دراسة المذهب المالكي الذي كان سائدًا في بلاد المغرب العربي على عهد الدولة المرينية»<sup>(5)</sup>.

«ومن أبرز العلماء المختصين بالفقه نذكر عبد الرحمن الجذامي (- 778هـ/1376م) الذي كان يدرس الفقه والأصول التي كان يتلقاها الطلبة في جلساته العلمية وله من المؤلفات منها اختصار أحكام النظر لابن العطاف؛ وشرح على بيوع ابن جماعة وكذلك شرح على قواعد عياض»<sup>(6)</sup>.

(1) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج6، مصدر سابق، ص108.

(2) الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، ج1، (د.ط)، المطبعة الأحمرية، فاس، سنة 1990، ص187.

(3) المقرئ، نفح الطيب، ج4، مصدر سابق، ص145.

(4) الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب والأندلس الإسلامي في العصر المريني، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، سنة 1987، ص353.

(5) الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص41.

(6) المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، مرجع سابق، ص286.

«كذلك من أبرز العلماء الذين اشتهروا في دراسات علوم القرآن الكريم في العهد المريني هو محمد بن يوسف المزدغي (- 655هـ/1257م) وكان من المحدثين والحافظين للقرآن الكريم، ومحمد بن محمد ابن البقال المتوفى سنة 725هـ/1324م».<sup>(1)</sup>

«كما ظهر على عهد الدولة المرينية التيارات الصوفية النشطة التي جعلت الباحثين أن يعتنوا بها؛ وتعد مدرسة أبي مدين شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي هي إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في المغرب والثانية هي الطريقة الشاذلية نسبة إلى أبي الحسن بن علي الشاذلي الذي ينتسب إلى جده محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب».<sup>(2)</sup>

«ظهر في المجتمع المريني الكثير من العلماء البارعين وبمختلف العلوم، ومن تلك العلوم الرياضيات الذي يعد من العلوم الأساسية في حياة المجتمع المريني والمعتمد عليه في المجال الصناعي والبناء، وقد ظهر في الدولة المرينية عدد من علماء الرياضيات ومنهم أبو زيد اللجائي من علماء الفلك والحساب والهيئة وصاحب مؤلفات فيها».<sup>(3)</sup>

«وبخصوص طريقة التدريس لعلم الرياضيات والمواد العددية، فقد كانت تدون الكتابة أو التمارين الرياضية في ألواح أو الورق، زيادة على ذلك هناك طرق أخرى يستغنى الطالب على استخدامها أدوات الكتابة فيها، وهو الحساب الذهني - أو الحساب الهوائي - الذي يتم فيه كيفية حساب الأموال الكثيرة».<sup>(4)</sup>

(1) السلاوي، الاستقصا، ج2، مصدر سابق، ص101.

(2) ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، مصدر سابق، ص64.

(3) طاش كبرى زاده، عصام الدين أحمد العريفي، مفاتيح السعادة، (د.ط)، مطبعة الاستقلال، القاهرة، د.ت، ص393.

(4) حركات، المغرب عبر التاريخ، مرجع سابق، ص184.

# الفصل الثاني

حاضرة بجاية وتلمسان

## أولاً: حاضرة بجاية:

## المبحث الأول: الحياة الجغرافية والتاريخية:

«لقد نالت مدينة بجاية جانباً كبيراً في كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين والشعراء نظراً لمكانتها كعاصمة علم ومعرفة، ومركز إشعاع ثقافي في بلاد المغرب الأوسط»<sup>(1)</sup>؛ «فبجاية تقع في الشمال الشرقي من المغرب الأوسط بين خطي طول 2° و 45° شرقاً و عرض 36° و 45° شمالاً؛ وقد شيدت المدينة على منحدر جبل قوراية الذي يرتفع عن سطح البحر ب 600م مما يسمح لها بالتحكم في السهل القريب منها حيث يصبّ نهر الصومام؛ وتتمتع المدينة بمنظر طبيعي خلّاب وجوّ معتدل يلطّف هوائها جبالها خاصّة قوراية الذي يحجب عنها الرياح الشمالية»<sup>(2)</sup>؛ مدينة بجاية تمتاز بجوّها ومناخها المعتدل صيفاً؛ حيث تبلغ درجة حرارتها إلى 17 درجة؛ وفي بعض الأحيان تصل درجة حرارتها إلى 30 أو 40 درجة وذلك بسبب جبل قوراية الذي يقف حاجباً أمام المدينة؛ فيصدّ عنها الرياح الشمالية، عكس الجنوبية التي تكون عرضة لضربات الرياح؛ في حين أنّ شتاءها يتضارب بكثرة أمطاره؛ لهذا نجدها منطقة زراعية.<sup>(3)</sup>

«تقع بجاية في المنطقة الشمالية الشرقية من وسط البلاد ويحدها كلّ من ولاية جيجل شرقاً وولاية تيزي وزو والبويرة غرباً وولاية سطيف و برج بوعريّيج جنوباً؛ وهي مفتوحة على البحر الأبيض المتوسط بمسافة طولها 95 كلم؛ تعتبر مدينة بجاية موقعاً بحريّاً حصيناً ومرفأً طبيعياً؛ ترسم حدودها الشمالية المطلّة على البحر الأبيض المتوسط في شكل تقوس شبه إهليلجي»<sup>(4)</sup>.

(1) عزوق عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، ط1، مؤسسة الضحى، الجزائر، سنة 2013، ص25.

(2) إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، د، ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1980، ص183.

(3) ينظر: أحمد الشنتاوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث، ج.3، (د.ط)، وزارة المعارف، (د.ب.ن)، (د.ت)، ص350.

(4) عزوق عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، مرجع سابق، ص35.

«فقد حدّد بطليمون موقع المدينة ب22 درجة طولاً و32 دقيقة عرضاً؛ بينما ضبطها أبو الفدا عماد الدين إسماعيل( - 732هـ/1331م) عند 34 درجة و48 دقيقة عرضي شمالي؛ و50 دقيقة طول شرقي».<sup>(1)</sup>

وتنسب مدينة بجاية إلى قبيلة بكاية وهي فرع من صنهاجة إلا أنّ الكاف فيهم ليست كافاً بل بين "الجيم والكاف"<sup>(2)</sup>، «فلقد تأسست مدينة بجاية في بداية النصف الثاني من القرنين الخامس الهجري سنة 460هـ والحادي عشر الميلادي(1027م)»<sup>(3)</sup>؛ لكن يذكر شمس الدين الأنصاري الدمشقي أنّ سنة التأسيس أو البناء كان في سنة 457هـ وقال عن ذلك: «بجاية مدينة حسنة البناء؛ طيبة الغناء؛ بناها الناصر بن علناس\* سنة سبع وخمسين وأربعمائة وبناحتها جبل الرحمن وهو الجبل الذي تعمّره قبائل كتامة ويتفق ذلك مع رأي إبراهيم الكتيبي الذي يذكر أنّ البناء كان سنة 754هـ؛ إلا أنّ هذا التاريخ لا يمكن الأخذ فيه لأنّ الناصر خلال هذه السنة انهزم أمام بني هلال في معركة سببية ممّا يحول بينه وبناء المدينة؛ أمّا ابن خلدون فيقدّم لنا كعادته نصين يقتصر على واحد الأول يتعلق بالمنصور بن الناصر جاء فيه أنّ المنصور نزل بجاية سنة 483هـ؛ وأوطنها بعساكره وخاصة بعرا من منازل العرب وما كانوا يسومونهم بالقلعة من خطة الخسف وسوء العذاب والغيث في نواحيها وتخطف الناس من حولها لسهولة طرقها على رواحلهم وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية بمكان الأوعار؛ فاتخذ بجاية هذه معقلاً وصيرها دار الملك».<sup>(4)</sup>

(1) إسماعيل العربي، بجاية من خلال النصوص. الغربية، مجلة الأصالة، ع19، مطبعة البعث، قسنطينة، سنة 1974، ص81.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج6، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1992، ص206.

(3) يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دط، دار الهدى، الجزائر، سنة 2009، ص81.

\*الناصر بن علناس بن حماد ت 481هـ /1088م؛ خامس ملوك الدولة الحمادية، دامت فترة حكمه نحو 27 سنة.

(4) مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج3، ط2، دار الحكمة، الجزائر، سنة 2007، ص187.

قال عنها - بجاية - أبو عبد الله محمد العبدوي البلنسي - صاحب الرحلة المغربية - أنه مرّ على بجاية حوالي سنة 688هـ الموافق لـ 1289م؛ قال في وصفها: «ثمّ وصلنا إلى مدينة بجاية؛ مبدأ الإتقان والنهاية وهي مدينة كبيرة، حصينة؛ منيعة؛ شهيرة؛ برية؛ بحرية؛ وثيقة البنيان؛ عجيبة الإتقان؛ رفيعة المباني؛ غريبة المعاني؛ موضوعة في أسفل سفح جبل وعراً»<sup>(1)</sup>

«فقد مرت مدينة بجاية عبر التاريخ بعدّة مراحل كانت لكلّ منها خصوصيتها في تشكيل المدينة ودورها»<sup>(2)</sup>؛ «كما أنّ أغلب المؤرخين القدماء والمحدثين يربطون قرار السلطان الناصر لبناء بجاية بمعركة سببية التي وقعت بينه وبين الهلاليين والتي انهزم فيها الناصر واستولى الهلاليين على ضواحي القلعة»<sup>(3)</sup>.

فقد عرفت بجاية بعدّة أسماء تُعدّد منها: بغايث؛ صلدة؛ صالداي؛ قورايا؛ الناصرية؛ بوجي؛ لكن كلّ هذه الأسماء اندثرت ولم تبق متداولة بين الناس بل بقي اسم بجاية متعارف إلى غاية حقبتنا هذه.<sup>(4)</sup> وقد أطلق عليها الفينيقيون\* اسم صلدة (SALDA) ثم إلى صالداي (SALDAE) عندما كانت تحت حكم الرومان سنة 104 ق.م؛ وقد لعبت المدينة عبر مينائها الصغير دوراً اقتصادياً مهماً إلى أن أخرجها الوندال سنة 430م؛ وعرفت في عهدهم باسم غور (GOUR)؛ أي الموقع الصخري أو الجبل الصخري؛ ثمّ احتلوا هذه المدينة البيزنطيون سنة 533 م عندما استولوا

<sup>(1)</sup>المهدي البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير علماء زواوة (القبائل الصغرى والكبرى)، مجلة الأصالة، ع14-15، عضو المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، د.ت، ص266.

<sup>(2)</sup>بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، (د.ط)، دار المعرفة، د.ب، سنة 2010، ص108.

<sup>(3)</sup>زهير إحدادن، دحلب، شخصيات ومواقف تاريخية، (د.ط)، دن، الجزائر، سنة 2012، ص56.

<sup>(4)</sup>أحمد الشتاوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سابق، ص351.

\*الفينيقيون: ينتسبون إلى الفرع الكنعاني السامي الذين أقاموا حضارتهم في فلسطين ولبنان وجزء من سوريا ولم يكن يذكر اسم الفينيقيين قبل الربع الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد.

على شمال إفريقيا.<sup>(1)</sup> كما هي حسب المؤرخ ابن خلدون - التسمية - تعود لقبيلة بربرية كانت تقطن ذلك المكان؛ وكذلك يعرف باسم بجاية في اللغة العربية» و«فقايت» بالبربرية، كما يعتقد أن اسمها يعود إلى القبيلة الصنهاجية التي سكنت تلك الضاحية، والتي ترجع اسمها في اللغة العربية إلى كلمة «بقايا».<sup>(2)</sup>

يستفاد من كل هذا أن تلك الأسماء كانت متداولة في تلك الحقبة إلى غاية ضبط الاسم الأخير من طرفي أبو الفداء وياقوت الحموي، فبجاية بكسر الياء وتخفيف الجيم ألف، ياء مثناة وهاء.<sup>(3)</sup>

يوضح لنا ابن الأثير وياقوت الحموي أن السبب في تأسيس بجاية متعلق بقصة الصلح بين الناصر الحمادي وتميم بن المعز بعد موقعة سبيبة؛ وكذلك بقصة الخيانة التي نجحت عن ابن الببع رسول تميم وذلك بسبب تأمره مع الناصر؛ حيث أن الناصر بن علناس عضّ يديه من شدة الندم على ما جرى بسبب تورطه في حرب دامية ضد بني عمومته؛ فنجّم عن بعد كل هذا إلى الصلح والتشاور مع وزيره أبا بكر بن أبي الفتوح في هذه المسألة؛ فأرسل رسول إلى تميم ليطلب الصلح؛ فأجاب بالموافقة فأرسل أحد رجاله الملقب بمحمد بن الببع إلى ابن عمه الناصر بن علناس؛ كما وعده المساعدة في امتلاك بلاد تميم واقترح عليه بناء بجاية؛<sup>(4)</sup> كما يرجع البعض التأسيس إلى تلك المخاوف من غزوات الهلالين.<sup>(5)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط. ما بين القرنين (6هـ - 9هـ / 12م - 15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري؛ (د. ط)، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، سنة 2011، ص 131.

<sup>(2)</sup> عزوف عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، مرجع سابق، ص 36، ص 37.

<sup>(3)</sup> ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1، (د. ط)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، د. ت، ص 270.

<sup>(4)</sup> مريم هاشمي، العلاقة الثقافية بين مدينتي تلمسان وبجاية خلال القرن 7-9هـ / 13-15 م، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، سنة 2010-2011، ص 28.

<sup>(5)</sup> ينظر: رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1981، ص 146.

«آلت بجاية إلى الحكم الموحد والحكم الحفصي ما بين القرنين 6-7/12-13م عرفت خلالها تغيراً سياسياً واقتصادياً سرعان ما تقلصت بعد انقضاء القرن السابع الهجري، فشهدت ضعفاً وانقساماً في نظام الحكم واستقلالها عن الحكم المركزي»<sup>(1)</sup> ففي القرن السابع للهجرة عرفت الدولة الحمّدية بالقلعة قبل أن تصبح بجاية تدميراً من طرف الهلاليين؛ لهذا اشتدّ الخناق عليها اقتصادياً فآل زعيمها الناصر بن علناس إلى اللجوء على مكان ليبي عليه موقعه فسلط أنظاره على جبل بجاية.<sup>(2)</sup>

«تعتبر مرحلة بلكين بن حماد من أهم المراحل التاريخية في تاريخ هذه الدولة حيث تعتبر من أكبر ملوكها قوة وقد اشتغل ظروف الدولة الزيرية\* التي كانت في حرب مع الهلاليين ممّا سمح لبلكين من توجيه كلّ قوته ضدّ القبائل الزناتية الذين كانوا يواجهونهم الآخرون القوة المرابطية»<sup>(3)</sup> فيقول ابن خلدون عن غزو بلكين: «كان كثير ما يردد الغزو للمغرب الأقصى وبلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة فنهض إليهم....»<sup>(4)</sup>

(1) أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، سنة 1428-1429 / 2007-2008، ص 06.

(2) ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض للتأليف، د.ب، سنة 1980، ص 328.

(3) حساني مختار، الحواضر والأمصاير الإسلامية الجزائرية، ج1، د، ط، دار الهدى، الجزائر، سنة 2011، ص 146.

\* واقعة سببية جمعت متنافسين أربعة منهم: الزيرون، بنو هلال، قبائل زناتة والحماديون.

(4) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ص 353.



«فلما فرض المرابطون هيمنتهم على مدينة بجاية لم تمت نفوذها إلى أملاك الدولة الحمادية، فالبعض يرى أن السبب في ذلك يرجع إلى العلاقة الوطيدة التي تربطها بالعصبية القبلية؛ لأنّ كلاً من الدولتين تنتسبان إلى قبيلة صنهاجة الأولى من تلكانة والثانية من لتونة ومسوفة عكس الدولة الموحدية فهم ينتسبون إلى المصامدة وكومية\* وهنتاتة»<sup>(1)</sup>

بعد فترة الرخاء والازدهار التي شهدتها مدينة بجاية مع منتصف القرن السادس الهجري؛ وبعد سقوط دولة بني حماد ألحقت بجاية مباشرة بالدولة الموحدية؛ وهذا بعد ما قام عبد المؤمن بتأمين الجهة الغربية، إتجه مباشرة إلى الشرق نحو عشرين ألف فارس فاحتل نواحي الونشريس سنة 547هـ/1152م؛ ثم واصل فتوحاته حتى واصل الجزائر صلحاً فخرج منها القائد إلى أخيه ملك بجاية».<sup>(2)</sup>

(1) مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مرجع سابق، ص193.

\*كومية: كانوا قديماً يعرفون بصطفورة أو صفورة وهم ثلاثة بطون منهم: ندرومة وصفارة وكانت مواطنهم الأصلية جبال ترارة الواقعة على سيف البحر غربي تلمسان وهم قبيل عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين.

(2) ينظر: رشيد بورويبة، الجزائر في عهد الحماديين، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، تعريب محمد بلغراد، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984، ص204.

## المبحث الثاني: الحياة السياسية:

«مرّت مدينة بجاية عبر التاريخ بعدّة مراحل كانت لكلّ منها خصوصيتها في تشكيل المدينة ودورها؛ الحماديون كانت بجاية ملاذاً آمناً لهم من هجمات عرب بني هلال ومتنفساً وجدوا فيه الوقت للعمران والإبداع فيه؛ فاتخذوها عاصمة لدولتهم؛ وكما أنّ لبجاية خصوصية هامة تتمثل في كونها نقطة عبور إجبارية بين الشرق الإسلامي وبين بلاد المغرب والأندلس»؛<sup>(1)</sup> الفينيقيون هم الأوائل الذين أسسوا مدينة بجاية؛ وكانت آنذاك تحمل اسم صلدة؛ ثمّ تحولت إلى اسم صالداي عند الرومان سنة 104 ق.م فمؤسسها جوليان أدغست هو الذي أطلق عليها هذا الاسم؛ ثمّ جاء من بعد ذلك الوندال الذين أطلقوا عليها اسم غور؛ وبعد انقراضهم آلت إلى الاحتلال البيزنطي الذي عمل على نشر الدين المسيحي، ولكن بعد دخول العرب الفاتحين إلى بلاد المغرب دخلت مدينة بجاية إلى الراية الإسلامية.<sup>(2)</sup>

فهذا الرحالة الشريف الإدريسي عندما زار مدينة بجاية في القرن السادس للهجرة كوّن انطباعاً جيّداً عنها فقال: «ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط\* وعين بني حمّاد والسفن إليها مقلعة والقوافل فيها منحطة؛ والأمتعة إليها برّاً وبحراً مجلوبة والبضائع فيها نافعة؛ وأهلها مياسير تجار، وفيها من الصناعات ما ليس بكثير من البلدان وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء؛ وتجار الشرق وفيها تباع البضائع بالأموال؛ وإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن».<sup>(3)</sup>

(1) بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، مرجع سابق، ص.108.

(2) ينظر: أحمد الشنتاوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سابق، ص.350.

\*قال أبو الفداء (732هـ - 1332م) عن بجاية أنّها: "قاعدة المغرب الأوسط".

(3) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، سنة 1989، ص.260.

بعدما اشتد الصراع بين المرابطين والموحدين؛ طلب تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين يد المساعدة والمدد من أبناء عمومته الحماديين؛ وبالفعل وصلته إمدادات الأمير الحمادي يحيى بن العزيز لكنّ الجيش الموحيدي ألحق بالجيش الصنهاجي هزيمة بموقع تلمسان؛ كما واصلوا زحفهم نحو وهران؛ ففتحوها وأنشؤا أمر المرابطين نهائياً سنة 540هـ/1146م. وبعدها توجهت أنظار عبد المؤمن بن علي\* إلى الشرق بالضبط إلى بجاية<sup>(1)</sup> بعدما أن تمّ عبد المؤمن بن علي الفتح دخل على بجاية وفتحها سنة 547هـ/1065م قابله إحدى القبائل بالرفض والعصيان والمواجهة كانت تدعى قبيلة زواوة وقيل أنّها تصحيف للاسم البربري قواوا أو زواوا نسبة لأحد أبناء يحيى بن تمزيت بن ضريس، ويدعى زواوا ومنه أخذت هذا الاسم<sup>(2)</sup> فعندما ثارت عليه هذه القبيلة؛ وامتنعت الدخول في طاعته كما أنّها رفضت تقديم الضرائب؛ فشنت عليها غارات متعددة على موقعها العسكري في بجاية<sup>(3)</sup>.

لما اختطها الناصر بن علناس\* أقام بها العمران وزاد في تقنيها بأبهى الحلل الهندسية المعمارية الجالبة للاستقطاب؛ كما كان موقف عبد المؤمن من البجائيين أنّه أحسن إليهم؛ حيث روى ابن عذارى عن إحدى الشخصيات التي شاركت في الحملة الحربية على بجاية<sup>(4)</sup> وهو

(1) أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع، مرجع سابق، ص12.

\*عبد المؤمن بن علي الكومي خليفة ابن تومرت مؤسس حركة الموحدين في القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي وهو أحد الرجال العظام في تاريخ المغرب، تمكّن من توحيد من طرابلس إلى البحر المحيط؛ وأوقف زحف المسيحيين في الأندلس؛ ولد عبد المؤمن بن علي بقرية تاغرة قرب مدينة ندرومة في قبيلة كومية.

(2) ينظر: مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق محمد بعلي، (د.ط)، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، إسبانيا، سنة 1996، ص215.

(3) مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، مرجع سابق، ص88.

\*في عهد الناصر بن علناس — بجاية — قام بإحاطة المدينة بسور؛ وشيّد قصر اللؤلؤة ومباني ضخمة وسّماها الناصرية؛ وتألقت سمعتها في عهد الحماديين؛ وعرفت عمراناً لا مثيل له؛ وفي عهد المنصور أتمّ بناء قصر اللؤلؤة الذي يعدّ من أعجب قصور الدنيا؛ كما بنى قصر النجمة وقصر أميمون وبنى المسجد الجامع؛ وفي عهد المنصور عرفت بجاية الاستقرار والرفاهية.

(4) ينظر: زهير إحدادن، شخصيات ومواقف تاريخية، مرجع سابق، ص81.

الملقب أبو الحسن بن أحمد الذي قال: « حضرت معه في غزوة بجاية فلمّا وصل إليها نظر إلى قرية كثيرة الدور فأمر بوقف العسكر وحثّ السير على فرسه حتى وصل القرية فوقف عند إحدى الأبواب وسأل عن أهل الدار؛ ثم عاد إلى المعسكر فلمّا نزلت المحلات؛ ونزل في مضاربة أمر بإحضار أهل الدار المذكورة فسألهم عن أبيهم فقالوا له: «توفي وترك أربعة أولاد فأحسن إليهم بإقطاعهم أراضي واسعة كما أعطى لكل واحدٍ منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر وأربعة آلاف دينار.»<sup>(1)</sup>

«فلما حكم الموحدون بجاية درجوا مسالك الحماديين في الاستعانة بالقبائل الهلالية لما أدركوا منذ البداية القيمة القتالية لهؤلاء؛ فحرصوا على توجيهها بما يخدم مصالحهم سواء في حروبهم التوسعية داخل المغرب أو في حركة الجهاد بالأندلس؛ فاستكثروا من فرسانهم وخاصة لكي يضمن عبد المؤمن ولائهم أكثر»<sup>(2)</sup>

فعندما تغلب عبد المؤمن الموحد على بجاية وقلعة بني حماد وجعلهم تحت إمرته؛ جعل لكل ولاية ملك يترأسها ويحميها؛ فمثلا استعمل على إحداها ابنه عبد الله.<sup>(3)</sup>

«تولى حكم بجاية مجموعة من الولاة، الموحدون منهم: عبد الله بن عبد المؤمن بن علي، الذي كان مدمناً على شرب الخمر؛ كما عرف باختلال الرأي وكثرة البطش وحبه لنفسه».<sup>(4)</sup>

عرف عن ابن عبد المؤمن بأن أخلاقه كانت رديئة؛ فأبعده أبوه عن الخلافة من بعده وكفله فقط على رئاسة بجاية؛ لكن بعد ممات الخليفة عبد المؤمن بن علي سنة 558هـ/1163م؛ عقبه يوسف بن عبد المؤمن بن علي الذي واجه صداً في وجهه من قبل أخويه عبد الله ملك بجاية ومحمد ملك قرطبة؛ لكن الخليفة لم ييالي بهما؛ فقام بتقسيم الأموال والعطايا والصدقات إلى

(1) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، مرجع سابق، ص 196.

(2) مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، مرجع سابق، ص 99.

(3) ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق محمد سعيد

العيان، (د.ط)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، سنة 1963، ص 281.

(4) المصدر نفسه، ص 179.

القبائل الموحدية؛ فمن خلال هذه المبادرة التي قام بها يوسف بن عبد المؤمن سارعاً أخويه للانضمام إلى صفه وتوحدت الدولة الموحدية بعد مبايعة صاحب الحق.<sup>(1)</sup>

«بعد وفاة عبد الله بن عبد المؤمن بن علي سنة 561هـ/1166م؛ وبعد مشاورة الخليفة أخيه أبا حفص في ولاية بجاية وأعمالها تم اختيار أخيهما أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن والياً عليها بعد وفاة أخيه عبد الله؛ وقبل توجهه إلى بجاية أوصاه أمير المؤمنين الخليفة يوسف على رعاية شؤون وأحوال رعيته؛ ولقد بقي أبو زكريا والياً على بجاية حتى وفاته سنة 571هـ/1176م بمرض الطاعون».<sup>(2)</sup>

تعد حركة بني غانية\* من البذور الأولى التي بسطت تأثيرها على الدولة الموحدية؛ فبعض الأسر البجائية وقفت في وجه الموحدين لأنهم رفضوا وجود المصامدة بوطنهم؛ فراسلوا بنو غانية للوقوف معهم ضد الموحدين فلبّ الطرف الأول بصدر رحب هذه الاستغاثة وجهزوا عدّتهم وعتادهم.<sup>(3)</sup>

قال ابن الأثير في هذا الصدد: «مائي فارس من المثلثين، وأربعة آلاف رجل».<sup>(4)</sup> وبهذا أصبحت مدينة بجاية ضمن احتلال بني غانية، وقد ولي عليها يحيى بن غانية بينما استعمل على الجزائر يحيى ابن أخيه طلحة وعلى مليانة بدر بن عائشة، كما استولوا على قلعة بني

(1) ينظر: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، مرجع سابق، ص103.

(2) أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، مرجع سابق، ص19.

\* بنو غانية من أعيان المثلثين المرابطين، امتلكوا جزيرة ميورقة إحدى جزر البليار؛ أو الجزائر الشرقية، وجزيرة ميورقة وباسة؛ وأول ملوك جزر البليار إسحاق بن محمد بن غانية، وبعد وفاته خلفه ابنه علي بن إسحاق بن محمد بن غانية حتى سنة 600هـ، الذي هاجم قواعد الموحدين منطلقاً من جزيرة ميورقة، هذه الجزيرة التي طولها 60 كلم؛ من أخصب البلاد؛ بها حصون؛ وأول من فتحها عبد الله بن موسى بن نصير؛ الذي فتح أبوه جزيرة الأندلس، وميورقة؛ كانت حصناً منيعاً لبني غانية لمواجهة الموحدين.

(3) ينظر: محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984، ص62.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، (د.ط)، دار الكتاب العربي، الجزائر، سنة 1967، ص108.

\* يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يكنى أبا يوسف، ولد سنة 454هـ/1061م؛ عقدوا له البيعة اثر وفاة والده سنة 580هـ/1184م؛ كانت مدّة ولايته ستة عشر سنة وثمانية أشهر.

حمّاد ثمّ اتّجه علي بن غانية إلى قسنطينة فحاصرها لكن امتنعت عنه؛ كما عزم الخليفة الموحي يعقوب المنصور\* على محاربة بني غانية حيث جهّز حملة ضدهم وأسندت قيادة الأسطول إلى محمد بن إسحاق بن جامع بينما قيادة الجيوش لابن عمّه السيد أبي زيد بن عمر بن عبد المؤمن؛ ووصل الأسطول الموحي إلى بجاية واستولى عليها سنة 581هـ/1185م وأسر القائد ابن غانية<sup>(1)</sup>.

«بسقوط دولة الموحدين ألحقت بجاية بالدولة الحفصية؛ فبعد أن وطد أبو زكرياء يحيى الأول، دعائم دولته بتونس، أخذ يعمل على توسيع نفوذه وتثبيت سلطانه على مختلف مناطق افريقية»<sup>(2)</sup>؛ «وفي سنة 626هـ/1226م؛ اتجه إلى قسنطينة التي حاصرها حتى تمكّن من الاستيلاء عليها صلحاً»<sup>(3)</sup>.

«حاولت الدولة الحفصية بعد قيامها أن تعيد مجد الدولة الموحدية بمحاولة السيطرة على المناطق التي كانت خاضعة لها؛ وفي هذا الإطار تحرك أول سلاطينها أبو زكرياء نحو الغرب فاستولى على قسنطينة ثمّ بجاية، عمد سلاطين هذه الدولة الحفصية على أن يتولى بجاية وقسنطينة أبناؤهما ودشن هذه السياسة أبو زكرياء الذي عيّن ابنه الأمير أبو يحيى والياً على بجاية سنة 638هـ/1240م ثمّ ولاه قبل وفاته ولاية العهد وخطب له على جميع منابر إفريقيا؛ أمّا السلطان المستنصر فقد تحرك من تونس إلى بجاية حيث دخلها وشاهد المعالم التي أقامها أخيه أبو زكرياء عندما كان والياً لها»<sup>(4)</sup>.

يقدم لنا العبدري وصفاً رائعاً ومفصلاً للمدينة — بجاية — في العهد الحفصي حيث قال: «وهي كبيرة؛ حصينة؛ منيعة؛ شهيرة؛ برية وبحرية؛ سنية سرية وثيقة البنيان.... رفيعة المباني؛

(1) عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، مصدر سابق، ص227.

(2) ينظر: ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، (د.ط)، دار المسيرة، لبنان، د.ت، ص155.

(3) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، سنة 1966، ص25.

(4) مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مرجع سابق، ص159.

غربية المعاني؛ موضوعة في أسفل جبل وعرة؛ مقطوعة بنهر وبحر؛ مشرفة عليها إشراف الطبيعة؛ فلا مطمع فيها لمحارب؛ ولا متسع فيها لطاعن وضارب؛ ولها جامع عجيب»<sup>(1)</sup>.

«في عهد خلافة المستنصر تولى ببجاية أخوه إدريس بن عبد الملك فأساء إلى سكانها وهو ما جعل ابن قنفذ يعلق على هذا العمل بقوله: «فاقتنى بها مالا وأذل رجالاً وأساء العشيرة مع أهلها»؛ ومن بين الذين مستهم هذه السياسة بعض شيوخ هتانة قبيلة بني حفص وهم من أعيان المدينة؛ كما كانت بجاية منطلقاً لبعض الأمراء الحفصيين الذين كانوا يرغبون في تولي شؤون الدولة؛ ومن بين هؤلاء أبو إسحاق الذي تحول من بجاية نحو تونس للسيطرة عليها وعندما اقترب منها اتصل به سلطانها وبايعه بالخلافة سنة 678هـ/1279م»<sup>(2)</sup>؛ «وعندما تولى الحكم عين ابنه الأمير أبو فارس على بجاية كما أمر سنة 679هـ/1277م بقتل أبي هلال عباد الهنتاني القائم ببيعة بجاية على عاملها ابن أبي مروان مع جماعة من جند بجاية وأهلها فتوجهت إليه جماعة تمكنت من قتله ليلاً»<sup>(3)</sup>.

لقد كان أمراء الدولة البجاوية يتدخلون ويحشرون أنفسهم فيما لا يخصهم؛ خاصة في شؤون قسنطينة وعلى الخصوص عندما يقوم والي قسنطينة بعارضة ورفض السلطة المركزية. واللجوء إلى الانفصال مثلما حدث عندما تولى أبو بكر ابن الوزير قسنطينة فواجه وحاربه والي بجاية أبا فارس؛ وفي سنة 680هـ/1288م توجه أبو إسحاق إلى بجاية فقابله ولده المدعو أبو فارس فقام بخلع الأمير أبو إسحاق نفسه وقام بمبايعة ابنه سنة 681هـ/1289م وتقلد اسم المعتمد ودامت مدة حكمه لبجاية وما جاورها ثلاثة أشهر ونصف»<sup>(4)</sup>.

(1) محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، (د.ط)، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، د.ت، ص23، ص24.

(2) مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مرجع سابق، ص200، ص201.

(3) صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، (د.ط)، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، سنة 2006، ص56.

(4) ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج6، ص389.

من بين الأمراء الذين كان حكمهم رحمةً للعشيرة هو الأمير أبو زكرياء؛ حيث من بين سماته أنه جمع بين إمارة بجاية وإمارة قسنطينة؛ فأحسن إليهم بحسن تديره وتعففه التريه؛ وبعده عن جميع المنكرات، فقد دامت ولايته لهما سنة 684هـ/1285م؛ وكانت وفاته يوم 27 رمضان من عام 700هـ/1300م، ثم جاء من بعده الذي ولي بجاية خالد بن الأمير زكرياء، وقد عظم شأنه وكان محبوباً لدى الناس — مدينة بجاية وقسنطينة — بحكم عدله الذي اتصف به.<sup>(1)</sup>

وفي سنة 686هـ/1288م واجهت بجاية أخطار خارجية بعدما أنهت صراعها مع الأخطار الداخلية، فقد تمثلت هذه المشاكل الخارجية في الحملات العسكرية التي شنتها عدّة دول عليها من بين هذه الدول المجاورة المملكة الزيانية فقد كانت لها حدود معها؛ وقد وصى السلطان يغمراسن بن زيان أبنائه وأحفاده بالتوسع على حساب الدولة الحفصية<sup>(2)</sup> كما شهدت بجاية في عهد السلطان أبو حمو موسى الأول حصاراً طويلاً، وكذلك في عهد ابنه أبو تاشفين، لكن بقاء خططهم بالفشل، فقاموا ببناء عدّة حصون، كما تمكّن المرينيون من الجهة الأخرى احتلال مدينة بجاية سنة 748هـ/1347م.<sup>(3)</sup>

ففي القرن 5هـ/11م كان نظام الحكم السائد في الدولة الحمادية وراثي متنقل من أب لأبنائه — حماد بن بلكين — لكنّ في القرن 6هـ/12م تغيّر الوضع السياسي خلال العهد الموحيدي فقد أصبح نظام الحكم ولاية؛ فمثلاً بجاية تعدد عليها أكثر من والٍ من أشياخ الموحدين فهذا الوالي أبو الحسن علي بن عمر ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن ولي بجاية فترة من الزمن لكنّه عزل بسبب إهماله وكذلك كثرة شهواته.<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مرجع سابق، ص. 202.

(2) ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص. 395.

(3) ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بن زيان ملوك تلمسان "مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان" حققه وعلّق عليه محمود آغا بوعيداد، (د.ط)، موقم للنشر، الجزائر، سنة 2011، ص. 184.

(4) ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، ج3، ط1، دار الفكر للطباعة، بيروت، سنة 1998، ص. 370.



فهذه خلفيتها في الحكم الدولة الحفصية فقد حافظت على نظامها الحكمي السائد فاستعملوا نظام المشايخ وكان أنبل وأشهم الشيوخ يترأسون مجلس الشورى؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر الأمير أبي زكرياء وجد في عهدهم ثلاثة وزراء هم: وزير المال ووزير الجند وآخرهم الوزير المكلف بالكتابات السياسية ورجال الأمن.<sup>(1)</sup> وفي ظل الحكم الحفصي تمكّن أمراؤها عدّة مرات من التحرر من سلطان تونس، وجعلوا من بجاية عاصمة لولاية مستقلة؛ وتمكنوا من صدّ هجمات بني عبد الواد والمرينيين.<sup>(2)</sup> فقد دامت مدّة حكم المرينيين لبجاية من 748هـ/1347م إلى غاية 761هـ/1360م.<sup>(3)</sup>

وصفوة القول أنّ مدينة بجاية خلال الحياة السياسية عرفت تشنجات عدّة سواء كانت داخلية؛ فعرفت عدّة انقسامات بسبب كثرة الولاة عليها؛ أمّا الخارجية فهي كانت كالكلاب الضالّة أحياناّ مسالمة وتارّة أخرى مضرمة النّار؛ فكانت غارات بني هلال وهجمات بني مرين وبني عبد الواد؛ فصدّت هجومها المتكرر؛ فاغتنتمت في الأخير وفازت بجميع ممتلكاتها.

(1) ينظر: عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ط1، مكتبة البعث للنشر، قسنطينة، سنة 1965، ص96.

(2) عزوق عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، مرجع سابق، ص41.

(3) ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو هو موسى الزياني، حياته وآثاره، د، ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1980،

## المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية:

«شكلت مدينة بجاية ما بين القرنين (6-7-8هـ/12-13-14م) منطقة استقطاب لمعظم تجار قبائل زواوة؛ واعتبرت باديتها خزان اقتصادي تُموّن أسواق المدينة بمختلف المنتجات الزراعية والصناعية»<sup>(1)</sup>؛ فقد عرفت بجاية في العهد الحمادي دار صناعة السفن من كلّ الأنواع<sup>(2)</sup>؛ «فقد أنشأ الأمير الحمادي الناصر بن علناس داراً لصناعة الأساطيل الحربية والتجارية وكان اهتمامه أكثر بالسفن التجارية التي جهّزها وخصّها بصناعة عالية الجودة؛ إذ زودّها بمراكب صغيرة»<sup>(3)</sup>؛ «فقد عرفت بجاية ازدهار الأسطول البحري في دار الصناعة على حسب تعبير الإدريسي، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحراي...»<sup>(4)</sup>.

ارتبطت مدينة بجاية في معاملاتها التجارية بعدد هائل من المدن المشرقية والمغربية على السواء؛ وذلك عبر مسالك بحرية وبرية نذكر منها: الخط الشرقي؛ ويشمل هذا الخط خطان تجاريان: - فالأول ساحلي: يربطها بالإسكندرية، بجاية، جيجل، القل، تونس، سوسة، المهدية، صفاقس، قابس، طرابلس.

- الثاني داخلي: بجاية، سطيف، قسنطينة، الأريس والقصرين، فعند هذه النقطة يتفرع إلى طريقين: الطريق الأول باتجاه القيروان ومنه إلى المهدية على الساحل، أمّا الطريق الثاني باتجاه الجنوب نحو قفصة إلى غدامس باتجاه الصحراء الجنوبية.<sup>(5)</sup>

(1) مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، مرجع سابق، ص145.

(2) عزوق عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، مرجع سابق، ص40.

(3) أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، مرجع سابق، ص42.

(4) صالح يوسف بن قرية، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في العصر الإسلامي (دراسة تاريخية وأثرية)، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، سنة 2009، ص243.

(5) ينظر: مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، مرجع سابق، ص146.

فقد تفنن أسطول بجاية تفنناً كبيراً في مقاومة الداخلين عليها؛ فقد صدّت الحملات الفرنجية وكذلك قضوا على القراصنة المسيحية فهذا على حدّ تعبير الغريبي: «أنّ بجاية كانت بلدة غزاة وكان قطاعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها».<sup>(1)</sup>

«فقد منح الأمن الذي توفر للمجتمع الحمادي فرصة لازدهار الزراعة وبعض ألوان الصناعة؛ وكان للعلاقات التجاري مع المشرق أثرها في إدخال بعض النباتات الشرقية كالقطن وقصب السكر والزعفران؛ ولم تكن التجارة مع الأندلس أقلّ من التجارة مع المشرق؛ فقد كانت المدن الساحلية الجزائرية زاخرة بمجموعة من التجار الأندلسيين؛ وبخاصة تجار مدينتي بونة وتنس».<sup>(2)</sup>

فقد تركزت مدينة بجاية بموقعها الاستراتيجي أهمية اقتصادية وتجارية سواء كان براً أو بحراً، فمثلاً عن طريق البحر كانت تستورد الفواكه والعنب من ميناء جيجل؛ كما كانت تقوم بالتبادل — السلع — مع السفن القادمة من سوريا وأوروبا وحتى الإسكندرية. بمصر واليمن والهند والصين؛ أمّا عن طريق البر فكانت ملتقى القوافل التجارية نحو المغرب والصحراء؛ كما كانت بجاية قاعدة بحرية للفتوحات تجاه بلاد الروم<sup>(3)</sup>. فقد كانت مدينة بجاية تتسم بميزتين أولهما ميزة من حيث الموقع؛ وثانيهما من حيث تحول النشاط الاقتصادي في اتجاه الطرق البحرية؛ كما كان للمدينة مجموعة من الأبواب حسب تعبير الرحالة العبدري أنّها كانت حصينة.<sup>(4)</sup>

(1) أبو العباس أحمد بن أحمد الغريبي، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة الساعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1981، ص.76.

(2) عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1991، ص.227.

(3) ينظر: عزوق عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، مرجع سابق، ص.40، ص.41.

(4) ينظر: عزوق عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، مرجع سابق، ص.40، ص.41.

«تنوعت المحاصيل الزراعية ببجاية وهذا راجع إلى الاهتمام الكبير لسكانها بهذا النشاط الحيوي؛ الذي وفر له كل من الموحدون والحفصيون كل الطاقات لإنعاشه؛ فلقد استفاد سكان بجاية خلال هذين العهدين بنظام الإقطاع؛ مقابل خدمة قدمت للدولة، فالخليفة عبد المؤمن بن علي أعطى لفاتية ببجاية أرضاً واسعة؛ وبذلك توسع الاهتمام أكثر بهذا الميدان».<sup>(1)</sup>

فقد كانت الحبوب وافرة حيث قال في هذا الصدد الإدريسي: « وفلاحتها إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع» وكما أنه زاد على ذلك توفر الحنطة فقال: « تحتزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير».<sup>(2)</sup> وقد احتلت ببجاية مكانة مرموقة لأكثر من نصف عمر الدولة، فقد بها جل الخيرات من الحبوب لكثرة مزارعها، وكذلك الحنطة والشعير.<sup>(3)</sup>

لقد لخص القلقشندي النباتات والمحاصيل الموجودة في مملكة بجاية فقال: « الحبوب والقمح والشعير والفلول والعدس والحمص والذرة والبسلا؛ ومن الفواكه العنب والتين والرمال والسفرجل والتفاح والكمثري والعنب والزعرور والخوخ والمشمش والتوت والقراصيا والزيتون والأترج والليمون والنانرج واللوييا واللفت والباذنجان ومن الزهور الرياحين والياسمين والترجس».<sup>(4)</sup>

(1) أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، مرجع سابق، ص. 43.

(2) الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحرواية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختلاص الآفاق، وقد اعتنى بتصميمه هنري بيريس، (د.ط)، د.ن، الجزائر، سنة 1957، ص. 64.

(3) ينظر: عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، مرجع سابق، ص. 222.

(4) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، الشركة العربية للطباعة، د.ب، سنة 1959،

«كان يجلب إلى بجاية أصناف من النباتات لكي تغطي حاجيات سكانها؛ فمثلا القطن كان يصنع منه الشواشي التي كانت بجاية تنفرد بصنعه دون غيرها من المدن؛ أمّا الحرير والكتان فصنعت منه الألبسة المفتوحة للرجال؛ هذا النوع من الزيّ كانت منتشرة في المجتمع البجائي»<sup>(1)</sup>؛ وقد تعددت أنواع النباتات ببجاية تتعدد منها: عافر فرحاً - الكافورية أو حشيشة الحمى، وكانت هذه توجد بناحية سوق حمزة، كما وجدت نباتات تنبت بجبل أمسيون ببجاية وقد ذكرها الإدريسي على النحو الآتي: فتوجد نبتة القنطورين الكبير والأفستين والحضض والسقولوفندورنيون والزراوند والبرباريس والفسطون؛ كما وجدت نبتة تنبت في إحدى نواحي قلعة بني حماد مفيدة من لسعات العقارب وأيضاً لكي تحصنهم منها وقيل أن اسم هذه النبتة هي القوليون الحرائي<sup>(2)</sup>؛ كما اهتمت بجاية بزراعة الزيتون؛ فكثرت محاصيلها وتنوعت من تين وحنطة وشعير، كما أنّها كانت تجلب إليها عن طريق مدينة جيحل العنب والتمور والسفرجل من تنس وتاهرت، واللوز والتفاح من نقاوس؛ كما كان لديها أو يأتيها من قرية بني وازلفت قرب تنس\* الكمون والحناء.<sup>(3)</sup>

فقد وجد في ناحيتي بونة وبجاية مجموعة من الأشجار تسمى الصنوبر يُستخرج منه الزيت والقطران؛ كما كان هناك غابات بمدينة زانة؛ وقد عثر على شجر الزان المجلوب من مدينة إفريقية.

اعتنى الفلاحون البجائيون بتربية الحيوانات فكان لديهم البقر والغنم والخيل والبغال والإبل والنحل؛ فقد وجد تربية البقر بضواحي مدينة جيحل والجزائر وبونة والمسيلة وطبنة وتاهرت والغنم بالجزائر والمسيلة وطبنة وتاهرت والخيل بالمسيلة وطبنة وتاهرت؛<sup>(4)</sup> أمّا تربية النحل

(1) أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، مرجع سابق، ص.44.

(2) ينظر: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، مرجع سابق، ص.133.

(3) ينظر: الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مصدر سابق، ص.260.

\*تنس مدينة ساحلية جميلة تقع غرب الجزائر، أسس هذه المدينة الكنعانيون.

(4) ينظر: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارته، مرجع سابق، ص.134.

فكانت منتشرة انتشاراً واسعاً بسبب تواجده في الجبال والأودية المحيطة ببجاية، فلقد جلبت هذه المهنة عدّة فوائد كإنتاج العسل وبالتالي توفر شمعته الذي انتشر بأسواق بجاية ولقد تعلّم الأوروبيون صناعة الشمع ونقلوها إلى بلادهم».<sup>(1)</sup>

كانت صيادة السمك موجودة ومتوفرة على الساحل الحمادي؛ لكنّها كانت قليلة ولم يشهد لها نشاط وافر بقدر نشاط الفلاحة والصناعة؛ كما وجد صيادة المرجان<sup>(2)</sup>؛ فهذا الإدريسي يوضح لنا هذا فقال: « وهو أجمل جميع المرجان الموجود بسائر الأقطار مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة وصقلية؛ ويقصد التجار من سائر البلاد إلى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات، ومعدن هذا الجواهر في هذه المدينة\* مخدوم في كل سنة ويعمل به في كل الأوقات الخمسون قارباً والزائد والناقص وفي كلّ قارب العشرون رجلاً وما زاد ونقص؛ وكان يصاد بآلات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب تدار هذه الآلة في أعلى المراكب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان فيحذ به الرجال إلى أنفسهم ويستخرجون منه الشيء الكثير ممّا يباع بالأموال الطائلة».<sup>(3)</sup>

(1) أمينة بوتشيش، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، مرجع سابق، ص45.

(2) رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، مرجع سابق، ص135.

(3) الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مصدر السابق، ص135.

\* يقصد بالمدينة التي تتوافر عليها صيادة المرجان هي مرسى الحَزْر.

## المبحث الرابع: الحياة الاجتماعية:

كان المجتمع البجائي مجتمعاً مفتوحاً ومتحضراً؛ فقد تكوّن المجتمع الحمادي من ثلاثة طبقات رئيسية مكوّنة لهذا المجتمع المتميّز:

أولهما: الطبقة الحاكمة: تتألف من أمراء الدولة ووزرائها وقادتها العسكريين وكذلك زعماء القبائل والكتّاب.

ثانيهما: الطبقة المتوسطة: وقد ضمتّ أرباب الأموال الذين هم من التجار والمواسير والصنّاع والحرفيين ورجال الدين وأهل العلم.

آخرهما: الطبقة الدنيا: مثلت صغار الفلاحين والمزارعين وأفراد المجتمع الباقية.

كانت الطبقة الحاكمة تعيش في قصور عالية المقام؛ وبلاطها زاهر بملذات العيش والسمر والطرب والغناء وحتى مجالس اللهو؛ وتارة أخرى كان يضم العلماء والشعراء الجديرين بمقام ذلك البلاط.<sup>(1)</sup>

كما تصاهرت وتمازجت بعض الأجناس سواء كانت من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب فعلى سبيل المثال تمازجت قبيلة صنهاجة بكتامة وكتامة بزناطة\*؛ كما وجدت قبائل بربرية عاشت في المدن الكبرى منها عجيسة وهوازة وبني ترزال في المسيلة وكذلك قبائل بربرية وجدت في مدينة جيجل؛ فقد كان العنصر المهم والفعلّال من القبائل الأخرى أجمعين قبيلة بني هلال التي كان لها النصيب الأوفر والحظّ الأمثل.<sup>(2)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: صالح يوسف بن قرية، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في العصر الإسلامي - دراسة تاريخية أثرية -، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، سنة 2009، ص232.

\*ديار زناتة: تضم مغراوة وهم بنو يصلتين بن مسراين زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا إخوة يفرن وبني برنيان وكانت مجلاتهم بأرض المغرب الأوسط. من الشلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما يليها، وكان لهم مع إخوانهم من بني يفرن اجتماع وافتراق، وبني توجين هم فرع من الطبقة الثانية من قبيلة زناتة.

<sup>(2)</sup> ينظر: عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، مرجع سابق، ص236.

بعد أن فتح الموحدون لمدينة بجاية تحالفت كتامة مع أبي قسبة وصنهاجة لمحاربة عبد المؤمن، ومن قبائل كتامة تُعد منها بني زلدوي - بني زندوي - الذين كانوا يقطنون الجبال وراء جيجل وامتازوا بشجاعتهم ونبلهم؛ ومناداهم للحرية، والقبائل الزناتية وجدناها بمدينة المسيلة وبسكرة وجبل أوراس ونقاوس وطبنة وعلى الطريق التي تؤدي من أشير إلى تنس وبين برشك وشرشال وبين تاهرت وتلمسان.<sup>(1)</sup>

«في المجتمع الحمادي كانت هناك طوائف أخرى لاجئة إليه لجوء الاستقرار والاندماج؛ فعندما ضعف سلطان المسلمين في الأندلس وصقلية ومالطة وغيرهما من الأماكن التي تعرضت لعمليات إبادة وإزعاج من جانب الزحف الصليبي كان الحماديون هم الملجأ الذي يأوي إليه هؤلاء؛ وقد استقر الأندلسيون بالسواحل؛ ولم تخل بجاية من العنصر الإسباني، بل إنه احتل فيها مكانة مرموقة إلى جانب البربر البجاويين؛ لاسيما أهل ميورقة».<sup>(2)</sup>

لقد كانت بعض العادات متفشية في المحيط البجائي؛ وهي ظاهرة الإيمان بالأولياء فقد أطلق عليها زمناً طويلاً بمكة الصغيرة بسبب كثرة الأولياء بها، ويقال أن عدد الأولياء الذين كانوا بها نحو مائة إلا واحداً.<sup>(3)</sup>

«كما تبوأ فئة العلماء قمة الهرم الاجتماعي لما اضطلعت به من مهام وشغلته من مناصب انعكس نفعها على شرائح عريضة من المجتمع؛ فكان منهم الأئمة والمدرسون والفقهاء وشيوخ الفتوى وهناك بعض الأسر من قبائل زواوة صنف ضمن العائلات الوجيعة؛ من بين العلماء الذين استقروا ببجاية نذكر: أسرة أبي العباس الغبريني؛ وولديه سعيد وأبي القاسم

(1) ينظر: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، مرجع سابق، ص 159.

(2) عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، مرجع سابق، ص 237.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 240، ص 241.



(770هـ/1370م)؛ ومن عائلة المشذالي العلامة ناصر الدين (- 731هـ/1331م) وصهره عمران (745هـ/1354م) وأبي القاسم (- 866هـ/1468م)، وأبناءه محمد (- 867هـ/1469م)». (1)

من بين المأكولات التي اشتهرت به مدينة بجاية الحنطة والشعير والبقول واللحم والتمور والفواكه والزيت والسمن والعسل؛ وأهم الملابس التي اشتهرت بها آنذاك نذكر: العمائم، والأفراق الزرارية والفتوحيات وشواشي الخبز والأكسية؛ كما أنهم كانوا يلبسون مثل جيرانهم الزيريين الجبة الطويلة والقميص والسروال والفرو والبدن. (2) كانت لمدينة بجاية أسوار تحيط بها وقد كانت مادتها من الحجر، وكان للأسوار أبواب تختلف عددها حسب المدن؛ فقد كان بها سبعة أبواب نذكر منها: باب البحر وباب تاطنت وباب أمسيون وباب المرسى وباب اللوزة والباب الجديد وباب البنود؛ وكل هذه الأبواب اندثرت وتلاشت مع ملوكها الأباطرة، فقد بقي سوى باب البحر. (3) فقد كانت مدن بجاية تستهلك مياه العيون والصحاري والآبار والجداول؛ فكانت هناك عين تسمى بعين الأوقات مشهورة عند سكان بجاية؛ أمّا فيما يخص مقابر منطقة بجاية وصلواتهم؛ فكانت المقابر تقع في أغلب الأحيان خارج المدن وكانت توجد قرب الأبواب الرئيسية أي باب أمسيون وباب المرسى وباب البنود، والصلوات كانت موجودة خارج مدينتي الجزائر وطبنة (4)؛ ولقد كانت التجارة إحدى الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع؛ فتمت أسواق داخلية في المدن؛ وهناك أسواق كبرى في المدن الرئيسية كبجاية وقسنطينة وبونة؛ كما لا يخفى كانت تقام الأعياد في قصر يسمى أميمون وكانت تستغل له قاعة من قاعاته الفخمة». (5)

(1) مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، مرجع سابق، ص 223.

(2) ينظر: عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، مرجع سابق، ص 240، ص 241.

(3) ينظر: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، مرجع سابق، ص 154.

(4) ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة، مصدر سابق، ص 21.

(5) ينظر: عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، مرجع سابق، ص 241.

## المبحث الخامس: الحياة الثقافية:

فرغم التطورات السياسية والاقتصادية الصعبة التي شهدتها مدينة بجاية؛ إلا أنّها عرفت حركة فكرية وثقافية مزدهرة ومنيرة خلال القرنين السادس والسابع للهجرة.<sup>(1)</sup>

«تعتبر بجاية من بين مدن المغرب الإسلامي التي لا تقل شأنًا عن باقي العواصم؛ فقد برهنت الأحداث التاريخية المتتالية على الأدوار الإستراتيجية التي استشفتها بجاية سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا في منطقة المغرب الإسلامي وفي إفريقية على حد سواء؛ إذ قامت بإنجازات فكرية كبناء مساجد جامعة وزوايا صوفية عريقة ونبغ بها علماء في مختلف العلوم والفنون؛ فأصبحت قبلة لطلاب العلم والعلماء في مختلف الحواضر المغربية».<sup>(2)</sup>

لقد شهدت حاضرة بجاية ازدهارًا في جميع الميادين؛ ما أهلها في عقد عدّة اتفاقيات مع الدول المجاورة لها؛ فكانت للبحائيين علاقة مع أبناء عموماتهم الزيريين والمرابطين؛ وكذلك مع بلاد المشرق والعالم المسيحي.<sup>(3)</sup> فقد كانت لبجاية خصوصية هامة تتمثل في كونها نقطة عبور إجبارية بين الشرق الإسلامي وبين بلاد المغرب والأندلس؛ وهي بذلك تشكل أيضًا نقطة التقاء بين ثقافتين؛ المشرقية بمذاهبها ومللها ونحلها؛ والمغاربية بمذهبها الموحد وعقيدتها الوحيدة ونهجها التصوفي المتجانس؛ أي موقعها الفريد أكسب المدينة صبغة جسر لعبور المعارف والعلماء والمؤلفات والأفكار إلى المغربين الأوسط والأقصى بل وإلى بلاد السودان الغربي وأجزاء واسعة من الصحراء الكبرى عبر الحواضر كتلمسان وفاس ومراكش وسجلماسة وورقلة ونحوها فيرجع العلماء أنّ القرن السابع للهجرة هو أوج عطاء النهضة العلمية وذلك لأسباب».<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة، مصدر سابق، ص21.

(2) رحيم عائشة، المؤسسات العلمية في مدينة بجاية خلال القرون 7-10 هجرية، مذكرة ماجستير في التاريخ السياسي والثقافي، جامعة تلمسان، سنة 2009-2010، ص30.

(3) ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص163.

(4) بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، مرجع سابق، ص21، ص22.

بجاية مركز من مراكز الإشعاع العلمي والثقافي في العالم الإسلامي والعربي بسبب تضافر عدد من العوامل منها:

— «العامل الجغرافي: هي كون المدينة بها ميناء يطل على البحر المتوسط ويربط بين الأندلس في الغرب وبين باقي أنحاء العالم العربي.

— «العامل السياسي: يتجلى في عناية الموحدين بمدينة بجاية وقلعة بني حماد وكذلك في العلاقات الوطيدة بين الحفصيين من جهة وبين سكان شرق الأندلس من جهة ثانية.

— «العامل البشري: ويظهر في أمور منها: أن ولاية وأمراء بجاية عرف عنهم تقديرهم للعلم وأهله وتشجيعهم للأدباء؛ وكذلك دماثة أخلاق البجائيين وحبهم للعلم والعلماء وإقبالهم على السماع والاستفادة من كل مقيل عليهم كيفما كانت منزلته؛ وكذلك العنصر البشري الأندلسي الذي هاجر من الأندلس بعد سقوط مدن شرقها تباعاً في القرن السابع الهجري، فاستقر بهذه المدينة عدد من العلماء الأعلام الذين أذكوا مشعل العلم والحضارة؛ وكونوا مدارس اتسعت وخرّجت العديد من العلماء»<sup>(1)</sup>.

«فأصبحت بجاية بعد تحصينها من أبرز الحواضر المغربية يقصدها رجال العلم والفكر والثقافة وتغنى بها الكثير من الشعراء والأدباء؛ وأصبح لها علاقات متنوعة مع أقطار المغرب الإسلامي ومع الأندلس وحتى مع بعض الجمهوريات الإيطالية»<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، دط، وزارة الثقافة (أعمال المركز سلسلة جديدة رقم 4)، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، سنة 2008، ص24.

<sup>(2)</sup> يحي بوعزيز، مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا، مجلة الحضارة الإسلامية، يصدرها المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران، سنة 1993، ص10، ص11.

فقد أشاد ومدح الشاعر أبو علي الحسن بن الفكون القسنطيني شعراً عن بجاية فقال:

«دَعِ الْعِرَاقَ وَبَغْدَادَ وَشَامَهُمَا ❀ فَالْتَّاصِرِيَّةُ مَا أَنْ مِثْلُهَا بَلَدُ  
بَرْ وَبَحْرٌ وَمَوْجٌ لِلْعُيُونِ بِهِ ❀ مَسَارِحُ بَأَنَّ عَنْهَا اهِمُّ وَالنَّكَدُ  
حَيْثُ اهِوَى وَاهْوَاءُ الطَّلُقِ مُجْتَمَعٌ ❀ حَيْثُ الْغِنَى وَالْمَنَى وَالْعَيْشَةُ الرَّغْدُ  
وَالنَّهْرُ كَالنَّصْلِ وَالْجَنَانُ مُشْرِقَةٌ ❀ وَالنَّهْرُ وَالْبَحْرُ كَالْمِرَآةِ وَهُوَ يَدُ  
فَحِينَمَا نَظَرْتُ رَاقَتْ وَكُلُّ نَوَا ❀ حِي الدَارِ لِلْفِكْرِ لِلْأَبْصَارِ تُتَقَدُّ  
أَنْ تَنْظُرَ الْبَرَّ فَلَا زَهَارُ يَانَعَةٌ ❀ أَوْ نَنْظُرُ الْبَحْرَ فَلَا مَوَاجُ تُطْرَدُ  
يَا طَالِبًا وَصَفْهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَصْفٍ ❀ قُلْ جَنَّةُ الْخُلْدِ فِيهَا الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ»<sup>(1)</sup>

يمدح الشاعر الفكري حاضرة بجاية فإنه يدع بغداد والعراق ويتجه نحو الأنظار الساحرة المملوءة بالثمار والجنان.

كما قلنا سالفاً أنّ حاضرة بجاية كانت دائماً بلد محاط بالعلم والعلماء؛ فهذا العالم أبو عبد الشريف التلمساني فعندما دخل المدينة ذكر بأنه وجد العلم ينبع من صدور رجالهم كالماء ينبع من حيطانهم؛ فقد شهدت الحاضرة موجة إشعاع علمي فكري في مختلف العلوم سواء النقلية أو العقلية؛ فكلّ عالم أو شاعر أو ولي ساهم في تنشيط وإبراز الحركة العلمية والفكرية.<sup>(2)</sup> فقد كانت بجاية مليئة بجمّ العلماء الأفذاذ والأدباء الجزائريين؛ كما أنّها استقبلت عدّة نزلاء أندلسيين أدباء.<sup>(3)</sup>

<sup>(1)</sup> يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر العرب، ج1، دط، دار الهدى، الجزائر، سنة 2009، ص44.

<sup>(2)</sup> ينظر: مريم هاشمي، إسهام علماء بجاية في الحركة العلمية في المغرب الإسلامي خلال القرنين (7-8هـ / 13-14م)، دورية كان

التاريخية (علمية، عالمية، محكمة)، ع21، سبتمبر 2013، ص118، ص122.

<sup>(3)</sup> ينظر: محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، مرجع سابق، ص95.

عُرف عن ملوك بني حماد أنهم كانوا رجالاً محبين للعلم وجالين جلّ الامتدادات اللازمة لتوفير الجوّ الملائم للأديب؛ فنهلوا العلم من كل البقاع والحوضر المجاورة.<sup>(1)</sup> فهذا لسان الدين ابن الخطيب يوضح لنا أنّ حماد بن بلكين كان داهية فقال: « كان فريد دهره وفحل قومه ملكاً كبيراً وشجاعاً؛ ثبّتاً وداهية وحصيناً فقد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل». <sup>(2)</sup>

«وكذلك يقول الغبريني في كتابه: عنوان الدراية؛ أنّ عائشة بنت عمارة كانت أدبية أربية فصيحة لبية؛ وكان لها خط حسن ولها شعر في معنى المداعبة وقد خطبها رجل من الأشراف كان أصلع فلم تحبه إلى مراده وقالت هذه الأبيات تداعب صويحبة لها:

غَدِيرِي مِنْ عَاشِقٍ أَصْلَعُ ❁ قِيحَ الْإِشَارَةِ وَالْمَنْزَعِ  
يَرُومُ الزَّوْاجَ بِمَا لَوْ أَتَى ❁ يَرُومُ بِهِ الصَّفْعَ لَمْ يُصْفَعْ  
بِرَأْسِ حُويجٍ إِلَى كَيْسَةٍ ❁ وَوَجْهٍ فَقِيرٍ إِلَى بُرْقَعٍ».<sup>(3)</sup>

كما أنّ أهمّ ما تفخر به حاضرة بجاية أنّها كانت إحدى المدرستين الإسلاميتين اللتين زودتا أوروبا بمادّة علم الحساب والأرقام الغبرية\*، كما أنّه تربّى في هذه المدينة "ليوناردو فيبو ناتشي اليزي الإيطالي".<sup>(4)</sup>

«لقد كشفت كتب التراجم والنوازل الفقهية دور علماء زواوة في تأطير الحياة العلمية ببجاية؛ حيث ترجم الغبريني في عنوانه لثمانية علماء أصيلي منطقة زواوة؛ هذا فضلا عمّا حشده الونشريسي من الأجوبة الفقهية عن نوازل كانت ترد إلى حاضرة بجاية ويجب عنها علماء زواوة

<sup>(1)</sup> ينظر: رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1981، ص204.

<sup>(2)</sup> المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، م7، (د.ط)، دار صادر، بيروت، سنة 1931، ص.187.

<sup>(3)</sup> الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.31.

<sup>(4)</sup> يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، مرجع سابق، ص.41.

\*الأرقام الغبرية أرقام الغبار والأرقام العربية هي الأرقام التي طورها الرياضيون على وجه الخصوص. في مناطق المغرب العربي. وقد سميت بالأرقام العبارية من قبل من اثني عشر اسماً للأعداد (من واحد إلى عشرة والمائة والألف) يتركب من غير أي ما بقي من الأسماء لابن غازي وقيل أيضاً أنّ الحساب الغباري خلاف الكتاب الهوائي الذهبي.

أمثال: ناصر الدين المشدالي (- 731هـ/1331م)؛ وأبو العباس أحمد الغبريني (- 704هـ/1304م)؛  
أبي زكرياء يحيى الزواوي (- 611هـ/1211م)؛ أبا يوسف يعقوب المنقلاقي (- 683هـ/1286م)؛ أبي  
نجم هلال يوسف الغبريني وناصر الدين المشدالي (- 731هـ/1331م)؛ أبي القاسم المشدالي (-  
866هـ/1465م)؛ وعلي بن أبي نصر عبد الله البجائي (- 652هـ/1254م)». (1)

«فقد كانت بجاية مقراً لطائفة من علماء الفقه والكلام والتصوف والأدب وعلوم اللغة؛  
منهم: أبو علي المسيلي؛ وأبو محمد عبد الحق الاشيلي؛ وأبو الطاهر عمارة بن يحيى؛ وابنته عائشة؛  
وابن محشرة الكاتب والصوفي الزاهد أبو زكرياء الزواوي؛ والصوفي الكبير أبو مدين؛ وكان  
الشاعر القسنطيني الكبير حسن بن الفكون وابن محشرة الكاتب؛ والكاتب العالمي وغيرهم يزينون  
هذا العصر، ويسمون بدرجة العلم والأدبية؛ وفي القرن السابع الهجري نجد الحركة الثقافية  
تقدمت تقدماً كبيراً ونبغ أعلام كثيرون سواء في حاضرة بجاية أو غيرها من الحواضر؛ وكتب  
التراجم خير برهان على ذلك فقد قدّم لنا كتابي: عنوان الدراية للغبريني وبغية الرواد لابن خلدون  
أهمّ الدلالات». (2)

يتجلى مركز بجاية والقلعة أنّهما كانتا مركزين للعلوم ومصدرين للنهضة العلمية؛ فكان  
أوج عطائهما وازدهارهما يكمن في سياسة التعليم التي انتهجها الخليفة - حماد - لسلطته؛ فأكثر  
من تدشين وبناء المساجد والفنادق وغيرها من المنشآت العمرانية والمؤسسات ذات المجال  
الديني. (3)

(1) مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، مرجع سابق، ص 150.

(2) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 21.

(3) ينظر: صالح يوسف بن قرية، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد، مرجع سابق، ص 165.

\*يعدّ الغزالي من أكابر علماء الكلام ويكنّى أبو حامد ولد في إحدى مدن خراسان سنة 450هـ / 1058م درس ببلده؛ ثمّ رحل في طلب العلم؛ انكبّ على تأليف الكتب وقد سميّ حجة الإسلام؛ وأشهر كتبه إحياء علوم الدين؛ توفي سنة 505هـ / 1111م.

كانت بجاية مصدر إلهام الشعراء والأدباء والرحالة؛ فقد شجع كل خليفة كان يترأس حاضرة بجاية ويُدعم من ينادي للعلم؛ فمثلاً هذا الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي شجع العلم وناصره فقد سهّل الاطلاع على الكتب التي كانت محظورة زمن المرابطين مثل: كتاب الإحياء للغزالي\*؛ كما أنّه أرسل بعثات علمية وساهم في تدعيم حركة التأليف في مختلف أجناس العلوم سواء كانت كتب القصص أو المغامرات وحتى الكتب الفارسية.<sup>(1)</sup>

فكلّ حاضرة كانت تستعمر المدينة إلّا وتترك ورائها مخلفات قيّمة سواء في المجال الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي؛ ففي عصر الموحدين اهتم خلفائها بالعلم ووفروا له كل المناصب المناسبة؛ وكذلك خليفاتها في الحكم الدولة الحفصية أبقت وحافظت على مستلزماتها الفكرية؛ واهتم أمرائها بالحركة الثقافية في مختلف العلوم وأعطوا مجالاً واسعاً للعلماء والأدباء؛ وقدموا لهم كلّ فرص الراحة؛ واستقبلوا العلماء من مختلف الحواضر المغربية وحتى البلاد الأندلسية المجاورة.<sup>(2)</sup>

فهذا الرحالة العبدري المتوفى سنة 720هـ الموافق لـ 1321م يصف لنا حاضرة بجاية عندما زارها فقال: «...وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحلّ جلة من العلماء والأعلام».<sup>(3)</sup>

عدّت بجاية حاضرة من حواضر المدن الإسلامية التي استهوت وفتحت شهية العديد من المنافسات لدى الحواضر الأخرى كمراكش وتلمسان والقيروان؛ خاصّة عند ازدهارها في التيار العلمي والأدبي؛ فاستقطبت العديد من الوافدين للتزود من منابعها كالأندلس والقيروان؛ ومن أسماء النازلين بها نذكر: أحمد بن عبد الله بن خميس، بن معاوية بن نصرون الأزدي البلنسي.<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: شمس الدّين محمد بن أحمد الدّهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ج19، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة 1982، ص228.

(2) ينظر: مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مرجع سابق، ص184.

(3) محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، مصدر سابق، ص50.

(4) ينظر: الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص37.

أشاد عدد من الرحالة والجغرافيين الذين زاروا بجاية بدور هؤلاء - الأعلام - في ازدهار الحياة الفكرية بهذه المدينة منها ما ذكره خالد البلوي في قوله: «بجاية موطن الفضلاء من أهل العصر الذين طبق ذكركم تضيق الغمام ونما كما نمت بأزهارها الكمام ولهم مآثر يتعاطى الركب حمياها ويتعاطى نوافع رياها».

كما أنشد قائلا:

لَهُمْ هِمَمٌ كَمَا شَمَخَتْ جِبَالٌ \* وَأَقْلَاقٌ كَمَا هَمَّتْ بِطَاحٍ  
تَرَى بِهِمُ النُّجُومُ وَلَا ظِلَالٌ \* وَأَوْضَاحُ النَّهَارِ وَلَا صِيَاخٌ<sup>(1)</sup>.

«لقد أولى الأمير الحفصي أبو زكرياء يحيى الأول 625 - 647هـ/1128-1249م عناية كبيرة ببجاية؛ حيث وسّع عمرانها وانتشر العلم بها حتى أصبحت تنافس حاضرة تونس، أضف إلى ذلك أنه كان يرى أن التجاء العلماء الأندلسيين إلى حاضرتهم إنما هو تشريف لها وإغناء لثروتها العلمية وسمعتها الأدبية؛ وفي مقدمة هؤلاء النازحين الذين يعدّون من أعظم وألمع الكتاب نذكر: أبو عبد الله محمد بن الآبار القضاعي\* وقد التحق كاتباً في بلاط أبو عبد الله بن أبي حفص»<sup>(2)</sup>.

كان كل أمير حفصي يترأس حاضرة بجاية إلّا ويأتي بعالم من الحواضر الأخرى؛ وينهل من تلك العلوم؛ كما كان يصدق عليهم بالإكرام والحفاوة؛ فعلى سبيل المثال فقد أتى الأمير أبي عبد الله المستنصر 647-675هـ/1249-1277م على جلب أهم الكتاب إلى مجالسه العلمية فجلب الكاتب أبو بكر بن عبد الله بن خطاب المرسى المتوفى سنة 686هـ/1287م<sup>(3)</sup>.

(1) ينظر: مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، مرجع سابق، ص224.

(2) مريم هاشمي، العلاقات الثقافية بين مدينتي تلمسان وبجاية، مرجع سابق، ص74، ص75.

\*هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي؛ يكتنّى بأبو عبد الله واشتهر باسم ابن الآبار؛ ولد سنة 595هـ/1198م بمدينة بلنسية؛ غادر مع أسرته متوجهاً إلى بجاية بادئ البدء ثم إلى حاضرة تونس؛ فعين كاتباً ببلاط. أبو عبد الله الحفصي؛ توفي مقتولاً سنة 658هـ - 1260م، ومن أهم آثاره: تحفة القادم؛ الحلة السراء.

(3) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر، ج7، مصدر سابق، ص93.



«لقد ازدهرت الحياة التعليمية ازدهاراً كبيراً؛ تدلنا عليه المكانة العلمية التي احتلتها بجاية بحيث أصبحت كعبة الشعراء ومقصد طلاب العلم؛ فقد ارتحل إليها ابن حمديس الصقلي وأبو الفضل بن النحوي من العلماء؛ وغيرهما ممن غصّت بهم العاصمة الحمادية وقد برز الفقهاء والعلماء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم»<sup>(1)</sup>.

«فقد عرفت بجاية انتشاراً لبعض المؤسسات من حواضر المغرب الإسلامي خاصة الدينية والتعليمية منذ الفتوحات الإسلامية؛ فقد شهدت نمواً للحركة المعمارية كما استمر نشاط بجاية العلمي والثقافي»<sup>(2)</sup>.

فوجد ببجاية عدّة مساجد عريقة قد بلغ عددها 73 مسجداً؛ وقد ألحقت بها مكاتب وكانت تحوى على كتب نفيسة ومن أهم المساجد التي وجدت ببجاية نذكر: الجامع الأعظم وسمّي كذلك بالمسجد المنصوري؛ وقام ببناء هذا الصرح المعماري الأمير الحمادي؛ ويعدّ هذا المسجد لؤلؤة زمانه وتوالت شعله نوره حتى العهدين الموحيديّ والحفصيّ؛ وقد وفد عليه جلّ الطلبة والعلماء<sup>(3)</sup>.

كما كانت عدّة مساجد قد لعبت دوراً هاماً في المجال التعليمي؛ فقد وجد مسجد الجامع بقصبة بجاية؛ ومسجد الرّيحانية؛ يضاف إلى كلّ المساجد الأخرى مسجد سيدي عبد الحق وقد درّس بهذا المسجد العالم البجائي سيدي عبد الحق الإشبيلي (510هـ/1115م - 582هـ/1187م)<sup>(4)</sup>. وقد وجدت بالجوار من المسجد حجرة كانت تسمى بالكتاتيب وكانت منتشرة بقرى ومدن بجاية؛ وكانت تهتم بتعليم الصغار حفظ القرآن الكريم؛ وقد تأثر سكان بجاية بالجالية

(1) عزوق عبد الكريم، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، مرجع سابق، ص 254.

(2) رحيم عائشة، المؤسسات العلمية في مدينة بجاية خلال القرون 7-10 هجرية، مرجع سابق، ص 32.

(3) ينظر: عثمان الكعّاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

سنة 2003، ص 207.

(4) ينظر: الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 75.

الأندلسية وما حملوا معهم من جديد وقد تمثّل في مزج القرآن مع الحديث ودراسة الفقه وغيرها من العلوم النحوية.<sup>(1)</sup>

يضاف إلى كلّ من المسجد والكتاتيب والمدارس؛ مستوى تعليمي آخر يتمثّل في الزوايا؛ والتي كانت عبارة عن مدرسة دينية لها دور فعّال؛ وقد قام بإنشائها جماعة من أهل الخير؛ ورجال الصوفية؛ وكانت الزوايا كثيرة بالجزائر، بين كبيرة وصغيرة، وكانت عبارة عن مباني فاخرة يتوسطها ضريح الشيخ المؤسس.<sup>(2)</sup>

«وأدت الزوايا في المغرب الإسلامي عامة وبحاضرة بجاية خاصة أدوراً بارزة مهمة، تمثلت في الدور الاجتماعي كإيواء الفقراء والغرباء وعابري السيل ودور تربويّ تعليمي تمثّل في استقبال طلاب العلم والمعرفة ونشر التعليم بمختلف أطواره بأسلوب بسيط، فقد ذكر الحسن الوزان ذلك في كتابه - وصف إفريقيا - في قوله: « وبجاية بها جوامع كافية ومدارس يكثر فيها الطلبة والأساتذة في شتى العلوم»<sup>(3)</sup>؛ ومن أهم الزوايا التي كانت موجودة ببجاية نذكر زاوية سيدي أحمد بن يحيى وقد أسسها الشيخ أحمد بن يحيى وقد سميت باسمه وقد كان مدرّساً بها<sup>(4)</sup>؛ كما كانت توجد زاوية سيدي يحيى العبدلي (- 882هـ/1478م)، وقد تخرّج منها أحمد زروق

(1) ينظر: محمد الشريف سيدي موسى، التربية والتعليم في العصر الوسيط. (بجاية نموذجاً)، ع22، حولية المؤرخ، الجزائر، سنة 2002، ص93.

(2) عزوق عبد الكريم، دولة بني حماد، مرجع سابق، ص259.

(3) ينظر: رحيم عائشة، المؤسسات العلمية، مرجع سابق، ص47.

(4) عزوق عبد الكريم، دولة بني حماد، مرجع سابق، ص78.

البرنسي\* والذي ألّف كتب جمّة في باب التصوف نذكر منها: أصول التصوف؛ قواعد التصوف وغيرها من الكتب؛ كما كان من طلبتها سيدي عبد الرحمن الصّباغ الذي قام بشرح المنظومة الوغليسيّة في الفقه.<sup>(1)</sup> كما هناك زوايا أخرى منها: زاوية الحاج حساين وزاوية سيدي سعيد.<sup>(2)</sup> احتوت بجاية على مكتبة كبيرة كانت مزوّدّة بالكتب وهو ما أكّدّه الغبريني حينما قال: «أنّه رأى نسخة من أحسن النسخ للشاعرة عائشة الموجودة بالخزانة السلطانية ببجاية وهو ما ذهب إليه شاربونو الذي قال إنّ أمير بجاية قد أعجب بعائشة البجائية ممّا جعله يحتفظ بأحسن نسخها بالمكتبة الملكية البجائية؛ كما ساهم العلماء البجائيون بمكتباتهم الخاصة في نشر العلم من خلال نظم الإعارة؛ فقد كان أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي(- 673هـ/1275م) يساعد الطلبة ويقدم لهم كتباً».<sup>(3)</sup>

فقد قال شعراً في كتبه - التميمي -:

«كُتِبِي لِأَهْلِ الْعِلْمِ مَبْدُولَةٌ ❁ يَدِي مِثْلَ أَيْدِيهِمْ فِيهَا

أَعَارَنَا أَشْيَاخُنَا كُتِبَهُمْ ❁ وَسَنَةُ الْأَشْيَاخِ نُمُضِيهَا»<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1995، ص.85.

\*أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي عرف بزروق ولد سنة 846هـ / 1442م وهو الفقيه الصوفي المحدث؛ ارتحل إلى بجاية وتلمذ على يد الشيخ عبد الرحمن الثعالبي وإبراهيم التّازي ثم إلى تلمسان على يد الشيوخ الحافظ التنسي والإمام السنوسي توفي عام 899هـ / 1495م.

(2) ينظر: عيد الكرم عزوق، دولة بني حماد، مرجع سابق، ص.97.

(3) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.51.

(4) المصدر نفسه، ص.94.

لقد ولى أمراء وحكام حاضرة بجاية اهتمامًا بالغًا بالحركة الثقافية فشجعوا ودعموا العلماء؛ فنشطت العلوم سواء كانت العلوم النقلية بأقسامها وحتى العلوم العقلية بأنواعها؛ فقد لقيت علوم القرآن والسنة وقراءات وحديث وفقه وتصوف جلّ الاهتمام.<sup>(1)</sup>

فالعلوم النقلية تتفرع إلى فرعين: العلوم الدينية وتضمّ: علم القرآن وعلم القراءات وعلم التفسير وعلم الحديث والفقه والتصوف أمّا الفرع الثاني فهو العلوم الاجتماعية واللسانية ويشمل: العلوم اللسانية تضم الشعر والنثر واللغة والنحو؛ أمّا الآخر- العلوم الاجتماعية- تضم التاريخ والتراجم.<sup>(2)</sup>

(1) ينظر: عيد الكريم عزوق، دولة بني حماد، مرجع سابق، ص.260.

(2) ينظر: الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.108، ص.111.

## ثانيا: حاضرة تلمسان:

## المبحث الأول: الحياة الجغرافية والتاريخية:

«حدّد الجغرافيون والمؤرخون المسلمون؛ موقع مدينة تلمسان في الإقليم الثالث عند درجة طول أربع عشرة درجة (14°) وأربعين دقيقة (40د)؛ ودرجة عرض ثلاث وثلاثين درجة واثنى عشرة (33° و12د)»<sup>(1)</sup>؛ و«أمّا بالنسبة للجغرافيين المحدثون حددوا موقعها عند خط طول درجة واحدة وثلاثين دقيقة (31د) غرب غرينتش؛ وخط عرض أربع وثلاثين درجة وخمسين دقيقة (34° و50د) شمال خط الاستواء».<sup>(2)</sup>

فمدينة تلمسان تقع على السفح الشمالي لجبل الصخرتين\*؛ ويعد هذا الجبل هو الطرف الشرقي لسلسلة جبال الريف التي تسير محاذية السهل الساحلي من المغرب الأقصى حتى تصل إلى منطقة ضيقة قرب تلمسان.<sup>(3)</sup> «فتلمسان قاعدة من قواعد المغرب الأوسط؛ قديمة أزلية البناء أسست قبل الإسلام؛ بكثير من الأعوام؛ أسسها بنو يفرن إحدى قبائل زناتة؛ وتشتهر مدينة تلمسان بموقعها الجغرافي الجميل على سفح جبل طرارة غير بعيد عن البحر؛ كما تشتهر بماضيها التاريخي الحافل بالأعاجاد والبطولات»<sup>(4)</sup> و«ترتفع تلمسان عن سطح البحر حوالي 2600 قدم؛ أي ما يقارب 900 متر»<sup>(5)</sup>؛ فقد اختلف المؤرخون والرحالة في ضبط حدودها خاصة الشرقية منها؛ فقد كان نهر ملوية يمثل الحد الطبيعي الغربي الذي يفصلها عن بلاد المغرب الأقصى؛ في حين يشير ابن خلدون إلى حدودها الشرقية؛ فيذكر تارة أنّها تبدأ من بونة باتجاه الجنوب إلى الأريس

(1) ابن خلدون، المقدمة، ط4، دار القلم، بيروت، سنة 1981، ص59.

(2) ألفرديل، دائرة المعارف الإسلامية، ج5، (د.ط)، موسوعة، القاهرة، سنة 1933، ص.452.

\* يسمى هذا الجبل: بطرارة.

(3) ينظر: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، سنة 1975، ص135.

(4) فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، الرحالة والجغرافيون والمؤرخون والكتّاب والشعراء العرب، ط1، دار السبيل، (د.ب.ن)،

سنة 2011، ص.106، ص.107.

(5) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، مصدر سابق، ص452.

فالأوراس فتبسة؛ ويذكر تارة أخرى أنّ المغرب الأوسط يجاوره ن جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة وما يليها إلى بجاية»<sup>(1)</sup>.

فلقد قسّم المسلمون بلاد المغرب\* إلى ثلاثة أقسام: مملكة إفريقية وهي المغرب الأدنى وقاعدتها القيروان؛ وسمي أدنى لأنّه أقرب إلى بلاد المشرق ومركز الخلافة؛ والقسم الثاني المغرب الأوسط وقاعدته تلمسان والجزائر؛ والقسم الأخير المغرب الأقصى وكانت قاعدته فاس في مراكش.<sup>(2)</sup>

فلقد تعددت المصادر في وصف تلمسان؛ فقد وصفها الرحالة والجغرافيون وحتى الشعراء تغنوا بها فقد وصفها البكري فقال: «.. وهي تلمسان مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز ولها خمسة أبواب؛ ثلاثة في القبلة؛ باب الحمام؛ وباب وهب، وباب الخوجة؛ وفي الشرق باب العقبة؛ وفي الغرب أبي قرّة؛ وفيها للأول آثار قديمة؛ وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا؛ ولهم بها كنيسة معمورة... ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع؛ وأشجار وأنهار عليها الطواجين؛ وهي دار مملكة زناتة ومتوسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق»<sup>(3)</sup>.

وقال ابن حوقل: «... ومنها إلى تنسمان مرحلة لطيفة؛ وهي مدينة أزلية ولها أنهار جارية وأرحية عليها فواكه؛ ولها سور من أجر حصين منيع؛ وزرعها سقي وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة»<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط. خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1992، ص.05.

\* المراد بلفظ المغرب هو مكان غروب الشمس بالنسبة للبلاد العربية؛ وقد قسم المغرب إلى ثلاثة جهات: جهة المغرب الأدنى (القيروان)؛ والمغرب الأوسط (تلمسان)؛ والأخير المغرب الأقصى (فاس).

<sup>(2)</sup> ينظر: بخوش عبد المجيد، الأدارسة بتلمسان، فاس وقرطبة وفروع السلالة في بلاد العرب، (د.ط)، عاصمة الثقافة الإسلامية، د.ب، سنة 2011، ص.14.

<sup>(3)</sup> سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، ط1، منشورات بونة، الجزائر، سنة 2011، ص.10.

<sup>(4)</sup> ابن حوقل، صورة الأرض، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان، طبع بمدينة لندن بمطبعة برليل، سنة 1938، ص.89.

وقد وصف اليعقوبي تلمسان فقال: «ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان؛ وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر من حجارة؛ وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة...»<sup>(1)</sup>؛ كما وصفها الإدريسي فقال: «وتلمسان مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثاق؛ وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور ولها نهر يأتيهما من جبلهما المسمى الصخرتين؛ وعلى هذا الجبل حصن بناه المصمودي قبل أخذه تلمسان... وما جاورها من المزارع كلها مسقي؛ وغلاتها كثيرة وفواكهها جمّة؛ وخيراتها شاملة ولحومها شحيمة سمينّة؛ وبالجملة أنّها حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومرباح تجارتها؛ ولم يكن في بلاد الغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منهم حالاً»<sup>(2)</sup>.

وقد وصفها أيضاً المقرئ: «جمعت بين الصحراء والريف؛ ووضعت في مكان شريف؛ كأنّها ملك على رأسه تاجه... وماؤها برود صديد؛ حجبها أيدي القدرة عن الجنوب؛ خزانة للزرع»<sup>(3)</sup>.

ووصفها يحيى بن خلدون فقال: «مدينة عريقة في التمدن؛ لدنه الهواء؛ عذبة الماء؛ كريمة المنبت؛ اقتعدت بسفح جبل ورنيذ عروساً فوق المنصة؛ والشماريخ مشرفة؛ عليها إشراف التاج على الجبين؛ تطل على فحوص للفلح»<sup>(4)</sup>.

«فبعد سقوط الدولة الموحدية فلي منتصف القرن السابع الهجري؛ الثالث عشر الميلادي؛ تمّ تقسيم المغرب على أساس الدولة القائمة فيه؛ فظهر المغرب الأقصى وأطلق عليها اسم مملكة فاس التي امتدت من وادي ملوية شرقاً إلى البحر المحيط غرباً؛ والمغرب الأوسط وأطلق عليها اسم

(1) إسماعيل العربي، المدن المغربية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984، ص26، ص27.

(2) سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص102.

(3) المقرئ، تحقيق إحسان عباس، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مجلد7، (د.ط)، دار صادر، بيروت، سنة 1931، ص341.

(4) أبو زكرياء يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، ج1، (د.ط)، المكتبة الوطنية، الجزائر، سنة 1980، ص85.

مملكة تلمسان؛ التي امتدت من وادي ملوية ومدينة تازا غرباً؛ إلى جزائر بني مزغنة شرقاً؛ وأفريقية وأطلق عليها اسم مملكة أفريقية؛ والتي امتدت من جزائر بني مزغنة غرباً إلى طرابلس شرقاً»<sup>(1)</sup>.

«اختلف المؤرخون المحدثون في تحديد أقاليم المغرب؛ فقد ذكر بعضهم أنّها أربعة وهي: برقة وطرابلس؛ أفريقية وسميت المغرب الأدنى؛ وقاعدتها القيروان وتونس أيام الحفصيين؛ المغرب الأوسط وقاعدته تلمسان؛ ثم المغرب الأقصى وقاعدته فاس أيام الأدارسة ومراكش أيام المرابطين والموحدين»<sup>(2)</sup>.

عند استقرار إدريس الأول أو الأكبر بالمغرب الأقصى؛ اتجهت أنظاره إلى مدينة تلمسان؛ فاستمال إليه الأمير محمد بن خزر بن صولات الزناتي؛ الذي فرض على مغراوة وبني يفرن على طاعته والولاء؛ فتمكن من السيطرة على أقادير وأقام بها شهراً؛ ثم عقب عليها أخاه؛ بقيت تلمسان تحت الحكم المرابطي؛ حتى قامت دولة الموحدين على أنقاضها<sup>(3)</sup>.

«فعندما قام عبد المؤمن بغزوها؛ كان هناك تطور ملحوظ في الحضارة والعمران والثقافة والاقتصاد؛ حيث برز فيها الوناتيون بنو عبد الواد؛ وبنو توجين؛ وبنو راشد الذين تغلبوا على ضواحيها»<sup>(4)</sup>. قامت الدولة الزيانية في منطقة كان يطلق عليها المؤرخون المغرب الأوسط وقد احتلت هذه الدولة موقعاً جغرافياً وسطاً بين الدولتين الحفصية والثانية المرينية<sup>(5)</sup>.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، (د.ط)، المؤسسة المصرية للتأليف، مصر، د.ت، ص.17.

(2) ناضوري رشيد، تاريخ المغرب الكبير، د، ط، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1981، ص126، ص127.

(3) نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، تعليق محمد بوزواوي، (د.ط)، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة

2011، ص07، ص08.

(4) نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، مرجع سابق، ص11.

(5) ينظر: خالد بلعربي، تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية، ط1، دار الألفية، الجزائر، 2011، ص.225.



فقد بزغ نجم دولة بني عبد الوادي في الغرب الجزائري بعدما انطفأ نجم دولة بني حماد في شرقها؛ واتخذ هذا القبيل تلمسان عاصمة لمملكته؛ وتأسست الدولة الزيانية على يد يغمراسن بن زيان بن ثابت سنة 633هـ؛ وعرفت الدولة باسمين هما: الدولة العبد الوادية؛ نسبة إلى جد هذا القبيل المدعو عابد الوادي؛ وبالدولة الزيانية نسبة إلى والد مؤسسها زيان بن ثابت<sup>(1)</sup>.

فقد وصف العمري في مسالك الأبصار المملكة الزيانية فقال: «وهي مملكة كبيرة وسلطنة جليلة؛ قريب الثلاثين من مملكة بر العدو؛ وهي واسعة المدى كثيرة الخيرات؛ ذات حاضرة وبادية وبر وبحر»<sup>(2)</sup>؛ «ينتمي بنو عبد الواد إلى قبائل زناتة»<sup>(3)</sup>.

كما ذكرنا آنفا أن الدولة العبد الوادية لها اسمان فهي تنتمي إلى عسلة عبد الواد<sup>(4)</sup> فقد كان بنو زيان ولاية الجزائر من قبل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين انفصلوا بالمغرب الأوسط<sup>(5)</sup>؛ «كان بنو عبد الواد من الرحل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط وكانوا ينتجعون المراعي الخصبة ويترددون على المواقع التي تقع ما بين فجيج ومديونة وجبل راشد»<sup>(6)</sup>؛ «وإن بني عبد الواد فرع من فروع الطبقة الثانية من زناتة الكبيرة استقروا ومنذ أزمنة طويلة بالمنطقة الغربية للجزائر؛ وكانت تمتد مواطنهم من تاهرت إلى نهر ملوية»<sup>(7)</sup>.

(1) مسعود بن ساري، جماليات المكان في حاضرة تلمسان، د.ط، منشورات بن سنان، الجزائر، سنة 2011، ص 67.

(2) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2، ط 8، دار الأمة، الجزائر، سنة 2007، ص 146.

(3) محمود السيد، تاريخ الجزائر العام: ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا، (د.ط)، مؤسسة شبان الجامعة، (د.ب.ن)، سنة 2000، ص 159.

(4) ينظر: محمد حسن العيدروس، المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط 1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008، ص 212.

(5) علي محمد الطلاي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ط 2، دار المعرفة، بيروت، سنة 2005، ص 502.

(6) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، د.ط، موقم للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2002، ص 14.

(7) يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ط 1، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، سنة 1985، ص 41.

«لقد بنو عبد الواد من ولد بادين محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد، وكان نسبهم يرتفع إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا»<sup>(1)</sup> ابن مسرى بن زكيا بن ورشيك بن مدغيس الأتر بن برين قيس عيلان وفي ولد سجيح يلتقي نسب بني عبد الواد بنسب بني عمومته بن مرين»<sup>(2)</sup> فكان بنو عبد الواد يتكونون من عدة بطون منهم: بنو ورسطيف وبن القاسم ومن هذا الأخير كان ينحدر بنو عبد الواد فلقد كان لهم عدة قبائل مناصرة لها وأخرى محايدة لها فنجد من بين القبائل البربرية عامة والزيرية على أوجه الخصوص التي ناصبت العداء وخرجت ضد بني زيان وتحالفت مع أعدائهم؛ فنجد أبناء عمومته الذين كانوا أشد كرهاً لهم فمن بينهم قبائل مغراوة\* وتوجين\* وصنهاجة»<sup>(3)</sup>.

عُرف موقع مدينة تلمسان بأسماء متعددة عبر تاريخها ومن هذه الأسماء:

«— أجادير: فعندما احتل الفينيقيون المدينة سموها بذلك الاسم؛ وتعني جدار قديم أو مدينة محصنة»<sup>(4)</sup>.

«— بوماريا (Pomaria): أطلق الرومان هذا الاسم على موقع مدينة تلمسان؛ وتعني مدينة الحدائق والبساتين»<sup>(5)</sup>.

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ، مصدر سابق، ج7، ص84.

(2) ابن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، ص206.

(3) عبد القادر بوحسون، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، سنة 2008، ص07.

\* مغراوة شمال وانشريس ووادي الشلف إلى البحر ينتهي إلى وادي السبت قرب متيجة وغرباً إلى البطحاء ناحية نهر منية؛ ويطوهم كثيرة منها بنو زنداق حول مقرة؛ ومنها وار بشلف ومنها الأغواط. فما بين الزاب وجبل راشد.

\* بنو توجين هم من أفخاذ بادين حيث كانوا منافسين لبني عبد الواد.

(4) سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص29.

(5) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج7، ص12.

«— تلمسان: فقد فسّر عبد الرحمن بن خلدون معنى تلمسان قائلاً: أنّه يتكون من مقطعين الأول: تلم ومعناه تجمع، والثاني سان ومعناه اثنان؛ أي تجمع الاثنان وهما البر والبحر». <sup>(1)</sup>

تعدّ تلمسان مدينة عريقة منذ القدم؛ فقد أكسبها مناخها الجغرافي طابعاً جذاباً؛ عبر تاريخها السحيق بسلالتها المتعاقبة عليها؛ إذ تعدّ جوهرة؛ فهي لؤلؤة المغرب العربي؛ فقد تعاقب الدويلات عليها فأعطاهما الكثير من الآثار كمسجد الجامع الكبير والمشور فقد تراكت على حاضرة تلمسان تلك الآثار التي لازالت إلى يومنا هذا راسخة. <sup>(2)</sup>

<sup>(1)</sup> ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.76.

<sup>(2)</sup> ينظر: الحاج. محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، د،ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1995، ص50.

## المبحث الثاني: الحياة السياسية:

«كان لموقع المغرب الأوسط الجغرافي تأثيره الواضح في معالم الحياة السياسية؛ فتلمسان عاصمة المملكة الزيانية هي الطريق الواصل بين البحر وما وراءه من أقطار؛ وبين الصحراء عن طريق سجلماسة ووحدات توات وما خافها من بلاد الزنوج؛ كما أنّها كانت نقطة عبور؛ ونقطة فاصلة تجمعها بين دولتين الحفصية والمرينية».<sup>(1)</sup>

«لقد تعاقبت أربع ممالك مسلمة على حكم تلمسان؛ كانت أولها الأدارسة الذين كانت عاصمتهم فاس بالمغرب الأقصى»؛<sup>(2)</sup> «فعندما استقر إدريس الأول أو الأكبر بالمغرب الأقصى؛ اتجه إلى إقليم تلمسان واستمال إليه الأمير محمد بن خزر بن صولات الزناقي الذي حمل مغراوة وبني يفرن على طاعته ومكّنه من السيطرة على أقادير؛ فأقام بها شهراً واختط بها مسجداً ومنبراً»؛<sup>(3)</sup> ثم بعد مدة نهض إدريس الثاني أو الأصغر الذي خلف والده الأكبر؛ وكان قد استدعاه إلى الساحة التلمسانية ابن عمه محمد بن سليمان ليستعين به على العدو؛<sup>(4)</sup> وبعد وفاة إدريس الأصغر الذي دامت مدّة خلافته ثلاث سنوات؛ فقد وسّع خلالها أقادير وحتى مسجدها؛ فقد قسّمت مملكته بين أبنائه وبني عمومته حسبما أوصلت بذلك أمه - كثرّة - وكان الحظ الأكبر لمدينة أقادير من نصيب محمد بن سليمان الإدريسي.<sup>(5)</sup>

قال الرحالة أبو القاسم الزياني: «ولما خلاص إدريس بن عبد الله من واقعة أبي جعفر المنصور، وبلغ المغرب عام سبعين ومائة في خلافة موسى الهادي، واستولى عليه، وقام بدعوته

(1) محمود بوعباد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، ط1، منشورات الشركة الوطنية، الجزائر، سنة 1982، ص11.

(2) سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص22.

(3) ينظر: فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية: الرحالة والجغرافيون والمؤرخون والكتاب والشعراء العرب، ط1، دار السبيل، د.ب،

سنة 2011، ص151.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص90.

(5) ينظر: فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، مرجع سابق، ص152.

برابرة أوربة، ومغيلة ومكناسة نهض إلى المغرب الأوسط عام أربع وسبعين ومائة، فتلقيه محمد بن خزر بن صولات\* أمير زناتة وتلمسان؛ فدخل في طاعته وحمل عليها قومه مغراوة ومكنة منها فدخلها وهو الذي اختط مسجدها بأجادير وصنع منبره وأقام بها شهراً ورجع إلى المغرب؛ ولما هلك إدريس بويغ ولده إدريس الأصغر بعد مدة وفد إليها عام تسع وسبعين ومائة وجدّد مسجدها وأصلح منبره؛ وأقام بها ثلاث سنين دوّخ فيها أقطار المغرب الأوسط».<sup>(1)</sup>

الأدارة يعدون المؤسسين الحقيقيين لتلمسان، وأيضاً منحوها الضوء اللامع لهيكلها الإسلامي في أحسن صورة.<sup>(2)</sup>

تعد دولة المرابطين الدولة الثانية المتعاقبة على حارة تلمسان؛ فقد حكموها بين سنتي 461هـ/1069م و507هـ/1114م؛ حيث تمكن يوسف بن تاشفين الأكبر من كسر شوكة الأدارة وإزالتهم من طريقه؛ وذلك كان قبل أن يشيد المدينة الجديدة التي سماها تاقاروت؛<sup>(3)</sup> «وقبل أن يحتل يوسف بن تاشفين مدينة تلمسان بعث إليها قائده مزدالي ليحتلها؛ ثم بعد مدة لحقه هو بنفسه؛ فشهدت حاضرة تلمسان في وقتهم بأنهم هم الذين وضعوا اللينات الأساسية لها، فقد شيّدوا بها المساجد والقصور التي لا زالت إلى يومنا هذا من مفاخر التراث المعماري الإسلامي».<sup>(4)</sup>

(1) نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، مرجع سابق، ص30.

\*أمير قبيلة مغراوة الذي بنيت في عهده مدينة وهران؛ وكان سليل أمراء مغراوة الذين تقاسموا الحكم ما بين مليانة والمغرب مع أبناء عمّهم من بني يفرن.

(2) ينظر: عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان (962هـ - 633هـ / 1554-1236م)، ط1، دار الأوطان، د.ب، سنة 2011، ص36.

(3) سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص22.

(4) ينظر: نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، مرجع سابق، ص34.

«ففي عهد المرابطين تأسست مدينة تاجرارَات بجوار أجادير التي اتخذوها مأوى لهم ولأنصارهم ومعسكرًا لجندهم وترك بها يوسف بن تاشفين محمد بن تينعمر المسوفي واليًا عليها إلى أن هلك فولي أخوه تاشفين وكانت هذه المدينة مفصولة بسور عن المدينة القديمة لكن هذا السور أزيل بعد مدّة من الزمن وضمت تاجرارَات إلى أجادير»<sup>(1)</sup> «فسيطرة المرابطين على المدينة كانت بسبب ضعف قبائل زناتة - قبيلة مغراوة - التي عجزت عن مقاومة المرابطين؛ إلا أن ذلك لم يمنع من قيام ثورات من قبل زناتة على حكم المرابطين للمدينة، مثل ثورة ماحوخ الزناتي في تلمسان ومنطقتها سنة 507هـ/1113م»<sup>(2)</sup> «فخضوع تلمسان للدولة المرابطية أدى إلى قيام صراع مع الدولة الحمادية، فبعد إغارة الوالي تاشفين بن يغمور المرابطي على مدينة أشير الحمادية سنة 495هـ/1101م؛ توجه الأمير منصور الحمادي لحصار تلمسان؛ ودخلها سنة 496هـ/1102م؛ ورفض الخروج منها إلا بعد عزل الوالي تاشفين المرابطي عن المدينة؛ وعقد صلح بين الطرفين يوضح الحدود بينهما»<sup>(3)</sup>.

«اعتبرت تلمسان بعد الصلح الحد الفاصل بين الدولة الحمادية في شرق المغرب الأوسط والدولة المرابطية في المغرب الأوسط والأقصى؛ وقامت علاقة جيدة وطيبة بين الدولتين؛ والأهمية لتلمسان عند المرابطين أصبحت أحد مراكز ولايتهم؛ تولاهما رجال مهمون في الدولة المرابطية أمثال القائد مزدالي اللمتوني؛ تاشفين بن ينعمر»<sup>(4)</sup> فقد ترك المرابطون انطباعًا وأثرًا واضحًا بتلمسان؛ فأنشأوا كما قلنا آنفًا مدينة تاكرارت؛ كما أقام المرابطون بمدينة تلمسان المؤسسات

(1) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص 44.

(2) ابن خلدون، العبر، ج 7، مصدر سابق، ص 186.

(3) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 1، ط 8، دار الأمة، الجزائر، سنة 2007، ص 285.

(4) ابن خلدون، العبر، ج 7، مصدر سابق، ص 188.

الإدارية كالتى كانت في فاس وقرطبة؛ كما أصبحت المدينة في وقتهم مزدهرة بالعلوم والفقه؛ وبرز عدة علماء في مختلف العلوم؛<sup>(1)</sup> «فلقد تلّون الفتح المرابطي بمصالح الدين العليا».<sup>(2)</sup>

«كانت تلمسان مجالاً للحرب بين المرابطين والموحدين سنة 539هـ/1145م؛ حيث نزل المرابطون تآكرات محلّتهم في تلمسان؛ والموحدون في محلّتهم بين الصخرتين قرب تلمسان، وقد انتصر الموحدون في المعارك بين الطرفين؛ ولحقوا بالمرابطين إلى أبواب المدينة، حاصر الموحدون الجيش المرابطي داخل تلمسان لأكثر من شهرين إلى أن نجح الموحدون في الاستيلاء على المدينة».<sup>(3)</sup>

فمن بين الظروف التي دفعت الموحدين للسيطرة والهيمنة على تلمسان نذكر:

«— قيام قبيلة زنّانة بالتعاون مع قبيلة بني عبد الواد بمهاجمة بني ومانوا حلفاء الموحدين وقتل زعيمهم زيري بن ماحوخ؛ مما دفع عبد المؤمن بن علي الأمير الموحي للتحرك نحو تلمسان والمكوث فيها مدة قصيرة ثم مغادرتها».<sup>(4)</sup>

«— قيام تحالف في المغرب الأوسط ضم قبيلة زنّانة والمرابطين ضدّ التوسع الموحي في المنطقة؛ خصوصاً بعد كسب الموحدين يحيى بن إسحاق المعروف بانكمار والي تلمسان المرابطي، وطرد هذا الأخير؛ ووضع مكانه محمد بن يحيى بن فانوا والياً على تلمسان؛ لكن أرجعت الدولة الموحدية واليها».<sup>(5)</sup>

(1) عبد الرحمن الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج1، مرجع سابق، ص283.

(2) جورج.مارسي، تلمسان: مدن الفن الشهيرة، ترجمة سعيد دحماني، (د.ط)، دار النشر التل، الجزائر، سنة 2004، ص20.

(3) الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج2، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1997، ص105.

(4) الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، مصدر سابق، ص105.

(5) ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص230.

«العلاقة القديمة بين تلمسان وعبد المؤمن بن علي»<sup>(1)</sup>.

تأثرت تلمسان بالدخول الموحيدي إليها؛ فقد وصف النويري في نهاية الأرب ذلك قائلاً: « ونهبت الأموال وسبيت الذراري والحرم؛ وبيع من لم يقتل بأبخس الأثمان وأخذوا من الأموال والجواهر ما لا يحصى؛ وقيل قتل مئة ألف»<sup>(2)</sup>.

«كانت تلمسان خلال العهد الموحيدي قاعدة شرقية للدولة الموحدية ومركزاً متميزاً في المغرب الأوسط تحصيلًا وتعميراً؛ وذلك منذ عهد عبد المؤمن بن علي؛ فقد ولى عليها أولاد الخلفاء؛ وساهمت بقسطٍ وافرٍ في تزويد الدولة الموحدية بالأموال والرجال وفي صدّ غارات بني غانية؛ وتزايدت أهمية تلمسان مع خراب عدد من المدن بإقليمها؛ فأصبحت بذلك كما ذكر ابن خلدون قاعدته وأمّ هؤلاء الأحياء من زناتة»<sup>(3)</sup>.

«اهتمت الدولة الموحدية بتلمسان؛ ومنحتها اهتماماً خاصاً؛ فقد أعاد الموحدون بناء المدينة بعد أن دمروها أثناء الحصار؛ وجلبوا إليها الناس وأسكنوهم فيها لإعادة أعمارها؛ وأقاموا فيها المباني والقصور الفاخرة؛ وحصنوها بالأسوار والخنادق؛ وكانت المدينة مركزاً للجيش الموحدية المتجهة نحو الشرق وخاصة أثناء مقاومة ثورة ابن الغانية»<sup>(4)</sup>.

«شهدت تلمسان خلال العهد الموحدين تطوراً هائلاً في الحضارة والعمران والثقافة والاقتصاد»<sup>(5)</sup>؛ تعد هذه الأخيرة - تلمسان - المراكز العلمية في الدولة؛ والتي تعلّم فيها أبناء الخلفاء والأمراء الموحدين؛ فقد وجدت أربع مدن يذهب إليها أبناء الخلفاء والأمراء من الموحدين

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص.233.

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أحمد كمال زكي، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، سنة 1980، ص.24.

(3) صابرة خطيف، فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، ط1، جصور للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2011، ص.97.

(4) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.78.

(5) نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، مرجع سابق، ص.12.



لطلب العلم وهي تلمسان؛ فاس، اشبيلية وقرطبة؛ وكان أيامهم لهم بالغ الأهمية الدينية عند المتصوفة؛ خاصة بعد دفن الشيخ العالم أبي مدين شعيب (- 594هـ/1199م) في قرية العباد<sup>(1)</sup>.

توطدت العلاقة بين قبيلة عبد الواد الغربية للمدينة وبين الدولة الموحدية؛ وبعد أن ضعف أمر الموحدين؛ انقلبت العبد الوادية على أنقاضها وأسسوا دولة خاصة بهم<sup>(2)</sup>.

فمن بين العوامل المساعدة على قيام دولة بني زيان نعدد:

«- ضعف الموحدين بعد الهزيمة الكبرى التي مُنيوا بها في حصن العقاب بالأندلس؛ وتأزم الوضع بين السادة أمراء الأسرة الحاكمة وأشياخ القبائل المناصرة للدعوة الموحدية؛ واشتدت الأزمة السياسية بعد وفاة الخليفة العادل سنة 624هـ؛ وانتصب بعده على العرش إدريس المأمون\* الذي فتك برؤساء الموحدين؛ وساء التصرف لتعاليم المهدي بن تومرت؛ مما أدى بضعف الدولة وعجزها عن قمع الثورات وكذلك النقطة الموالية قوة قبيل بني عبد الواد وتماسكها بفضل دهاء زعمائها ومرونتهم الأمر الذي جعلهم يكسبون ولاء القبائل الأخرى»<sup>(3)</sup>.

«- انفصال الحفصيين ولاية إفريقية بتونس عام 626هـ عن الدولة الموحدية كان ذلك ليغمراسن مشجعاً ودافعاً للإقتداء بهم في سبيل كسب المجد لأسرته؛ وكما علمته الأحداث بأن بني مرين في طريق الانفصال أيضاً؛ فتعجل بالأمر بأن بني مرين في طريق الانفصال؛ والنقطة الأخيرة حصانة

(1) محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق أحمد مختال العبادي وإبراهيم الكتاني، ج1، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1964، ص469.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص277.

(3) عبدلي لحضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص60، ص61.

\*أبو العلي إدريس المأمون ابن يعقوب المنصور بن يوسف العسري بن عبد المؤمن بن علي حكم من سنة 624-630هـ / 1226-

مدينة تلمسان عاصمة الإمارة وهي من العوامل الهامة على قيام الدولة الزيانية؛ وفي تلك الآونة كان نفوذ الموحدون يتلاشى<sup>(1)</sup>.

«تمكن بنو عبد الواد من تأسيس دولتهم عام 633 هجرية الموافق 1235 ميلادية وكانت عاصمتهم تلمسان وكان بنو عبد الواد من الرحل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط وكانوا ينتجعون المراعي الخصبة ويترددون على المواقع التي تقع ما بين فجيج ومديونة وجبل راشد<sup>(2)</sup>.

«ويعود بنو عبد الواد في الأصل إلى قبيلة زناتة الكبرى؛ وهم عدة بطون: منهم بنو باتكين، بنو وللو، مصوغة، بنو ورسطيف وبنو القاسم<sup>(3)</sup>؛ فمن هذا الأخير ينحدر بنو عبد الواد<sup>(4)</sup>.

«أما نسب القاسم فينتهي إلى لقيس بن غيلان بن مضر، ويضاف إليهم الزرادلة، لأن زردال وعبد الوادي إخوان وبهم تكمل اثنتا عشر قبيلة المعدودة في بني عبد الوادي؛ ستة قبائل في ولد القاسم وخمسة في أولاد عبد الوادي، وواحدة في ولد زردال أخيه؛ وغلب اسم عبد الوادي على الجميع؛ والقاسم المذكور الذي من نسله بنو زيان، فقد اتفق النسابون على أنه من ولد عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ<sup>(5)</sup>.

(1) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص 62، ص 63.

(2) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، (د.ط)، موقم للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2002، ص 14.

(3) ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، مصدر سابق، ص 186.

(4) ينظر: التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان، تحقيق محمود بوعباد، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1985، ص 110.

(5) أبي راس الناصر العسكري، لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان، دراسة وتحقيق حمدادوين عمر، ط 2، قرطبة للنشر والتوزيع، د.ب، سنة 2012، ص 148.

لقد أنكر يغمراسن بن زيان أول سلاطين بني عبد الواد نسبه إلى آل البيت فقال باللغة الزناتية فيما معناه: « إن كان هذا صحيح فينفعنا عند الله أمّا الدنيا فلنناها بسيوفنا»<sup>(1)</sup>؛ وأيضاً من بين الأسباب التي توطدت العلاقة ما بين الموحدين قبل خروجهم من تلمسان وبني عبد الواد أنّه في سنة 539هـ/1145م جرت معركة منداس بين الموحدين وبني مرين نتج عنه هزيمة المرينيين أشد هزيمة وخروجهم إلى الصحراء- المغرب الأوسط- بقيادة المخضّب بن عسكر، وأراد الانتقام من الموحدين بالاستيلاء على الغنائم، فأرسل نحو خمسمائة فارس، وقطع طريق الموحدين فأخذ الغنائم.<sup>(2)</sup>

عند معرفة عبد المؤمن بالأمر أرسل في طلب حلفائه من بني عبد الواد؛ وخاصة إلى زعيمهم عبد الحق بن معاذ يطلب منه استرجاع الغنائم من المخضّب، فخرج زعيم بنو عبد الواد والتقوا مع بني مرين في فحص مسون؛ وأخذوا الغنائم من المخضّب بعد معركة وقاموا بقتله.<sup>(3)</sup> فمن خلال هذه المبادرة التي قامت بها الدولة العبد الوادية؛ كفأها الدولة الموحدية بتقديم لها قطاعات بتلمسان؛ ومن هنا بدأت لعبة الزيانين بتعمير تلمسان والسيطرة عليها.<sup>(4)</sup>

«تمكن يغمراسن من التوسع غرباً وصار الحد الفاصل بينه وبين دولة بني مرين بالمغرب الأقصى وادي ملوية كما امتد نفوذه إلى مدينة وجدة»<sup>(5)</sup>؛ «وإلى مدينة تاويرت التي هي اليوم داخل التراب المراكشي على بعد 136 كيلومتر غربي وجدة التي كانت مدنها أيضاً كما ذكر مسالك الأبصار تبلغ في بعض الأحيان شرقاً إلى أعمال قسنطينة ودلس وبجاية وهي في ذلك تسير

(1) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.86.

(2) ينظر: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، ج2، (د.ط)، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، سنة 1932، ص.329.

(3) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، ج1، مصدر سابق، ص.186.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.73.

(5) عبد الرحمن الأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والممالك، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، سنة 2007 – 2008، ص.05.

حسب تقدم الدولة وانتصاراتها»<sup>(1)</sup>؛ «وقد كان يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط؛ ومن الجنوب المحاور الفاصلة بين المغرب وبلاد السودان؛ ولقد تعرضت حدود الدولة العبد الوادية - على امتداد تاريخها- لعدد من التغيرات لأن طبيعة العلاقات السياسية آنذاك كانت تخضع لمستوى الدولة وقدرتها على حماية حدودها؛ وذلك حسب قوة السلاطين أو وضعهم»<sup>(2)</sup>.

نظم يغمراسن شؤون الدولة الزيانية وقام بتنظيم كل فرقة يقول عبد الرحمن في هذا الصدد: «واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالخ؛ واستلحق العساكر، وفرض العطاء؛ واتخذ الوزراء والكتّاب؛ وبعث في الأعمال؛ ولبس شارة الملك؛ واقتعد الكرسي؛ ومحا آثار الدولة المؤمنية»<sup>(3)</sup>؛ فقد عمل السلطان يغمراسن على توسيع نطاق تلمسان بإخضاع القبائل البربرية والعربية لسيادة تلمسان؛ فبدأها بأبناء عمومته من بني مطهر وبني راشد<sup>(4)</sup>؛ عمل يغمراسن على محاربة قبائل توجين ومغراوة المجاورتين لتلمسان؛ فقد كانتا هاتين القبلتين دائمة التمرد على سلطة تلمسان؛ وتوقع لها المشاكل مع الدول المجاورة كما حدث عندما طلبت قبيلة مغراوة وتوجين المساعدة من طرف الدولة الحفصية ضد الدولة الزيانية.<sup>(5)</sup>

«لقد كان اعتماد يغمراسن في حروبه على أحلاف له أقوياء من عرب بني هلال وهم من بني عبد سويد من بني زغبة؛ وكانوا أعداء لفريق آخر من بني هلال هم بنو ضوى بن عبيد الله من المعقل؛ وكانوا أعداء بني يغمراسن وقد طالت الحروب بينه وبينهم حتى يقال إنه غزاهم اثنين وسبعين مرة؛ وكانت منازلهم في غربي بلاده بين تلمسان ووجدة، وكان بنو سويد الزغبيون الهلاليون عصب القوة العسكرية ليغمراسن فأقطعهم الأراضي الواسعة؛ ثم استقدم يغمراسن عرباً

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1994، ص.146.

(2) لخضر عبدلي، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، د.ب، سنة 2011، ص.47.

(3) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص.79.

(4) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، ج1، مصدر سابق، ص.205.

(5) ينظر: التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص.118.

آخرين من بني زُغبة وهم بنو عامر وبنو هميان؛ فقوي بهم جمعه وزادت قوته؛ وبفضل هؤلاء أضعف يغمراسن قوى بني ضوى الذين كانوا من أنصار المرينيين»<sup>(1)</sup>.

قال ابن خلدون عن بني زيان مدّة حكمهم قال: «ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع الصروح إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم وكرسيّاً لسلطانهم فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الجميلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب؛ ورحل إليها الناس...»<sup>(2)</sup>.

بعد وفاة السلطان يغمراسن الداهية سنة 681هـ/1282م خلفه ابنه عثمان، وسار على منهاج والده بتوسيع سلطة تلمسان، وقام بإدخال القبائل الرافضة للطوع إلى بحيرة تلمسان؛ أثناء فترة أبيه التي رفضت الدخول إلى السلطة أو الخروج عنها مثل: مدينة تنس.<sup>(3)</sup>

حاول السلطان عثمان التوسع على حساب الدولة الحفصية؛ فقد لاحظ السلطان يغمراسن قبل وفاته بوادر الضعف على جيرانه الحفصيين في الشرق، فأوصى ابنه بالاستيلاء على هذه الدول المجاورة لكن باءت معركته بالفشل سنة 682هـ/1287م بضم بجاية إلى أحوازها؛ فضمّ في المقابل قبيلة تافر كينت على الحدود الشرقية.<sup>(4)</sup>

(1) ابن الأحرر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق وتعليق هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، د، ب، سنة 2001، ص24.

(2) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص38.

(3) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص152.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص92.

ففي الفترة الواقعة ما بين 698-706هـ/1298-1307م انحسرت تلمسان داخل أسوارها وذلك بسبب الحصار الذي قامت بها الدولة المرينية وغزتهم لمدة ثماني سنوات<sup>(1)</sup> وفي عهد أبو حمو موسى الأول\* كان من بين أعماله التي قام بها أنه لجأ إلى مسالمة بني مرين ومهادنتهم؛ وعندما استقر بالحكم واطمأن على الناحية الغربية أنها في منأى عن المخاطر؛ اشتغل بتطهير الحواشي والجوانب المحيطة به؛ فأخذ بمحاربة القبائل المتطرفة عنه كقبيلة مغراوة وتوجين فانتصر عليهم وضمهم إلى صفوفه<sup>(2)</sup>.

«ففي ولاية أبو حمو موسى الأول؛ وابنه أبي تاشفين عبد الرحمن الأول؛ توغلت جيوش بني عبد الواد في الأراضي الشرقية وبلغت بجاية وعنابة وحاصرتها بل وصلت مدينة تونس عاصمة بني حفص في عهد أبي تاشفين؛ لكنّها تراجعت إلى حدود بجاية»<sup>(3)</sup> فقد قامت السلطة الزيانية ببناء الحصون والقلاع وحتى القصور على الطريق نحو المناطق الشرقية باتجاه الدولة الحفصية وبالأخص بجاية لتساعدها على فتح المنطقة؛ وقد انتهى الضغط بدخول الزيانيين لتونس سنة 730هـ/1331م<sup>(4)</sup>.

ومّا يلاحظ على الأسرة الحاكمة الزانية تمرد بعض أبنائها فمثلا خروج الأمير محمد بن يوسف على ابن عمه وصهره السلطان أبي حمو، حيث تمرد على السلطان في جبال وانشرس لمدة

(1) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.94.

\*هو السلطان أبو حمو بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان ولد سنة 665هـ -1266م، وبويع بتلمسان يوم وفاة أخيه السلطان أبي زيان الأول الأحد 21 شوال 706هـ -26 أبريل 1307م؛ وكان شجاعاً شديداً في غير قساوة، ليناً في غير ضعف حازماً صارماً، وهو أول من أحدث في هذه الدولة مراسيم الملك ومصطلحات تنظيمات القصر وتشريفاته.

(2) ينظر: عبد القادر بوطبل، تاريخ مدينة حمو موسى في الماضي والحاضر، (د.ط)، موقم للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2011، ص26.

(3) عبد الرحمن الأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والممالك، مرجع سابق، ص11.

(4) ينظر: عبد القادر بوطبل، تاريخ مدينة حمو موسى في الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص27.

سنتين؛ وأيضاً خروج السلطان أبي تاشفين ضدّ والده السلطان أبو حمو، وكذلك قيام الأمير بقتل والده من أجل توليه الحكم.<sup>(1)</sup>

كانت هناك علاقات سياسية قام بها الزيانيين؛ كعلاقتهم مع بني الأحمر؛ وكانت تصل في بعض الأحيان إلى التحالف؛ ممّا كان يجعل المرينيين يقومون بحملات عسكرية تشن عليها الحرب لإضعاف علاقتهم السياسية، ففي سنة 680هـ/1281م أرسل المرينيون بعض العساكر لشن ثورات ضدّ الزيانيين؛ لاعتقادهم - المرينيون - بأنّ هناك اتفاق ما بين السلطان يغمراسن والسلطان محمد الفقيه الأندلسي.<sup>(2)</sup>

كما جرت أول معاهدة لعقد الصلح ما بين الدولتين - المرينية والزيانية - لكنّها باءت بالفشل والرفض من طرف السلطان يغمراسن قائلاً:

«فَلَا صَلَاحَ حَتَّى تَرَوْي السَّيْفَ وَالْقَنَا ❀ وَتَأْخُذُ عَبْدَ الْوَادِ مِنْكُمْ بِثَارِهَا  
وَاشْفِي غَلِيلِي مِنْ مَرِينٍ حِينَ طَغَتْ ❀ بِسَيِّ غَوَانِيهَا وَقَتْلِ خِيَارِهَا».<sup>(3)</sup>

كما كانت علاقات ضارمة بين جارتها الحفصية؛ فقد اعتبرت نفسها هي المالكة الوحيدة للمغرب؛ وإخضاع سلطة تلمسان تحت إمرتها؛ فقد كانت هناك مضاربات عسكرية؛<sup>(4)</sup> وقد كانت ليغمراسن بن زيان مواقف سياسية مع جيرانه بني حفص وظهر فيها سياسياً؛ وقد عمل على ربط الصلة عن طريق المصاهرة؛<sup>(5)</sup> عندما خطب السلطان يغمراسن لابنه وولي عرشه الأمير

(1) ينظر: التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص.138.

(2) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.87.

(3) محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القلم والحديث، ج2، مرجع سابق، ص.422.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.286.

(5) ينظر: محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984، ص.91.

عثمان من ابنة السلطان إبراهيم الحفصي؛ وكان هذا الزواج هدفه سياسي، حتى يكسب السلطان يغمراسن ود الحفصيين ويتفادى خطرهم؛ ويضمّمهم إلى صفه.<sup>(1)</sup>

كما أنّ الزيانيين وطدوا علاقات جديدة مع مصر باعتبارها رابطة الحج وأنّ مصر تقع على طريق الحج للمغاربة فقد كانت هناك رسائل متبادلة ما بين الطرفين؛ كما أنّ سلاطين تلمسان والقاهرة تبادلوا الهدايا، فعلى سبيل المثال أهدى السلطان أبو زيان بعض الخيول إلى السلطان المصري برقوق، وقد بلغ عددها حوالي ثلاثون رأساً.<sup>(2)</sup>

«عرفت الناحية الشرقية تطوراً ملحوظاً منذ اعتلاء أبي سعيد عثمان بن يغمراسن عرش المملكة؛ كما امتدت حدودها من تخوم شمالاً إلى غاية الصحراء الكبرى التي تفصل المغرب الإسلامي عن إفريقيا السوداء جنوباً».<sup>(3)</sup>

بعد كل تلك المناوشات بين الدول المجاورة؛ أعيد إحياء مجد الدولة الزيانية سنة 749هـ/1348م على يد الأمير بن الشقيقين أبي سعيد وأبي ثابت وذلك بعد هزيمة السلطان أبي الحسن المريني في معركة القيروان؛<sup>(4)</sup> وكذلك عادت المدينة إلى أمجادها السابقة بعد أن ترأسها وترعّمها السلطان أبو حمو موسى الثاني، فقد اهتّم بعرشها وضم القبائل، وإخراج بني مرين من مملكته.<sup>(5)</sup> خلال عهد السلطان بأبو حمو موسى الثاني فرض هيمنته وحارب بعض القبائل الخارجة عن السيطرة، كما شهدت تلمسان خلال عهده تطوراً ملحوظاً في مختلف نواحي الحياة، فقد بذل الغالي والنفيس من أجل اكتساب المدينة منارة ذات شعلة في العلم والفن والأدب.<sup>(6)</sup>

(1) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص81.

(2) ينظر: التنسي، نظم الدر والعقبان، مصدر سابق، ص221.

(3) هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسياً وثقافياً، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة تلمسان، سنة 2007-2008، ص14.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص115.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص123.

(6) ينظر: مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مرجع سابق، ص176.



«عمّرت الدولة الزيانية أكثر من ثلاثة قرون من سنة 1236 إلى 1554م؛ ولكن حياتها كلها كانت صراعاً حاداً ومريراً ومستميتاً وطويلاً ضدّ عدّة قوى متصارعة ومتطاحنة يمكن تحديدها بالكيفية التالية:

- 1- صراع الأمراء الزيانيين فيما بينهم على العرش والسلطة.
- 2- تدخل الدولتين المرينية والحفصية في الشؤون الداخلية لهذه الدولة الزيانية في محاولة كلّ منهما لإزالتها والسيطرة على بلادها وشعبها.
- 3- تدخل الإسبان تبعاً لذلك، ولنفس الغرض والهدف؛ بعد أن ضعف شأن هذه الإمارات الثلاثة المغربية.
- 4- تدخل الأتراك في النهاية، إنقاذاً لوجودهم بالجزائر العاصمة؛ وشرق الجزائر وتقطع خط الرجعة على الإسبان وتصفية وجودهم الاستعماريّ في كلّ موانئ المغرب العربيّ الساحلية، وقد تمكّنوا فعلاً من وضع حدّ ونهاية للدولة الزيانية بتلمسان؛ ولأطماع الإسبان في السيطرة على الجزائر وكلّ بلدان الشمال الإفريقيّ؛ كما وضعوا نهاية أيضاً لدولة بني حفص في تونس».<sup>(1)</sup>

<sup>(1)</sup> نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، مرجع سابق، ص 17.

## المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية:

إنَّ الحياة الاقتصادية في عهد الدولة الزيانية تقلبت بين مراحل مختلفة بتأثير العوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية المحيطة بها؛ وتعتبر الدولة الزيانية من أعظم الدول التي أكسبت المغرب الأوسط حضارة مادية.

قال محمد مبارك الملي: « الدولة الزيانية فلاحية بطبيعة أرضها تجارية بطبيعة موقعها، صناعية بطبيعة سكانها الأصليين؛ ولقاح الجاليات الأندلسية والأسرى الأوربيين؛ هضمت حضارات الدول الأولى؛ وأخرجت بعناية ملوكها ونشاطهم حضارة زيانية»<sup>(1)</sup>.

كانت هناك أراضي الإقطاع في المغرب الأوسط وهي أراضي تكون ملك للدولة، ولا يمكن التصرف فيها إلا من طرف السلطان، وكان من استخدم وعمل بنظام الإقطاع في دولة بني عبد الواد كان السلطان يغمراسن بن زيان، فقد اقتطع مشايخ قبيلة سويد العامرية بلاد البطحاء<sup>(2)</sup>. ثم فيما بعد نهج نهجه بقية السلاطين الآخرين؛ وقد طغى هذا النظام بصفة خاصة خلال عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، فقد أصبحت الدولة عبارة عن إقطاعات للقبائل والأشخاص<sup>(3)</sup>. «فمن بين الذين استفادوا من هذا الإقطاع، فقهاء تلمسان أمثال التنسي والعقبانيين فالتنسي؛ أقطعه يغمراسن أرضاً للانتفاع بها بعد قدومه من تنس، ثم بعد وفاته انتقلت إلى أبناء الإمام وهم من مدينة برشك في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول...»<sup>(4)</sup>.

فوجدت في تلمسان زراعة نشطة ومتوفرة؛ وذلك للأسباب التالية:

«وجود السهول غرب وشمال تلمسان، منها سهل المنية وسهل وادي الشلف وسهل العباد وسهل متيجة»<sup>(5)</sup>.

(1) مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مرجع سابق، ص.392.

(2) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص.59.

(3) المصدر نفسه، ص.61.

(4) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، الأحوال الاقتصادية والثقافية، ج2، (د.ط)، منشورات الحضارة، الجزائر، سنة 2009، ص.21.

(5) عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1982، ص.211.

والنقطة الثانية: «توفر مياه الأنهار والينابيع الصالحة للري؛ مثل وادي متشكانة وعين لوريط وعين الفوارة»<sup>(1)</sup>، وكذلك «اشتغال عدد كبير من سكان تلمسان والدولة الزيانية بهذه الحرفة»<sup>(2)</sup>.

تميزت منطقة تلمسان بكثرة الأراضي السهلية، في كلتا الجهتين الغربية والشمالية، وقد عرفت باسم فحوص مثل فحص قرية العباد، وميزتها أنها كانت تنتج أنواعاً جيدة وكثيرة من المحاصيل الزراعية؛<sup>(3)</sup> كما كان يلاحظ أن السلاطين كانوا يعمدون إلى شراء الأراضي الزراعية والبساتين.<sup>(4)</sup>

فقد وصف المؤرخون الزراعة في تلمسان فقد قال الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق: «وما جاورها من المزارع كلها مسقي؛ وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمّة؛ وخيراتها شاملة»<sup>(5)</sup> أمّا يحيى بن خلدون في بغية الرواد فقال: «كريمة المنبت، اشتملت على البساتين الرائعة، تحف بخارجها الخمائل والأرواح الأشبهة، والحدائق الغلب...»<sup>(6)</sup>

فقد قال العبدري البلنسي عن الزراعة بتلمسان: «والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار»<sup>(7)</sup>؛ وقال أيضاً لسان الدين بن الخطيب: «خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع»<sup>(8)</sup>، كما قال عنها الزهري: «كثيرة الفواكه والزرع»<sup>(9)</sup>

(1) الوزان (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، والشركة المغربية للنشر، بيروت، الرباط، سنة 1982، ص.20.

(2) محمود بوعباد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص.33.

(3) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص.85.

(4) ينظر: ابن مريم المليبي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص.28.

(5) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ط1، عالم الكتب، بيروت، سنة 1989، ص.248.

(6) يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، مصدر سابق، ص.85.

(7) مبارك المليبي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، مرجع سابق، ص.446.

(8) المرجع نفسه، ص.447.

(9) يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، ج1، مصدر سابق، ص.90.

عرفت حاضرة تلمسان بكثرة إنتاجها الزراعي على مرّ العصور، وقد أطلق على المدينة آنذاك باسم بوماريا خلال العهد الروماني وكانت تعني البساتين.<sup>(1)</sup>

وقد كانت تلمسان تخزن محاصيلها داخل مخازن كانت تسمى مطامير؛ وقد ساعدتها هذه المطامير في وقت المجاعة عام 776هـ/1374م؛ وعادت عليها بالفائدة والربح عند بيعها في الأسواق.<sup>(2)</sup>

ففي حصار المرينيين لمدينة تلمسان نجم عنها المجاعة فقد استغرقت مدّة طويلة فارتفعت أسعار المواد الغذائية والحبوب والخضر والفواكه وسائر المرافق شهدت غلاءً كبيراً؛ فاستهلك الناس معظم أموالهم وحتى مدخراتهم؛ فقد أكل الناس القطط والفئران.<sup>(3)</sup>

«تأثرت الزراعة في تلمسان بالحالة السياسية التي مرت بها المدينة والمنطقة؛ فكانت المزروعات تتعرض للدمار والسلب والنهب من قبل المهاجمين للمدينة، فقد تركزت الحملات وغارات القبائل على حرمان المدينة من المنتجات الزراعية بتدمير المزارع وقطع الأشجار؛ وضيق قبائل توجين بمدينة تلمسان لأخذ ثأرهم؛ فقطعوا الثمار والجنات وخربوا الديار وأفسدوا الزروع».<sup>(4)</sup>

«فقد تنوعت المنتجات الزراعية في تلمسان بين منتجات استهلاكية ومنتجات زراعية صناعية، وأهم المنتجات الزراعية؛ نذكر: القمح، الشعير، الذرة، الخضروات، الفول، الخس، اللفت، الخيار، البطيخ، والأشجار المثمرة منها العنب، التين، الكرز، اللوز، الخوخ، والإجاص».<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: سعد بوفلاقة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص.21.

(2) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.96.

(3) المصدر نفسه، ص.198.

(4) الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، (د.ط)، دار المنصور للطباعة، الرباط، سنة 1972، ص.311.

(5) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.76.

«ازدهرت غراسة الأشجار بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني بفضل ما لقيته من عناية واهتمام فقد كان السكان يعتنون بالبساتين ويغرسون فيها أنواعاً مختلفة من الفواكه؛ فمنطقة تلمسان فيها الأعناب من كل الأنواع وكذلك بقية الثمار؛ وهي كثيرة الفواكه؛ ومن فواكهها الرمان والزيتون».<sup>(1)</sup>

قال القلقشندي في هذا الصدد: «الذي ينقل من مسالك الأبصار للعمري فقد ذكر من بين فواكه الدولة الزيانية؛ التين والعنب والرمان والتفاح على أصنافه والكمثري والمشمش والبرقوق والخوخ والجوز واللوز والليمون والنارنج والبطيخ الأصفر والأخضر».<sup>(2)</sup>

«اهتم سكان تلمسان بزراعة المحاصيل الزراعية التي تستخدم للصناعة؛ مثل زراعة النباتات الصالحة لصناعة الورق؛ ويعتبر القطن من بين المحاصيل الزراعية الهامة التي أدخلها العرب لبلاد المغرب؛ ومنها انتقلت زراعته لأغلب مناطق الدولة الزيانية لما له من أهمية خاصة في صناعة النسيج؛ وكان منتشراً القطن بكثرة في نواحي ندرومة ومستغانم؛ كما اهتم بنو زيان بالنبات الذي يخرج منه العطر وكذلك زراعة قصب السكر والكتان»؛<sup>(3)</sup> ومن بين المحاصيل الزراعية أيضاً الحنّة والكمون؛ وقد انتشرت زراعتها في مختلف مناطق الدولة الزيانية.<sup>(4)</sup>

«عرف سكان تلمسان والقبائل المحيطة بها تربية الحيوانات والطيور؛ وأهمها الماشية، الإبل، الأغنام، الأبقار، الخيل والبغال»؛<sup>(5)</sup> فقد اهتم بنو راشد بجبل عمور بتربية المواشي، وقد انتقلوا إلى المناطق الشمالية أين يتوافر الكلاء والماء لمواشيهم<sup>(6)</sup>؛ كانت هذه الحيوانات مصدر رزقهم الذي يقتنون منه؛ فاستفادوا من لحومها وصوفها؛ وقد زاد إنتاج تلك الحيوانات خاصة الماشية، فقد

(1) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، مرجع سابق، ص28.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، (د.ط)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، مصر، د.ت، ص176.

(3) مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، مرجع سابق، ص483.

(4) ينظر: مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، مرجع سابق، ص32.

(5) بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1993، ص213.

(6) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص321.

كانت فيما قبل تُعنى بتربية الإبل إلى أن تحولت إلى تربية الماشية والبقر والطيور على أصنافها المختلفة.<sup>(1)</sup>

ففي العهد الموحي والعهد الزياني عرفت أسعار اللحوم تذبذباً كبيراً؛ وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى تربية المواشي التي أخذت النصيب الأكبر، بالإضافة إلى بعض القبائل كانت تعنى بتربية الخيول العربية الأصيلة.<sup>(2)</sup> وكان أول من استجلب الخيول بالمغرب الأوسط هو عبد المؤمن مؤسس الدولة الموحدية.<sup>(3)</sup>

لقد أثر المجتمع الأندلسي في المجال الاقتصادي، فعندما هاجر جلّ الأندلسيين إلى الأراضي الزيانية؛ جاء منهم عدد كبير من الفلاحين والصّناع والحرفيين، وقام بتشيد القرى، والبساتين؛ كما أنّهم أسسوا المصانع والمناجم، وعملوا في الحقول والمزارع.<sup>(4)</sup> فقد كان للأندلسيين الخبرة الكافية في مجال السقي والمياه؛ فأخذ سكان تلمسان عنهم تلك الخبرة فنجم عنها النفع؛ كما تفتّن المجتمع الأندلسي بصناعة الجلود، وتجارة الخشب؛ وغزل الصوف.<sup>(5)</sup>

«لقد أخذت التجارة حظها خلال العهد الزياني، فتمثل الأسواق مركزاً للنشاط التجاريّ بصوره ومراحلته المختلفة؛ فالأسواق هي مرآة عاكسة لحياة المدينة الاقتصادية وعنوان نشاطها التجاريّ والصناعيّ؛ فمنذ إنشاء المدن رتبت أسواقها؛ وهناك صنفين من التّجار؛ تجار صغار يزاولون تجارتهم بمفردهم؛ وأغلب هؤلاء يكونون إمّا مستأجرين للدّكاكين والمتاجر؛ أو متجولين بين الشوارع والأزقة؛ والصنف الثاني تجار يتنقلون بين المدن وأسواقها؛ يشاركون التّجار الأجانب

(1) ينظر: محمود بوعباد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص33.

(2) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج2، مرجع سابق، ص35.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص37.

(4) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، (د.ط)، مرقم للنشر، الجزائر، سنة 2011، ص176.

(5) ينظر: المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، مصدر سابق، ص07.

في البيع والشراء»<sup>(1)</sup>؛ «كانت للدولة الزيانية علاقات تجارية مكثفة مع بلدان المغرب والسودان الغربي وأوربا؛ وأهمّ المحطات التجارية التي تربطها بها هي: ميناء وهران وهنين. كما كانت للدولة الزيانية علاقات تجارية مع أوربا لكنّها مرتبطة بمعاهدات ذات شروط واضحة وهذه المعاهدات كانت تبرم على أساسين اثنين هما: الضمانات المعهودة للتجار المسحيين وكان هؤلاء يتمتعون بالأمن والحماية أثناء إقامتهم في موانئ الدولة الزيانية أو أثناء رحلاتهم البحرية نحو المناطق المخصصة لهم وزيادة على ذلك كانوا أحراراً في بيع أو عدم بيع سلعتهم إلا في بعض الاستثناءات»<sup>(2)</sup>.

فقد عرفت تلمسان الصناعة قبل العهد الزياني؛ فنظمت أمور الصناعة داخل تلمسان خاصة الفترة الزيانية؛ من خلال إنشاء مراكز خاصة؛ وكان الصناع آنذاك ذو شأنٍ ولهم إيقاعهم الخاص بألبستهم وأسواقهم.<sup>(3)</sup>

«ظهرت صناعة الورق بدليل كثرة الوراقين ونسخ الكتب وتجليدها، ومن الصناعات والحرف التي ظهرت بتلمسان الصناعات الجلدية؛ ومن الحرف التي عرفت في تلمسان واعتمد عليها قسم من السكان في حياتهم اليومية مهنة بيع العطر؛ بيع اللبن، بيع الخبز والفاكهة، بيع الحطب والفحم، صنع الأوعية والأواني، صنع المحارث»<sup>(4)</sup>.

(1) فؤاد طوهارة، النشاط الاقتصادي في تلمسان خلال العصر الزياني (7-9هـ / 13-15م)، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع2، الجزائر، جوان 2014، ص81، ص82.

(2) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص402.

(3) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج2، مصدر سابق، ص28.

(4) الطمار، تلمسان عبر العصور، مرجع سابق، ص182.

«نشأ عن الازدهار الاقتصادي نشاط الصناعات والحرف؛ واختصت كل حرفة بسوقها؛ فمثلا فاس، تيهرت، تلمسان اختصت بالمنسوجات؛ وأهم مصنوعاتها في الخارج هي مصنوعات الصوف وأقمشة الحرير».<sup>(1)</sup>

قال يحيى بن خلدون عنها: «ويعمر بتلمسان من البشر أختيارهم أولو حياء ووقار ووفاء بالعهد وعفاف ودين واقتصاد في المعاش واللباس والسكن على هدي السلف الصالح- رضي الله عنهم- وغالبًا تكسبهم الفلاحة وحياسة الصوف يتنافسون في عمل أثوابه الرقاق؛ فتلقى الكساء أو البرنوس عندهم من ثماني أواق...»<sup>(2)</sup>

«ظهر في تلمسان أيام الدولة الزيانية منطقة صناعية خاصة تجمعت فيها مختلف الصناعات داخل المدينة؛ وقد عرفت هذه المنطقة باسم دار الصنعة، وبرزت أيام السلطان أبو حمو موسى الثاني»<sup>(3)</sup>، و«صناعات تلمسان مميزة عن غيرها؛ مثل الساعة العجيبة- المنجاة- والشجرة العجيبة المصنوعة من الفضة زمن السلطان عبد الرحمن أبو تاشفين الأول، والهدية التي بعثها السلطان أحمد الثاني إلى الملك الإسباني واشتملت على دجاجة بست وثلاثين نقفا من الذهب»<sup>(4)</sup>.

«تأثرت التجارة في تلمسان مع دخول القبائل الهلالية إلى منطقة الغرب، بسبب تعرض القوافل التجارية للسلب والنهب؛ مما أدى إلى تراجع مكانة المدينة التجارية؛ إلا أنه بقيام الدولة الزيانية واتخاذها من تلمسان مركزاً لها عملت على تشجيع الحركة التجارية بتوفير الأمن والماء للطرق التجارية».<sup>(5)</sup>

(1) عبدلي لحضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص. 409.

(2) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص. 304.

(3) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص. 161.

(4) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط8، دار الأمة، الجزائر، سنة 2007، ص. 243، ص. 247.

(5) المقرئ، نفح الطيب، ج2، مصدر سابق، ص. 193.



#### المبحث الرابع: الحياة الاجتماعية:

«ضمّ المجتمع المغربي مع بداية الفتوحات العربية الإسلامية ثلاثة عناصر رئيسية هي: البربر سواء البتر أم البرانس؛ والبيزنطيون وهم على الديانة المسيحية؛ والأفارقة بأيديهم التجارة وشؤون المال والوظائف المهمة والكبيرة».<sup>(1)</sup>

«ومع توجه الفتوحات العربية الإسلامية نحو أفريقية والمغرب، بدأت أعداد من المسلمين بالهجرة إليها، وسكنوا في المدن المهمة مثل قرطاجة وبرقة وتلمسان وطنجة وسبتة؛ واختلط العنصر العربي مع العنصر البربري»<sup>(2)</sup>؛ «فقد وحد بينهما الدين الإسلامي، واللغة العربية، وانتسبهم إلى بلاد المغرب العربي؛ وامتزجوا بالمصاهرة وجميعهم سنيون ومالكيون».<sup>(3)</sup>

«فعن طريق الاختلاط امتزجت عناصر السكان وانصهرت في مجتمع متجانس في العلاقات والتقاليد، وأول عنصر قدم إلى المغرب الأوسط بأعدادٍ وفيرة هي القبائل البربرية وخاصة فرع زناتة».<sup>(4)</sup>

تشكّل مجتمع تلمسان من العناصر السكانية الآتية:

«— العنصر البربري: البربر أجناس كثيرة، سكنوا المغرب منذ أقدم العصور؛ ومن جملة تلك الأجناس زناتة؛ وهي أهم قبيلة بربرية سكنت المدينة والمنطقة».<sup>(5)</sup>

قال عبد الرحمن بن خلدون عن هذه القبيلة — زناتة —: «المغرب الأوسط وطن زناتة»<sup>(6)</sup>.

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، مرجع سابق، ص.138.

(2) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، مرجع سابق، ص.139.

(3) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص.421.

(4) فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، مرجع سابق، ص.197.

(5) المرجع نفسه، ص.197.

(6) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.02.

وقال أيضاً في هذا الصدد يحيى بن خلدون: « تلمسان تعتبر دار مملكة زناتة».<sup>(1)</sup>

فقد تفرعت عن قبيلة زناتة عدّة فروع كثيرة منها: بنو مغراوة، بنو يفرن، بنو بلومي، بنو وماتوا، بنو واسين.<sup>(2)</sup>

«قبيلة مغراوة هم بنو يصلتين بن مسراين زاكيا بن ورشيك بن الديرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني يرنيان؛ وكانت محالاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما يليها»<sup>(3)</sup> فقد وصفهم عبد الرحمن بن خلدون في العبر فقال: « كانوا أوسع بطون زناتة وأهل البأس والقلب منهم»<sup>(4)</sup> فعندما ظهرت الدولة الزيانية تنوعت العلاقة بينهما؛ فكانت في بعض الأحيان متحالفة وتارة أخرى عدائية، وكان ذلك بسبب من يتزعم منطقة تلمسان، إلى أن خضعت مغراوة لسيطرة تلمسان.<sup>(5)</sup>

«— بني يفرن: هم إحدى بطون زناتة؛ وهم بنو يصلتين بن مسراين بن زكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا إخوة مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين، والكلّ بنو يصلتين، ويفرن في لغة البربر هو القار».<sup>(6)</sup>

وصف ابن خلدون هذه القبيلة فقال: « وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم».<sup>(7)</sup> «سكن بنو يفرن المغرب الأوسط ناحية تلمسان قرب جبل راشد ومن زعمائهم أبو قرّة اليفرني وأبو يزيد».<sup>(8)</sup>

(1) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص.91.

(2) ينظر: المصدر نفسه، 181.

(3) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، 23.

(4) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.24.

(5) ينظر: الملي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج2، مرجع سابق، ص.461.

(6) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص.24.

(7) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.11.

(8) المصدر نفسه، ص.13.

قبيلة واسين وبني راشد: « أقام بنو واسين بن يصلتين إخوة مغراوة وبني يفرن ما بين ملوية إلى جبل راشد»<sup>(1)</sup> في حين القبيلة الثانية سكنت في ضواحي تعرف باسم جبل بني راشد، ومن زعمائها نذكر وتدمار بن إبراهيم بن عمران وغانم بن محمد بن إبراهيم.<sup>(2)</sup>

«قبيلة بنو توجين فهم فرع من الطبقة الثانية من قبيلة زناتة وهم من أبناء بادين بن محمد المعروفين بين زناتة الأولى ببني واسين؛ فكان موطن توجين شرقي بني عبد الواد\* وجنوبي مغراوة فيما بين سعيدة والمدية؛ وحياتهم بدوية كمغراوة وكانوا يبلغون رحلة الشتاء إلى مزاب والزاب وموطنهم كان جبل الونشريس؛ ومن بطونهم: بنو يد للتن، بنو قمري، بنو مادون، بنو زنداك، بنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت، فكلهم دخلوا في صراع مع بعضهم، فضعف أمرهم وتلاشت قوتهم».<sup>(3)</sup>

شهدت هذه القبيلة مع بني عبد الواد حروب طاغية إلى أن هدأت الأوضاع في عهد السلطان عثمان بن يغمراسن؛ بعد أن أخضعهم لسلطته وأجبرهم على دفع الغرامة.<sup>(4)</sup>

-قبيلة كومية: «كانوا قديماً يعرفون بصطفورة أو صفورة وهم ثلاثة بطون منهم: ندرومة، وصفارة وكانت مواطنهم الأصلية جبال ترارة الواقعة على سيف البحر غربي تلمسان وهم قبيل عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحيين».<sup>(5)</sup>

(1) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.07.

(2) ينظر: محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، مرجع سابق، ص.338.

(3) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص.28.

\*استقروا منذ أزمنة طويلة بالمغرب الأوسط؛ ما بين نواحي تلمسان إلى وادي زاغ غرباً وكان يحدهم من ناحية القبلة موطن توجين، ومن الناحية الشرقية موطن مغراوة، وكان الصراع بين هذين القبيلتين على أشده منذ دُخولهم التل.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص.104.

(5) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص.29.

كما عمّرت بهذه الدولة قبيلة مطغرة أو مدغرة فقد كان موطنها وسكنها محاذيًا للجنوب الغربي لكومية، وكانت هذه القبيلة تقطن جهة توات إلى سجلماسة وإلى الشمال من سهول أنجاد وما يقع أمامها وخلفها من جبال إلى ممر تازة.<sup>(1)</sup>

أقام بحاضرة تلمسان مجموعة من قبائل البربر، فقد وجد بعض الجنود المرابطيون؛ وعند دخول المدينة تحت السيادة الموحدية؛ بقت تحت عهدهم، إلى أن جاءت الدولة الزيانية فاندمجوا معهم وتأقلموا على معيشتهم.<sup>(2)</sup>

فقد كانت زناتة الأولى بربرية محصنة أسلمت واستعربت بعض الشيء؛ أمّا الزناتة الثانية فهي الزناتة المسلمة المستعربة التي تأثرت تأثرًا عميقًا بالغزوة الهلالية\*.<sup>(3)</sup>

أمّا العنصر الثاني من المجتمع هو العنصر العربي: فقد كان العرب الفاتحين للمغرب بقيادة عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار لم يستوطنوا، كما بقي منهم قليل الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم ويعلمونه للناس.<sup>(4)</sup>

«اقتسمت القبائل العربية بلاد المغرب فيما بينها، فحصلت القبائل الهلالية من زغبة والمعلل وجشم وقرّة فالإثنج والخلط على المنطقة من تونس إلى المغرب واستطاعت القضاء على الدولة

(1) ينظر: عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص 29.

(2) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، المصدر السابق، ص 199.

(3) ينظر: فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، المرجع السابق، ص 197.

\* بنو هلال يعود نسبهم إلى قيس ابن عيلان من العدنانية فهم بنو هلال بن عامر بن معصعة بن معاوية بن أبي بكر بن هوزان؛ ولهم بطون كثيرة منها: بنو عامر، بنو سعيد، ودخل الهلاليون بلاد المغرب الأوسط. من ثلاثة جهات الأولى: جهة السواحل حيث تقطن كتامة، ويضعف نفوذ صنهاجة أو ينعدم؛ حيث تقدموا لها من ضواحي باجة؛ واستوطنوا جهة القالة وعنابة وقسنطينة إلى القل وبجبال البابور.

(4) ينظر: فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، مرجع سابق، ص 197.

الزيرية؛ ومدّت نفوذها غرباً حيث دخلت القيروان، واستمرت في تقدمها نحو الغرب على حدود المغرب الأوسط إلى منطقة تلمسان؛ وقد تحالفت القبائل العربية مع البربرية مع بعضها البعض».<sup>(1)</sup>

«اقتربت قبيلة المعقل من المغرب الأوسط؛ بعدها انقسمت إلى قسمين: قسم توجه نحو شمال المغرب الأوسط ما بين وهران وتلمسان؛ وقسم اتجه نحو تافالالت في جنوب المغرب الأوسط».<sup>(2)</sup>

«فقد ذكر ليون الإفريقي إنّ تلمسان بلغت على عهد أبي تاشفين عشر ألف منزل ممّا يدل على مكانة هذا السلطان وحبّه إلى التشييد كأجداده الأوائل التي نحا دؤبهم».<sup>(3)</sup>

اعتبر عهد أبي تاشفين الأول عصر ازدهار العمران بتلمسان فكان ولوعاً ببناء القصور الجميلة والأنيقة واشتهر من بين القصور ثلاثة هي دار الملك؛ دار السرور؛ ودار أبو قهر لكن لم يذكر المؤرخون عن مكان موقعها شيئاً».<sup>(4)</sup>

ذكر المقري في نفح الطيب أنّه رأى على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني مكتوباً هذه الأبيات:

«أُنْظِرْ بَعَيْنَكَ بِيَهْجَتِي وَسَنَانِي \* وَبَدِيعَ إِتْقَانِي وَحُسْنَ بِنَانِي  
وَبَدِيعَ شَكْلِي وَاعْتَبِرْ فِيمَا تَرَى \* مِنْ نَشْأَتِي بَلْ مِنْ تَدْفُقِ مَائِي  
حِسْمٌ لَطِيفٌ ذَائِبٌ سَيْلَانُهُ \* صَافٍ كَذُوبِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ  
قَدْ حَفَّ بِي أَزْهَارٌ وَشَيْ نَمَقَتْ \* فَغَدَتْ كَمَثَلِ الرُّوضِ عَبْرَ سَمَاءِ».<sup>(5)</sup>

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص60.

(2) المصدر نفسه، ص61.

(3) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، مرجع سابق، ص485.

(4) عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، مرجع سابق، ص61.

(5) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، مرجع سابق، ص486.

«عرف المغرب الأوسط توافد العديد من الأسر الأندلسية خصوصاً في فترة الأزمات السياسية للأندلس».<sup>(1)</sup> فنجد أنّ الهجرة الأندلسية قد بدأت مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس، وتوسع النصارى على حساب المراكز الإسلامية، فكان من أسباب الهجرة إلى تلمسان ترجع إلى عاملين أساسيين:

أولهما: «أنّ أراضي الدولة الزيانية كانت تشكو من انهيار ديمغرافي تواصل خلال المراحل التي مرت بها الدولة نتيجةً لكثرة الاضطرابات التي أدت إلى مقتل الكثير من سكانها وهجرة البعض الآخر؛ وقد ذكر لنا الحسن الوزان أنّ مدينة شرشال كانت خالية من السكان؛ وقد عمرت من قبل مهاجري غرناطة، كما أطلق لقب الحضر على امتزاج الأندلسيين مع التلمسانيين».<sup>(2)</sup>

ثانيهما: «مأساة الأندلس بدأت هذه المأساة؛ مع بداية انهيار ذلك الصرح الكبير الذي أقامه الأمويون بالأندلس؛ فبدأ عصر الدويلات والطوائف، وكانت هذه النكبة التي أصابت المجتمع الأندلسي، وقد كان لسقوط طليطلة عاصمة مملكة بني ذي النون بداية لسقوط الأندلس؛ وهي أول حضارة أندلسية كبرى؛ وكما نجد أنّ لموقعه إقليس وفراغة والعقاب أكثر وكان في هذه الأخيرة الغلبة لإسبان».<sup>(3)</sup>

«كان بلاط السلطان يغمراسن يزخر بالكتّاب والشعراء؛ فهذا الشاعر الأندلسي أبو بكر بن عبد الله بن داود بن خطاب»<sup>(4)</sup>؛ «كان مرسلًا بليغًا وكاتبًا مجيدًا؛ وشاعرًا مجيدًا»<sup>(5)</sup>؛ «الذي

(1) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، مرجع سابق، ص173.

(2) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص231.

(3) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، ط1، دار الحضارة، الجزائر، سنة2007، ص221، ص222.

(4) عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعيد، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة1985،

ص.125.

(5) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص93.

عينه السلطان كاتباً في مجلسه»<sup>(1)</sup>» وكان هذا الشاعر الأندلسي يتولى تحرير جميع رسائله إلى كل الجهات خاصة تونس، والمغرب، وذكر ابن خلدون عن هذا الشاعر أن رسائله كانت شهيرة في بلاطات الإمارات الإسلامية<sup>(2)</sup>.

أشار التاريخ بأن هناك كانت عدة رسائل وقصائد أنشأت لملوك بني زيان.<sup>(3)</sup>

ارتاد على حاضرة تلمسان مجموعة من التجار الأوروبيين، فقد كانوا يقطنون في فنادق خاصة تحت أشرف قناصل بلادهم.<sup>(4)</sup>

استفاد الزيانيون من الأسرى المسحيين في بناء وأعمار مدينة تلمسان؛ ويتضح ذلك من خلال ما قاله يحيى بن خلدون: «ولع- السلطان أبو تاشفين- ببناء وتخير القصور، وتشيد المصانع، وغرس المتزهات؛ مستطهراً على ذلك بآلاف عديدة من فعله أسرى الروم بين نجارين، وبنائين وزليجين؛ وزواقين، وغير ذلك».<sup>(5)</sup>

وُجدت فئة لا بأس بها من طبقة اليهود عاشت في الدولة الزيانية؛ وكانوا يسكنون في حي خاص بهم، يضم أكثر من خمس مائة دار.<sup>(6)</sup>

(1) عبد القادر بوحسون، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، سنة 2007 - 2008، ص.19.

(2) يحيى بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص.44.

(3) ينظر: محمد طمار، تقديم عبد الحليل مرتاض، تاريخ الأدب الجزائري، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 2006، ص.282.

(4) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص.85.

(5) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص.216.

(6) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، ج2، مصدر سابق، ص.20.

«انقسم المجتمع الزياني إلى أربع طبقات: الصناع، التجار، الطلبة والجنود؛ ويُسير تلك الرعية الملك الذي يعتمد بدوره على حاشية تتألف من نائب الملك، كبير الكتّاب، أمين بيت المال، صاحب النفقات، وقائد الباب».<sup>(1)</sup>

قال يحيى بن خلدون في هذا الصدد: «وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها فوق بعض المناصب».<sup>(2)</sup>

كان لباس سكان حاضرة تلمسان يختلف حسب الطبقات فقد كان لباس السلطان الزياني متميز عن لباس الرعية فقد كان يرتدي إشارة الملك ويضع العمامة فوق رأسه<sup>(3)</sup>؛ أمّا لباس التجار فمثلا في فصل الشتاء يرتدون لباساً من الصوف والحريز؛ وسترة ضيقة المسامات لها نصف أكمام توضع فوق القميص، ويضعون عباءة واسعة، ويغطون كله هذا ببرنس.<sup>(4)</sup>

فالتألب كانت لباسه بسيطة تميزه عن سائر الناس؛ وكان كلّ واحد منهم يرتدي ملابسه حسب المنطقة التي ينتمي إليها.<sup>(5)</sup>

أمّا عدد السكان فتأثر بكلّ حصار تعرضت له المدينة وخاصة الحصار الطويل سنة 698-706هـ/1299-1307م، والحصار الآخر سنة 735-737هـ/1336-1338م.<sup>(6)</sup>

بلغ عدد سكان حاضرة تلمسان قبل الحصار الطويل أكثر من مائة وعشرين ألف شخص؛ في حين الذين قتلوا أثناء ذلك الحصار وصل حوالي مائة وعشرين ألف شخص.<sup>(7)</sup> «فقد بلغ عدد

(1) مسعود بن ساري، جماليات المكان في حاضرة تلمسان، (د.ط)، منشورات بن سنان، الجزائر، سنة 2011، ص 68.

(2) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، مصدر سابق، ص 40.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 205.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 85.

(5) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، المرجع السابق، ص 21.

(6) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 7، مصدر سابق، ص 220.

(7) ينظر: مصدر نفسه، ج 7، ص 211.



الرعية من الحصار حوالي مائتين»<sup>(1)</sup>؛ فقد قال عبد الرحمن بن خلدون في هذا الصدد: «وهلك الجند حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك»<sup>(2)</sup>.

زاد عدد سكان تلمسان خاصة في عهدي السلطان أبي تاشفين الأول وأبي حمو الأول، فقد ساعد السلطان الأخير الرهائن وأسكنهم بتلمسان كما سمح لهم بالمصاهرة للزيادة من عدد السكان فوصل إلى مائة وخمسون ألف شخص حسب ما ذكره الجيلاي في كتابه تاريخ الجزائر العام.<sup>(3)</sup>

«جرت في حاضرة تلمسان عدة احتفالات ومناسبات فقد كان هناك الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فكان من سنّ هذه الظاهرة بالمغرب الإسلامي قاضي سبتة، العباس أحمد بن القاضي محمد بن أحمد اللخمي المعروف بالعزفي»<sup>(4)</sup>؛ بدأ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف منذ عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني بقلعة المشور.<sup>(5)</sup>

يحدثنا كاتب بلاطه يحيى بن خلدون عن هذا اليوم قائلا: «أطلت ليلة المولد النبوي على صاحبها لها بمشور داره العلية مدعى كريماً وعرساً حافلة احتشدت لها الأمم وحشر بها الأشراف والسوقة؛ فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومشامع كأنها الأسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة...»<sup>(6)</sup>.

(1) التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص132.

(2) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص96.

(3) ينظر: الجيلاي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ص231.

(4) عبدلي الخضمر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص441.

(5) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج2، مصدر سابق، ص15.

(6) ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص212.

قال التنسي في هذا الباب: « ويحتفل لها بما هو فوق سائر المراسم؛ يقيم مدعاة؛ يحشد لها الأشراف والسوقة...»<sup>(1)</sup>؛ فكان داخل المشور تقام الزينة وتضاء الشموع والأطفال يقومون بإشغال المباخر؛ كما كانت تعرض على الناس من ساعة المنجانة\* الشهيرة.<sup>(2)</sup>

كان الاحتفال يبدأ مساءً؛ ويقوم السلطان بإلقاء قصيدة في مدح النبي ﷺ ثم الشعراء يلقون قصائدهم بأساليب وفنون مختلفة، وفي بعض الأحيان يلقون القصائد مطربين.<sup>(3)</sup> وكانت تقدم أشهى المأكولات ولبس أجمل الثياب، والتصدق على الفقراء والمساكين؛ وإشغال الشموع في المدارس وتلاوة القرآن.<sup>(4)</sup>

في عهد أبي تاشفين الثاني كان يحتفل بليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، بأعظم الاحتفال، فكان الشاعر أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري يمدح هذا السلطان وكذلك أبوه؛ فأنشد هذه الأبيات قوله:

«شَرَفُ النُّفُوسِ طُلَابُهَا لِعُلَاهَا ❀ وَلِبَاسُهَا التَّقْوَى أَجَلُ حُلَاهَا  
فَبِهَا تَنَالُ الْعِزُّ فِي الدُّنْيَا إِذَا ❀ دَانَتْ بِهَا وَالْفَوْزُ فِي أُخْرَاهَا  
فَاخْلَعْ لِبُوسُكَ مِنْ سِوَى تَوْبِ التَّقَى ❀ مَا لِلنُّفُوسِ مِنْ حُلَى سِوَى تَقْوَاهَا  
أَوْصِي بِهَا نَفْسِي وَمَا مِنْ أَمَةٍ ❀ إِلَّا وَخَالَقَهَا بِهَا أَوْصَاهَا  
مَنْ لِي بِنَفْسٍ تُدْعَى طَلَبُ الْعُلَى ❀ قَوْلًا فَيَثْبُتُ فِعْلَهَا دَعْوَاهَا».<sup>(5)</sup>

(1) التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص. 162.

\*آلة لرصد الوقت ذات شكل هندسي غريب. بمشور تلمسان وهو من اختراع علي بن الفخّام التلمساني في أوائل عام 76هـ / 1359م، وهي مأخوذة من اللغتين اليونانية والاطليانية.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص. 162.

(3) ينظر: بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيرية، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1999، ص. 285.

(4) ينظر: التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص. 196.

(5) ينظر: التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص. 186.

مدح السلطان أبو حمو سيد الخلق في هذه الأبيات فقال:

«قَفَا بَيْنَ أَرْجَاءِ الْقَبَابِ وَبِالْحَيِّ \* وَخِي دِيَارًا لِلْحَبِيبِ بِهَا حَيٍّ  
وَعَرَجَ عَلَى نَجْدٍ وَسَلَعٍ وَرَامَةٍ \* وَسَائِلَ فِدْتِكَ النَّفْسُ فِي الْحَيِّ عَنْ مَيِّنٍ  
وَقُلْ ذَلِكَ الْمَضْنَى الْمُعَذَّبُ بِالْهَوَى \* يَمُوتُ وَيَحْيَى فَارِثُ الْمَيْتِ الْحَيِّ  
وَبَثَّ لَهُمْ وَجْدِي وَفَرَطُ صَابِنِي \* وَرَوْحِدْنِي فَهُوَ أَغْرَبُ مَرُورِي  
يُعَذِّبُنِي شَوْقِي وَيَضْعُفُنِي الْهَوَى \* وَقَلْبِي عَلَى جَمْرٍ مِنَ الشَّوْقِ مَحْمِي»<sup>(1)</sup>.

أشار عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر إلى الاحتفال بالأعياد سواء الفطر أو الأضحى فقال: «فقصى فيها عيد النحر»<sup>(2)</sup>؛ وكان السلطان يخرج في موكب لا مثيل له؛ ورجال الدولة في أبهى زيهم؛ ويقوم السلطان بتقسيم الأضحية إلى الفقراء والمحتاجين.<sup>(3)</sup>

كما شهدت تلمسان موجة من العروض العسكرية عام 652هـ/1254م؛ وقد حضره السلطان يغمراسن في باب القرمادين.<sup>(4)</sup>

ظهر في المجتمع الزياني عادة اختتان الأطفال والاحتفال بعيد مولدهم؛ وحتى سباق الخيل كان متعارفاً في هذه المدينة العريقة فقد قال أحد الشعراء - الثغري - عن سباق الخيل:

«وَمَقَرُّ الْعُلَا وَمَرْقَى الْأَمَانِي \* وَحَجَرِ الْقَنَا وَمَجْرَى الْجِيَادِ»<sup>(5)</sup>.

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 163.

(2) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص 139.

(3) ينظر: الدراجي، نظم الحكم، مرجع سابق، ص 287.

(4) ينظر: ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص 84.

(5) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 9، مصدر سابق، ص 328.

أثرت الجوارى في الحياة الاجتماعية، فوجدت المغنيات فكش الغناء في المجتمع وخاصة في الأعراس.<sup>(1)</sup>

«ظهر التصوف في تلمسان منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي خلال فترة الحكم الموحي»<sup>(2)</sup>؛ «حتى أنه أطلق على المدينة لقب تلمسان المحروسة لوجود قبور الصوفية فيها»<sup>(3)</sup>.

«أثر التصوف إيجابياً على المجتمع في تلمسان والمغرب الأوسط فكان له دور في تعريب الأوساط الشعبية»<sup>(4)</sup>؛ «سواء في الحواضر أو الأرياف، ولعب التصوف دوراً في تجنيد الناس والشعب ضد المعتدين على السواحل والمناطق الإسلامية من البرتغال أو الإيبان عن طريق إنشاء الروابط».<sup>(5)</sup>

ومن الشعر الذي قيل في مدح العباد مركز الصوفية في تلمسان؛ قول الشاعر ابن خميس:

«أَبْعَدُ صِيَامِي وَاعْتِكَافِي وَخُلُوتِي ❀ يُقَالُ فَلَانْ ضَيْقُ الصَّدْرِ نَائِحُ  
عَلَى قَرْيَةِ الْعِبَادِ مَنِّي تَحِيَّةٌ ❀ كَمَا فَاحَ مِنْ مِسْكِ اللَّطِيْمَةِ فَائِحُ».<sup>(6)</sup>

(1) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص96.

(2) محمود بوعيداد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص49.

(3) التنسي، نظم الدر والعقبان، مصدر سابق، ص210.

(4) محمود بوعيداد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص51.

(5) المرجع نفسه، ص52.

(6) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، ص87.

## المبحث الخامس: الحياة الثقافية:

«تلمسان حاضرة المغرب العربي ودرّته الناصعة؛ وعاصمته التالدة ومحجّته الخالدة؛ فقد استهوت هذه المدينة الرحّالين والجغرافيين والكتّاب العرب المشاركة والمغاربة والأوربيين على السواء وعلى اختلاف بيئاتهم ومنطلقاتهم وأغراضهم وأزماتهم».<sup>(1)</sup>

«إنّ رجال دولة بني زيان تمكنوا من تدعيم الاستقلال المطلق وتألقت أنوار الحضارة الزيانية الإسلامية تألقاً غريباً، وأصبحت حاضرة من أعظم وأهم عواصم العلم والساسة بالعلم الإسلامي قاطبة ونبع فيها عدد لا يشق له غبار من العلماء والأدباء والشعراء والباحثين وقصدها طلاب العلم وطلاب الشهرة والمكانة من كلّ جهات العالم العربي».<sup>(2)</sup>

- ومن عوامل ازدهار الحركة الفكرية بتلمسان:

## ❖ دور سلاطين تلمسان وتشجيعهم للحياة العلمية:

«شهدت حاضرة تلمسان حياة ثقافية وعلمية واسعة، امتدّ تأثيرها وإشعاعها إلى المدن والعواصم الإسلامية في المغرب والمشرق الإسلاميين؛ وقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى ازدهار الحياة العلمية بها ومنها ما أبداه الأمراء والسلاطين الذين حكموا تلمسان سواءً كانوا الزيانيين أو المرينيين في تشجيعهم للعلم والعلماء وذلك بإنشائهم للمدارس»؛<sup>(3)</sup> «الخاصة للتدريس وبناء منازل للمدرسين والطلاب قرب المدارس؛ كما قاموا بتعيين الجرايات للمدرسين والطلاب، وشم تخصيص الأوقاف لكلّ هذا»<sup>(4)</sup>؛ كمثل «إقطاع السلطان يغمراسن للعالم التنسي سنة 666هـ/1267م قطاعات بنواحي تلمسان حتّى يصرف على نفسه»؛<sup>(5)</sup> «وترتيب السلطان أبو

(1) فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، مرجع سابق، ص. 05.

(2) نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، المرجع السابق، ص. 103.

(3) عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، مرجع سابق، ص. 58، ص. 59.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ط4، دار القلم، بيروت، سنة 1981، ص. 38.

(5) التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص. 212.

حمو موسى الثاني الجرايات والأوقاف على المدرسة التي أقامها في تلمسان لصالح الطلاب والمدرسين»<sup>(1)</sup>.

استدعاء السلاطين أشهر المدرسين الأكفاء، ومحاولة استقطابهم داخل تلمسان للتدريس بها؛ فقد اهتم السلطان يغمراسن بذلك عندما طلب من العالم أبي إسحاق بن يخلف التنسي سنة 680هـ/1281م القدوم والتدريس بالجامع الأعظم<sup>(2)</sup>.

قام السلطان أبي حمو موسى الأول بتعيين ولدي الإمام للتدريس بمدرسة دشنها وقد سَمّاها باسم مدرسة أولاد الإمام؛ كما قام السلطان أبا حمو موسى الثاني باستقدام العلامة عبد الرحمن بن خلدون فقد كتب له بخط يده: « الحمد لله على ما أنعم؛ والشكر على ما وهب ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون حفظه الله على أنك تصل لما اختصاصتم به من الرتبة المنيعة والمترلة الرفيعة وهو حكم خلافتنا والانتظام في سلك أوليائنا أعلمناكم بذلك»<sup>(3)</sup>.

كان سلاطين الدولة الزيانية أو المرينية ينفقون على الطلبة وإغداق العلماء بالهدايا والعطايا، إضافة إلى تزويد المؤسسات التعليمية بالمكتبات وتحييس الأوقاف عليها وشجعهم على ذلك توفر الأموال التي كانت تقوم بأعباء النشاط الثقافي وحركة العمران؛ حيث كان المورد الرئيسي لها هو التجارة التي كانت تجنيها من تجارة الذهب بالسودان الغربي<sup>(4)</sup>.

فسلاطين الدولة الزيانية أسهموا في إثراء النشاط الفكري والعلمي، فقد كان السلطان أبو تاشفين الأول مهتماً ومولعاً بالعمران والفن<sup>(5)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص126.

(2) عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، مرجع سابق، ص62.

(3) ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص420.

(4) عبد الرحمن الأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والممالك، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، سنة 2008، ص21.

(5) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص215.

اهتم السلطان يغمراسن بن زيان بالحركة الثقافية وكان أول من شجع الحالة الفكرية إذ استقدم العديد من مشاهير رجال العلم الذين سطعوا في الساحة الثقافية.<sup>(1)</sup>

سار على نهج السلاطين الذين أتوا بعده؛ فهذا السلطان أبو حمو موسى الثاني استقدم عبد الرحمن بن خلدون؛ لكنه أبي أن يأتي؛ فبعث له السلطان عدّة رسائل، فكان يجيبه بكلّ محبة ولطف، وفي الأخير بعث أخاه يحيى بن خلدون لخدمة السلطة الزيانية.<sup>(2)</sup>

عيّن السلطان أبو حمو موسى الثاني العالم أبو عبد الله الشريف الإدريسي بالمدرسة اليعقوبية.<sup>(3)</sup>

كما قام السلطان أبو زيان محمد الثاني (- 801هـ/1398م) وكان هذا مولعاً بالعلم،<sup>(4)</sup> فقد عمل على حثّ العلماء على التأليف ونسخ الكتب، وقام بحبسها داخل مكتبة أنشأها بنفسه في الجامع الأعظم بتلمسان؛ وكما أنّه صنّف كتاباً في مجال التّصوف سماه: «الإشارة في حكم العقل بين النفس مطمئنة والنفس الأمارة».<sup>(5)</sup>

-«مشاركة السلاطين للعلماء بالاحتفالات في الأعياد والمناسبات وإجراء المسابقات الثقافية وخاصة الشعرية مع العلماء، فقد شارك السلاطين الزيانيون علماء تلمسان في مسابقات ثقافية كالتجدي داخل القصر السلطاني - المشور - أيام الاحتفالات والأعياد النبوية؛

(1) ينظر: التنسي، تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص.125، ص.126.

(2) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، ص.305.

(3) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، مصدر سابق، ص.112.

(4) ينظر: التنسي، تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص.210.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص.221.

حيث شارك السلطان الأدباء في مسابقات الشعر»؛<sup>(1)</sup> حتى السلطان أبو زيان بن أبي حمو اهتم بالمنظرات العلمية بين العلماء.<sup>(2)</sup>

كان كل سلطان يحذو حذو السلطان الذي قبله في بسط ونشر العلم؛ والإتيان بمصادرها من كل شرق وغرب، فهذا السلطان أحمد العاقل\* استقطب العالم الشيخ أبي علي الحسن بن مخلوق، وكان يشاوره في شتى أمور تلمسان.<sup>(3)</sup>

أولى السلاطين الزيانيين اهتماماً كبيراً بالعلم والعلماء؛ وكانوا يخرجون في جنائز العلماء والفقهاء؛ وأن يدفنوا في المقابر السلطانية؛<sup>(4)</sup> كما كان يوصي السلطان بأن يدفن بجانب قبر العلماء كما فعل السلطان يغمراسن بأن يدفن قرب العالم التنسي.<sup>(5)</sup>

«كما كانت المناقشة بين ملوك المغرب شديدة، فقد كانت بين ملوك البلاط الزياني من جهة؛ والبلاط الحفصي والمريني؛ من جهة أخرى في تقريب العلماء والأدباء والفنانين من مجالسهم، فهذه المناقشة جعلت ملوك تلمسان وتونس وبجاية وفاس وكذلك بنو الأحمر ملوك غرناطة من بلاد الأندلس يرحّبون برجال العلم والأدب والفن في عواصمهم ويتزوّلونهم المنزل اللائق بأمثالهم ويبدلون لهم الهبات والعطايا ويرفعون من شأنهم».<sup>(6)</sup>

(1) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج2، مصدر سابق، ص.41.

(2) ينظر: التنسي، نظم الدر، مصدر سابق، ص.236.

(3) المصدر نفسه، ص.236.

\*هو أحمد بن أبي حمو يكنى أبو العباس ولقب بالعاقل، بويع بالخلافة في رجب سنة 834هـ / 1431م، وتوفي عام 866هـ / 1462م، كان يشجع عل العلم والتأليف.

(4) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، مصدر سابق، ص.91.

(5) بورقية، الجزائر عبر التاريخ، ج2، د، ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ب.ت، ص.440.

(6) الحاج.محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بخاتمة تلمسان، عاصمة دولة بني زيان، د، ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1995، ص.396.



كان يطلق على المدرّس في حاضرة تلمسان عدّة أسماء فهي كانت تدل على مكانته المرموقة فقد كان يطلق عليه اسم الشيخ؛ العالم؛ المحدث؛ الفقيه؛ البارع؛ الزاهد؛ القاضي؛ الحافظ؛ المفسّر؛ المجتهد؛ من أهل الأدب؛ من أهل النحو؛ الشاعر؛ العارف؛ الأستاذ والفاضل.<sup>(1)</sup>

المؤسسات التعليمية بتلمسان كان لها دوراً كبيراً؛ فقد حرص سلاطينها على الحفاظ على العقيدة الإسلامية؛ من خلال إنشاء مدارس ومساجد؛ عمل فيها على نشر العلوم بمختلف أنواعها العقلية والنقلية؛ فكان أول عنصر مهم في بعث الحركة العلمية:

-المساجد: فالمسجد يعتبر مكان مخصّص للعبادات وتلاوة القرآن، وسائر الأعمال الدينية؛» فمساجد تلمسان كغيرها من الأقطار الإسلامية على رأس معاهد التعليم ومؤسساته العلميّة وساهمت بدورها في انتشار الثقافة بها ولقد كانت هذه المساجد<sup>(2)</sup> من أهمّها: - مساجد تابعة للدولة في معظمها؛ وكان يقوم بإدارتها أهالي المنطقة، وكان يقوم بتأسيسه كبار الأغنياء ومعظم الشخصيات المهمة.<sup>(3)</sup>

بلغ عدد المساجد بتلمسان حوالي الستين مسجداً فكان أولها المسجد الجامع(أغادير): «الذي يعد أول مسجد جامع بُنيَ في - أقادير - هو الذي بناه الشريف السيد إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة سنة 174هـ/790م، ووضع فيه منبراً وكتب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة».<sup>(4)</sup>

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ج3، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة 1973، ص.321.

(2) حبيب رزاق، مراكز التعليم ومناهجه في العهد الحماديّ بقلعة بني حمّاد وبجاية الناصرية، مجلة الفكر الجزائري، ع04، يصدرها مخبر المرجعيات الفلسفية والفنية للتفكير البلاغي والنقدي، الجزائر، سنة 2005، ص111، ص112.

(3) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1998، ص.34.

(4) سعد بوفلاقة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص24.

-المسجد الجامع أو الأعظم: « من أشهر مباني تلمسان الجامع الأعظم القائم في وسط المدينة؛ وطوله ستون متراً (60م)، وعرضه خمسون متراً (50م)»؛<sup>(1)</sup> «وقد شيد في عهد المرابطين ولكن المؤرخين اختلفوا فيمن شيده، فذكر المستشرق الفرنسي جورج مارسلي أن أول من شرع في بنائه هو يوسف بن تاشفين عام 410-500هـ حوالي سنة 1082م؛ بينما أحمد توفيق المدني المؤرخ الجزائري الكبير يرى أن مؤسس الجامع الأعظم هو الخليفة المرابطي علي بن يوسف؛ وقد انتهى بناؤه سنة 1135م»؛<sup>(2)</sup> «وقد زينّه يغمراسن بمئذنة يبلغ ارتفاعها خمسة وثلاثين متراً؛ ووسّع الجامع وأضاف إليه فناء آخر، ووسّع قاعة الصلاة».<sup>(3)</sup>

- مسجد سيدي أبي الحسن: «هو من أبدع المساجد وألطفها؛ ابني سنة 1279م؛ وقد ابني حسبما تنص عليه كتاباته الذهبية فوق المحراب تذكراً لأبي إبراهيم بن يحيى يغمراسن»؛<sup>(4)</sup> بني هذا المسجد من طرف السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ؛ وحمل هذا المسجد اسم العالم أبو الحسن التنسي (- 706هـ/1306م) الذي كان يدرس به».<sup>(5)</sup>

- مسجد ابني الإمام: «أسس هذا المسجد من طرف السلطان الزياني أبو حمو الأول بن عثمان 707-718هـ/1307-1318م؛ بجانب المدرسة التي كان يدرس بها العالمين ابن الإمام»<sup>(6)</sup>.

(1) سعد بوفلاقة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص.25.

(2) سعد بوفلاقة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص.26.

(3) محمود بوعياض، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط. في القرن 9هـ / 15م، مرجع سابق، ص.18.

(4) سعد بوفلاقة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص.29.

(5) عبد العزيز لعرج، المساجد الزيانية بتلمسان عمارتها وخصائصها، حوليات جامعة الجزائر، ع06، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

سنة 1992، ص.108.

(6) المرجع نفسه، ص.109.

- مسجد سيدي الحلوي: «نسبة إلى أبي عبد الله الشودي الذي تولى قضاء إشبيلية مدة ثم استقر بتلمسان فلقب بالحلوي»؛<sup>(1)</sup> وقد ابتناه الأمير المريني أبو عنان عام 754/1354م»<sup>(2)</sup>.

- مسجد سيدي أبي مدين شعيب: «لقد شيّده محمد الناصر بن المنصور الموحي على قبر الولي الصالح والعلامة الشهير الشيخ سيدي شعيب بن حسين الأندلسي الملقب بأبي مدين الغوث، وقد أسسه السلطان المريني أبو الحسن عام 747/1347م»<sup>(3)</sup>.

المساجد أسهمت في تلقين العلوم ونشرها؛ فكانت قبلة للطالب والعالم؛ فكان كل عهد يترك بصمته حافرة في تلك الأماكن؛ فكل مسجد بُنيَ إلا وكان تأثيره بارز في الساحة الفكرية؛ وأيضاً هناك مسجد يسمى سيدي إبراهيم فقد أسسه السلطان أبو حمو موسى الثاني عام 760-791/1359-1389م.<sup>(4)</sup>

«لقد عرف ملوك المغرب الأوسط من بني عبد الواد وذلك ابتداءً من مؤسس الدولة بنصرتهم للعلم وتأييدهم للعلماء؛ وعرفوا أيضاً بمشاركتهم للعامة في الاحتفاء بهم وتبجيلهم؛ فإن كتب التراجم وكتب التاريخ ومنها على الخصوص كتاب نظم الدر والعقيان لمحمد التنسي حافلة بأخبار المدارس التي شيّدها أولئك الملوك وأخبار حفاوتهم بأهل العلم»<sup>(5)</sup>.

«عرف المشرق ظهور المدرسة كمركز تعليمي مع مطلع القرن 5/11م لتواصل رحلتها وتظهر بالمغرب الإسلامي في القرن 7/13م؛ حيث سجلت المصادر أن السلطان الحفصي أبو زكريا (- 647/1249م) هو الذي أنشأ أول مدرسة - مدرسة الشماعين - بتونس ثم انتقل نشاطها إلى فاس حيث بنيّت بها أول مدرسة - مدرسة الصّفارين - في عهد الأمير يعقوب بن

(1) سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص.29.

(2) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، ص.127.

(3) سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص.26.

(4) ينظر: محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، المرجع السابق، ص.252.

(5) محمود بوعياض، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط. في القرن 9هـ - 15م، مرجع سابق، ص.56.

عبد الحق المريني (-685هـ/1286م)، لتظهر أخيراً بتلمسان ابتداءً من النصف الأول من القرن 8هـ/14م<sup>(1)</sup>.

فكانت أول مدرسة أنشئت في تلمسان: - مدرسة ابني الإمام: وهي « أول مدرسة بتلمسان تمّ إنشاؤها بأمر من السلطان أبو حمو موسى الأول (-718هـ/1318م) ويعود بناؤها إلى الربع الثاني من القرن 8هـ/14م<sup>(2)</sup>» وسميت على اسم العالمين الأخوين أبو زيد عبد الرحمن بن الإمام (-749هـ/1348م) وأخيه أبو موسى عيسى بن الإمام (-757هـ/1356م)»<sup>(3)</sup> فقد أنشأ السلطان لهما ايوانين معدين للتدريس؛ وأنشأ جنب المدرسة دارين لسكن أولاد الإمام ومساكن للطلبة<sup>(4)</sup>.

«تقع هذه المدرسة في الناحية الغربية من تلمسان بمنطقة هي المطهر قرب باب كشوط»<sup>(5)</sup> وقد «خطي الأخوان بشرف التدريس في المدرسة في وقت عرف فيه السلطان أبو حمو الأول باعتناؤه للعلم والعلماء، حيث بذكر التنسي أنه: « لما كانت فترة أبي حمو الأول اعتنى بالعلم والعلماء وورد عليه العالمان الجليلان ابني الإمام فيسني لهما المدرسة التي سميت باسميهما»<sup>(6)</sup>.

-المدرسة التاشفينية: «في عهد السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (-718هـ/1319م)، لم تعد مدرسة أولاد الإمام تسد حاجة المدينة لتزايد أعداد الطلبة؛ فأقام السلطان مدرسة جديدة عرفت باسم المدرسة التاشفينية قرب الجامع الأعظم»<sup>(7)</sup>.

<sup>(1)</sup> العربي لقريز، مدارس السلطان أبي الحسن ( مدرسة سيدي بومدين )، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، سنة 2001، ص20.

<sup>(2)</sup> التنسي، تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص139.

<sup>(3)</sup> يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص139.

<sup>(4)</sup> ابن خلدون، العبر، ج7، مصدر سابق، ص100.

<sup>(5)</sup> المصدر نفسه، ج7، ص133.

<sup>(6)</sup> التنسي، تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص139.

<sup>(7)</sup> عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، مرجع سابق، ص60.

ولقد حرص السلطان - أبو تاشفين - على تزيينها بأشهر الاختراعات، كالشجرة الفضية التي وصفها التنسي في كتابه؛ إضافة إلى خصّة صدفية الشكل كتب على إفريز تريعتها هذه الأبيات الآتية:

«أُنْظُرْ بَعَيْنَيْكَ بَهْجَتِي وَسَنَائِي ❀ وَبَدِيعَ إِثْقَانِي وَحُسْنَ بَنَائِي  
وَبَدِيعَ شَكْلِي وَاعْتَبِرْ فِيمَا تَرَى ❀ مِنْ نَشَائِي بَلْ مِنْ تَدَقُّقِ مَائِي  
حِسْمٌ لَطِيفٌ ذَائِبٌ سَيْلَانَةٌ ❀ صَافَ عُدُو الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ  
قَدْ خَفَّ بِي أَزْهَارٌ نَمَقَتْ ❀ قَعَدَتْ كَمَثَلِ الرُّوضِ غِبْ سَمَاءِ».<sup>(1)</sup>

كان الحظ الأوفر للتدريس بهذه المدرسة والذي يعتبر قاطبة الفقه المالكي هو أبو موسى عمران المشدالي (- 745هـ/1344م) الذي يعتبر نابغة عصره.<sup>(2)</sup>

بقيت هذه المدرسة شامخة بحاضرة تلمسان إلى غاية سنة 1876م؛ إلى أن ألقت حتفها على يد المستعمر الغاشم.<sup>(3)</sup>

كما بنيت مدرسة أخرى في حقبة السلطان أبو حمو موسى الثاني، وقد أطلق عليها اسم: المدرسة اليعقوبية نسبة إلى والده سنة 765هـ/1364م.<sup>(4)</sup>

فقد وصفها يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد قائلا: «فضاعف فيها الفعلة وأرحب الأبنية وبني العروش وأحمد المغارس واستجلب المياه وأجزل الأوقاف وعين الجرايات ورسم فيها

<sup>(1)</sup> التنسي، تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص. 140.

<sup>(2)</sup> ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، مصدر سابق، ص. 130.

<sup>(3)</sup> ينظر: بورقيبة، الجزائر عبر التاريخ، ج3، مرجع سابق، ص. 438.

<sup>(4)</sup> ينظر: ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص. 64.

الخطط...»<sup>(1)</sup> كما أنه عين فيها المدرسين كالفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني<sup>(2)</sup> (771هـ/1370م) الذي استقدمه السلطان أبو حمو الثاني.<sup>(3)</sup>

«كما نقل السلطان إلى ساحة المدرسة ضريح والده وعميه أبو ثابت وأبو سعيد، وأقامها قرب باب إيلان وأقام بالقرب منها مسجداً عرف باسم إبراهيم المصمودي<sup>(3)</sup>».

كما كانت هناك مدرسة بالعباد تسمى مدرسة سيدي أبي مدين الذي أسسها السلطان المريني أبو الحسن سنة 747هـ/1347م.<sup>(4)</sup>

فقد كان ملوك الدولة الزيانية بدءاً من السلطان يغمراسن وأبنائه وأحفاده يشجعون العلماء، ويدعمونهم مادياً ومعنوياً، ويننون لهم المنازل؛ ويقدمون لهم العطايا والهدايا ويدشنون لهم المدارس حتى بأسمائهم، فكان عهدهم عهد تقدم حضاري وعلمي.<sup>(5)</sup>

كان التعليم في تلمسان يمر بمراحل مختلفة فالمرحلة الأولى تتمثل في تعلّم الطالب القراءة والكتابة؛ ويتقن تلاوة القرآن وتجويده؛ وكان الطلبة يتعلمون داخل الكتاتيب وبعض زوايا المساجد؛ وكان عمر الطالب يتراوح ما بين الخمس والست سنوات.<sup>(6)</sup>

أمّا المرحلة الموالية فهي متقدمة عن الأخرى؛ فالطالب كان يدرس فيها علوم النحو واللغة والفقه وأصوله، ويتم ذلك كله داخل المساجد أو في المدارس أو الزوايا.<sup>(7)</sup>

(1) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، ص 436.

(2) ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 163.

(3) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2، مصدر سابق، ص 210.

(4) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، مصدر سابق، ص 130.

(5) ينظر: عبد الله التنسي، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، تاريخ دولة الأدارسة، من كتاب نظم الدر والعقيان، د، ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984، ص 11.

(6) ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 34.

(7) عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 38.

أمّا المرحلة الأخيرة؛ فيتجه الطالب إلى فرع من الفروع الذي يريد دراستها سواء العلوم أو الآداب، وتكون الدراسة كما ذكرنا آنفاً في المدارس أو المساجد- الجامع الأعظم- ويكون عمر الطالب عشرين عاماً.<sup>(1)</sup>

وُجد في حاضرة تلمسان نوعان من التعليم: الحكومي والحر؛ فكان الأوّل يطلق عليه في بعض الأحيان التعليم الرسمي وكانت تقوم به الدولة تجاه الأفراد، وكانت تبني المدارس وتعيّن المدرسين، وتخصص لهم الجرايات سواءاً للطالب أو المدرّس.<sup>(2)</sup>

أمّا النوع الثاني من التعليم - الحر - يكون دون تقييد من الدولة أو تدخلها في شؤونه وكان يتم داخل المساجد والزوايا.<sup>(3)</sup>

وُجدت في تلمسان بعض الطرق للتّدرّيس: فكانت هناك طريقة الحفظ وهي القديمة المتناولة عن السلف، فيقوم الأستاذ بإلقاء الدرس، والطلبة يدوّنونه ويستمعون إليه،<sup>(4)</sup> وقد درّس هذا النوع من الطريقة الأستاذ الفاضل محمد الثغري الذي وافته المنية أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.<sup>(5)</sup>

فالطريقة الثانية تتمثل في الإلقاء والشرح؛ وتكون في اقتناء الطالب كتاباً مشهوراً في المادة؛ ويقوم الأستاذ بشرحه فقرة فقرة، ويكون التجاوب أكثر من خلال محاورة الأستاذ حول أي شيء

(1) ينظر: بورقيبة، الجزائر عبر التاريخ، مرجع سابق، ص. 437.

(2) ينظر: ألفرديل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، د.ب، د.ت، ص. 355.

(3) ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص. 247.

(4) ينظر: بورقيبة، الجزائر عبر التاريخ، ج2، مرجع سابق، ص. 247.

(5) ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص. 160.

غامضٍ فيما يتعلق بتلك المادة، ويُعدّ الأستاذ محمد بن مرزوق الخطيب (- 781هـ/1379م) أوّل من درّس بها.<sup>(1)</sup>

«الطريقة الثالثة تتمثل في الاجتهاد، وهي أن يقوم الأستاذ بالإشراف على أبحاث الطلبة، حيث يعطي الطالب فرصة الوصول إلى المعرفة وخاصة بالمعقول لوحده؛ وتعويد الطالب على استنباط التشريع من الأصول في مجال المنقول، ويكون دور الأستاذ بالإشراف على الأبحاث».<sup>(2)</sup>

تساعد هذه الطريقة الطلبة على التفتح، والإطلاع على عدّة كتب ليحرر في معارفها وقد درّس بهذه الطريقة الشريف التلمساني (771هـ/1370م)، وكذلك سعيد العقباني (811هـ/1408م) وكذلك ولده أبو الفضل.<sup>(3)</sup>

وصفوة القول لكلّ طريقة خاصة في التعليم كان ينتهجه الأستاذ لكي يتمكن طلابه من الاستيعاب والحفظ وحتى يستطيع الطالب من التمهين والتحليل والاستنباط.

كانت الكتابات تقوم بالمرتبة الأولى على تحفيظ القرآن الكريم، فلذلك نالت شهرةً وتطلّعاً للأفراد، ولقد تمحورت في عدّة قرى ومدن؛<sup>(4)</sup> وقد بنيت مجاورة للمساجد حيث تحافظ على المعتقدات الدينية وحتى لاتدنّس.

ومّا يستنبط أنّ التعليم في تلمسان كان يقوم على المدارس والكتاتيب ثم الزوايا.

(1) ينظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص134.

(2) ألفرديل، الفرق الإسلامية، مرجع سابق، ص353.

(3) ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص174.

(4) ينظر: محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تقديم وتحقيق محمد بن عبد المولى، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة

1981، ص62.



كان المعلّم في بعض الأحيان يتشدد مع طلبته، فكان يستعمل الضرب عند خروجه عن المؤلف،<sup>(1)</sup> وقال في هذا الباب عبد الرحمن بن خلدون في الشدة على المتعلمين مضرّة فقال: «..فينبغي للمعلّم في متعلّمه والوالد في ولده أن لا يستبدّ عليهم في التأديب»؛<sup>(2)</sup> أمّا عن أجره المعلّم فكانت زهيدة؛ وعندما يختم الأطفال القرآن يقدم الآباء بعض الهدايا للمعلم اعتباراً له.<sup>(3)</sup>

كان الطلبة ينهلون العلم من أساتذتهم من خلال المساجد والكتاتيب وحتى الزوايا؛ فقد ظهر في تلمسان غيرها من الحواضر الإسلامية الحاجة إلى المكتبات العامة والخاصّة؛<sup>(4)</sup> فقد كان بالمسجد الأعظم بتلمسان مكتبتان عامتان في العهد العبد الوادي وكانت كلتاهما حافلتين بالكتب النفيسة التي كان يستفيد منها الطلبة».<sup>(5)</sup>

«فقد وُجد أحد المهتمين بالكتب الذي عرض بسوق الكتب داخل تلمسان مصحف عثمان الذي كان مع المرابطين ثم انتقل إلى الموحدين؛ فأخبر السلطان يغمراسن عنه والذي ضمه إلى نفائس تلمسان»؛<sup>(6)</sup> فقد اهتم سلاطين تلمسان بالمكتبات العامة داخل المساجد والمدارس، فكان كلّ سلطان يأتي إلى السلطة الزيانية إلّا ويعطي بصمته؛<sup>(7)</sup> فقد أنشأ السلطان أبو حمو الثاني مكتبة عامة داخل المسجد الكبير سنة 760 هـ/1356م.<sup>(8)</sup>

(1) ينظر: كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، سنة 1997، ص.114.

(2) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص.590.

(3) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، المرجع السابق، ص.261.

(4) ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص.159.

(5) التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص.123.

(6) التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص.123.

(7) ينظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، مرجع سابق، ص.159.

(8) ينظر: التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص.262.

وقد وصفها لنا الشاعر الثغري فقال:

«لَيْنَ كَانَ بَحْرًا فِي الْعُلُومِ فَإِنَّ فِيهِ ❀ بَنَانٌ يَدِيهِ أَبْحُرًا عَشْرًا  
لَهُ بَكْتَابُ اللَّهِ أَعْنَى عِنَايَةٍ ❀ وَبِالنِّسْبَةِ الْغَرَاءُ هُوَ الْمَغْرَمُ الْمَغْرَا  
فَمَا هُمُّهُ إِلَّا كِتَابٌ وَسُنَّةٌ ❀ بِنَسْخِهِمَا قَدْ أَحْرَزَ الْفَخْرَ وَالْأَجْرَا  
فَنَسَخَ كِتَابَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ❀ وَنَسَخَ الْبُخَارِي ضَامِنًا لَهُمُ النَّصْرَا»<sup>(1)</sup>

فالمكتبة الثانية الموجودة بتلمسان أنشأها السلطان أبو زيان محمد الثاني عام 796هـ/1392م؛ وكان يوجد بهذه المكتبة الكتب والمخطوطات، بالإضافة إلى نسخ من القرآن ونسخة من صحيح البخاري وكتاب الشفا للقاضي عيَّاض وغيرها من الكتب النفيسة التي جاءت من جلّ أقطار العالم الإسلامي.<sup>(2)</sup>

زوّد كلاً من السلطانين أبو حمو الثاني وأبو زيان محمد الثاني تلك المكتبات بالكتب النادرة والقيّمة، وأضاف كلّ منهما كتبهما النفيسة مثل كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" والكتاب الآخر "الإشارة في حكم العقل بين النفس مطمئنة والنفس الأمارة"؛ وقد عملت الدولة على توفير الأوقاف للمكتبات.<sup>(3)</sup>

كما وُجدت الزوايا التي كانت تُعنى بنشر التعليم، وتجيبة للطلاب وعامة الناس؛ وكانت تدرس فيها العلوم الدينية سواء أكانت تفسيراً أو فقهاً أو حديثاً؛ كما أنّها كانت مأوى لبعض الطلبة.<sup>(4)</sup> ومن أهم الزوايا التي كانت موجودة بتلمسان نذكر: "الزاوية اليعقوبية؛ أنشأها السلطان

(1) الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص.251.

(2) ينظر: ابن بشكوال، الصلة، تحقيق محمد الأبياري، ج2، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، سنة 1989، ص.660، ص.661.

(3) ينظر: التنسي، نظم الدر والعقيان، مصدر سابق، ص.123، ص.124.

(4) ينظر: عبد العزيز شهبي، الزوايا الصوفية والاحتلال الفرنسي في الجزائر، (د.ط)، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2007،

أبو حمو موسى الزباني على ضريح والده" <sup>(1)</sup>، و"زاوية سيدي الحلوي" <sup>(2)</sup> وأيضاً "زاوية سيدي السنوسي" <sup>(3)</sup>.

عند توافر الأسر الأندلسية على مدينة تلمسان؛ استفاد أهل حاضرة تلمسان من الحياة العلمية التي أتوا بها. <sup>(4)</sup> فقد حمل العلماء المهاجرون علومهم وآدابهم وفنونهم إلى تلمسان وغيرها من حواضر المغرب؛ وقاموا بتنظيم حلقات العلم والدروس داخل مساجد ومدارس المدينة المشهورة مثل المسجد الجامع الذي أصبح يوازي جامع الزيتونة والقيروان. <sup>(5)</sup>

«تقلد المثقفون الأندلسيون مراكز ومناصب داخل تلمسان، وهي المناصب التي يطلق عليها أرباب القلم؛ مثل العالم أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي الكاتب والشاعر والفقيه، عمل في الكتابة على عهد السلطان يغمراسن» <sup>(6)</sup>؛ «فقد كان مرسلاً بليغاً وكاتباً مجيداً؛ وشاعراً مجيداً» <sup>(7)</sup>؛ «فقد عينه السلطان يغمراسن بن زيان كاتباً في مجلسه ووفر له شروط الراحة» <sup>(8)</sup>؛ «وكان هذا الشاعر الأندلسي يتولى تحرير جميع رسائله إلى كل الجهات خاصة تونس؛ والمغرب؛ وذكر ابن خلدون وذكر يحيى بوعزيز عن ابن خلدون أن الشاعر كانت رسائله شهيرة في بلاطات الإمارات الإسلامية» <sup>(9)</sup>.

<sup>(1)</sup> ابن مريم المليلي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مرجع سابق، ص 68.

<sup>(2)</sup> عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزباني، مرجع سابق، ص 149.

<sup>(3)</sup> المرجع نفسه، ص 123.

<sup>(4)</sup> ينظر: ألفرديل، الفرق الإسلامية، مرجع سابق، ص 330.

<sup>(5)</sup> عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2، مرجع سابق، ص 218.

<sup>(6)</sup> ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 2، المرجع السابق، ص 423.

<sup>(7)</sup> ابن خلدون، العبر، ج 7، مصدر سابق، ص 93.

<sup>(8)</sup> عبد القادر بوحسون، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس، مرجع سابق، ص 19.

<sup>(9)</sup> يحيى بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص 44.

استفاد أهل تلمسان من معارفهم العلمية، فنتج عن ذلك الاحتكاك نشاط فكري كبير.<sup>(1)</sup> ومن العلماء الأندلسيين الذين دخلوا تلمسان وبرزوا فيها نذكر إبراهيم بن أحمد والد الأبلبي شيخ ابني خلدون، الذي تزوج من بنت ابن غلبون قاضي تلمسان، وقد اشتهر في العلم والأدب والفقه؛<sup>(2)</sup> كما حظّ الرحال بمدينة تلمسان وقدم زاده العلمي العالم لسان الدين بن الخطيب، فقطن فيها مدّة زمنية؛ وأراد أن يبعث أسرته لكن الظروف السياسية حالت دون ذلك.<sup>(3)</sup>

وُجدت في تلمسان عائلات أندلسية عرفت بالعلم، فقد توارثها الأب عن الجد فترة طويلة كعائلة العقباني<sup>(4)</sup>؛ «الذي ظهر منها الأب أبو عثمان سعيد العقباني الذي اشتهر بالإقراء؛ وبعده جاء ابنه سعيد الذي برز في المعقول والمنقول، وجاء بعده ولداه أحمد وإبراهيم وبعده محمد بن أحمد الذي استلم القضاء في تلمسان، وكذلك وُجدت عائلة الشريف الحسيني التي كان من أهم من برز فيها أبو عبد الله الشريف (771هـ - 771هـ)؛ وابنه عبد الله».<sup>(5)</sup>

اهتمت عائلة مرزوق بخدمة شؤون الضريح الموجود في العباد - أبو مدين - فبرز في ذلك الجانب العلمي أبو عبد الله محمد بن مرزوق.<sup>(6)</sup>

كما كانت عائلة ابن هدية موجودة آنذاك بحاضرة تلمسان؛ فبرز الكاتب والمؤرخ أبو عبد الله ابن هدية؛ وابنه أبو علي الفقيه والقاضي والخطيب؛ وابنه أبو الحسن الفقيه والخطيب والمدرس بالجامع الأعظم.<sup>(7)</sup>

(1) ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، الأدب الجزائري عبر النصوص. أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1، ط1، الصندوق الوطني، تلمسان، سنة 2001، ص186.

(2) ينظر: ألفرديل، الفرق الإسلامية، مرجع سابق، ص311.

(3) ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص35.

(4) المصدر نفسه، ص90.

(5) المصدر نفسه، ص245.

(6) ينظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص131.

(7) ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، ص116، ص117.

أورد القلصادي في رحلته المشهورة تراجم لأهم العلماء الذين تتلمذ عليهم في تلمسان.<sup>(1)</sup>

«شهد المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجرة ازدهاراً حضارياً؛ وعدت هذه المدة من أخصب المراحل التاريخية التي مرّ بها لاسيما في معطياتها الحضارية والعلمية منها على وجه الخصوص وزخرت مدنه بطلاب العلم في العلوم، كما ظهرت حركة تنقل للعلماء وطلاب العلم الأندلسيين في مراكز الاستقطاب العلمي؛ فكانت هناك علاقات ثقافية ما بين تلمسان والأندلس، فقد انتقل أبناء تلمسان لينهلوا من علوم الأندلسيين؛ فقد كانت حركة ذاتية للعلماء وطلاب العلم». <sup>(2)</sup>

عدّت تلمسان محط أنظار العلماء والمفكرين وطلاب العلم من شتى أرجاء العالم الإسلامي فقد وفد إليها من الغرب الأندلسي؛ ومن المشرق للتعلّم والتعليم في مدارسها ومساجدها العتيقة. <sup>(3)</sup>

«فقد عاشت تلمسان عصرًا مزدهرًا في ميادين الفكر والثقافة؛ خاصة في عهود المرابطين والموحدين والزيانيين؛ فأنجبت عددًا لا يحصى من فحول الشعراء والأدباء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين، واستهوت العديد من رجال العلم والفكر؛ واستقطبتهم؛ فوفدوا إليها للتعلّم والتعليم، وبذلك شهدت حركة تنوير واسعة تضاهي ما شهدته وعاشته مختلف العواصم الإسلامية الكبرى في المشرق والمغرب». <sup>(4)</sup>

<sup>(1)</sup> ينظر: خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ط1، دار الأملية، الجزائر، سنة 2011، ص.18.

<sup>(2)</sup> علياء هاشم المشهداني، المعطيات العلمية لانتقال العلماء وطلاب العلم بين الأندلس وتلمسان خلال القرن السادس للهجرة، ملتقى دولي تاريخ حاضرة تلمسان ونواحيها، جامعة تلمسان، أيام 20 - 21 و22 فيفيري، سنة 2011، ص.23.

<sup>(3)</sup> يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، د، ط، دار الهدى، الجزائر، سنة 2009، ص.07.

<sup>(4)</sup> نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضيًا وحاضرًا، مرجع سابق، ص.22.

كانت هناك علوم تدرس في تلمسان بمختلف أصنافها المتعددة فكانت العلوم النقلية والعقلية: فالصنف الأول أي «العلوم النقلية وهي العلوم المختصة بالمسلمين؛ وهي مستندة إلى الشرع مأخوذة من الكتاب والسنة».<sup>(1)</sup> تنقسم هذه العلوم- النقلية- إلى فرعين أولهما: «العلوم الدينية والشرعية: تضم: الفقه، الحديث، التفسير، أصول الكلام، أصول الدين، القراءات، الفرائض، التصوف، الرؤيا».<sup>(2)</sup>

(1) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص435.

(2) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص247.

# الفصل الثالث

أعلام حواضر المغرب العربي

شهد المغرب العربي بحواضره اليافة والنيرة مئات الأعلام الأفذاذ الموسوعيين في الفكر والثقافة والأدب والتصوّف؛ خلال القرنين السادس والسابع الهجريين؛<sup>(1)</sup> فكلّ حاضرة كانت تتميز بنشاطها وجانبها الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي وكذلك العلمي؛ فتعتبر حاضرة بجاية من بين المدن التي لعبت دوراً بارزاً في تاريخ الجزائر خلال الفترة الإسلامية، وفي كلّ عهد أو في مرحلة من المراحل التي مرّت عليها أنبرت وسطع فتيلها على الساحة الفكرية.<sup>(2)</sup> تلك تلمسان حاضرة العلم والتعلم تعالت حاضرتها؛ بعدما انطفأ بنو حماد في شرقها.<sup>(3)</sup>

تعدّ فاس من بين الحواضر العلمية التي تركت بصمتها في المجال الفكرّ بأسلوبها الراقي، فتمتعت الحياة العلمية آنذاك بالخصوبة والثراء بمؤسساتها وجوامعها اللامعة كجامع القرويين الذي درس فيه جلّ العلماء والفقهاء.<sup>(4)</sup>

تميّز كلّ عصر من عصور حضارة القيروان بعدد من الأسماء البارزة التي طبعت بطابع شخصيتها وميزته عمّا سواه؛ كما تميزت به عن المعاصرين لها في السياسة أو الدين أو العلم أو الأدب أو غيرها من حقول الحياة والفكر؛ فهذا جامع الزيتونة لفت أنظار المفكرين وطلاب العلم والمعرفة للغرف من مناهله الأدبية والعلمية، فجلّ هذه الحواضر الأربعة القيروان، فاس وبجاية وتلمسان استهوت القاطنين إليها بعلومها الذهبية، وعمالقة الفكر والأدب الذين ارتحلوا لتلقي العلم وتزويد طلابها بما اكتسبوه من مناهج وطرق.<sup>(5)</sup>

(1) ينظر: المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج.7، مصدر سابق، ص.104.

(2) ينظر: مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج.3، ط.2، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص.183.

(3) ينظر: مسعود بن ساري، جماليات المكان في حاضرة تلمسان، (د.ط)، منشورات بن سنان، الجزائر، 2011، ص.67.

(4) ينظر: ديب صفية، التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين بين القرنين 6 و 7 هـ الموافق لـ 12 - 13 م، (د.ط)،

كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، ص.41.

(5) ينظر: أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، مرجع سابق، ص.15.



جمع المغرب العربي حواضر عربية برزت فكرياً خلال القرنين السادس والسابع للهجرة، فظهر جلّ الأعلام في تلك الحواضر العلمية فاستقطبت هذه المعالم الحضارية أهمّ حركة علمية فوجدت حاضرة بني مرين بفاس، وحاضرة بني حفص بتونس، وكذلك حواضر بني زيان بتلمسان وحاضرة بني حماد ببجاية، فقد كان لكلّ حاضرة دورها الخاص في التقيد لعلمائها والنهل من مصدرها الثقافي، فكان دور التأثير والتأثر ظاهراً على تلك الفئة العلمية، فهذه حاضرة بني زيان أو دولة بني عبد الواد ذاع صيتها واحتلت مركزاً خاصاً بين الدول التي تعاقبت عليها عبر التاريخ، فقد كان لموقعها الجغرافي تأثير هادف في معالم الحياة السياسية الاقتصادية وحتى الاجتماعية، ووجدنا عدّة علاقات ثقافية بين جيرانها فكانت تبعث أهم الطلاب للممارسة والتكوين.

## المبحث الأول: علماء حاضرة القيروان:

لقد استطاعت القيروان أن تفرز طوال أربعة قرون متتالية مدارس متعددة الخصائص أبتت على ذكرها خالداً وحافظت على مجدها التليد، وكانت المدينة آنذاك سوقاً للمعرفة يغترف من مناهلها الواردون على أحواضها والمتعطشون لمعارفها والقيروان اشتهرت بأدبائها وشعرائها ونقادها ومن بينهم:

**1- الإمام البرزلي:** «هو أبو القاسم بن أحمد البرزلي إمام فقيه من أكبر علماء المالكية في عصره، ولد بالقيروان عام 740هـ/1340م؛ وانتقل إلى تونس واستقر بها، أتقن التفسير والحديث والفقه والتصوف والحساب وعلم الفلك، وأخذ عن العلماء البارزين مثل ابن عرفة وابن مرزوق الخطيب وأبي الحسن البطرني وغيرهم، ثم ارتحل إلى القاهرة عام 806هـ/1403م وأخذ عن شيوخها وأدى فريضة الحج وبعد ذلك عاد إلى تونس واشتغل بالتدريس والتأليف؛ وذكر في جالس الإمام ابن عرفة نحو أربعين سنة، وذاع صيته في المغرب والمشرق وانتشرت مؤلفاته وتولى الإمامة والإفتاء في جامع الزيتونة».<sup>(1)</sup>

«أخذ عنه من العلماء المعروفين عبد الرحمن الثعالبي ومحمد الرصاع وابن مرزوق الحفيد وغيرهم ومن مؤلفاته نعدد: "الديوان الكبير" في الفقه، "الحاوي في النوازل"؛ الذي اختصره أحمد الونشريسي وغيرها، و"الفتاوي" التي كانت متداولة بين الناس».<sup>(2)</sup>

أبو القاسم بن أحمد بن محمد البلوي القيرواني المعروف بالبرزلي ولد عام 740-741هـ/1340م وعمر طويلاً أحد ابن مرزوق الجد وأبو الحسن البطرني. توفي عام 840هـ الموافق 1440م

(1) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص.64.

(2) المرجع نفسه، ص.64.

وله عدّة كتب منها جامع مسائل الأحكام ممّا نزل من القضايا للمفتين والحكام والديوان الكبير في الفقه.<sup>(1)</sup>

2- محمد ابن الحاج التلمساني: «هو محمد بن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني، القيرواني الأصل، مولده في حدود تسع وعشرين وستمئة، ومرزوق جده هو الذي استوطن في أيام لمتونة\*، ونشأ بنوه بها، وهم أهل صلاح وعلم ودين ووجاهة، وكان هذا الفقيه من الصلحاء الزاهدين والعلماء».<sup>(2)</sup>

3- قاسم بن ناجي: «قاسم بن عيسى بن ناجي - أبو الفضل، أبو القاسم - فقيه، حافظ تعلّم بالقيروان وولى القضاء في عدّة أماكن.

من آثاره: شرح المدونة، الشافي في الفقه، زيادات على معالم الإيمان، شرح رسالة بن أبي زيد القيرواني و مشارق أنوار القلوب، معالم الإيمان في التعريف بمشايخ قيروان».<sup>(3)</sup>

4- عبد الجليل القيرواني: «هو عبد الجليل بن محمد بن أحمد بن عظم المرادي؛ القيرواني الصوفي المذهب.

من تصانيفه: تذكرة أهل الإسلام في الصلاة على خير الأنام؛ تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ شفاء الأسقام ومحو الآثام في الصلاة على خير الأنام».<sup>(4)</sup>

(1) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص.64.

(2) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص.296، ص.397.

\* لمتونة: من قبائل صنهاجة، وهم أبناء ورتنطق بن منصور بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن ورقمالي بن تلميث وهو لمتونة، وكانت مواطنهم من بلاد الصحراء تعرف باسم كاكدم.

(3) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، ج.2، ط.1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص.646.

(4) المرجع نفسه، ص.20.

5- أبو زيد عبد الرحمن بن عبد السلام الأسدي الأنصاري القيرواني: «من ولد سعد بن حضير رضي الله عنه يعرف بابن الدباغ ولد عام 605هـ الفقيه في العلوم عقليها ونقلها المحدث الرواية المؤرخ؛ ذكره العبدري في رحلته الواقعة عام 688هـ وأثنى عليه طويلاً وقال: لم نجد بالقيروان من يعتبر وجوده عداه وأجازه إجازة عامة، أخذ صاحب الترجمة عن أعلام منهم، والده وأبو عبد الله المعروف بالحنفي وأخذ أيضاً عن أبي العباس أحمد البطرني وعن أبي المكارم محمد بن أحمد بن يوسف بن موسى، تتلمذ على أكثر من 80 شيخاً وله معالم الإيمان في طبقات من داخل القيروان، توفي سنة 699هـ/1299 م»<sup>(1)</sup>.

6- علي العبيدي: «علي بن عبد الله بن عياش القيرواني، المالكي، المعروف بالعبيدي، فقيه، متكلم، قدم القيروان وسكن بها إلى أن توفي سنة 748هـ/1347م. من آثاره: كتاب في الفقه، وعقيدة في التوحيد»<sup>(2)</sup>.

7- قاسم القيرواني: «هو قاسم بن عمر الزواوي، القيرواني المالكي، نزيل مصر، له تصانيف»<sup>(3)</sup>.

8- إبراهيم بن قطن القيرواني: «هو إبراهيم بن قطن المهري القيرواني، أخو عبد الملك، قرأ النحو، واشتغل به وعرف عند الناس به، وكان إباضي المذهب»<sup>(4)</sup>.

9- أمان أبو مالك النحوي القيرواني: «هو أمان بن الصمصامة بن الطرماح بن حكم أبو مالك النحوي شاعر وعالم باللغة وحافظ للفريض، أكرمه أبو علي الحسن بن سعيد البصري لما كان كاتب المهالية أيام ولايتهم بافريقية»<sup>(5)</sup>.

(1) محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج.1، ط.1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1349، ص.276.

(2) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج.2، مرجع سابق، ص.469.

(3) المرجع نفسه، ج.2، ص.646.

(4) جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. الأستاذ أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت،

1964، ص.423.

(5) المصدر نفسه، ص.57.

- 10- أبو هلال التجيبي: «الحسن بن أحمد بن علي بن الحسن بن أبي هلال التجيبي؛ أبو هلال، غلبت عليه كنيته؛ من أبناء القيروان، أوطن سوسة؛ وهو شاعر معروف، حسن الطريقة، متصرف، بين التصنع، والاسترسال أحياناً، صاحب مكاتبات ومضمرات».<sup>(1)</sup>
- 11- أبو العباس أحمد بن محمد: «المعروف بالخلوف الملقب بشهاب الدين، قيرواني الأصل، تونسي الدار والوفاء، كان عالماً فقيهاً، صوفياً، أدبياً، أريباً، كاتباً، شاعراً، قطب دائرة الأدب في عصره؛ من مداحي الحضرة النبوية، ومن شعراء البلاط الحفصي على عهد أبي عمرو عثمان بن أبي عبد الله الحفصي، له فيه القصائد العصماء ذات التشابه البليغة والأساليب البديعية، كانت واقته - رحمه الله - عام 891هـ».<sup>(2)</sup>
- 12- أبو طالب الدلائي: «حسن بن محمد هيثمون، أبو طالب الدلائي الجهني، كان شيخاً ظريفاً ذا رقة مفرطة ولطافة بيّنة وافتنان؛ كان مشهوراً بالحبّة والكلام عليها والوفاء فيها؛ موصوفاً بالصيانة والعفة، منسوباً إلى طلب العلم وصحبة الشيوخ الجلّة من أهله كالغساني وأبي الحسن الدباغ، وأبي محمد التّيان، موسوماً بكل خير إلى أن صنع أبيتاً كان لها سبب وجيهاً، وقد دخل في عداوة الفقهاء، وعزل عن إمامة المسجد ولزم داره، وقد حكى أنّه فقد من أحبته نيفاً وأربعين غريقاً في البحر؛ فصار شعره رثاء كله...».<sup>(3)</sup>
- 13- الوراق السوسي: «محمد بن عبدون الوراق السوسي ليس سوسياً على الحقيقة بل من أكابر القيروان وبها مقامه الآن لكن أباه سكن سوسة فعرف بذلك وهو شاعر وطيء الكلام كلفٌ بعذوبة اللفظ والتسلسل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون وجأش لا يكاد يلغى بالشعر إلاّ قال».<sup>(4)</sup>

(1) كتاب ابن رشيقي القيرواني، أنموذج. الزمان في شعراء القيروان، جمعه ودققه محمد العروسي المطوي وبكوس بشير، (د.ط)، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، تونس، 1986، ص. 102.

(2) محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، ج. 2، مصدر سابق، ص. 474.

(3) ابن رشيقي القيرواني، أنموذج. الزمان في شعراء القيروان، مصدر سابق، ص. 117، ص. 118.

(4) مصدر نفسه، ص. 390.

قال صاحب الكتاب: رقة الشوق طاهرة على هذا الشعر، ولطف الحضارة مع مياه تكاد تنبع من جانبه فهو أندى من الزهر غب القطر؛ وأحلى من الوصل بعد الهجر ولما سمعها جعفر ازداد بها إعجاباً وفيه رغبة؛ فمنعه من السفر، فكتب إلى نقة الدولة يسأله فيما سأل فيه ولده ويشكر ما ناله من الجود<sup>(1)</sup>.

ارتحل سنة ثلاثة وتسعين وثلاثمائة إلى ثقة الدولة يوسف ابن عبد الله وامتدحه فأحسن إليه وأضافه إلى ولده جعفر فأدناه وقربه، وكان من أكرم الناس وأنا له الرجوع إلى وطنه، ورفع إليه قصيدة يتشوق فيها معاهدة منها:

يَا اللَّهُ يَا حَبْلَ الْمَعْسَكِ دَعُ \* رِيحَ الْجَنُوبِ لَعَلَّهَا تَسْرِي  
كَيْمَا أَسْأَلُهَا فَتُخْبِرُنِي \* مَا يَفْعَلُ الْجِيرَانُ بِالْقَصْرِ  
يَا قَصْرُ طَارِقِ الَّذِي طُرِقْتُ \* أَحْشَائِي فِيهِ بِلَابِلِ الصَّبْرِ  
وَاللَّهُ مَا قَصَّرْتُ عَنْ قَلْقٍ \* لَكِنِّي قَصَّرْتُ بِالْقَسْرِ  
فَسَقَاكَ مِنْهُمْ لِحَايَا وَسَقَى \* عَصْرًا تَقْضَى فِيكَ مِنْ عَصْرِ  
يَا رِيحُ كَمْ لِي فِيكَ مِنْ غُصْنٍ \* يَهْفُو صَبَاهُ وَكَمْ بَدْرٍ  
وَمُنَاسِبُ الْأَوْصَافِ أَثْقَلُهُ \* حَقْفُ يَكَاذِ يَنْوُءُ بِالْخَصْرِ  
قَدْ طَالَمَا عَقُدْتُ قَلَائِدُهُ \* مِنْ مَّكَانِ قَلَائِدِ النَّحْرِ  
وَلَثَمْتُ صَدْرًا فَاحَ عَنَبْرُهُ \* مِنْ غَيْرِ مَا طَيْبٍ وَلَا عِطْرِ  
وَصَمَمْتُ أَنْفَاسِي عَلَيْهِ وَقَدْ \* أَشْفَقْتُ مِنْ نَفْسِي الَّذِي يَسْرِي  
وَكَأَنَّ صَدْرِي لَا ضُلُوعَ لَهُ \* وَكَأَنَّ قَلْبِي بَانَ عَنْ صَدْرِي  
أَعْطِنِي عُهُودَ اللَّهِ صَفْقَةً مَنْ \* أَعْطَى الْعُهُودَ بِجَانِبِ الْحَجْرِ

(1) المصدر السابق، ص. 391.

## المبحث الثاني: علماء حاضرة فاس.

كان اهتمام علماء بني مرين بمختلف العلوم النقلية والعقلية، إلا أنهم أولوا العلوم الدينية كالتفسير والفقه والحديث عناية خاصة إلى جانب علوم اللغة والتاريخ والطب.

## أ- العلوم النقلية:

➤ أولاً: العلوم الدينية: من أعلامها:

## 1- القاضي أبو الحسن الزرويلي المعروف بالصغير:

هو علي بن محمد بن عبد الحق شيخ الشيوخ، وإمام الفقهاء، العلامة العلم، البحر، المفتي، المرجع، ولد حوالي 600هـ، كان أحد مفتيي الملكية في المغرب، مرجوعاً إليه في مسائل الدين والدنيا، توفي حوالي سنة 719هـ<sup>(1)</sup> وعمره نحو المائة والعشرين عاماً، درّس بجامع القرويين بفاس، فخرّج على يديه العديد من العلماء والفقهاء الذين ذاع صيتهم، فكان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتوى، تردّ عليه الأسئلة من جميع بلاد المغرب، فيحسن التوقيع على ذلك.<sup>(2)</sup>

أقام الحق على الكبير والصغير وجرى في تولّي القضاء بفاس، قدّمه أبو الربيع سلطان المغرب، أخذ عن صهره أبي الحسن بن سليمان وأبي عمران الحوراني، وعن الفقيه راشد بن أبي راشد الوليدي، وانتفع به وعن أبي سالم بن أبي يحيى.<sup>(3)</sup>

اشتهر بالردّ على أهل البدع عموماً والصوفية خصوصاً، من تأليفه: "شرح الشاطبية"، وله رسالة عنوانها "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ورسالة أخرى وجدت في إحدى الفهارس المجهولة الاسم، وكتاب "فهرس ما لم يُفهرس" من المخطوطات المغربية في الخزانات وله فتاوى جمعها عنه تلاميذه، وكتاب "الدّر الثّير على أجوبة أبي الحسن الصغير"، كُتب عليه تأليف أبو

(1) ابن قنفذ الفسنطيني، الوفيات، مصدر سابق، ص342.

(2) السلاوي، الاستقصا، ج3، مصدر سابق، ص87.

(3) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص240.

الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي السوسي التازي المعروف بابن أبي يحيى، جمعه أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر، ووضع رتبته ونسقه أبوابه أبو سالم إبراهيم بن هلال بن علي السجلماسي قاضي سلجماسة، فرغ من تأليفه يوم عيد الأضحى عام 900هـ.<sup>(1)</sup>

له كتاب شرح تهذيب المدونة للبراذعي قال عنه الإمام العالم أبو عبد الله بن مرزوق: «هو شيخ الإسلام جمع بين العلم والعمل، وبمقامه يضرب المثل في التفقه والتحصيل».<sup>(2)</sup>

وللإشارة فهناك إمام آخر اشتهر بهذا الاسم أي أبي الحسن الصغير المكناسي، لكن هذا الأخير كان متأخراً، وهو الذي ردّ على السنوسي الصوفي الأشعري في كتاب سمّاه "نصرة الفقير في الردّ على أبي الحسن الصغير"، وجاء ذلك إثر تأليف المكناسي لكتاب اسمه "الردّ على الفقراء" شتّع فيه على الصوفية وبيّن ضلالهم.<sup>(3)</sup>

## 2- القباب:

هو أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن، أحد الحفاظ المشهورين بالدين والصلاح والتقدم في العلوم، تولّى الفتيا بفاس، وله فتاوى مشهورة، وهو أوّل من نقل الونشريسي عنه في المعيار، أخذ عن الحفاظ السطّي وأبي الحسن بن فرحون المدني والقاضي القشتالي وعن الإمام الشاطبي والصالح عمر الرّجراجي وغيرهم.<sup>(4)</sup>

ذكره ابن الخطيب في الإحاطة فقال: هو من صدور عدول فاس فقيه نبيه جيّد النظر سديد الفهم، ولي قضاء جبل الفتح (جبل طارق)، متصفاً بجزالة ودخل غرناطة عام اثنين وستين وسبعمائة موجهها من قبل سلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن، ثم رفض العيش من الشهادة

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص.242.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص.243.

(3) أبو الوليد أيوب الخريكي، أبو الحسن الصغير، مجلة دعوة الحق، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، ص.10.

(4) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص.100.



وتنسك على عادة الفضلاء<sup>(1)</sup>، وقال عنه ابن قنفذ القسنطيني: «شيخنا الفقيه الحافظ، الصالح المفتي الحاج أبو العباس، حضرت مجلسه في الحديث والفقه وأصول الدين، توفي سنة تسع وسبعين وسبعمائة، هكذا في رحلته، وزاد في وفاته شيخنا الفقيه المحقق، له شرح حسن على قواعد عياض، وشرح بيوع ابن جماعة، لازمت درسه بفاس في الحديث والفقه والأصلين»<sup>(2)</sup>.

-من آثاره: اختصار أحكام النظر لابن القطان أسقط فيه الدلائل والإحتجاج وشرحه على القواعد في غاية الإتيان، وله مباحث مشهورة مع الإمام الشاطبي في مسألة مراعاة الخلاف في المذهب أحسن فيها غاية الإحسان، ونقل عنه البرزلي في ديوانه، ووصفه بالعلم والصلح. وقع بينه وبين الإمام سعيد العقباني مناظرة بل مناظرات ومراجعات في مسائل جمعها العقباني في كتاب سماه "باب اللباب في مناظرة القباب"<sup>(3)</sup>.

### 3- محمد بن سليمان السطّي\*:

الفقيه حافظ المغرب، العلامة الفرضي الجليل، أخذ العلم عن إمام المالكية بالمغرب أبي الحسن الصُّغير وتفقه عليه، وكان أحفظ الناس للمذهب وأفقههم فيه، أخذ الفرائض عن أبي الحسن الطنجي، ختم عليه الحوفية ثماني ختمات، وكان له في فهمه وإقراءه وحلّ عقده اليد الطولى، اختاره السلطان أبو الحسن المريني مع جماعة من العلماء لصحبته إلى تونس<sup>(4)</sup>، من تأليفه: تعليق صغير على المدونة وشرح جليل على الحوفية وتعليق ابن شاس فيما خالف فيه المذهب.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، مصدر سابق، ص.187.

(2) ابن قنفذ، الوفيات، مصدر سابق، ص.372.

\*السطي نسبه إلى سطة بطن من قبيلة أوربة.

(3) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص.102.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص.62، ص.63.

أخذ عنه ابن عرفة والعقباني وابن خلدون، والمقرّي، والعبدوسي الكبير، والخطيب ابن مرزوق، والقباب، حظي بمكانة مرموقة عند أبي الحسن المريني، إذ كان يؤم به ومفتيه وخطيبه، نشأ مكباً على النظر والقراءة والتقيد حتى في مجلس السلطان.

حضر مع السلطان أبي الحسن واقعة القيروان وخلص معه إلى تونس وأقام معه بها نحواً من ستين ثم توفي غريقاً في سواحل بجاية مع من غرق من الفضلاء وغيرهم.<sup>(1)</sup>

#### 4- محمد بن الصبّاغ الخزرجي المكناسي:

يقول عنه ابن خلدون: «كان مبرزاً في المنقول والمعقول عارفاً بالحديث ورجاله، إماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقراءه، أخذ العلوم عن مشيخة فاس ومكناسة، ولقي شيخنا أبا عبد الله الآبلي ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية فاستنفذ بقية طلبه عليه فبرز آخرًا، واختاره السلطان فاستدعاه ولم يزل معه حتى هلك غريقاً في ذلك الأسطول، يعني أسطول أبي الحسن آخر سنة خمسين وسبعمائة».<sup>(2)</sup>

كان ابن الصبّاغ من كبار العلماء فقيهاً شهيراً عالماً علامة اجتمع في رحلته إلى تونس التي استصحبه فيها السلطان أبو الحسن بالإمامين ابن عبد السلام وابن هارون والإمامين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام فأخذ معهم في العلم وأعطى. وممن مات معه في ذلك الأسطول الفقيه الحافظ السطّي والأستاذ الزواوي، له نظم في علاقات المجاز.<sup>(3)</sup>

(1) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، مصدر سابق، ص.33.

(2) المصدر نفسه، ص.46.

(3) التنبكي، نيل الابتهاج، ج2، مصدر سابق، ص.65.

## 5- موسى بن محمد بن معطي العبدوسي<sup>(1)</sup>:

وبه عرف أبو عمران الفاسي مدرستها وعالمها ومفتيها، قال عنه ابن الخطيب القسنطيني: «شيخنا ومفيدنا طريقة الفقه الشيخ الحافظ، مجلسه بفاس أعظم المجالس يحضره الفقهاء والمدرسون والصلحاء وحفاظ المدونة يحضره من نسخها بيد الطلبة نحو أربعين»<sup>(2)</sup>.

ويذكر ابن الخطيب: «بأن الشيخ العبدوسي كان آية الله في المدونة وكان الشيوخ يقولون انتهاء العصر على ثلاثة أقسام: من أعطى الحفظ فقط ومن أعطى الفهم فقط ومن جمعا له وهو سيدي العبدوسي، وقد قيد عنه شيخنا الفقيه الحافظ عمر ابن موسى تقييداً كبيراً في عشرة أسفار على المدونة، وله تقييد آخر عليها وآخر على الرسالة»<sup>(3)</sup>.

ويقول في موضع آخر: «كان له في الفقه مجلس لم يكن لغيره في زمانه لازمتة في المدونة والرسالة بفاس ثماني سنين».

وممن كان يحضر مجلسه من كبار الصالحين ابن عبّاد وأبو حفص الرجرجي وأبو عبد الهواري وغيرهم من الأئمة. توفي عام 776هـ/1374م.

## 6- أم هاني بنت محمد العبدوسي:

"الفقيهة الصالحة أخت الإمام الحافظ عبد الله العبدوسي، قال عنها الشيخ زروق في كناشته: «كانت فقيهة صالحة ذات علم وصلاح، طعنت في السنّ إلى قرب المائة، توفيت سنة ستين وثمانمائة، وهي آخر فقهاء هذه الأسرة الشريفة»»<sup>(4)</sup>.

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص.300، ص.301.

(2) ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، مصدر سابق، ص.369.

(3) ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، (د.ط)، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي،

الرباط، سنة 1965، ص.25.

(4) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص.316.

## 7- الشّماع أحمد بن محمد الهنتاني أبو العباس:

«أحد تلامذة ابن عرفة، أخذ عنه الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي، وولي قضاء محلة السلطان أبي فارس، ووقع بينه وبين الحافظ البرزلي نزاع كبير في مسألة العقوبة بالمال هل هي جائزة باق حكمها أو منسوخة ؟ فوقع بينهما خلاف كبير وهجو، نقل عنه في المعيار» توفي 1459هـ.<sup>(1)</sup>

## 8- محمد بن أحمد بن عبد الملك القشتالي الفاسي:

«قاضي الجماعة بها، وسلفه من أهل الصلاح والخير فيها، كان من أكابر الفقهاء المشاركين في العلوم، لكن غلب عليه الفروع واقتصر على حفظ المسائل وتقدّم في علم الوثائق واشتهر بها، تقلّد خطة القضاء بفاس، وسلك سيرة قضاة العدل، له نظم حسن وكتابة رائقة يصمت فيها، فمنها ممّا رفعه لأبي عنان قوله:

أيا إماماً ندَى كَفَيْهِ قَدْ وَكَفَا ❀ حَسْبِي اعْتِصَامِي بِحَبْلِ مِنْكُمْ وَكَفَى  
وَكَيْفَ أَصْرَفُ وَجْهَ الْقَصْدِ عَنْ مُلْكٍ ❀ مَا صَدَّ عَنِّي سَنَا بَشَرٍ وَلَا صَرْفًا».<sup>(2)</sup>

قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة: «... له أبوة صالحة وأصالة زاكية... صدر من الصدور الوثيقة والأدب... مديد الباغ في الأدب شاعر مجيد، كاتب بليغ، علم من أعلام المشيخة، قدمه السلطان العالم أبو عنان لقضاء حضرته إختصه واشتمل عليه فعرف حقه، وتردّد للأندلس سفيراً فذاع فضله وعلم قدره».<sup>(3)</sup>

<sup>(1)</sup> التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، المصدر سابق، ج1، ص.112.

<sup>(2)</sup> التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص.106.

<sup>(3)</sup> ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، مصدر سابق، ص.187.

«ويقول أبو زكريا السراج في فهرسته بأن شيخه كان عالماً الفقه مشاركاً في غيره من العلوم مسدداً في الفتاوى عارفاً بأخذ الشروط... أخذ عن الأستاذ أبي الحسن بن سليمان والشيخ الصدر قاضي الجماعة ابن عبد الرزاق، سمع عليه الترمذي، وعن الإمام السطّي والصدر المحقق أبي عبد الله بن آجروم، والحافظ الناقد المحقق أبي زكرياء بن واثق والفقيه العالم أبي عبد الله الرندي والخطيبين أبي عبد الله الطنجالي وأبي فقير الزيات، والمحدث ابن جابر والوادي آشي، وعبد المهيمن الخضرمي». ويذكر ابن الخطيب القسنطيني بأن شيخه توفي سنة 779هـ، وكان قد أخذ عن القباب<sup>(1)</sup>.

#### 9- أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الشريف الحسني السبتي ثم الغرناطي:

القاضي أبو جعفر وأبو العباس الشيخ الفقيه العالم الأبرع ابن الإمام العلامة أبي القاسم الشريف، شارح المقصورة، أخذ عن شيخ الشيوخ أبي سعيد فرج بن لب وغيره، وأخذ عنه الإمام أبو يحيى بن عاصم شارح التحفة، وله أخ عالم فقيه يسمى محمداً ويكنى أبا المعالي، قال صاحب الكوكب الوقاد فيمن دفن بسبته من العلماء والزهاد: «لقيت هذين الشيخين وأجازني، أولهما وأكبرهما ذكرهما الوزير ابن الخطيب في شعراء الكتيبة الكامنة، وذكر له قصيدة لزومية. نقل عنه صاحب المعيار»<sup>(2)</sup>.

#### 10- أبو عبد الله القشتالي:

هو محمد بن أحمد بن عبد الملك، أبو عبد الله القشتالي، قاضي فاس، المتوفي سنة 777هـ/1375م. من العلماء بفقه المالكية والأدب وأحد الكتاب البلغاء في عصره، وهو الذي خاطبه لسان الدين بن الخطيب بأبيات، أولها: «من ذا يعدّ فضائل القشتالي»، ولآه سلطان المغرب

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص106، ص107.

(2) مصدر سابق، ج1/ص111.

قضاء فاس سنة 756هـ، وكان له تأليف يعرف «بوائق القشتالي» علّق عليه الونشريسي في كتاب سمّاه: "غنية المعاصر".<sup>(1)</sup>

### 11- خلف الله المجاصي:

«الفقيه الحافظ من علماء فاس وشيوخها وأحد الحفاظ بها، كان يحفظ المقدمات والبيان والتحصيل لابن رشد، أخذ عن أبي الربيع سليمان الونشريسي توفي سنة 732هـ».<sup>(2)</sup>

### 12- مصباح بن عبد الله الياصلوتي:

أبو الضياء الفاسي، من أكابر أصحاب أبي الحسن الصغير، كان فقيهاً صالحاً حافظاً نوازلياً، وهو أول من درّس بمدرسة أبي المربني بفاس فنسبت إليه، وكانت أمّه من الصالحات ولا ترضعه إلاّ على وضوء، تفقه على أبي الحسن الصغير وغيره، توفي بفاس سنة 750هـ، وله فتاوى نقل بعضها في المعيار.<sup>(3)</sup>

### 13- عبد الرحمن بن عفان الجزولي أبو زيد:

صاحب تقايد الرسالة المشهورة، الشيخ الفقيه الحافظ شيخ الرسالة والمدوّنة، كان علامة في المذهب ورعاً صالحاً، أخذ عن أبي الفضل راشد، وأبي عمران الجوراني، وأبي زيد الرّجراجي، وأبي محمد عبد الصّادق الصبان، وكان يحتفلون بمجلسه للأخذ عنه، قيّدوا عنه تقايد على الرسالة، وكان معمرًا وما قطع التدريس على ضعفه.

توفي حين خرج للقاء السلطان أبي الحسن المربني بعد عودته من معركة طريف، فترّل له عند لقاءه عن فرسه ونزل له السلطان أيضاً إجلالاً له وسقط هو عن دابّته فتضعضت أركانه فمات من ذلك عام 741هـ.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، مصدر سابق، ص133.

(2) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص179.

(3) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص306.

من تلامذته الشيخ الصالح يوسف بن عمران الأنفاسي والإمام الحافظ أبو عمران العبدوسي وغيرهم.<sup>(1)</sup>

#### 14- عبد الرحمن الرّجراجي:

«الحافظ الفقيه أبو زيد، كان ممن يتكلم على المدوّنة بفاس وأملى عليها إملاءً حسنًا، أخذ عنه عبد الرحمن بن عفّان الجزولي، توفي سنة 718هـ».<sup>(2)</sup>

#### 15- عبد الرحمن بن العشاب أبو زيد:

ذكره أبو العباس الونشريسي فقال عنه: «نقلت من خطّ الأستاذ أبي الحسن بن بري أنّ أبا زيد العشاب كان شابًا صالحًا قرأ بتازا وأخذ عليّ النحو وأكمل الإيضاح تفهما، ثم نظر في المعقول وشارك في الحديث والتفسير، كان ثاقب الفهم شديد النظر معمور الأوقات بالبحث والمطالعة والمذاكرة، له ورْدٌ بالليل واجتهاد في العبادة على صغر سنّه، لم يزل دعوبًا على الخير حتى وفاته ليلة الجمعة ثاني رمضان عام 724هـ، ودفن عقب الجمعة وسنه نحو عشرين سنة، وأُلفت له تقييدًا على كتاب الشمائل لم يكمله، وله أسئلة نفيسة في التفسير وغيره».<sup>(3)</sup>

#### 16- أبو عبد الله محمد الرندي الفاسي:

«الفقيه الحافظ، القائم على المذهب، إمام في العربية مقدّم في النظر، انتفع به خلق كثير، توجه مع السلطان أبي الحسن المريني لإفريقية فمات سنة 746هـ، له تأليف حسن في شرح الجلابّ أبان فيه عن فضله وتصرفه».<sup>(4)</sup>

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص265، ص266.

(2) التنبكي، نيل الابتهاج، ج1، مصدر سابق، ص264.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص264، ص265.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص56.

## 17- محمد بن أحمد بن شاطر المراكشي:

ذكر المقرئ بأنه كان من أصحاب أبي زيد الهزميري وابن البناء ورزوق وغيرهم من الصالحين. كان حيًّا سنة 757هـ.

## 18- محمد بن عبد الرزاق الجزولي:

قال عنه ابن خلدون: « شيخنا شيخ وقته جلالة وتريية وعلمًا وخبرة بأهل بلده وعظمة فهم، نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها، ورحل لتونس فلقي القاضيين ابن عبد الرفيح، وأبا عبد الله النفزاوي وطبقتهما، أخذ عنهما وتفقه عليهما، ورجع للمغرب ولازم الأكابر والمشايخ إلى أن ولاه السلطان أبو الحسن قضاء فاس فبقي عليه إلى أن عزله بالفقيه المقرئ، ثم لما جمع شيوخ العلم للتحقيق بمجلسه والإفادة منهم استدعاه معهم فلم يزل كذلك إلى أن هلك قبل مهلك أبي عنان بيسير». روى عنه ابن مرزوق الخطيب، وتوفي سنة 758هـ بفاس.<sup>(1)</sup>

## 19- أبو الحجاج يوسف بن عمران الأنفاسي:

قال ابن الخطيب القسنطيني: « كان شيخًا عالمًا محققًا عابدًا، إمام جامع القرويين بفاس، له أورداد ومجالس لقراءة العلم والتصوّف، توفي سنة 761هـ، عن مائة سنة وصُلّي عليه عقب صلاة الجمعة، وابنه العالم الصالح أبو الربيع سليمان». وللشيخ يوسف تقييد مشهور على الرسالة متداول بين الناس.<sup>(2)</sup>

(1) التنبكي، نيل الانتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص74، ص75.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص226، ص227.



## 20- الحسن بن عطية التجاني المكناسي المعروف بالونشريسي:

قال عنه ابن الأحمر في فهرسته: «شيخنا الفقيه المفتي المدرّس القاضي أبو علي بن الشيخ الصالح عطية، أجازني الموطأ رواية يحيى بن يحيى، توفي عام 781هـ، أخذ عن الفقيه الإمام العالم المحصل المتكلم النظار المفتي المدرّس البحر أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ الخزرجي المكناسي»<sup>(1)</sup>.

## 21- محمد بن علي بن البقال الأنصاري الفاسي:

قال عنه ابن الأحمر في فهرسته: «الفقيه العدل الكثير الحياء والصمت أبو عبد الله ابن الفقيه المدرّس، أخذ عن والده وعن الإمام أبي العباس بن البناء العددي، وتوفي بفاس عام 778هـ، أجازني عامّة»<sup>(2)</sup>.

## 22- أبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن عثمان الرّعيني الأندلسي الفاسي:

فقيه فاضل متواضع مولع بالتقييد والتصنيف، تفقه على أبي الحسن الصغير والحافظ عبد الرحمن الجزولي، وأبي سالم اليزناسي وأبي الحسن المزدغي، وأخذ عن جماعة شرقاً وغرباً كأبي الحسن بن سليمان، والمفسر عبد الله بن أيوب الصنهاجي، والإمام ابن البنا الأزدي، سمع عليه من تأليفه تفسير الباء من بسم الله، وتفسير الاسم وتأويله، وتفسير سورة الكوثر، ومراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليفة. ومقالة في المكايل الشرعية، والكلام على القبلية.

وعن الشيخ الفقيه الراوية الرُّحلة أبي القاسم التجيبي السبتي، لقيه بفاس وأجازته برنامج روايته ومؤلفاته، والخطيب الراوية المحدث ابن رشد، والشيخ المسند الراوية أبي بكر محمد بن محمد بن أبي عمر محمد بن خليل السكوني، والأصولي النظار قاسم بن الشاط، وعن القاضي أبي عبد الله

(1) التنبكي، نيل الابتهاج، ج1، مصدر سابق، ص170، ص171.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص120.

القرطبي السبتي وابن عبد المنعم، والناصر المشدالي وابن عبد الرّفيّع، وابن قداح وأثير الدّين أبي حيان، وابن سيد الناس وجماعة كثيرة توفي في الثامن صفر عام 779هـ.

وقال بعضهم: «كان من فقهاء فاس نسخ بخطّه أزيد من مائة وخمسين كتاباً وألف في فنون عدّة منها: تحفة الناظر ونزهة الخواطر في غريب الحديث، والجامع المفيد في سفرين والمغرب في حثالة صلحاء المشرق والمغرب، والقواعد الخمس والمقامات وشرحها، والوعظ والشعر، والمهاد والاعتماد في الجهاد، وتنبيه الغافل وتعليم الجاهل، والرّوضة البهية في البسملة والتّصلية، واختصر مقدّمات ابن رشد والأسئلة والأجوبة واختصار حدود الشيرازي ونظم مراحل الحجاز، وروى عن نحو ستين شيخاً غرباً وشرقاً منهم: ابن الشاط وابن رشد، وأبو حيان وأبو الحسن الصغير، والنصر المشدالي وأبو الربيع اللّجائي»<sup>(1)</sup>.

### 23- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر اللّخمي الفاسي:

وبه اشتهر، قال عنه أبو زكريا السراج في فهرسته: «شيخنا الفقيه المسن الأستاذ الجليل المقرئ الرّواية المتخلق الصالح الفاضل، انفرد بعُلو الرّواية في قطرنا وجلس للإقراء بفاس، مواضبا عليه... قرأ عليه خلق كثير حتى كبر وضعف وعجز عن الخروج فأقرأ بداره مدّة ثم اشتدّ ضعفه فصارى يقرئ في بعض الأوقات، أخذ عن أبي الحسن بن سليمان القرطبي القراءات وعن قاضي الجماعة ابن عبد الرزّاق، ولد عام 703هـ وتوفي ليلة الأحد ثاني عشر محرم عام 794هـ»<sup>(2)</sup>.

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص120، ص122.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص125، ص126.

## 24- عبد الرحمن بن سليمان اللجائي أبو زيد ابن أبي الربيع:

أحد تلامذة ابن البناء وأصحابه، حقق عنه علومه، ووالده أبو الربيع أول من دخل فرعي ابن الحاجب في المغرب وعنه أخذ، وكان فقيهاً متفناً، له تأليف توفي سنة 773هـ، أخذ عنه ابن الخطيب القسنطيني.<sup>(1)</sup>

## 25- عبد الله الوانغيلي الضرير أبو محمد:

قال عنه ابن الخطيب القسنطيني: « شيخنا ومفيدنا الفقيه الحافظ المفتي بفاس، أخذ عن الربيع اللجائي تلميذ القرافي، وانفرد بمعرفة كتابي بن الحاجب في الأصول والفروع، وختمت عليه الأصلي بفاس وحضرت درسه في المدونة مدة، أخذ عنه الإمام المكودي والشيخ الصالح عمر الرجراجي، توفي سنة 779هـ، ونقل عنه في المعيار فتاوى وأثنى عليه». <sup>(2)</sup>

## 26- عبد الله بن عبد الواحد الوريا جلي الفاسي:

قال عنه ابن غازي في فهرسته: « الفقيه القاضي المدرّس المفتي أبو محمد، جالسته كثيراً وذاكرته واستفدت منه في الفقه كثيراً والأصليين وأجازني بلفظه وخطه جميع ما حمّله عن شيوخه كالشيخ الفقيه المحقق العالم أبي القاسم التاز غدري، والشيخ الفقيه المحدث الحافظ أبي محمد العبدوسي والشيخ العالم المتفنن أبي عبد الله العكرمي والخطيب أبي القاسم محمد بن يحيى السراج». لقي من شيوخ تلمسان الإمام العالم العلامة الرباني محمد بن أحمد ابن محمد بن مرزوق، والإمام أبو الفضل والفقيه المحقق المحدث يحيى أبو الربيع سليمان بن الحسن البوزيدي، وغيرهم. توفي سنة 894 هـ/1488م. <sup>(3)</sup>

<sup>(1)</sup>التنبكي، نيل الانتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص.270.

<sup>(2)</sup>المصدر نفسه، ج1، ص.239.

<sup>(3)</sup>المصدر نفسه، ج1، ص251، ص252.

## 27- عبد العزيز بن محمد القروي الفاسي:

الفقيه الصالح أبو محمد، من أصحاب الشيخ أبي الحسن الصغير، قال الإمام المقرئ: « هو أكبر تلاميذ أبي الحسن علماً ودينًا ».

وكذا الإمام ابن مرزوق الحفيد وزاد أن تقييده عنه على المدونة أحسن تقييده، وهو الآن بخطه محبساً بفاس وأما التقييد الكبير فجمعه رجل من صدور الطلبة يقال له اليعمدي توفي عام 750هـ/1350م.<sup>(1)</sup>

## 28- عبد النور بن محمد بن أحمد الشريف العمراني الفاسي:

كان ذا معرفة تامة بالفقه ومشاركة في أصوله وأصول الدين، من أهل الشورى ومقدميهم وقلمه أفصح من لسانه.

أخذ عن الأستاذ المحدث أبي الحسن علي بن سليمان القرطبي، وأبي عبد الله محمد بن يحيى الحسن، مولده عام 685هـ، وله تقييد على المدونة وفتاوى نقل عنه بعضها في المعيار.<sup>(2)</sup>

## 29- عبد الواحد بن منديل بن عبد الواحد الأنصاري الفاسي:

قال عنه ابن الأحمر في فهرسته: « شيخنا الفقيه الكاتب العدل المتدين ابن الفقيه، الكاتب المعروف بالزيتوني، أخذ عن الفقيه المحدث الراوية أبي القاسم بن يوسف التجيني السبتي والأستاذ النحوي أبي عبد الله بن هاني وجماعة كثيرة، توفي بفاس سنة 778هـ ».<sup>(3)</sup>

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ج1، ص.297.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص.319.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص.322.

## 30- إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله الزناسي:

قاضي الجماعة بفاس، كان إماماً حافظاً علامة بارعاً في الفقه نظاراً، أثنى عليه الإمام ابن مرزوق الحفيد فقال: «إنه من مفاخر قطره، وصفه بعضهم بالفقيه المفتي المدرّس المحقق العلامة الصدر العلم الشهير، ووصفه في المعيار بالفقيه الأعدل الأنزه القدوة الأوحّد ابن الفقيه الجليل الأصيل الماجد الوجيه التزيه العلم الصدر ابن الفقيه ابن المدرّس المفتي المحقق القدوة العلم الفذ الصالح الزاهد الخاشع الولي العارف المجاب الدّعوة المبرور أبي سالم». له فتاوى عديدة ناظر فيها وحقق ذكر منها في المعيار، توفي يوم الخميس 18 رجب سنة 794هـ.<sup>(1)</sup>

## 31- أحمد بن محمد بن حزب الله الخزرجي العبادي السعدي:

من بيت علم بفاس وأصالة، أصلهم من الأندلس، كان فقيهاً خطيباً مدرّساً مقرأً، توفي شهيداً في وقعة طريف سنة 741هـ.<sup>(2)</sup>

## 32- أحمد بن عبد الرحمن بن تميم اليفرني المكناسي:

أخو الشيخ أبي الحسن الطنجي شيخ الحافظ السّطي، كان من الفقهاء والأساتيد، أخذ عن الأستاذ أبي عبد الله محمد بن قاسم بن محمد الأنصاري المالقي، نزيل مكناسة، وروى عن ابن سليمان الوادي آشي وابن هانئ وابن رشد وأبي يعقوب البادسي، رحل إليه الناس من فاس للأخذ عنه، فلما رجع صار يدعى بالمكناسي، توفي بفاس سنة 753هـ.<sup>(3)</sup>

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ج1، ص40.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص88.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص91.

### 33- سليمان الونشريسي:

يسمى أبا الربيع الإمام المقرئ بفاس، أخذ عنه الفقيه أبو سالم الزيناسي وقرأ عليه أبو عبد الله الرندي كتاب الجلاب، وكان قائماً عليه وعلى المدونة، توفي بفاس سنة 705هـ.<sup>(1)</sup>

➤ ثانياً: العلوم اللسانية والاجتماعية (الأدب والنثر، النحو، الشعر، التاريخ...):

### 1-مالك بن المرحّل السبتي:

المولود سنة 604هـ بسبته والمتوفى سنة 699هـ بفاس (1207-1299م) تعاطى صناعة التوثيق في بلدته، وتقرّب كثيراً من يعقوب المنصور وخصّه بمدحه وكان إلى ذلك عالماً، وقد قامت بينه وبين معاصره ابن رشيق الثعلبي مهاجاة مقذعة، فقال بن رشيق في مطلع قصيدته:

لَكِلَابُ سَبْتَةٍ فِي التُّبَاحِ مَدَارِكُ  
وَأَشَدُّهَا عِنْدَ التَّهَارُشِ مَا  
شَيْخُ تَفَانِي فِي الْبَطَالَةِ عَمْرُهُ  
وَأَحَلَّ مَحْكِيهِ الْكَلَامُ الْإِفْكَ.

فردّ عليه مالك:

كِلَابُ الْمَزَابِ لُـ آذِينِي  
بِأَبُو الْهَنْ عَلَى بَابِ دَارِي  
وَقَدْ كُنْتُ أَوْجِعُهَا بِالْعَصَى  
وَلَكِنْ عَوْتُ مِنْ وَرَاءِ الْجِدَارِ

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص196، ص197.

ومن شعر مالك في الزهد:

بَنِي الدَّهْرُ أَمَّا لِلدَّهْرِ فَهُوَ عَدُوُّكُمْ  
وَإِنْ لَاحَ يَوْمٌ فِي ثِيَابٍ حَبِيبٍ  
بَلَاءُكُمْ وَأَبْلَاكُمْ بِقَلْبٍ صَرُوفِهِ  
فَيَا وَيَحَهَا مِنْ أَنْفُسٍ وَقُلُوبٍ

وقال في تحريض المغاربة على نصرة الأندلس:

حَدُّوا السَّلَاحَ وَأَنْفِرُوا وَسَارِعُوا  
إِلَى الَّذِي مِنْ رَبِّكُمْ وَعُدَّتُمْ  
إِنَّ أَمَامَ الْبَحْرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ  
خَلَقًا لَهُمْ تُلَفْتُ إِلَيْكُمْ  
وَنَحْوَكُمْ عُيُونُهُمْ نَاطِرَةٌ  
لَا يَطْعُمُ النُّوحَ وَكَيْفَ تَطْعُمُ؟

قال في وصف مدينة سبتة:

أَخْطُرُ عَلَيَّ سَبْتَةٌ وَأَنْظُرُ إِلَى  
جَمَالِهَا نُصَبَ إِلَى حُسْنِهِ  
كَأَنَّهَا عَوْدُ الْفَنَاءِ وَقَدْ  
أَلْقَى فِي الْبَحْرِ عَلَى بَطْنِهِ

وله قصائد في المدح والتهنئة كالتى رفعها إلى الأمير أبي مالك عبد الواحد ابن أمير المسلمين.<sup>(1)</sup>

<sup>(1)</sup> ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص119، ص120.

## 2- عبد العزيز المزروزي المكناسي:

المتوفى سنة 697هـ، وهو شاعر الدولة المرينية على عهد يعقوب المنصور حيث قال في بني

مرين:

هنيئاً يا مرين لقد علوتم ❀ بني الأملاك بأساً وإنتاجاً

وله قصائد عدة مواكبة لكل الأحداث التي مرّ بها بنو مرين خلال معاصرتهم، فمن شعره ما أنشده إرتجالاً في حضرة الأمير عبد الواحد وهو بقصره بحضرة مراکش: حيث قال في وصف ذلك اليوم من شهر رمضان.

اليوم يومٌ مُدَامَةٍ وَعَقَارٍ ❀ وَتَبْلُغُ الْأُمَالُ وَالْأَوْطَارِ  
أَوْ مَا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَخْفِيَ نُورَهَا ❀ وَتَسْتَرُّ عَنْ أَعْيُنِ النَّظَارِ  
وَبَكَ السَّحَابُ بِدَمْعِهِ فَكَأَنَّهُ ❀ دَتَّقَ بَكَ مِنْ شِدَّةِ التِّذْكَارِ  
وَالْبَرْقُ لَاحَ مِنَ الْغَمَامِ كَأَنَّهُ ❀ سَيْفٌ تَأَلَّقَ فِي سَمَاءِ غُبَارِ  
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ فِيهِ مِنْ نَيْلِ الْمُنَا ❀ بِمُدَامَةٍ تَبْدُو وَكَشَعْلَةٍ نَارِ  
لَوْلَا صِيَامٌ عَاقَنِي عَنْ شُرْبِهَا ❀ لَخَلَعْتُ فِي هَذَا النَّهَارِ عِذَارِي  
أَوْ كَانَ يَجْزِي عَنْهُ صَوْاً وَفْدَا ❀ مَا صَوْمُ شَهْرٍ فِي صِيَامِ نَهَارِ  
لَكِنْ تَرَكْتُ سُورَهُ وَمَذَاقَهُ ❀ حَتَّى أَكُونَ عَلَيْهِ ذَا إِقْرَارِ

فأمر له الأمير بخمسمائة دينار وكسوة.<sup>(1)</sup>

(1) ابن زرع الفاسي، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص124.



ويقول في قصيدة رفعها إلى أمير المسلمين يعقوب بمدحه ويحرضه على غزو يغمراسن بن زيان أوها:

أَرَا كُلَّ جَبَّارٍ بِسَيْفِكَ يَصْغُرُ ❀ وَكُلَّ مَلِكٍ عَنْ فِعَالِكَ يَقْصُرُ  
وَكُلَّ عَزِيزٍ خَاضِعًا مُتَوَاضِعًا ❀ وَكُلَّ يَمَانٍ عَنْ يَمِينِكَ يَمْطُرُ  
تَنَامُ عُيُونُ النَّاسِ طَرَأً وَأَنْتَ فِي ❀ صِلَاحِ الْعَلَا وَالْخُلُقِ مَا زِلْتَ تَسْهَرُ  
أَصْنَاءُكَ بِكَ الدُّنْيَا فَرَالَ ظِلَامُهَا ❀ فَأَيَّامُهَا مِنْ نَوْرِ وَجْهِكَ تَسْفُرُ  
وَكُلُّ مَلِكٍ خُضَّتْ دَارَ الْفِلَالَةِ ❀ فَحَسَمَتْهُ بِالسَّبْقِ سَاعَةً يَظْهَرُ  
وَكَانَ لَدَيْنَا الدِّينُ قَدْ ضَاعَ حَقُّهُ ❀ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ عَيْنٍ تُحْذَرُ  
بَعَثْتُ إِلَى يَغْمُورٍ بِالصُّلْحِ مَعْلَمًا ❀ وَقُلْتَ عَسَاهُ بِالْبَصِيرَةِ يَنْظُرُ  
فَلَمْ يَغْتَبِطْ بِالصُّلْحِ جَهْلًا وَغِلْظَةً ❀ قَيَا عَجَبًا مِنْ خَاسِرٍ كَيْفَ يُحْشَرُ  
أَرَدْتُ بِأَنْ تَهْدِيَهُ لِلرُّشْدِ وَالْهُدَا ❀ وَكَيْفَ يَرَا رُشْدًا شَقِيٍّ مَغِيرُ

وقد كان في المرينيين شاعرات منهن: صفية العزفية وقد مدحتها الشاعرة سارة الفاسية

بقصيدة قالت فيها:

وَمَنْ مِثْلُ ذَاتِ الْعِلْمِ وَالْحُلْمِ وَالتُّهَى  
لَقَدْ سَارَ مَسْرَى الشَّمْسِ مُعْجِزُهَا الْأَرْقَى  
لَقَدْ سَارَ مَسْرَى الشَّمْسِ فَخْرُ صَفِيٍّ  
وَنُورًا إِكْبَارًا لَهَا الْغَرْبُ وَالشَّرْقَا

وكان في الملوك المرينيين من ينظم الشعر العربي كهذا الذي نظمه أبو العباس أحمد بن أبي سالم (776-786هـ)/(1374-1384م) وهو من أمّ عربية تدعى نزهة.<sup>(1)</sup> ومن شعره:

الهُوَى يَا صَاحِبِي فَأَلَفْتُهُ ❁ وَعَهْدْتُهُ مِنْ عَهْدِ أَيَّامِ الصَّبَا

قُوْتُ النُّفُوسِ وَحَلَّتَا ❁ فَاتَّخَذْتُهُ دُئِيًّا إِلَيَّ وَمَذْهَبُ

رَأَيْتُ لَهُ الْفِرَاقَ مَنْغَصًا ❁ لَا مَرَحَبًا يَنْفَرِقُ لَا مَرَحَبًا

ومنهم كذلك الأمير عبد الواحد بن يعقوب الذي كان على غاية العقل والذكاء والكرم والنباهة والسياسة والإقدام والحدق والشهادة ومكارم الأخلاق، محباً للأدب والتاريخ ذاكرًا بكثير من ذلك متقرباً للعلماء والفقهاء، وكان مع ذلك عالماً بأنساب بني مرين وغيرهم من قبائل زناتة ذاكرًا لأيامهم وحروبهم، يجلس العلماء والفقهاء والشعراء ويذاكرهم واختص بمجالسته ومسامرته جماعة من أهل الأدب والفقهاء منهم: الفقيه القاضي الزكي يوسف بن حكم، وكان من أهل الأدب البارع مشاركاً في علوم كثيرة أخذ عن جماعة من فقهاء الأندلس وإفريقية وأدبائها، وولاه الأمير عبد الواحد قضاء فاس.<sup>(2)</sup>

وكان من جلسائه أيضاً الفقيه القاضي البليغ البارع علي بن محمد المغيلي، والفقيه الأديب مالك بن المرحل وكان يكتب له الرسائل، ومنهم الفقيه الأديب أبو عمران التميمي وعبد العزيز الملزوزي.

(1) ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص126، ص128.

(2) مصدر نفسه، ص122، ص123.

وكان الأمير عبد الواحد يحب الشعر ويروي كثيراً منه ويأخذ نفسه بنظمه فينظم منه البيتين والثلاثة في معنى الافتخار، فمن ذلك قوله:

فَرَقْتُ فِي الْمَيْدَانِ كُلِّ مَلِيكِ ❀ وَجَمَعْتُ بَيْنَ جُرْأَةٍ وَنُسُوكِ  
وَجَعَلْتُ لِلْإِسْلَامِ جَدًّا مَالِكًا ❀ كَيْمَا يُغَيِّرُهُ الْعَدَا بِسُلُوكِ

وهو القائل أيضاً يفتخر: (1)

أَجُودُ بِمَا لِي لِكُلِّ الْعُفَاةِ ❀ وَأَقْتَحِمُ الْهَوْلَ فِي الْمَعْضَلَاتِ  
أَقُودُ الْجِيُوشَ وَأَصْلًا الْحُرُوبَ ❀ وَأَقْتِطِفُ الْهَامَ بِالْمُرْهَفَاتِ  
وَأَحْمِي ثُغُورِي مِنْ أَنْ تُنَالَ ❀ وَأَغْزُو وَأَنْهَبُ أَرْضَ الْعُدَاةِ

3- أحمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي المكي الحسني والد قاضي المالكية بمكة تقي الدين:

ولد سنة 754هـ، وعني بالعلم فمهر في عدة فنون خصوصاً الأدب فقال الشعر الرائق وفاق في معرفة الوثائق ودرس وأفتى وحدث قليلاً، سمع عز الدين بن جماعة وأبا البقاء السبكي وغيرهما. توفي في الحادي عشر شوال سنة 819هـ. (2)

4- إسماعيل بن الأمير يوسف بن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الرئيس الأمير أبي سعيد فرج أمير مالقة ابن الأمير إسماعيل ابن يوسف المعروف بابن الأحمر من ذرية سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي:

عاش هذا الرجل هو ووالده في كنف الدولة المرينية، وارتسم في جندها، أخذ العلم عن جماعة من الشيوخ منهم: أبو القاسم بن رضوان وأبي سعيد بن عبد المهيمن الحضرمي، وابنه عبد المهيمن، وأبي المكارم منديل ابن آجروم، والحسن بن عطية الونشريسي، وأبي زيد المكودي، والفقهاء الزموي المعروف بأنقشابو وأبي زكرياء السراج وغيرهم.

(1) ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص123، ص124.

(2) السخاوي، الضوء اللامع، ج2، مصدر سابق، ص35، وأيضاً، التنبكي، ج1، مصدر سابق، ص114.

له تأليف كثيرة في الأدب كمستودع العلامة ومستبدع العلامة ذكر فيه من تولّى العلامة من الكتاب عن الملوك، وحديقة النسرين في أخبار دولة بني مرين تكلم فيها على بيوتات فاس ومشاهيرها وأخبارها، وكتاب آخر سمّاه روضة النسرين في أخبار بني عبد الواد وبني مرين، ونظم وشرحه على منهاج رقم الحلل لابن الخطيب، وعرائس الأمراء ونفائس الوزراء، وشرح البردة، وتأنيس النفوس في إكمال نقط العروس، ونثير الجمان فيمن ضمّه وإياه الزمان من أهل النظم، وكان معتنياً بالتقييد، توفي بفاس عام 810هـ.<sup>(1)</sup>

#### 5- أحمد بن محمد بن علي التجيبي السبتي أبو العباس الشهير بابن القراق:

قال عنه أبو عبد الله الحضرمي: «شيخنا الفقيه الحاج الكاتب الأديب الحافظ الصدر، كان أحد وجوه الأدباء القدماء، كثير النظم في النبويات وغيرها، كتب عن أمراء الأندلس والمغرب، واستظهر بالقاهرة موطأ الإمام مالك حفظاً من صدره عن ظهر قلب، فاحتفل له شيوخ المالكية وضربوا الطبول والبوقات على رأسه إشادة وتنويهاً، توفي أوائل رمضان بفاس عام 725هـ».<sup>(2)</sup>

#### 6- أبو محمد عبد الله المرسي السبتي:

كان فقيهاً فاضلاً، مشاركاً نبيلاً، محسنًا، شاعراً يسري الهمة، نزيه النفس، لم يزل كاتباً العزفين، فانتقل إلى الحضرة المرينية ليصبح من كتاب السلطان أبي الحسن المريني، كان مشاركاً في علوم عدّة.<sup>(3)</sup>

(1) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، مصدر سابق، ص7، وأيضاً، التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص158، ص159.

(2) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص86.

(3) مصدر نفسه، ج1، ص87.

## 7- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن الأشقر الفاسي:

«فقيه من أهلها، كاتب بارع، أديب شاعر، مشارك في علوم، صدر من الصدور، قرأ على الأستاذ ابن أجروم وعلى جماعة، كان ينشئ ويجيد ويشارك الفقيه الصدر أبي علي بن تادرات كتابه الكتب الملوكة وأشباهها، كان وقوراً، دین سليم الصدر، ذاكر بالتأريخ وأيام الناس، كتب هو وولده عبد العزيز، ولم يزل معدوداً في جملة الكتّاب إلى أن توفي بفاس».<sup>(1)</sup>

## 8- إبراهيم بن عبد الحق الحسناوي التونسي:

قال عنه ابن الأحمر في فهرسته: «شيخنا الفقيه المتفنن الكاتب الشاعر المكثّر المعمّر ابن الفقيه أبي محمد، أخذ عن الفقيه المحدث الحافظ الراوية المغربي أبي العباس بن موسى البطروني، وتوفي بفاس سنة 775هـ».<sup>(2)</sup>

## 9- عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي ثم الفاسي:

قال عنه أبو زكرياء السراج في فهرسته: «شيخنا الفقيه الخطيب البليغ النحوي اللغوي الراوية المتفنن الناظم النثر الصدر الأوحّد رئيس الكتاب أبو القاسم ابن الفقيه الوزير الجليل الماجد الأصل الفاضل، كان متفناً في معارف شتى عارف بعقد الشروط آخذاً بحظ وافر من الرواية، شاعراً مجيداً كاتباً بليغاً، حسن الخط... محباً لأهل الدين معظماً لهم ولمن ينتسب للصوفية...».<sup>(3)</sup>

أخذ عن والده وخاله ابن الحاكم ابن القاضي أبي القاسم بن ربيع والفقيه العالم قاضي مالقة أحمد بن عبد الحق الجدلي، والإمام الولي أبي عبد الله الطنجالي، والقاضي أبو بكر بن منظور، والقاضي ابن بكر سمع عليه مسند البزار، والعالم الصدر الخطيب ابن أبي الجيش الضريحي، قرأ عليه الكراسة والجمل وألفية ابن مالك وتسهيله والمقرب والإيضاح والأسرار العقلية لأبي العزّ، وفرعي

<sup>(1)</sup> التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص.88.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ج1، ص.33.

<sup>(3)</sup> التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص.236، ص.337.

ابن الحاجب وتلخيص ابن البناء تفقها وتفهما؛ كما أخذ عن الخطيب الحافظ أبي القاسم بن جزي قرأ عليه كثيراً من كتب القراءات وأبعاضاً من الموطأ ومسلم الترميذي والنسائي وأبي داود والشمائل والشفاء وسراج ابن العربي وغيرها من التأليف. والشيخ الفقيه قاضي الجماعة أبي البركات بن الحاج، والفقيه الصوفي أبي علي عمر بن عتيق الهاشمي، والفقيه الصوفي عبد الله بن سلمون، وأستاذ الجماعة رئيس النحاة ابن الفخار البيري تفقه عليه في الجمل وكتاب سيبويه والتسهيل، ولازم عبد المهيمن الحضرمي سفرًا وحضرًا، وعن الإمام الآبلي والقاضي أبي سعيد بن أبي رمانة وقاضي مراکش أبي عبد الله بن سعود وابن عبد السلام الهواري وخلق كثير. ولد عام 718هـ وله تأليف حسن في السياسة السلطانية وتوفي ولم يذكر تاريخ وفاته.

#### 10- عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي:

الشيخ الصالح الإمام النحوي أبو زيد الفاسي، ألف شرحًا مختصرًا على الألفية اعتنى به الطلبة كثيرًا، وآخر كبيرًا لم يتم أتلفه الحسدة إلا أوائله على ما قيل. نقل عنه ابن غازي وغيره وله شرح الجرمية ونظم المعرب من الألفاظ والمقصورة في مدحه رحمته الله على سنن مقصورة ابن دريد نحو ثلاثمائة بيت وفيها يقول:

مَقْصُورَةٌ لَكِنَّهَا مَقْصُورَةٌ ❀ على امتداح المصطفى خير الورى  
مَا شَبَّهَهَا بِمَدْحِ خَلْقٍ غَيْرُهُ ❀ لِرُبَّةٍ أَحْطَى بِهَا وَلَا جَدَى  
فَاقَتْ عِلَاءَ كُلِّ ذِي مَقْصُورَةٍ ❀ وَإِنْ هُمْ نَلُّوا الْأَيَادِي وَاللَّهَى  
فَحَازِمٌ قَدْ عُدَّ غَيْرُ حَازِمٍ ❀ وَإِنْ دَرِيدٌ لَمْ يُفِدْهُ مَا دَرَى

وله أيضاً رجز في التصريف نحو أربعمئة بيت ويقول فيه:

فَلَوْ نَهَوْا عَنِ الْهَوَى النُّفُوسَا ❁ وَجَانِبُوا التَّمَوِيَةَ وَالتَّلْيِيسَا  
لَسَلِمُوا أَنِّي فِيهِمْ مَآهَرُ ❁ وَنُورَ فَهْمِي فِي الْعُلُومِ بَاهَرُ  
لَكِنْ كِبَارُ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ ❁ يَدْرُونَ تَحْصِيلِي لَهُ وَفَهْمِي.<sup>(1)</sup>

توفي سنة 807هـ، وأخذ عنه ابن مرزوق الحفيد، وأثنى عليه بالعلم والصلاح والفضل، وأنجب ولده حماد وكان عالماً بالنحو، ولكن دون والده.<sup>(2)</sup>

### 11- عبد العزيز بن عبد الواحد اللمطي الفاسي:

نزىل طيبة المشرفة الإمام العالم العلامة المتفنن الفصيح الناظم الناثر، له عدة منظومات في فنون وقف على كثير منها في الأصلين والفرائض والتصوّف والبيان والمنطق والجدل وغيرها. قرأ بفاس على أبي العباس الزقاق، وكان آية في التوسع في العلوم والتفنن فيها، بعث لأخيه شيخنا عثمان اللمطي منظومة له فيها نيف وعشرون فناً، ونظمه حلو رشيق. حج أزيد من ثلاثين حجة ومات بالمدينة وبها سكناه. ألف ألفية في النحو وضمن ألفية ابن مالك، وله تقييد على مختصر خليل.

### 12- يحيى بن أبي يعزى:

قال عنه الشيوخ زروق في كناشته: «كان قاضياً بالمدينة البيضاء بفاس، يدرس النحو عارفاً بعلوم الأدب والتنجيم ونحوها، توفي آخر تسع وثمانمئة». وقال عنه الونشريسي في وفياته: «سنة إحدى وتسعين توفي الفقيه القاضي بالدار البيضاء الكريم الشمائل أبو زكرياء بن أبي حامد حفيد ولي الله أبي يعزى».<sup>(3)</sup>

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ج1، ص272.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص272، ص273.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص340.

## 13- عمر بن عثمان الونشريسي المكناسي أبو حفص:

قال عنه ابن الخطيب في نفاضة الجراب: « كان فقيهاً مدرّساً أستاذاً في فن العربية، حضرت مذاكرته في مسألة أعوزت عليه، وطال سؤاله عنها وهي قول الشاعر:

وَالنَّاسُ أَكْيَسُ مِنْ أَنْ يَمْدَحُوا رَجُلًا  
مَا لَمْ يَرَوْا عِنْدَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وصورة السؤال كيف صحّ وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف؟ إذا أوقع الشاعر أكيس بين الناس وبين أن يمدحوا وهو مسؤول بالمصدر وهو المدح ولا يوصف بذلك». توفي بفاس عام 816هـ.<sup>(1)</sup>

## 14- علي بن منون أبو الحسن الشريف الحسني المكناسي:

قال عنه ابن غازي في فهرسته: « الشيخ الأستاذ النبيل...، ختمت عليه القرآن مراراً وتمرنّت عليه في الفرائض والوثائق وإعراب القرآن واستفدت منه كثيراً، أدرك الفقيه المفتي أبا الحسن علي بن عمر، وأبا حفص الرجراجي، وأبا مهدي بن علال، وأبا يعقوب يوسف بن منحوت، وأبا زيد الجاديري وأبا وكيل ميمون، وأبا عبد الله النجار، وكانت فيه دعاية، أنشدني لبعضهم:

يَا مَعْشَرَ الْإِخْوَانِ أَوْصِيكُمْ ❀ وَصِيَّةَ الْوَالِدِ وَالْوَالِدَةِ  
لَا تُعْلِمُوا الْأَقْدَامَ إِلَّا لِمَنْ ❀ كَانَتْ لَكُمْ فِي وَصْلِهِ فَائِدَةٌ  
إِمَّا لِعَلِّمْ تَسْتَفِيدُونَهُ ❀ أَوْ لِكَرِيمٍ عِنْدَهُ مَائِدَةٌ

ولد سنة 790هـ، ومات بعد 870هـ بمكناسة». <sup>(2)</sup>

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج2، مصدر سابق، ص339.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص378، ص379.



## ب- العلوم العقلية: (الطب، الفلك،...):

- ومن شيوخ العلوم الطبيعية في الدولة المرينية نذكر:

## 1- ابن البناء (654-721هـ/1256-1321م):

عالم مراكشي في علوم جمة، برز بصفة خاصة في الرياضيات، والفلك والتنجيم والعلوم الخفية، وكذلك في الطب.

وهو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بأبي العباس بن البناء المراكشي كان أبوه البناء، ولد في مراكش عام 654هـ/1256م وقضى أغلب فترات حياته بها وهذا هو السبب في انتسابه لها وبها درس النحو والحديث والفقه، ثم ذهب إلى فاس ودرس الطب والفلك والرياضيات، وكان من أساتذته ابن مخلوف السلجماسي الفلكي وابن حجلة الرياضي، وقد حظي ابن البناء بتقدير ملوك الدولة المرينية في المغرب الذين استقدموه إلى فاس مراراً، توفي في مدينة مراكش عام 721هـ/1321م.<sup>(1)</sup>

## ❖ إسهاماته العلمية:

من إسهامات ابن البناء في الحساب أنه أوضح النظريات الصعبة والقواعد المستعصية، وقام ببحوث مستفيضة عن الكسور، ووضع قواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها. وقاعدة الخطأين لحل معادلات الدرجة الأولى، والأعمال الحسابية، وأدخل بعض التعديل على الطريقة المعروفة «بطريقة الخطأ الواحد»، ووضع ذلك على شكل قانون.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن ابن البناء قد تفوّق على من سبقه من علماء الرياضة من الغرب في الشرق، وخاصة في حساب الكسور، كما عُدّ من أهم الذين استعملوا الأرقام الهندسية في صورتها المستعملة عند المغاربة.

(1) ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، مصدر سابق، ص 343.

## ❖ مؤلفاته:

ألّف ابن البناء أكثر من سبعين كتاباً في الحساب، والهندسة والجبر، والفلك والتنجيم، ضاع أغلبها ولم يبق إلا القليل منها، وأشهرها:

- كتاب "تلخيص أعمال الحساب": يعترف "سميث" و"سارطون" بأنّه من أحسن الكتب التي ظهرت في الحساب، وقد ظلّ الغربيون يعملون به إلى نهاية القرن السادس عشر للميلاد، وكتب كثير من علماء العرب شروحاً له، واقتبس منه علماء الغرب، كما اهتم به علماء القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد ترجم إلى الفرنسية عام 1864م على يد مار، ونشرت ترجمته في روما، وقد أعاد ترجمته إلى الفرنسية الدكتور محمد Marre سويسسي، ثم نشر النص والترجمة مع تقديم وتحقيق سنة 1969م.

- مقالات في الحساب: وهو بحث في الأعداد الصحيحة، والكسور، والجذور، والتناسب.

- كتاب "الجبر والمقابلة".

- كتاب "الفصول في الفرائض".

- رسالة في المساحات.

- كتاب "الإسطرلاب واستعماله".

- كتاب "اليسارة في تقويم الكواكب السيّارة".

- منهاج الطالب في تعديل الكواكب: وقد حقق المستشرق الإسباني فيرنه خينس مقدّمة

الكتاب وبعض فصوله وترجمها إلى الإسبانية سنة 1952.

- كتاب "أحكام النجوم"....<sup>(1)</sup>

<sup>(1)</sup> التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص84، ص85.

وقد صدر للأستاذين محمد أبلاغ وأحمد جبار كتاب بعنوان "حياة ومؤلفات ابن البنا" ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة 2001 يتضمن جرداً شاملاً لمؤلفاته.

## 2- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن يوسف بن محمد بن عطية المديوني:

ثمّ الجاديري وبه اشتهر، الفاسي الشيخ الفقيه العالم الموقت الإمام، ولد سنة ست أو سبع وسبعين وسبعمائة واستوطن فاس، وكان بها عدلاً مبرزاً، ولي التوقيت بجامع القرويين منها وكان متفنناً مقرئاً نحوياً حيسوبياً موقتاً.<sup>(1)</sup>

قرأ بالسبع على ابن عمر، وعلى أبي عمر عثمان الوزروالي، وأبي عبد الله الفخّار وأبي عبد الله القيسي وروى عن الترجالي وبرهان الدين بن صديق وأبي الحسن ابن الإمام البخاري وغيرهم.<sup>(2)</sup>

له تأليف منها: روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار، واقتطاف الأنوار ذكر فيه مسائلها نشرًا كالشرح لها، ومختصر الإقتطاف المذكور وكتاب جمع فيه بين العمل بآلة الإسطرلاب وبالصفحة الشكارية وبربع الدائرة والعمل بالحساب والجدول في اثنين وأربعين باباً، وتنبيه الأنام على ما يحدث في أيام العام، وشرح رجز أبي مفرع، وختصر شرح الخاقانية للداني، ورجز سماء الناقع في أصل حرف نافع، وشرح رجز شيخه القيسي في الضبط، وشرح الدرر اللوامع، وله أيضاً المذكور والمؤنث وغيرها توفي بعد أربعين وثمانمائة ودفن داخل باب الفتوح. من شيوخه أبو زيد المكودي روى عنه مقصورته وغيرها.

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، مصدر سابق، ص277، ص278.

(2) المصدر سابق، ج1/ص277.

## 3- عمر بن محمد الرجراجي أبو علي الفاسي:

إمام في الفرائض والحساب، قال عنه ابن الخطيب القسنطيني: «كان من أولياء الله تعالى وصدور العلماء وشهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم، لازمته وقرأت عليه الحوفية في الفرائض، وحضرت معه مجالس العلم كمجلس الحافظ الفقيه القباب في الحديث والفقه والكلام، ومجلس الفقيه العالم الصالح مفتي فاس الوانغيلي الضرير وهو قارئ مجلسه انتفعت به كثيراً، وإذا قصدته فيما عسر عليّ فهمه أجلسني مع السارية وجلس هو بين يدي كأنه السائل لتواضعه وإخفائه» تولّى الخطابة بجامع الأندلس بفاس. وتوفي سنة 810هـ<sup>(1)</sup>.

## 4- موسى بن علي الأغصاوي أبو عمران بن العقدة:

«الفقيه الفرضي الحسابي، ذكر بعضهم أنّه أوّل من أدخل شامل بهرام لفاس، توفي في السادس من رمضان سنة إحدى عشرة وسبعمائة، ذكره الونشريسي في وفياته ووصفه بالفقيه الفرضي»<sup>(2)</sup>.

## 5- أبو العباس أحمد بن شعيب:

أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه، فقيه مشارك تعاليمي، طبيب، أديب ونباتي وطبقة في قرض الشعر، إمام في التعاليم، له معرفة كبيرة بالأشجار والنبات، بارع الخط يحسن الكتابة ولذلك استخدمه السلطان أبو الحسن المريني في ديوان الكتابة<sup>(3)</sup>.

(1) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ج1، ص339، ص341.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص303.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص375.

## 6- عبد الرحمن الهزميري أبو زيد:

الولي الشهير، شيخ الطائفة الهزميرية بالمغرب، العالم العامل ذو المناقب. ذكر ابن الخطيب القسنطيني أن الشيخ أبا العباس ابن البناء كان يقصده فيما يشكل عليه من مسائل الهندسة وغيرها، ثم قال فأجد الزمام عليه فيجيبني من طرف الحلقة فأصرف بلا سؤال.

ارتحل من بلده أغمات قاصداً السلطان أبي يعقوب المريني وهو في حصاره العظيم لتلمسان لقضاء حاجة منه، في ظاهر أمره، ونيته باطنا صرفه عن ذلك الحصار لشدته. فلم يقبل منه، فرجع إلى فاس ونزل بجامع الصفارين، وبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب ورجع جيشه، فقال له خديمه، ظناً منه أنه ما أقام إلا ليرغب إليه إلى الله في الفرج، مات السلطان أبو يعقوب، ففرّج الله على تلمسان فباسم الله نأخذ في الحركة، فقال له: وعبد الرحمن يموت - بتشديد اليم - يعني نفسه فمات بعد أيام يسيرة سنة ست وسبعمائة ودفن هناك.<sup>(1)</sup>

## 7- الحسن بن عثمان بن عطية:

وهو ابن أخ الفقيه الحسن بن عطية المعروف بالونشريسي السالف الذكر، كان فقيهاً عدلاً من أهل الحساب والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه يقرض الشعر وله أرجوزة في الفرائض مبسطة العبارة مستوفية المعنى.

قال عنه ابن الأحمر: « شيخنا الفقيه المفتي المدرّس القاضي الأديب الحاج أبو علي ابن الفقيه الصالح أبس سعيد عثمان التجاني المنعوت بالونشريسي، أجازني عامّة، أخذ عن الفقيه المفتي الخطيب المعمر القاضي المحدث الراوية خاتمة محدّثي الغرب أبي البركات بن الحاج البلفيقي<sup>(2)</sup>. ولد في حدود 724هـ وكان حياً قرب 790هـ.

(1) التنبكي، نيل الابتهاج، بتطريز الديباح، ج1، مصدر سابق، ص262، ص263.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص171.

ومن شعره قصيدة رفعها إلى السلطان أبي عنان فارس يقول فيها:

نَبْدًا أَوَّلًا بِحَمْدِ اللَّهِ \* وَتَسْتَعِينُهُ عَلَى الدَّوَاهِي  
ثُمَّ نَوَالِي بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ \* عَلَى النَّبِيِّ دُونَهُ كُلِّ الْأَنَامِ  
وَبَعْدَ ذَا نَسْأَلُ رَبَّ الْعَالَمِينَ \* أَنْ يَهَبَ النَّصْرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ  
خَلِيفَةَ اللَّهِ أَبَا عِنَانٍ \* لَا زَالَ فِي خَيْرٍ مَعَ الْأَمَانِ  
مُلْكُهُ اللَّهُ مِنَ الْبِلَادِ \* مِنْ سُوسِ الْأَقْصَى إِلَى بَغْدَادِ  
وَيَسْتُرُ الْحِجَازَ وَالْجِهَادَا \* وَجَعَلَ الْكُلَّ لَهُ مِهَادَا  
يَا أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ الْمُظْفَرِ \* دُونَكَ أَمْرِي إِنَّهُ مُفَسَّرُ  
عَبْدُكُمْ نَجُلُ عَطِيَّةِ الْحَسَنِ \* قَدْ قِيلَ لَا يَشْهَدُ إِلَّا أَنْ يُسَنَّ  
وَهُوَ فِي أَمْرِكُمُ الْمَعْهُودِ \* مِنْ جُمْلَةِ الْعَشْرَةِ الشُّهُودِ  
نَصَّ عَلَيْهِ أَمْرُكُمْ تَعِينَنَا \* وَبَيْنَهُ قَارِبُ أَرْبَعِينَ  
مَعَ الَّذِي يَنْتَسِبُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ \* مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ وَبَحَثَهُ عَلَيْهِ  
عَلَى الْفَرَائِضِ لَهُ أَرْجُوزَةٌ \* أَبْرَزُ فِي نِظَامِهَا إِبْرِيزَةٌ  
وَمَجْلِسُ لَهُ عَلَى الرِّسَالَةِ \* فَكَيْفَ يَرْجُو حَاسِدُ زَوَالِهِ  
حَاشَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ذَاكَ \* وَعَدْلُهُ قَدْ بَلَغَ السَّمَكََا  
وَعِلْمُهُ قَدْ طُبِقَ الْآفَاقَا \* وَحُلْمُهُ قَدْ جَاوَزَ الْعِرَاقَا  
وَجُودُهُ مُشْتَهَرٌ فِي كُلِّ حَيٍّ \* فَصُرْ عَنْ إِدْرَاكِهِ حَاتِمُ طَيٍّ.<sup>(1)</sup>

(1) نظم ابن عطية هذه الأبيات بعد القضية التي وقعت له مع عدول مكناسة، وذلك بعد ما أمر السلطان أبو عنان فارس بالاعتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة كتب فيهم اسم الشيخ أبي علي هذا فشق ذلك على بعض شيوخ العدول لحدائثة سن أبي علي فصنع رجزاً ورفعته إلى مقام السلطان، أنظر: التنبكي، نيل الابتهاج، ج1، المصدر السابق، ص171، ص172.

## 8- محمد بن إبراهيم:

محمد بن إبراهيم بن حزب الله من أهل فاس يعرف بابن البقار يكنى أبا عبد الله روى عن أبي الحسن بن حنين وأبي عبد الله بن الرمامة وأبي إسحاق بن قرقول وأبي عبد الله بن خليل وأبي محمد بن عبيد الله وغيرهم ولقي بالأندلس أبا القاسم بن بشكوال وأبا الحسن عبد الرحمن بن بقي وأبا القاسم بن الحاج وأبا بكر بن خير وأبا القاسم الشراط وأبا عبد الله بن المجاهد وأبا بكر بن عبيد وغيرهم وأجاز له أبو محمد بن دحمان وأبو عبد الله بن حفص وأبو القاسم بن حبش وأبو محمد عبد الحق بن هبد الرحمن الإشبيلي وأبو عبد الله بن الفخار وسواهم وحدث عن أبي طاهر السلفي بإجازته العامة لأهل المغرب وكان من أهل الفقه والحديث متحققا الرواية والحديث عن رجالها عاكفاً على التدريس متفنناً زاهداً فاضلاً روى عنه أبو الحسن بن القطان وتفقه به وأجاز له جميع روايته في 582هـ.<sup>(1)</sup>

## 9- إبراهيم بن أبي بكر التلمساني:

إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني وقشي الأصلي نزيل سبتة يكنى أبا إسحاق ويعرف بالتلمساني كان فقيهاً عارفاً بعقد الشروط ميرزا في العدد والفرائض أديباً شاعراً محسناً ماهراً في كل ما يقاول ونظم في الفرائض وهي ابن 20 سنة أرجوزة (من التلمسانية المشهورة) محكمة بعملها ضابطة عجبية الوضع.

(1) للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاءي البلسني ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام المراسي، ج2، (د.ط)، دار الفكر، (د.ب.ن)، سنة 1995، ص159، ص160.

## - آراء الآخرين فيه:

قال ابن الزبير: «كان أديباً فاضلاً لغوياً إماماً في الفرائض لقي أبا بكر بن محرز وأجاز له وكتب إليه مجيزاً أبو الحسن بن طاهر الدباج وأبو علي الشلوبين ولقي بسبته أبا العباس علي بن عصفور الهراري وأبا المطرق أحمد بن عبد الله ابن عميرة وسمع على أبي يعقوب يوسف ابن موسى المحاسني الغماري وروى عنه الكثير ممن عاصره كأبي عبد الله بن عبد الملك وغيره».

وله تواليف كثيرة منها الأرجوزة الشهيرة في الفرائض لم يصنف في فنها مثلها ومنظوماته في السير وأمداح النبي ﷺ من ذلك العشریات على أوزان المغرب (الملحون) ومولده سنة 699هـ.<sup>(1)</sup>

(1) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص10، ص11.



## المبحث الثالث: علماء حاضرة بجاية:

فمن بين الأعلام الأفاضل الذين اشتهروا في زمانهم خلال القرنين السادس والسابع للهجرة نذكر منهم:

## - في علم القراءات:

1-أبو العباس الزواوي: كان حيًّا سنة 748هـ/1348م وهو أحمد الزواوي يكنى أبو العباس أخذ العلم عن مشيخة علماء فاس؛ كان له صوت حسن؛ فقد لقب بإمام المقرئين وكان يصلّي بالسلطان أبو الحسن التراويح.<sup>(1)</sup>

## - في علم التفسير: نذكر:

- «إبراهيم بن فائد الزواوي هو إبراهيم بن فائد بن موسى بن هلال الزواوي ولد ببجاية عام 796هـ/1393م؛ حفظ القرآن الكريم؛ تفقه على العالم علي بن عثمان المنقلاقي ثم رحل إلى تونس ودرس على الأبي والقلشاني والزعي والغرياني؛ تصدّى للإقراء والتدريس وكان من ضمن درس عليهم ابن مرزوق الخطيب؛ ألف عدة كتب منها: "كتاب في تفسير القرآن الكريم" <sup>(2)</sup>؛ «لقد برع الزواوي في علم الفقه وعمل تفسيرًا وشرح ألفية ابن مالك؛ وتلخيص المفتاح؛ وسماه تلخيص التلخيص؛ ومختصر خليل في ثلاث مجلدات سّماه تسهيل السبيل لمقتف أزهار روض خليل وشرحًا آخر في مجلدين سّماه فيض النيل» <sup>(3)</sup>، «توفي عام 857هـ/1453م» <sup>(4)</sup>.

(1) ينظر: التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، ط1، مطبعة الفحامين، مصر، سنة 1351، ص68.

(2) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج1، مرجع سابق، ص296.

(3) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، دمشق، سنة 1957، ص51.

(4) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ص52، ص53.

## 2- الأصولي:

❖ حياته ونسبه: «هو الإمام المجتهد والفيلسوف الحكيم القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري البجائي المشتهر بالأصولي»<sup>(1)</sup>؛ «فقيه ومتكلم متمكن من أصول الفقه والخلافات؛ ومشتغل بالحكمة والعلوم العقلية؛ كان في علم الأصول علماً في وقته فسمي بالأصولي؛ وهو من أهل بجاية أصله من بني مرزقان بإشبيلية»<sup>(2)</sup>.

❖ رحلاته: «رحل إلى المشرق وأخذ عن جمهرة من أقطاب الحديث ولم يسمع إلا يسيراً بمصرى ولم يحج؛ ولي قضاء بجاية ثلاث مرّات؛ صرف عن آخرها سنة 607هـ/1211م ودخل الأندلس مراراً؛ وولى قضاء مرسية منها، واستخلف بمراكش على القضاء»<sup>(3)</sup>.

كانت بين الأصولي وبين ابن رشد الفيلسوف علاقة إخاء ومودة؛ ولما ابتلى ابن رشد سنة 593هـ في مصيبتة المشهورة مع المنصور الموحي لاشتغاله بالفلسفة وعلوم الأوائل؛ امتحن معه كذلك أبو عبد الله الأصولي الذي ساندته، وكان سبباً في نجاته من محتته، وقد نفى هذا العالم الجليل؛ وقد امتاز الأصولي بصفات كان صبوراً وثابتاً؛ فقد عفي عنه<sup>(4)</sup>.

«ومن تأليفه نذكر أنّه سئل الأصولي عن التصنيف فامتنع وقال: قد سبق الناس بذلك معتقداً أنّه لن يأتي بجديد في الموضوعات وذكر الغبريني أنّه رأى بخطه تأليفاً له في الموسيقى؛ ولكنّه شك فيه ورجح أنّه من تأليف ابن سينا؛ وقيل إنّ له تقييداً على "المستصفى" لأبي حامد الغزالي؛ وتأليفاً بعنوان "تقييد في الشرفاء العمرانيين"؛ كف بصره في آخر حياته؛ وتوفي ببجاية سنة

(1) عبد الرحمن الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط8، دار الأمة، الجزائر، سنة 2008، ص73.

(2) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، (د.ط)، منشورات دحلب، الجزائر، سنة 2007، ص36.

(3) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، سنة 1980، ص17.

(4) ينظر: أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص36.

612هـ/1216م؛ وكان ذا دعاية لا تنقص من قدره ومكانته؛ مؤثراً لأهل العلم والطبومقدماً لهم في مجلسه؛ شديداً في قضائه على ولادة الأمور لا يتساهل معهم في حقوق الله والناس». (1)

### – في علم الحديث:

### 3- أبو الروح الزواوي:

– \*حياته ونسبه: هو عيسى بن مسعود بن منصور بن يحيى المنكلاقي الزواوي يكنى أبا الروح ولد بزواوة سنة 664هـ/1266م وقيل عام 666هـ/1266م». (2)

– رحلته وأعماله: «هو الفقيه الإمام المتفنن في كثير من العلوم؛ العمدة المتفنن الألمي الذكي الزكي؛ حفظ مختصر ابن الحاجب في ثلاثة أشهر ونصف ثم حفظ الموطأ؛ تفقه ببجاية عن جماعة منهم أبو يوسف يعقوب الزواوي وقدم الإسكندرية وتفقه بها عن جماعة ودرس بمصر وحصل به النفع وانتهت إليه رئاسة الفتوى هناك وتولى القضاء بنابلس ثم دمشق وناب عن قاضي القضاة بمصر شرف الدين بن مخلوف ثم عن قاضي القضاة تقي الدين الأحنائي». (3)

– مؤلفاته: «شرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلداً ستمائة إكمال الإكمال وشرح مختصر ابن الحاجب الفرغي؛ بلغ فيه الصيد في سبع مجلدات واختصر جامع ابن يونس؛ وصنف في الوثائق والناسك وله تاريخ في نحو اثني عشر مجلداً وجمع فيه أقوال المازري والقاضي عياض والنووي». (4) «توفي الإمام المتفنن عام 743هـ/1342م». (5)

(1) بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، مرجع سابق، ص. 144.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص. 152.

(3) محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج. حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، ج1،

ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2003، ص. 314.

(4) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص. 63.

(5) ابن فرحون المالكي، الديباج. المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدى أبو التور، ط2، مكتبة دار التراث، القاهرة،

سنة 2005، ص. 57، ص. 58.

## - في علم الفقه واللغة والنحو:

## 4- ابن معطي الزواوي:

❖ حياته ونسبه: «أبو الحسن الزواوي هو يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي يكنى زين الدين ولد سنة 564هـ/1169م ببجاية؛ تعلّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم»<sup>(1)</sup>.

❖ شيوخه: «سمّت به نفسه فأخذ العلم على كبار علماء عصره كالجزولي وابن عساكر»<sup>(2)</sup>.

❖ رحلاته العلمية: «أصبح ابن معطي الزواوي إماماً بارزاً في العلوم العربية؛ وشاعراً محسناً وناظماً مجيداً؛ سكن دمشق مدّة طويلة؛ وتصدر للتعليم فانتفع به عدد كبير من طلاب العلم والمعرفة؛ وبلغت شهرته إلى القاهرة؛ فبعث إليه الملك الكامل ورغبه في الانتقال إلى عاصمة ملكه؛ فسافر إليه؛ وتصدّر لإقراء الأدب وفنونه بالجامع العتيق وأجرى له مرتباً يليق بمثله»<sup>(3)</sup>. قال القاضي ابن خلكان: «هو أحد أئمة عصره في النحو واللغة؛ أقرأ بدمشق خلفاً كثيراً؛ وصنّف؛ ثم أرغبه الملك الكامل فانتقل إلى مصر وأشغل بها....، وورد دمشق وخدم في مواضع جليلة، وكانت له حلقة إشغال بالتربة العادلية ولما حضر الملك الكامل إلى دمشق تكلم عنده؛ فأعجبه كلامه وخلع عليه»<sup>(4)</sup>.

(1) مريم هاشمي، العلاقات الثقافية بين مدينتي بجاية وتلمسان خلال القرن 7-9 هـ / 13-15 م، مرجع سابق، ص95.

(2) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص441.

(3) المرجع نفسه، ص441، ص442.

(4) بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، مرجع سابق، ص145.

له قصيدة - ابن معطي الزواوي - طنّانة في الملك الأجدد صاحب بعلبك وهي طويلة منها:

«ذَهَبَ الشَّبَابُ وَرَوَّتْهُ الْعُمُرُ الشَّهْيُ ❀ وَأَتَى الْمَشِيبُ وَرَوَّتْهُ الثُّورُ الْبَهْيُ  
وَجَلَّالَهُ لَيْلُ الذَّوَابَةِ فَجَرَهُ ❀ وَأَتَى بِنَاهُ مِنْ نَهَاهُ مُمُّوهُ  
وَأَطَارَ نَسْرُ الشَّيْبِ غَرْبَانَ الصِّبَا ❀ فَعَيْنٌ فِي آثَرِ الشَّبَابِ الْمُنْتَهَى  
وَوَهَتْ قَوَى الْأَمَالِ مِنْهُ وَمَا وَهَتْ ❀ هِمَمٌ أَيْنُ عَلَى الْحَوَادِثِ أَنْ تَهِي  
مَا أُنْسُ لَا أُنْسُ اللَّوَى وَتَنْعُمِي ❀ فِيهِ بِخَرْدِهِ الْحِسَانُ الْأَوْجَهُ»<sup>(1)</sup>

- آثاره: «كان ابن معطي أحد أئمة عصره في النحو واللغة؛ وصنّف تصانيف مفيدة

نذكر منها:

أ- في النحو: العقود والقوانين؛ كتاب شرح الجمل؛ كتاب حواشي على أصول ابن السراج؛ وكتاب شرح أبيات سيبويه والفصول الخمسون والبديع في صناعة الشعر.

ب- في النظم: قصيدة في القراءات السبع؛ كتاب الصحاح للجوهري في اللغة ولم يكمل؛ كتاب الجمهرة لابن دريد في اللغة؛ كتاب في العروض والقوافي وله كتاب المثلث وديوان خطب»<sup>(2)</sup>.

وأيضاً من شعره قوله:

«قَالُوا تَلَقَّبَ زَيْنُ الدِّينِ فَهُوَ لَهُ ❀ نَعْتُ جَمِيلٌ بِهِ قَدَرٌ بِنِ الْأَمْنَا  
فَقُلْتُ لَا تُعَذِّلُوهُ إِنْ ذَا لَقَبُ ❀ وَقَفَّ عَلَى كُلِّ نَجَسٍ وَالِدَلِيلُ أَنَا  
وَأَسْتَعِينُ اللَّهَ فِي الْفِيَةِ ❀ مَقَاصِدُ النَّحْوِ بِهَا مَحْوِيَةٌ  
تَقَرَّبَ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجِزٍ ❀ وَتَبَسَّطَ الْبَدَلُ بِوَعْدٍ مُنْجِزٍ  
وَتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سَخَطٍ ❀ فَائِقَةُ الْفِيَةِ ابْنُ مُعْطٍ

<sup>(1)</sup> بومهلة تواتي، بحاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، مرجع سابق، ص 145.

<sup>(2)</sup> أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص 442.

وَهُوَ سَبَقُ حَائِزٍ تَفْضِيلًا ❀ مُسْتَوْحَبٌ ثَنَائِي الْجَمِيلًا  
وَاللَّهُ يَقْضِي بِهِاتِ وَافِرَةً ❀ لِي وَلَهُ فِي دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ».<sup>(1)</sup>  
وقد طبعت هذه الألفية في أوربا؛ وحتى للعلماء كانوا عليها عدة شروح.<sup>(2)</sup>

واصل أعماله الأدبية حتى وافته المنية في أواخر ذي القعدة عام 628هـ/1231م وله أربع وستون سنة وقد دفن بالقوافة قرب تربة الإمام الشافعي؛ وقبره معروف إلى غاية اليوم.<sup>(3)</sup>

### 5- عمران بن موسى المشدالي:

- **حياته ومولده:** «هو أبو موسى عمران بن موسى المشدالي البجائي الأصل؛ نزيل تلمسان، ولد عام 670هـ/1272م؛ ولقد تلقى تعليمه على يد صهره الناصر المشدالي الفقيه الحافظ العالم الكبير المحقق العمدة الشهير أخذ عن أئمة منهم صهره وعنه جماعة منهم الإمام المقرئ».<sup>(4)</sup>

- **رحلاته:** درس ببجاية حتى حاصرها السلطان الحفصي؛ ففرّ والتجأ إلى الجزائر؛ ومن بعد ذلك علم السلطان الزياني أبو تاشفين بأمره فدعاه إلى مقامه؛<sup>(5)</sup> فقد رحب السلطان به وأكرمه؛ فعينه مدرّساً بمدرسته؛ كما أنّه قدّم له مرتباً شهرياً ملفتاً؛ كما أنّه كان مشهوراً في الساحة العلمية بسبب المناظرات الفكرية التي كان يلقيها مع أبناء الإمام في مختلف نواحي المعرفة.<sup>(6)</sup> وقد قال المقرئ في هذا الصدد: «فرّ صاحب الترجمة من حصار بجاية إلى الجزائر فبعث إليه من صاحب

(1) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، مرجع سابق، ص271.

(2) ينظر: أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص442، ص443.

(3) ينظر: يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، مرجع سابق، ص247، ص248.

(4) محمد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، مصدر سابق، ص316.

(5) يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، مرجع سابق، ص195.

(6) مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط. ما بين القرنين 6-9هـ / 12-15م دراسة في دورها السياسي والحضاري، مرجع سابق، ص292.

تلمسان وقربّه وأحسن إليه فدرّس بها الحديث والفقه والأصليين والفرائض والمنطق والجدل وكان كثير الاتساع في الفقه والجدل».<sup>(1)</sup>

ولقد ذكر زكريا يحيى بن خلدون أنّ مكانة المشدالي كانت كبيرة وذا قيمة فقال: «لم يكن من معاصريه أحد مثله علماً بمذهب مالك وحفظاً لأقوال أصحابه وعرفاً بنوازل الأحكام وصواباً في الفتيا».<sup>(2)</sup>

– آثاره: «اكتنف على التدريس ولم يخلف آثاراً تذكر في التأليف، فقط له "رسالة في اتخاذ الركاب من خالص الفقه" وفتاوى كثيرة نقل الكثير منها الونشريسي في معياره»<sup>(3)</sup> إلى غاية أن وافته المنية عام 745هـ الموافق 1345م».<sup>(4)</sup>

## 6 – المنجلاقي:

– حياته ونسبه: هو «أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنجلاقي الفقيه الصالح المتقيد»<sup>(5)</sup> يعدّ من أكابر علماء المالكية في زمانه من أهل بجاية<sup>(6)</sup> فهو من أهل القرن السابع للهجرة وقبله فكرية في وقته.<sup>(7)</sup>

<sup>(1)</sup> أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسني، ج1، (د.ط)، موقع للنشر، الجزائر، سنة 1991، ص.85.

<sup>(2)</sup> أبي زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، (د.ط)، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، سنة 2007، ص.131.

<sup>(3)</sup> ينظر: المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، سنة 1931، ص.216.

<sup>(4)</sup> الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص.85، ص.86.

<sup>(5)</sup> أبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.225، ص.226.

<sup>(6)</sup> ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص.319.

<sup>(7)</sup> ينظر: يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا، مرجع سابق، ص.193.

– أعماله: قال الغريبي: «أقرأ ببجاية؛ وظهر أمره واشتهر؛ وكان أحد المفتين والمشاورين في وقته وزاره بعض الملوك في منزله»<sup>(1)</sup>؛ «فله معرفة بالفقه وأصول الفقه؛ وله مشاركة في علم العقائد؛ قرأ ببجاية ورحل إلى حاضرة إفريقية؛ ولقي بها المشايخ؛ وقرأ على الفقيه أبي العباس ابن عجلان، وحضر مجلس أبي محمد عبد العزيز – رحمه الله – قيل رحل إلى تونس؛ ثم رجع إلى بجاية وأقرأ بها؛ كان مجلسه من المجالس المعتبرة؛ وكانت تقرأ عليه الكتب المذهبية؛ وكان يقوم عليها قياماً حسناً وكان نظره في التهذيب نظراً جيداً»<sup>(2)</sup>.

– وفاته: «كان فقيهاً أصولياً تعمق فيهما، فتصدر للتعليم والتدريس والإفتاء في بجاية فانقطع في آخر عمره انقطاعاً كلياً إلى أن توفي بتيكالات\* في الثلث الأخير من ليلة يوم السبت 11 من جمادى الأولى عام 690هـ/1291م»<sup>(3)</sup>.

#### 7- أحمد بن إدريس البجائي:

– حياته وكنيته ونسبه: هو «أحمد بن إدريس البجائي يكنى أبو العباس»<sup>(4)</sup>؛ «كان كل واحد قطره في حفظ مذهب مالك؛ متفنناً في المعارف والعلوم؛ جمع بين العلم الغزير؛ والدين المتين»<sup>(5)</sup>.

– صفاته: ان يطلق عيه فارس السجّاد؛ لكثرة صلاته؛ وكان كثير الصوم؛ أعماله كلها سرّاً؛ وكان على طريقة السلف الصالح في الإتياع؛ كثير التواضع؛ جميل العشرة؛ صبوراً على الاشتغال؛ حسن التعليم»<sup>(6)</sup>.

(1) الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.226.

(2) المصدر نفسه، ص.227.

\* تيكالات: اسم مكان معروف ببلاد القبائل.

(3) يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا، مرجع سابق، ص.193.

(4) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص.33.

(5) ابراهيم بن علي فرحون اليعمرى، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ج1، (د.ط)، دار السلام، المدينة، 1972، ص.225.

(6) المصدر نفسه، ص.266.



- تلاميذته: لقد أخذ العلم عنه جماعة من العلماء أبرزهم عبد الرحمن الوغليسي؛ وكذلك أحمد بن زافو، ومحمد بن بلقاسم المشدالي<sup>(1)</sup>.
- آثاره: «من أبرز تأليف أحمد بن إدريس البجائي: شرح على ابن الحاجب، كما كان له تعليق على البيوع من مختصرات ابن الحاجب»<sup>(2)</sup>؛ «توفي الفقيه الجليل عام 760هـ/1359م»<sup>(3)</sup>.

## 8 - محمد الخشني:

- حياته ونسبه: هو «أبو عبد الله محمد بن محمد الحسين الخشني من أهل بجاية؛ كان فقيهاً مدرّساً مقدماً؛ كان مشاركاً مشاوراً»<sup>(4)</sup>؛ فقد ترجم له الغبريني وقال أنّه كان في صناعة التوثيق إماماً، وكان له خط في القمة والروعة وكذلك الروايات والمقروءات<sup>(5)</sup>، «وكان مرجعاً لعلماء بجاية في القضاء، وعليه كان اعتماد الفقيه أبي عبد الله الأصولي، وقد طلب الخشني الإجازة من أبي عبد الله اليعفري التلمساني وغيرهم»<sup>(6)</sup>.
- رحلاته ومهامه: «قال عنه في تاريخ غرناطة؛ كان هذا الفاضل جملة من جمل الكمال؛ رحلة الوقت في التبريز بعلوم اللسان؛ ولى ديوان الإنشاء بغرناطة؛ ثم القضاء والخطابة بها؛ فصدع بالحق؛ ثم عزل عن القضاء بلا زلة فتصدى للإقراء وتدريس الفقه والعربية؛ ثم ولى قضاء وادي ثم أعيد إلى غرناطة واستمر»<sup>(7)</sup>، إلى أن وافته المنية عام 640هـ/1242م»<sup>(8)</sup>.

(1) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص277.

(2) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ص71.

(3) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفّي الكتب العربية، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، دمشق، سنة 1957، ص99.

(4) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص219.

(5) ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص33.

(6) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص213.

(7) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ج19، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة 1982،

ص.104.

(8) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص133.

- آثاره: «كان حاضر الفكر والبديهة سريعاً في الجواب عن الأسئلة لم تؤثر عنه مؤلفات سوى أن له رواية ومقروءات»<sup>(1)</sup>.

#### 9 - أبو القاسم المشدالي:

- حياته ونسبه: «محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد المشدالي بفتح الميم وشدّ الدال وبه عرف البجائي علامتها وفقهها وإمامها وخطيبها ومفتيها وصالحها ومحققها الفقيه العلامة المحقق المناظر الورع الزاهد»<sup>(2)</sup>؛ «شهر بالمشدالي نسبة لقبيلة من زواوة، أخذ عن أبيه بل ترقى معه في بعض شيوخه، وكان إماماً كبيراً مقدماً على أهل عصره في الفقه وغيره»<sup>(3)</sup>.

- شيوخه: «يعدّ من حفاظ المذهب المالكي؛ أخذ عن أبي القاسم المشدالي صاحب عبد الرحمن الوغليسي؛ الذي قال عنه تلميذه المجاري: «ومّن قرأت عليه ببجاية الشيخ الكبير النّظار أبو القاسم المشدالي»<sup>(4)</sup>؛ «كما كان يضرب به المثل حيث يقال: أتريد أن تكون مثل أبي عبد المشدالي»<sup>(5)</sup>.

- تأليفه: «تكملة حاشية الوانوعي على البراذعي»<sup>(6)</sup>. «أخذ عنه جماعة من الأئمة: كالإمام أبي الربيع الحسناوي؛ وأبي مهدي وعيسى بن الشاط والعالم محمد بن مرزوق الكفيف وولديه»<sup>(7)</sup> «وافته المنية عام 866هـ/1460م»<sup>(8)</sup>.

(1) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص. 214.

(2) التنبكي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص. 53.

(3) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص. 120.

(4) مريم هاشمي، العلاقات الثقافية بين مدينتي تلمسان وبجاية خلال القرن 7-9هـ / 13-15م، المرجع السابق، ص. 92.

(5) المرجع نفسه، ص. 92.

(6) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ص. 184.

(7) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص. 121.

(8) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ص. 319.

## 10- الأريسي:

- حياته ونسبه: «محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأريسي؛ أبو عبد الله؛ فقيه مالكي؛ عاش في بجاية في المائة السابعة»؛<sup>(1)</sup> ذكر الغبريني وقال: «وكان مشاوراً مفتياً معمولاً على ما عنده له جلال ووقار؛ وأخلاق مرضية؛ وكان في غاية الجودة في الخط المشرقي».<sup>(2)</sup>
- مناقبه وصفاته: الأريسي كان يعرف بالجزائري، شاعر، أديب، فقيه، من كبار أدباء وفقهاء الجزائر؛ كان يسلك شعره سلوك المشي؛ قال الغبريني: «وهو من أدباء الكتاب؛ كان حسن النظم والنثر؛ مليح الكتابة؛ سهل الشعر؛ كثير التجنيس؛ يأتيه عفو من غير تكلف؛ وكان مليح التواشيع؛ إن طال في شعره أعرب وإن اقتصر واقتصد أعجب؛ له شعر كثير في كل فن من فنون الشعر؛ وكان شيخ كتبة الديوان ببجاية».<sup>(3)</sup>

## 11- الوغليسي:

- «أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي من أهل القرن 7هـ؛ كاتب خطيب من الفقهاء، نسبته إلى بني وغليس يطن من قبائل البربر في جنوب بجاية بأعلى وادي سمّام»<sup>(4)</sup>؛ «كانت له نباهة ووجاهة ونزاهة ورفعة وهمة وهو أحد المقتدى بهم والمعمول عليهم؛ فقد نشأ وتعلّم في بجاية؛ ثم ولي الخطابة بجامع القصبة منها».<sup>(5)</sup>

فقد قال الغبريني في حقه: «كان عالماً بالكتابتين: الأدبية والشرعية متقدماً عليها؛ وعليه كان المعتمد في وقته في المحادثات السلطانية إنشاءً وجواباً؛ وعليه كان اعتماد القضاء في التسجيلات وإليه كان يهرع أهل البلد فيما يحتاجون إليه من الوثائق المحكمات والأموار

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص14.

(2) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص115.

(3) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص15، ص16.

(4) المرجع نفسه، ص342.

(5) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص133.

المستغربات وولي الخطابة بجامع القصبة... وكان فصيح القلم واللسان بارع الخط؛ ولقي أبا محمد عبد الحق الإشبيلي والقاضي أبا علي المسيلي والأستاذ أبا يزيد عبد الرحمن بن الحجري وكان الشيخ أبو محمد عبد الحق كثير الإجلال له والتعظيم لقدره»<sup>(1)</sup>.

## 12- عبد الرحمن الوغليسي:

- حياته ونسبه: «أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي نسبة إلى بني وغليس التي تقع جنوب بجاية؛ وتبعد عن سيدي عيش ببضع كيلومترات؛ وتشرف على وادي الصومام المعروف؛ ولا تحدثنا المصادر عن تاريخ ميلاد عبد الرحمن ولا عن نشأته الأولى وإنما الذي تشير إليه تلقى العلم بمدينة بجاية التي كانت مزدهرة آنذاك اقتصادياً وثقافياً؛ يؤمها العلماء؛ ويتنافس في الاستقرار بها كبار التجار والفضلاء؛ ويقصدها طلاب العلم والمعرفة شرقاً وغرباً»<sup>(2)</sup>؛ «قيل أنه ولد بقرية تالة تايوث قرب تينندار في عشيرة آث وغليس الواقعة حالياً بدائرة سيدي عيش في ذلك الزمن؛ كانت قبيلة آث وغليس قد اشتهرت بكونها قبيلة ندرت نفسها للدراسات وللعلوم الدينية؛ كان الوغليسي مشهوراً في الأوساط الشعبية؛ وقوراً بكتاباتاته؛ كما أنه رفض رتبة القاضي»<sup>(3)</sup>.

«كان الوغليسي مستقراً ببجاية؛ نادراً ما كان له الحظ أن يجد العديد من علماء ذلك العصر المشهورين؛ وجد في بداية الأمر الفقيه أحمد بن إدريس (- 760هـ/1359م)»<sup>(4)</sup>.

آراء العلماء فيه: «وصف الشيخ محمد السعيد بن زكري الزواوي؛ أبا زيد عبد الرحمن الوغليسي بأنه: الفقيه الأصولي المحدث المفسر؛ عمدة أهل زمانه؛ وشيخ الجماعة في بجاية»<sup>(5)</sup>.

(1) الغريبي، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 133.

(2) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص 484.

(3) سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، مرجع سابق، ص 66.

(4) المرجع نفسه، ص 68.

(5) أبو عمران الشيخ، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص 484.

- ذكر محمد السعيد بن زكري الزواوي أنّ له تلاميذ أجلاء: «كأبي القاسم ابن محمد المشدالي فقيه بجاية»<sup>(1)</sup> وقد أخذ أيضاً عن "أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي وغيره"<sup>(2)</sup>؛ «ومما يدل على مكانة الرجل وما تركه من أثر علمي؛ ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره» الجواهر الحسان» عند قوله تعالى في آخر سورة الشورى: {ألا إلى الله تصير الأمور}؛ رحلت في طلب العلم أواخر القرن الثامن؛ ودخلت بجاية أوائل القرن التاسع فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في العلم أصحاب سيدي عبد الرحمن الوغليسي متوافرين؛ فحضرت مجالسهم»<sup>(3)</sup>.

- أعماله: «عرف الوغليسي بصفة خاصة كمعلم وإمام ومفتي؛ لكنّه أتيح مرجعاً شهيراً وهو "المقدمة في الفقه"؛ اشتهر في كامل بلاد المغرب والأندلس ومصر باسم "الوغليسية" وكان محل العديد من الشروح ومحل تلخيص بالإضافة إلى أنّ العديد من فتاواه قد وصلت إلينا؛ وقد نقلها بصفة خاصة المغيلي؛ والونشريسي والزياتي والغرناطي»<sup>(4)</sup>.

- وفاته: توفي الوغليسي ببلده، وقبره معروف يزار سنة «هـ/1384م»<sup>(5)</sup>.

ومن العلماء الذين اشتهروا ببجاية في المائة السادسة والسابعة والذي علا شأنهم في السماء:

(1) أبو عمران الشيخ، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص484.

(2) محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، مصدر سابق، ص342.

(3) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص78.

(4) سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، مرجع سابق، ص70.

(5) أبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، (د.ط)، مؤسسة

نويهض الثقافية، بيروت، سنة 1982، ص213.

❖ **البجائي:** «هو علي بن أبي نصر فاتح وقيل فتح؛ ابن عبد الله؛ أبو الحسن؛ البجائي؛ فقيه كالكي من كبارهم؛ كان متفناً؛ ضابطاً؛ أميناً؛ ثقة؛ عدلاً؛ صدرًا في الزهد والورع والانقباض؛ من حفاظ فقهاء مذهب الإمام مالك»<sup>(1)</sup>.

- **رحلاته:** «تعلم وولد ببجاية ثم رحل إلى الأندلس؛ وبعدها إلى المشرق؛ فأخذ بمكة عن أبي محمد يونس بن يحيى الهاشمي؛ وبيت المقدس عن الرحالة الأديب ابن جبير؛ ودمشق عن أبي القاسم عبد الصمد بن محمد الحرساني؛ وأبي محمد عبد الواحد بن إسماعيل الدمباطي؛ وبالإسكندرية عن أبي القاسم الحسن بن عبد السلام؛ ثم عاد إلى بجاية فأقرأ وأسمع؛ حجّ ثمان عشرة حجة؛ بعضها في آخر المائة السادسة وبعضها في المائة السابعة»<sup>(2)</sup>.

- **وفاته:** في تاريخ وفاته خلاف، «ففي» نيل الابتهاج نقلاً عن ابن الآبار أنه توفي ببجاية آخر جمادى الآخرة سنة 566هـ؛ وفي الوفيات لابن قنفذ سنة 652هـ؛ وفي عنوان الدراية أنه ولد سنة 506هـ؛ وتوفي ليلة التاسع والعشرين لجمادى الأخيرة من عام 652هـ؛ أي أنه عاش 146 سنة»<sup>(3)</sup>.

❖ **مِحْشَرَة - ابن -:** «من أهل القرن 6هـ/12م هو أبو الفضل بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي ولد عام 540هـ هذا الذكي السني القدر الكاتب البارع من أهل بجاية يعرف بابن محشرة يكنى أبا الفضل وأبي العلي؛ كان أبوه قاضياً ببجاية له علم متسع المدى؛ وتخصص ووقار»<sup>(4)</sup>.

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 37.

(2) المرجع نفسه، ص 38.

(3) المرجع نفسه، ص 38.

(4) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 25.

– **رحلاته:** «نشأ وتعلم ببجاية، رحل إلى الأندلس وروى عن أبي بكر غالب بن عطية وغيره، وروى عنه ابن أخته محمد بن علي ابن الرمامة (– 567هـ)»؛<sup>(1)</sup> «فقد استدعاه الخليفة ابن عبد المؤمن إلى ولايته بمراكش فارتحل من بجاية وهو كاره لذهابه مع علمه أنه استدعاه لترفيعه منصباً مهماً لكن عزة نفسه أغنته عن الناس».<sup>(2)</sup> «وافته المنية عام 598هـ».<sup>(3)</sup>

❖ **محمد بن عمر:** «هو محمد بن عمر بن علي بن محمد بن إبراهيم المليكشي\*، البجائي ثم التونسي، الجزائري، وعرف بابن عمر؛ فقيه؛ أديب؛ توفي بتونس عام 740هـ/1339م وله تأليف مستظرفة».<sup>(4)</sup> «فقد تقلد خطة الكتابة بمالقة ومدح كبراءها ويعد شاعراً مترسلاً مرتجلاً للشعر وأيضاً متصوفاً».<sup>(5)</sup>

❖ **سلامة ابن:** من أهل القرن 6هـ/12م: هو «عبد الله بن سلامة البجائي؛ أبو محمد فقيه؛ شاعر؛ من أهل بجاية؛ سكن مصر؛ وتنقل بين القاهرة والإسكندرية والصعيد والريف؛ كان معاصراً للعماد الأصفهاني الكاتب ذكره في كتابه "خريدة القصر"؛ وأورد له مقطوعة شعرية».<sup>(6)</sup>

فبجاية زحرت بمدخرات جمّة في الأدب على وجهتيه الشعر والنثر وقد برز أعلام أشداء على الساحة الفكرية؛ فلمع نجمهم وتهاافت عليه الأيد سواً كانوا قاطنين بها أو مرتحلين إليها منهم نذكر:

❖ **ابن عصفور الإشبيلي:** «هو علي بن مؤمن بن محمد بن علي يكنى أبو الحسن عرف بابن عصفور ولد سنة 597هـ/1201م بإشبيلة وبها نشأ وأخذ عن شيوخها ثم ارتحل إلى بجاية

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص288.

(2) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص26.

(3) المصدر نفسه، ص26.

\*يلقب بأبي عبد الله البجائي المليكشي؛ نسبة إلى بني مليكش بضواحي بجاية.

(4) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، مرجع سابق، ص60.

(5) أبو عمران الشيخ، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص451.

(6) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص178.

واستقر بها. ومن أهم آثاره نذكر: الممتع في التصريف؛ شرح الجمل للزجاجي؛ البديع شرح المقدمة الجزولية ولكنه لم يتمها ومصنف المقرّب الذي نال شهرة عالمية، توفي سنة 710هـ/1311م<sup>(1)</sup>.

❖ محمد بن يحيى الباهلي البجائي: «محمد بن محمد بن مسعود الباهلي الجياني ثم البجائي يكنى أبا عبد الله؛ الإمام العلامة المفسر نادرة العصر»<sup>(2)</sup>؛ «فقيه وقاضي من كبار فقهاء المالكية ولد ونشأ ببجاية؛ أخذ عن الشيخ ناصر الدين المشدالي وأخذ عنه المقرئ الجد وأثنى عليه؛ قال عنه صاحب نيل الابتهاج أنه من فصحاء الفقهاء وأجوبته في الفتیان تدل على مكانته العلية وسيادته السنية»<sup>(3)</sup>.

ومن آثاره: «حواش؛ على مختصر ابن الحاجب في الفقه؛ شرح أسماء الله الحسنى؛ وله قصيدة سمّاها: نظم فرائد الجواهر في معجزات سيّد الأوائل والأواخر منها هذا البيت:

بَبَذَتْ فَعَايَتْ وَاخْتَفَتْ فَتَجَلَّتْ ❁ فَشَاهَدَتْهَا حَالِي حُضُورِي وَغَيْبِي»<sup>(4)</sup>.

«وفاته كانت سنة 743هـ/1321م»<sup>(5)</sup>.

❖ عبد الحق بن ربيع البجائي: كان يكتب على الطريقة الأدبية والشرعية، وكان يقول فيه ابن عميرة: «أما الكتابة الأدبية فنحن فيها وإياه على نسق؛ وأما الشرعية فقد انفرد بها أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي»<sup>(6)</sup>.

(1) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص267، ص268.

(2) ابن فرحون، الديباج. المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج1، مصدر سابق، ص326.

(3) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس، ج1، (د.ط)، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، سنة 1980، ص96.

(4) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ص340.

(5) ابن قنفذ، الوفيات، مصدر سابق، ص349.

(6) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص341.



«كان البجائي عالماً بالكتابتين: الأدبية والشرعية؛ وعليه كان المعتمد في الرسائل السلطانية والوثائق وكان فصيح اللسان بارع الخط»<sup>(1)</sup>. «وافته المنية عام 675هـ/1277م»<sup>(2)</sup>.

❖ **أبوزيد عبد الرحمن بن علي بن أبي دلال:** «يعدّ من أهل القرن 7هـ/13م، هو عبد الرحمن بن علي بن أبي دلال؛ أبو زيد؛ أديب؛ شاعر؛ نشأ في بجاية»<sup>(3)</sup>؛ «له مشاركة في الفنون وتحصيل العلوم؛ لقي أبا بكر بن محرز الزهري وأبا بكر سيد الناس اليعمري له مشاركة في عقلي العلوم ونقلها، له خط من علم أصول الدين وله خط من علم المنطق؛ أحسن ما استحسنته من الأراجيز في العلوم رجزان: رجز ابن سينا في الطب؛ ورجز عبد النور في العربية؛ كان فقيه النفس وكان أديباً شاعراً خطيباً، حسن النظم، وكانت له أخلاق حسنة مرضية»<sup>(4)</sup>.

من آثاره: "جوهرة الالفاظ وغنية الحافظ أرجوزة".<sup>(5)</sup>

❖ **العجيسي:** هو «يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن صالح بن علي بن عمر بن عقيل الزرمانى العجيسي؛ شرف الدين عالم بالنحو والعربية؛ وتاريخ الصحابة، له مشاركة في كثير من العلوم ولد بأرض عجيسة سنة 777هـ/1375م؛ ونشأ ببجاية وتعلّم بها وبقسطنطينة وعناية وتونس»<sup>(6)</sup>.

«لقد أخذ عن أشياخ- عناية وتونس وقسنطينة- علوم الفقه والتفسير والحديث والنحو والمعاني والبيان وغير ذلك؛ ورحل إلى المشرق سنة 804هـ فأخذ عنه جماعة في سفاقس وقابس وطرابلس الغرب والإسكندرية؛ وكاد أن يستأسره الفرنج فخلّصه الله؛ ودخل القاهرة فحجّ وزار

(1) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 87.

(2) المصدر نفسه، ص 85.

(3) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 366.

(4) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 205.

(5) المصدر نفسه، ص 366.

(6) المصدر نفسه، ص 229.

بيت المقدس ودمشق وحلب؛ ثم استوطن القاهرة متصدياً للإقراء والتأليف والمطالعة ودرس بالشيخونية وبجامع ابن طولون والأشرفية والخروبية وغيرها»<sup>(1)</sup>.

قال السخاوي: «كان إماماً نحوياً فصيحاً شفوياً قوي الحافظة ذاكرةً الملح كثير؛ ونوادر متقنة، حافظاً بجمل مستكثرة من أخيار الناس المتقدمة وأيامهم خصوصاً وقائع الصحابة؛ حلو الكلام مع من يريد مع إظهار الشجاعة والبادرة الفاحشة والاستخفاف بالناس لاسيما علماء عصره... وقد اجتمعت به مراراً وسمعت من فوائده؛ أجازلي؛ وأوردت في ترجمته من «المعجم» فوائد ووزوائد ونوادر»<sup>(2)</sup>.

– من آثاره: «شرح ألفية ابن مالك في أربع مجلدات أو ثلاث، وعدة شروح على الألفية أيضاً؛ وشرح صحيح البخاري لم يكمله والتذكرة قال السخاوي فيها فوائد، إلى أن وافته المنية عام 862هـ/1458م»<sup>(3)</sup>.

❖ ابن فتوح الشاطبي: «أبو الحسن عبيد الله محمد ابن عبيد الله ابن فتوح النفري الشاطبي وصفه الغبريني بأنه من أهل العلم والفضل والدين مستبحراً متفنناً عالماً بالفقه وأصوله؛ وعلم العربية والنحو واللغة والأدب، له شعر بارع وأدب غض يانع؛ وهو من أصحاب ابن الآبار القضاعي؛ غادر بلده بعد استيلاء الروم عليها ووفد على بجاية فأقام بها حتى توفي عام 642هـ»<sup>(4)</sup>.

❖ الهواري: «هو الحسن بن حجاج بن يوسف الهواري؛ أبو علي؛ أديب مبرز؛ وكاتب بليغ من فقهاء المالكية؛ أصله من ناحية بجاية؛ أخذ عن أقطاب عصره؛ وأخذ عنه عدة من الجلة؛

(1) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.229.

(2) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص.230.

(3) المرجع نفسه، ص.230.

(4) سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، مرجع سابق، ص.28.

سكن مراکش؛ ودخل الأندلس مراراً؛ وولي الخطبة بإشبيلية عام 570هـ؛ سمّاه أبو الربيع بن سالم في مشيخته؛ توفي بمدينة فاس عام 598هـ/1202م؛ واحتمل بعد أشهر إلى مراکش فدفن بها<sup>(1)</sup>.

«يعد كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأحمد بن أحمد الغبريني أبو العباس من أهم كتب التراجم التي ألّفت بمدينة بجاية حيث ضمّ مائة وثمانية ترجمة من شيوخ العلم ورجال الفقه والتصوف وهو من أضخم الكتب النفيسة وأغزرها مادة»<sup>(2)</sup>.

فقد عرف التصوف قفزة عالية خاصة خلال العهد الحفصي؛ فحاضرة بجاية محطة لاستقبال زوارها من كل البقاع خاصة المتصوفة بسبب ميزتها الساحرة وإطلالتها الجذابة التي تدفع بالشخص إلى التأمل والخلوة فقد قال أبو مدين شعيب: «أنّ مدينة معينة على كلب الحال»<sup>(3)</sup>.  
ومن بين العلماء الذين نبغوا في التصوف نذكر:

أبو زكرياء الزواوي: «المتوفى سنة 611هـ الموافق 1216م»<sup>(4)</sup> الذي كان يمثل الاتجاه السني الذي يتقيد الكتاب والسنة؛ أمّا الاتجاه الآخر وهو التصوف الفلسفي فمثله أبو الحسن علي بن إبراهيم المعروف بالحرّالي «المتوفى 637هـ/1242م»<sup>(5)</sup> وكذلك أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسى المولود بمرسية «سنة 614هـ/1218م والمتوفى سنة 699هـ/1300م»<sup>(6)</sup>.

«ويعد أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري البجائي فقيهاً وعالمًا وصوفيًا أصله من أبده فقد ولد ببجاية وقرأ بها ولقي مشايخ كان يحمل فنونًا من العلم الفقه

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص338.

(2) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص13.

(3) دالي يوسف عثمان، الحركة الفكرية على عهد بني زيان 633هـ — 957م، (د.ط)، قرطاس الدراسات الحضارية، العدد التحريبي،

تلمسان سنة 2008، ص120، ص121.

(4) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص135.

(5) المصدر نفسه، ص145.

(6) التنبكي، نيل الابتهاج. بتطريز الديباج، مصدر سابق، ص184.

والأصلان أصول الدين وأصول الفقه والمنطق والتصوف والكتابتان الشرعية والأدبية والفرائض والحساب وكان حسن العبارة مليح الإشارة فكانت معرفته باللسان وبمواقع المعاني مفصلة كان أكثر الناس إنصافاً في المذاكرة؛ عرض عليه قضاء بجاية فامتنع عنه؛ توفي رحمه الله في 28 ربيع الأول من عام 675هـ ودفن بخارج باب المرسى؛ كتب تاريخ وفاته على رخامة وضعت على قبره، وكتب فيها بيتان هما من نظم الأديب الفاضل أبي نصر الجيني:

بَكَيْتُكَ عَبْدَ الْحَقِّ حَقًّا لِأَنْنِي ❀ بَكَيْتُ بِكَ الدُّنْيَا وَمَا فِي جَمِيعِهَا  
مِنَ الدِّينِ وَالْإِفْضَالِ وَالْعِلْمِ وَالْحِجَا ❀ وَإِنْ كُنْتُ زَيْنَ الدِّينِ يَا ابْنَ رَيْعِهَا»<sup>(1)</sup>

بعدما عرّجنا على العلوم النقلية وما حوّته من خبايا العلوم والعلماء؛ ضفنا إلى العلوم العقلية (الرياضيات، الفيزياء، الطب) التي بدورها هي الأخرى نبغت نبوغاً لا مثيل لها وذلك راجع لوجود عدد كبير من العلماء الذين وفدوا عليها من شتى الحواضر وحتى بلاد الأندلس كان لها دور فعال في جلب العلوم معها.<sup>(2)</sup>

#### نذكر أصحاب العلوم العقلية:

❖ أبو القاسم محمد بن أحمد الملقب بابن أندارس البجائي هاجر إلى بجاية واستقر بها في حدود 650 - 660هـ/1253-1263م؛ واشتهر بمهنة الطب، ويعد الغبريني تلميذاً لهذا العالم الذي قال عنه: «وَتَبَسَّطَ لِلطَّبِّ طَبِيبًا بَاحِثًا جَيِّدًا وَلَهُ مَعْرِفَةٌ بِعِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَهُ شَرَكَةٌ فِي أَصُولِ الدِّينِ».<sup>(3)</sup>  
«توفي هذا العالم عام 674هـ/1276م بتونس؛ وله رجز نظم فيه بعض الأدوية».<sup>(4)</sup>

(1) الغبريني، عنوان الدراية، مصدر سابق، ص.85، ص.86، ص.88.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص.45.

(3) المصدر نفسه، ص.101.

(4) المصدر نفسه، ص.102.

❖ **النباش-ابن-:** « محمد بن عبد الله بن حامد البجائي؛ أبو عبد الله؛ المعروف بابن النبّاش؛ طبيب؛ عالم من أهل بجاية؛ رحل إلى الأندلس؛ وسكن مرسية؛ قال ابن أصيبعة معتن بصناعة الطب مواضب لعلاج المرضى؛ ذو معرفة جيّدة بالعلم الطبيعي وله أيضاً نظر ومشاركة في سائر العلوم الحكيمية...»<sup>(1)</sup>.

❖ **ابن الطبيب:** « علي بن الطبيب من أهل القرن 6هـ؛ طبيب وأديب وشاعر؛ فقد ذكره ابن بشرون في كتابه «المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر» الذي ألفه سنة 561هـ؛ ضمن جماعة نسبهم إلى أهل المغرب الأوسط الذي كان لبني حماد واستولى عليهم عبد المؤمن، وقال عنه أنّه أديب وطبيب؛ كما أورد له بيتين من الشعر»<sup>(2)</sup>.

❖ **سليمان بن يوسف بن إبراهيم الحسناوي البجائي:** « يكتنّى بأبي الربيع؛ هو من فقهاء المالكية؛ برز في علم الأصول والحساب والمنطق والفرائض أكره على قضاء الجماعة ببجاية فأقام به أكثر من سنتين ثم أعرض عنه ولازم التدريس؛ أخذ العلم عن عمّه أبو الحسن علي بن إبراهيم ومحمد بن بلقاسم المشدّالي وقد نعتة الشيخ زروق بالشيخ الفقيه الإمام العالم، وقال إنّ: من صدور الإسلام في وقته علماً وديانة، كما له تصانيف في الحساب والفرائض والمنطق»<sup>(3)</sup>. «توفي هذا العالم عام 877هـ/1482م»<sup>(4)</sup>.

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص.328.

(2) مختار جبار، شعراء الجزائر على عهد الدولة الحمادية ( سير ونصوص)، تقدم بقلم عبد الملك مرتاض، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، سنة 1998، ص.117.

(3) التنبكي، نيل الابتهاج.بتطريز الديباج، مصدر سابق، ص.121.

(4) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص.35.

❖ منصور الزواوي: - حياته ونسبه: هو «منصور بن علي الله الملقب بأبي علي الزواوي فقيه مالكي وأصولي وحافظ للحديث ونحوي ولغوي؛ مشارك في كثير من العلوم العقلية والنقلية ولد سنة 710هـ»<sup>(1)</sup>.

- مناقبه: قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: «هذا الرجل طُرفٌ في الخير والسلامة وحسن العهد؛ والصَّونُ والعِفَّة؛ قليل التصنُّع؛ مؤثر للاقتصاد؛ منقبضٌ على الناس؛ مكفوف اللسان واليد؛ مشغول بشأنه؛ عاكف على ما يعنيه؛ مستقيم الظاهر؛ ساذج الباطن؛ مُنصف في المذاكرة؛ محب لحق الخصم؛ حريصٌ على الإفادة والاستفادة؛ مثابر على تعلُّم العلم وتعليمه؛ حملة من جُمَل السداجة والرجولة محسن المعاملة، صَدَرَ من صدور الطلبة له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية وإطلاع وتقيد، ونظر في الأصول والمنطق وعلم الكلام ودَعَوَى في الحساب والهندسة»<sup>(2)</sup>.

- آراء الآخرين فيه: وصفه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة؛ وقد صحبه وحضر دروسه واستفاد منه؛ وقال: «أنَّه معروف بالخير والطهارة والعفة والإعراض عن النَّاس والدنيا وبالاستقامة في الظاهر والباطن؛ وذكر أنَّه كان منصفاً للخصم في المذاكرة حريصاً على الإفادة والاستفادة حتى مَنَّ دونه من الطلبة؛ مثابراً على تعلُّم العلم وتعليمه»<sup>(3)</sup>.

- رحلته ومحنته: «رحل سنة 753هـ إلى الأندلس فأخذ العلم عن ابن الفخار البيري وأجازه وعن قاضي الجماعة الشريف الحسيني السبتي وغيرهما؛ واشتغل بالتدريس في مدارسها بجراية وتكلُّم عن التفسير والفروع الفقهية؛ وتصدر للفتيا فعرف فيها قدره ولقي ترحاباً؛ ولما أفتى في مسألة فقهية خالف فيها فقهاء الفروع في زمانه في الأندلس اشتد هُؤلاء في معارضته وإذايته

(1) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، 231.

(2) ابن مريم المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2014، ص485.

(3) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص232.

حتى اضطر سنة 765هـ إلى مغادرة الأندلس ونزل بتلمسان فأخذ فيها عن الإمام عبد المهيمن الحضرمي والمحدث أبي العباس بن يربوع واستقر بها، فاشتغل بالتدريس<sup>(1)</sup>.

يعد الزواوي أحد نزلاء تلمسان؛ فقد درس بعدة حواضر علمية كحاضرة تلمسان وبجاية والأندلس والمغرب الأقصى؛ حتى صار مقرراً ذو شأن في الفقه والتفسير؛ كما أنه لديه السمة الفضلى في الإفتاء<sup>(2)</sup>.

- شيوخه: «أخذ عن جماعة منهم والده علي بن عبد الله؛ وعن الإمام المجتهد منصور المشدالي؛ قرأ عليه أوائل ابن الحاجب وعن أبي عبد الله ابن المسفر والأستاذ أبي علي ابن حسن قرأ عليه جملة من التحصيل والمعلم الدينية والفقهية والخونجي والآيات البيئات، وقاضي الجماعة ببجاية أبي عبد الله محمد بن يوسف؛ وأبي العباس أحمد بن عمران، وبتلمسان عن الإمام المجتمع على جلالته وإمامته؛ رئيس الكتاب؛ العالم الفاضل عبد المهيمن الحضرمي؛ والمحدث أبي العباس ابن يربوع، والقاضي أبي إسحاق ابن أبي يحيى؛ وبالأندلس عن إمام الصنعة ابن الفخار البيري، لازمه إلى وفاته وأجازه وأذن له في التحليق بموضع تدريسه؛ وقاضي الجماعة الشريف الحسيني السبتي نسيج وحده لازمه وأخذ عنه تأليفه وقرأ عليه تسهيل ابن مالك وروى عن أبي البركات ابن الحاج والخطيب أبي جعفر الطنجالي»<sup>(3)</sup>؛ «وقد رحل إلى القاهرة ولازم العز ابن عبد السلام وسمع من إبراهيم بن مضر وأبي عبد الله بن أبي الفضل المرسى»<sup>(4)</sup>.

(1) المرجع نفسه، ص. 232.

(2) ينظر: عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، (د.ط)، موقع للنشر، الجزائر، سنة 2011، ص. 330.

(3) ابن مريم المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، المصدر السابق، ص. 487.

(4) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، ط1، مطبعة

عيسى الحايي الحلي وشركاه، الجزائر، سنة 1964، ص. 301.

أسهم أبو علي منصور الزواوي من خلال نشاطه التعليمي سواءً في بجاية أو تلمسان في ازدهار الدراسات الفقهية.<sup>(1)</sup>

ومن بين تلامذته: «أبو إسحاق الشاطبي؛ يحيى السراج محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد البجائي المشدالي».<sup>(2)</sup> «وافته المنية عام 770هـ/1368م».<sup>(3)</sup>

«هذا الحشد من العلماء والمفكرين في هذا المركز الثقافي والحضاري البجائي برقعته الواسعة؛ أثروا الحضارة العربية الإسلامية في مختلف مجالاتها بالجزائر وفي كل أصقاع المغرب والأندلس وبلدان المشرق الإسلامي؛ وشاركوا في نهضتها وتطورها ورفقيها وتوسع مجالاتها ومفاهيمها؛ علماً ودراية وتأليفاً وإبداعاً»؛<sup>(4)</sup> فالمراكز الثقافية بالجزائر عموماً وبجاية بصفة خاصة؛ شاركت في إثراء الرصيد الفكري والعلمي.<sup>(5)</sup>

<sup>(1)</sup> مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط. ما بين القرنين ( 6-9هـ / 12-15م )، دراسة في دورها السياسي والحضاري، مرجع سابق، ص. 294.

<sup>(2)</sup> أبو عمران الشيخ، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص. 232.

<sup>(3)</sup> مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، مصدر سابق، ص. 336.

<sup>(4)</sup> يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، مرجع سابق، ص. 57.

<sup>(5)</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص. 66.



## المبحث الرابع: علماء حاضرة تلمسان.

ومن علماء تلمسان الذين برزوا في هذا المجال نذكر:

## ❖ في علم التفسير والفقه:

«أهمّ مؤلفات التفاسير المتداولة في بلاد المغرب الإسلامي والتي أخذ عنها علماء تلمسان تفسير لابن عطية الأندلسي يعد هذا أحد علماء الأندلس الجامعين للفقه والحديث والتفسير والأدب، فلقد لخص التفاسير كلها وجمعه في كتاب سماه» المحرز الوجيز في شرح كتاب الله العزيز؛ وكذلك اشتهر في التفسير كتاب» الكشف عن حقائق التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم الزمخشري».<sup>(1)</sup>

1- أبو عبد الله التلمساني: «برز في علم التفسير؛ حيث مارس هذا العلم أكثر من خمسة وعشرين سنة؛ إذ كان أبو عبد الله يفسر كل يوم ربع حزب من القرآن الكريم؛ فأبدع في ذلك المجال».<sup>(2)</sup>

- مولده ونسبه: هو» أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن علي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه»<sup>(3)</sup>؛ «ولد بتلمسان ليلة الأحد الرابع من ذي الحجة؛ سنة 710هـ/1310م؛ ارتحل إلى تونس سنة 740هـ، ثم عاد إلى تلمسان فاشتغل بالتدريس، وعندما حاصر أبو عنان المريني تلمسان سنة 753هـ قرّب الشريف وآثره ضامًا إياه إلى زمرة العلماء في بلاطه، فلمّا ارتحل إلى فاس صحبه معه؛ لكنّ الشريف ضاق بالاغتراب عن مسقط رأسه حتى باح بذلك فذاع نبؤه؛ ممّا أفضى بالسلطان».<sup>(4)</sup>

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج1، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص439.

(2) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص115.

(3) ابن مريم المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مرجع سابق، ص164.

(4) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان: مقارنة تاريخية فنية، (د.ط)، دار الغرب للنشر والتوزيع، تلمسان، سنة 2004، ص97.

«استدعاه أبو حمو يوسف بن عبد الرحمن أمير تلمسان إلى هذه المدينة التي له معها شأن؛ فلبى طلبه في انبساط وانشراح؛ وتلقاه أبو حمو بترحاب مبالغ، وأصهر له في ابنته فزوّجها إياه»<sup>(1)</sup>

قال ابن خلدون: «ونسب بيته لا يدافع العلامة فارس المعقول والمنقول الفهامة المحقق العمدة الحافظ كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء؛ أعلم من في عصره بإجماع؛ كان الأستاذ ابن لب يعترف بفضله ويراجعه في المسائل؛ اجتمع بابن عبد السلام بمجلس درسه وعارضه في مسألة كان الحق فيما ظهر له واعترف بفضله ووقعت بينهما مذكرات علمية وأخذ كل عن صاحبه»<sup>(2)</sup>.

عرف عنه أنه كان «علماً بأيام الله جاريًا على نهج السلف، مائلاً للنظر والحجة؛ أصولياً متكلمًا جامعا لكثير من العلوم العقلية القديمة والحديثة»<sup>(3)</sup>.

«كان علماً بحروف القرآن الكريم ونحوه وقراءته واختلاف رواياته وإعجازه وأحكامه ومعانيه من أمر ونهي وناسخ ومنسوخ وتاريخ وعيرها؛ وكان حافظاً للغريب واللغة والشعر والأمثال وأخبار الناس ومذاهبهم وأيام العرب وسيرها وحروبها؛ إماماً في العلوم العقلية كلها: منطقاً وحساباً وتنجيماً وهندسة وموسيقى وطباً وتشريعاً وفلاحة»<sup>(4)</sup>.

من «صفاته أنه كان يقسم وقته فينام ثلث الليل؛ وينظر في ثلثه، ويصلي ثلثه؛ يقرأ كل ليلة ثمانية أحزاب في الصلاة، وفي أول النهار مثله؛ وبين الصلاتين ستة، ويواظب قراءة الحزب دائماً؛ ويقرئ في التفسير نحو ربع حزب كل يوم»<sup>(5)</sup>.

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص. 98.

(2) قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج. حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد خيالي، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2003، ص. 337.

(3) ابن مريم المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مرجع سابق، ص. 169.

(4) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص. 98.

(5) المرجع نفسه، ص. 99.

- شيوخه: «درس على أيادي أئمة أجلاء من أمثال: ابني الإمام والآبلي؛ والإمام المحاصي؛ والقاضي ابن عمر التميمي والقاضي ابن عبد التور، والقاضي أحمد بن الحسن والقاضي علي بن الرماح»<sup>(1)</sup>.

«تعلم بمدينة تلمسان على كبار شيوخها؛ وحضر المجالس العلمية بتونس وفاس وسبتة وسجلماسة ومصر والحجاز فضربت إليه إباط الإبل شرقاً وغرباً؛ وكانت تأتيه الأسئلة من غرناطة فيرد عليها وكان الفقيه الكبير موسى العبدوسي شيخ فقهاء فاس في عصره؛ يبحث عما يصدر من أبي عبد الله الشريف التلمساني من تقييد أو فتوى فيقيده وهو أكبر سنّاً؛ فملاً بلاد المغرب معارفاً وتلاميذاً»<sup>(2)</sup>.

ومن أهم تلاميذه: «الإمام الشاطبي؛ ابن زمرك؛ إبراهيم الثغري؛ وابن خلدون؛ الفقيه محمد بن علي المديوني والخطيب؛ وإبراهيم المصمودي»<sup>(3)</sup>؛ والسراج؛ وابن مرزوق الحفيد؛ وابن السكاك»<sup>(4)</sup> وغيرهم.

- آثاره: ترك مجموعة من المؤلفات القيمة التي ما زال هوائها ينبعث سواء كانت شعرية أو فقهية ولغوية من أهمها نذكر: «شرح جمل الخونجي». "مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول" وكذلك "القضاء والقدر"؛ أما شعره فهو ماثوث بين طيّات الصحف»<sup>(5)</sup>.

فقد شهد أول مولد نبوي خلال السلطنة الزيانية بتلمسان خلال عهد أبا حمو موسى الثاني كما أنّها توطدت العلاقة بين الطرفين بإصهار السلطان في ابنته لهذا العالم الفقيه - أبي عبد الله

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 100.

(2) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 2، مرجع سابق، ص 331.

(3) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 100.

(4) قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ص 337.

(5) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 100.

الشريف التلمساني - وإسناده للتدريس بالمدرسة اليعقوبية؛ كما أنه قام بالإفتاء، وقام بمهمات سياسية كسفره المتعدد إلى المرينيين.<sup>(1)</sup>

«من بين الأسباب التي أدّت هذا السلطان- أبي حمو موسى- إلى حبه وإكرامه وصهره ابنته نذكر:- السبب الأول: يتمثل في علاقة هذا العالم بعمه أبي سعيد الذي أشهده على وديعة من المال عند بعض أعيان تلمسان عندما لم يرغب في الاحتفاظ بها ولما علم أبو عنان لم يجد منه أي استجابة فامتنحه سجنًا لعدّة أشهر واسترجع الوديعة».<sup>(2)</sup>

- السبب الثاني: «يتمثل في مكانته العلمية كواحد من أبرز الفقهاء في هذه الفترة؛ جمع بين العلوم النقلية والعقلية؛ وبلغ رتبة الاجتهاد المذهبي في الفقه؛ وذلك بفضل مواظبته على التحصيل وقدراته الفكرية؛ - وأمّا السبب الأخير كان له السبق في التدريس بتلمسان لفترتين الأولى كانت بعد رجوعه من رحلته العلمية بتونس وذلك سنة 740هـ/1339م أو بعدها إلى سنة 749هـ/1348م؛ وكان هذا في حياة شيوخه، فظهرت نجابته وأقبل عليه الطلبة، وبقي بها إلى سنة 753هـ/1352م منتهيًا إلى فاس رفقة أبي عنان المريني، ثم عاد إلى تلمسان».<sup>(3)</sup>

كان منهجه في التدريس قائمًا على إعمال العقل والنظر؛ فقد تحلى بأحلى الصفات التي تؤهله لنشر علمه.<sup>(4)</sup>

- آراء الآخرين فيه: وُصف الشريف التلمساني هذا بسعة العلم وسرعة البديهة، وحدة الذكاء؛ وسمّو الأخلاق؛ والزهد في ملذّات الحياة وزينتها فوصفه ابن مريم قائلاً: «كان إذا تكلم في اليوم الآخر تعجبوا ممّا أوتي من العلم بالله مع ما له من الإمامة في الحديث وفقهه وغريبه

(1) ينظر: يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، مرجع سابق، ص248.

(2) يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، مرجع سابق، ص361.

(3) المرجع نفسه، ص362.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص363.

ومشكله ومختلفه وصحيحه ورجاله ومتونه وأنواعه مع الإمامة في أصول الدين قائماً بالحجة بصيراً بالبرهان، صحيح النظر، كثير الذبّ عن أهل السنة»<sup>(1)</sup>.

قال فيه الشيخ الإمام ابن عبد السلام التونسي: «ما أظنّ أن في الغرب مثل هذا»<sup>(2)</sup>.

وقال أيضاً الآبلي: «هو أوفر من قرأ عليّ عقلاً وأكثرهم تحصيلاً»<sup>(3)</sup>.

- وفاته: «توفي في ذي الحجة عام 771هـ/1369م أو 1370م»<sup>(4)</sup>.

- بعض النموذج من خطابه الديني:

«لقد أختبر الشريف التلمساني مراراً؛ وكان في كلّ مناسبة بثبت تفوقه؛ ويفرض نفسه؛ وكان من انعكاسات تلك الشهرة أن وردت عليه مسائل فقهية وعقدية من أقطار المغرب العربي ومن الأندلس. وهذا نموذج:

«سئل - رحمه الله - من غرناطة عن قول الإمام المرجوع عنه، وأنّ أهل المذهب ينقلون عن مالك في مسألة واحدة قولين مختلفين أو ثلاثة أو أربعة ويقولون وقع في المدونة كذا؛ وفي الموازية كذا؛ وفي المجموعة كذا؛ ويسطرونها في كتبهم يعتقدونها خلافاً فيفتون بها من غير تعيين ما هو متأخر منها يجب الأخذ به من المتقدم الذي يجب تركه مع التقليد لصاحبها وهو واحد، وأمّا المجتهد فأخذ برأيه من حيث اجتهاده؛ مع أنّ أهل الأصول متفقون فيما رأيت على أنّه إذا ورد عن العالم قولان متضادّان لا يعلم المتقدم عن المتأخّر، لا يؤخذ منهما بواحد لاحتمال كون المأخوذ به هو المرجوع عنه فصارا كدليلين نسخ أحدهما الآخر، ولم يعلم الناسخ من المنسوخ فلا يُعمل بمقتضى واحد منهما وقد وقعت هذه عندنا بغرناطة وتردّد النظر فيها أيّاماً ولم يوقف، إلّا أنّ

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص. 106.

(2) ابن مريم المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مرجع سابق، ص. 170.

(3) المرجع نفسه، ص. 170.

(4) قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ص. 337، ص. 338.

الضرورة داعية إلى مثل هذا وإلا ذهب معظم فقه الإمام مالك ومستند الأخذ به مع الضرورة أن مالكاً - رحمه الله - لم يقل بالقول الأول إلاّ بدليل؛ وإن رجع عنه فنأخذ به من حيث ذلك الدليل، وأيضاً غالب أقواله قال بها أصحابه فيعمل بها من حيث اجتهادهم، وأيضاً فجميع المصنّفين يسطرون هذه الأقوال ويفتون بها في التّوازل تواطؤاً منهم عليه ولم يتعرضوا لهذا الإشكال فبعد أن يُجمعوا على الخطأ»<sup>(1)</sup>.

كان الشريف التلمساني علاوة على ما كان يحمله من علوم الشريعة إماماً في غيرها كالرياضيات والتنجيم والطب والتشريح، حتّى قال عنه الآيلي: «هو أقر من قرأ عليّ عقلاً وأكثرهم تحصيلاً»<sup>(2)</sup>؛ وقال عنه ابن عرفة «غايته في العلم لا تدرك»<sup>(3)</sup>.

**2-العالم الفقيه أحمد زاغو:** «هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التلمساني، الشهير بابن زاغو، عالم مشارك في بعض العلوم ولد سنة 782هـ/1380م»<sup>(4)</sup>.

«أخذ عن سعيد العقباني وأبي يحيى الشريف التلمساني وجماعة؛ وعنه جماعة منهم أبو زكرياء، يحيى المازوني والحافظ التنسي وابن زكري وأبو الحسن القلصادي وذكره في رحلته؛ وأثنى عليه كثير»<sup>(5)</sup>؛ فقد كان ابن زاغو فقيهاً عالماً مفسراً صوفياً وعابداً؛ تصدر للإقراء والتدريس بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان فكان يعلم التفسير والحديث؛ والفقه في الشتاء والأصول العربية والبيان والحساب والفرائض والهندسة في الصيف»<sup>(6)</sup>.

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، المرجع السابق، ص101، ص102.

(2) الحاج.بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1995، ص.427.

(3) المرجع نفسه، ص.427.

(4) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مصدر سابق، ص272.

(5) قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مصدر سابق، ص366.

(6) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان، مرجع سابق، ص640.

قال القلصادي في رحلته الشهيرة عن هذا «العالم العامل الولي الصالح الشيخ الكامل المؤلف المحقق العمدة الفاضل»<sup>(1)</sup>: «شيخنا الإمام المصنّف المدرس أعلم الناس في وقته بالتفسير وأفصحهم فاق نظراءه وأقرانه في دلائل السبيل والمسالك إلى سيق في الحديث والأصول والمنطق وقدم راسخة في التصوف مع الذوق السليم والفهم المستقيم وبه يضرب المثل في الزهد والتصوف»<sup>(2)</sup>.

من تصانيفه: «ألف مقدمة في التفسير؛ وتفسير الفاتحة ومنتهى التوضيح في الفرائض وشرح تلخيص والده وحكم بن عطاء الله ومختصر خليل من الأقضية إلى آخره وشرح مختصر ابن الحاجب الفرعي وبعض الأصلي وشرح التلمسانية في الفرائض وله فتاوى كثيرة في أنواع العلوم نقل في المعيار الكثير منها وكذا في المازونية وغير ذلك»<sup>(3)</sup>.

- وفاته: توفي في «14 من شهر ربيع الأول سنة 845هـ/1441م»<sup>(4)</sup> «بالوباء الذي ضرب المنطقة وحضر جنازته العام والخاص»<sup>(5)</sup>.

### 3-علي التلمساني:

«هو علي بن ثابت بن سعيد بن علي بن محمد بن علي بن سعيد التلمساني، القرشي، الأموي»<sup>(6)</sup>؛ من «ذرية عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ولد عام 772هـ/1371م نشأ بتلمسان، فقد أخذ عن الإمام ابن مرزوق الحفيد؛ ومن أهم صفاته أنّه كان مقطوع النظير في الورع والدين والاجتهاد قائم الليل، صائم النهار»<sup>(7)</sup>.

(1) قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مصدر سابق، ص.366.

(2) القلصادي (أبو الحسن)، رحلة القلصادي، مصدر سابق، ص.277.

(3) قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ص.366، ص.367.

(4) رضا كحالة، معجم المؤلفين، مصدر سابق، ص.272.

(5) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان، مرجع سابق، ص.640.

(6) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج2، مصدر سابق، ص.414.

(7) الحاج. بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، مرجع سابق، ص.431.

«كان له مشاركة في علوم الدين من فقه وحديث وتوحيد؛ كما كانت له أيضاً معرفة بالتاريخ والطب؛ وله من التأليف ثمانية وعشرون (28) تأليفاً منها ثلاثة شروح على بردة البوصيري — كبير ومتوسط وصغير — وشرح على «عقيدة الضير» وشرح على تنقيح الفصول» شهاب الدين القرافي المتوفى عام 684هـ/1285م<sup>(1)</sup>.

توفي علي التلمساني القرشي في «ذي الحجة عام 829هـ/1426م وسنة سبع وخمسون سنة»<sup>(2)</sup>.

#### 4-قاسم بن سعيد العقباني:

«هو قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، التلمساني المغربي؛ المالكي»<sup>(3)</sup>، يكنى أبو الفضل ولد عام 768هـ/1367م وهو ابن الإمام سعيد العقباني<sup>(4)</sup> فقد وصفه صاحب البستان «بشيخ الإسلام وفتي الأنام الفرد الحافظ القدوة العلامة المجتهد العارف المعمر ملحق الأحفاد بالأجداد الرحلة الحاج، له أخلاق مرضية قبل أن يرى مثلها»<sup>(5)</sup>.

قال عنه أحمد بابا: «حصل العلوم حتى بلغ درجة الاجتهاد»<sup>(6)</sup>، وقال عنه تلميذه القلصادي «إنه انفرد بفني المعقول والمنقول، وذكر من العلوم التي قرأها عليه، الفقه والأصول؛

<sup>(1)</sup>الحاج. بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، مرجع سابق، ص431.

<sup>(2)</sup> رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج2، مصدر سابق، ص414.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص.642.

<sup>(4)</sup> محمد عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان «مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان»، حقق وعلق عليه آغا بوعباد، (د.ط)، موقع للنشر، الجزائر، سنة 2011، ص.16.

<sup>(5)</sup> ابن مريم المليتي التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص106، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص86.

<sup>(6)</sup> عبد الله التنسي، تاريخ بني ملوك تلمسان، مصدر سابق، ص16.



والفرائض»<sup>(1)</sup>؛ كما قال في حقه تلميذه محمد بن العباس «شيخنا مفتي الأمة علامة المحققين وصدر الأفاضل المبرزين آخر الأئمة»<sup>(2)</sup>.

وقال أيضاً يحيى المازوني: «شيخنا شيخ الإسلام علم الأعلام العارف بالقواعد والمباني أبو الفضل العقباني»<sup>(3)</sup> قال الحافظ التنسي: «شيخنا الإمام العلامة وحيد دهره وفريد عصره»<sup>(4)</sup>.

«درس على أبيه وعلى غيره من العلماء حتى صار من كبار الفقهاء وحصل العلوم حتى بلغ درجة الاجتهاد، ثم ارتحل إلى المشرق فحجّ عام 830هـ/1247م ومصر وحضر دروس ابن حجر العسقلاني واستجازه فأجازه، وولي خطة القضاء بتلمسان بعد عودته وعكف على التدريس»<sup>(5)</sup>.

«كان أبو الفضل ذا أبهة وبهاء وجودة مملوءة من علم خالية من الازدهار؛ انفرد بفني المعقول والمنقول واتخذ في علمي اللسان والبيان وهو في ما عداه من الفنون يفوق الصدور ويقبض على مزاجه البحور ولي خطة القضاء بتلمسان في صغره؛ فقد عكف على تعليم العلوم وعلى تدريس المعدوم منها والمعلوم فأفاد الأفراد وأمتع جهابذة النقاد»<sup>(6)</sup>.

«كان من جملة الآخذين عنه نذكر: ابن زكري والونشريسي؛ وابن مرزوق الكفيف»<sup>(7)</sup>.

(1) عبد الله التنسي، تاريخ بني ملوك تلمسان، مصدر سابق، ص. 16.

(2) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص. 86.

(3) المصدر نفسه، ص. 86.

(4) المصدر نفسه، ص. 86.

(5) الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، مرجع سابق، ص. 434.

(6) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص. 87.

(7) الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، مرجع سابق، ص. 434.

«وكذلك أخذ عنه: «أبو البركات النابلي وولده أبو سالم العقباني وحفيده محمد بن أحمد وأبو العباس».<sup>(1)</sup>

- من أهم تصانيفه: «شرح الحوفي في الفرائض. \* شرح الجمل للخونجي في المنطق. \* شرح التلخيص لابن البناء. \* شرح قصيدة ابن ياسمين. \* شرح العقيدة البرهانية في أصول الدين. \* شرح الحوفية في الفرائض على مذهب مالك والمختصر في أصول الدين».<sup>(2)</sup>

«- له شرح منتهى السؤل والأمل في عملي الأصول والجدل لابن الحاجب، وكذلك أرجوزة تتعلق بالصوفية في اجتماعهم على الذكر وغيره، قواعد في النحو؛ تفسير سورتي الأنعام والفتح».<sup>(3)</sup> يعد ثاني العقبانين العلماء الخمسة وأولهم أبوه سعيد والثالث والرابع ولداه أحمد وإبراهيم والخامس حفيده القاضي محمد.<sup>(4)</sup>

- وفاته: «توفي في ذي القعدة عام (854هـ/1450م) عن سن عالية وصلى عليه في الجامع الأعظم وحضر جنازته السلطان فمّن دونه ودفن قرب ابن مرزوق».<sup>(5)</sup>

## 5- أبو يحيى (عبد الرحمن بن محمد):

- اسمه ونسبه: «هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني الشهير بأبي يحيى الشريف ابن الإمام أبي عبد الله الشريف»؛<sup>(6)</sup> ولد في رمضان عام 757هـ، وليلة مولده بات مع أبيه أبو زيد بن خلدون وأبو يحيى السكاك فسماه عبد الرحمن وكناه أبو يحيى».<sup>(7)</sup>

(1) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص.87.

(2) عبد الحق حميش، سير أعلام تلمسان، ط1، دار التوفيقية، المسيلة، سنة 2011، ص.242.

(3) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص.87.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص.88.

(5) شاوش، باقة السوسان، مرجع سابق، ص.434، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص.86.

(6) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص.201.

(7) قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ص.362.

- دراسته وأساتذته: « تلقى ثقافة عصره في نشأته؛ فأتى على القرآن الكريم حفظاً وهو صغير؛ ثم قرأ على والده ابن الحاجب الأصلي؛ وموطأ مالك؛ فلما مات أبوه تتلمذ على شقيقه الأكبر فغرف من ينابيع علمه ارتشاقاً ونهلاً وبعد أن لمس في نفسه روح المنافسة والتعمق، انتقل إلى العالم أبي عثمان العقباني حيث تعمق معه في علوم شتى، فتلقى على يده أصلي ابن الحاجب؛ وجمل الخونجي؛ وحضر دروسه في التفسير؛ ثم انتقل إلى أساتذة آخرين؛ فدرس على ابن حياتي الغرنطي المقرّب والزجاج؛ وعلى العالم أبي القاسم بن رضوان؛ « صحيح مسلم » و« شفاء عياض »؛ وهذا المدرّس الأخير هو الذي أجازته بعد أن لمس منه علماً واسعاً؛ وأدباً وفيراً<sup>(1)</sup>.

«أخذ عن الإمام الحفيد ابن مرزوق وله مراجعة وبحث في مسألة التيمم يدخل في الصلاة ثم يطلع عليه رجل بالماء كما نقل ذلك في المعيار؛ وفي وفيات الونشريسي<sup>(2)</sup>.

- تلامذته: ابتدأت قصته مع تدريس غيره حين اعتلت صحة أخيه عبد الله حيث عرض الجلوي مكانه للإقراء؛ لكنّه رفض أول الأمر تواضعاً وتادباً واحتراماً لمهنة التدريس؛ وتهيّأ من التصدي للآخرين؛ وربّما مواجهة العلماء والشيوخ؛ فألح عليه ورغبه فقبل عرضه على مصبض، وهذا ابتداء من سنة 784هـ؛ وعندما شرع في الإقراء ذهل تلاميذه إزاء غزارة علمه، وتبحّره في الفقه؛ واستعداده في التوضيح والتدقيق؛ حتى وصفه المؤرخون له بأنّه قد بلغ الغاية في العلم؛ والنهية في المعارف الإلهية وارتقى مراقي الزّلفى، ورسخ قدمه في العلوم<sup>(3)</sup>.

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 201، ص 202.

(2) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مصدر سابق، ص 96، ص 97.

(3) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 202.

– آراء الآخرين فيه:

قال عنه الإمام ابن مرزوق الحفيد: «كان- رحمه الله- آية من آيات الله في القيام بتحقيق العلوم والإتقان لها ومعرفتها؛ علامة محققاً نظاراً حية».<sup>(1)</sup>

ووصفه الإمام أبو العباس بآئه: «الإمام العلامة الأوحى، شريف العلماء، وعالم الشرفاء، آخر المفسرين من علماء الظاهر والباطن ابن العلماء الأئمة».<sup>(2)</sup>

وقال عنه أبو يحيى المطغري: «حضرت مجالس العلماء شرقاً وغرباً فما رأيت ولا سمعت مثل أبي عبد الله وولديه»<sup>(3)</sup>

«كان حاملاً لواء المعارف والعرفان أخذ عن أبيه وبه تفقه وسعيد العقباني وسمع أبا القاسم بن رضوان وأجازه جماعة وعنه ابنه إبراهيم وابن زاغو وابن مرزوق الحفيد ويحيى المطغري».<sup>(4)</sup>

## 6- العفيف التلمساني:

«محمد سليمان بن ابن علي بن عبد الله بن علي التلمساني الكومي، عفيف الدين، من الشعراء الأدباء من قبيلة كومة\*».<sup>(5)</sup>

«أمّا مولده فحصل بالقاهرة في 10 جمادى الآخرة من عام 661هـ/1262م»<sup>(6)</sup>، لقد رحل إلى المشرق، فدخل القاهرة ونزل بخانقاه سعيد السعداء وتنقل في بلاد الروم وبين فيها أربعين

<sup>(1)</sup> ابن مريم المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص128؛ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم

مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، مصدر سابق، ص362.

<sup>(2)</sup> ابن مريم المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص128.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص128.

<sup>(4)</sup> قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ص362.

<sup>(5)</sup> عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص234.

\* يقال كومة أو كومية وهي قبيلة صغيرة منازلها بساحل المجر من أعمال تلمسان.

<sup>(6)</sup> بوزياني الدراجي، أدباء وشعراء من تلمسان، ج3، (د.ط)، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2011، ص404.

خلوة، ثم سكن دمشق فعين مباشراً استيفاء الخزانة، وكان له مقام عند سلطانها ومعروف بالجلالة والإكرام بين الناس، وكان متصوفاً يتكلم عن إصلاح القوم، يتبع طريقة ابن العربي في أقواله وأفعاله»<sup>(1)</sup>.

«ويعتبر الشاب الطريف - كما كان يطلق عليه - من بين الشعراء المشاهير في عصره وكان يمتاز برقة شعره ورونق طبعه، وسلاسة ألفاظه، وجمال نظمه، ورهافة حسه، ولطافة معانيه، وأناقة سبكه، اهتم هذا الشاعر ذي الأصول التلمسانية - في نظمه - بصياغة الأبيات القصيرة، ذات المنحنى العنائي الجميل ولم يبالغ في نظم المطولات، ويعد هذا الشاعر ابن الأديب الشاعر الصوفي سليمان بن علي التلمساني الكومي، الشهير باسم عفيف الدين التلمساني»<sup>(2)</sup>.

"وقد أشار إلى وفاته ابن تغري بردي الأتابكي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة فقال: «وفيها - أي سنة 688هـ - توفي الشيخ الأديب البارع المتفنن شمس الدين محمد بن سليمان بن علي التلمساني الشاعر المشهور، كان شاباً فاضلاً، ظريفاً شعره في غاية الحسن والجودة، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس توفي بدمشق في 5 رجب ودفن بمقابر الصوفية»"<sup>(3)</sup>.

«إنّ عفيف الدين أديب له مشاركة في كثير من العلوم كما هو شاعر وشعره في الذروة العليا من حيث البلاغة كما قال عنه الذهبي شعر مخطوط منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق وله عدة شروح منها: شرح النصوص لابن العربي وشرح المواقف للنفري، وشرح منازل السائرين وشرح قصيدة ابن سينا في الروح التي مطلعها:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَصْلِ الْأَرْفَعُ ❀ وَرُقَاءِ ذَاتِ تَعَزُّزٍ وَتَمَنٍّ

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 235.

(2) بوزياني الدراجي، أدباء وشعراء من تلمسان، مرجع سابق، ص 405.

(3) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، ج 7،

(د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ص 381.

وله كذلك من التأليف «الكشف والبيان في علم معرفة الإنسان» وكتاب آخر في العروض<sup>(1)</sup>.

ومن شعره قصيدته التي رثى بها ولده الشاب الظريف وأخاه:

«أَمَالِي بِفَقْدِ الْمُحَمَّدَيْنِ يَدٌ ❀ مَضَى أَخِي ثُمَّ بَعْدَهُ الْوَلَدُ  
يَا نَارُ قَلْبِي وَأَيْنَ قَلْبِي أَوْ ❀ يَا كَيْدِي لَوْ يَكُونُ لِي كَيْدُ  
يَا بَائِعَ الْمَوْتِ مُشْتَرِيهِ أَنَا ❀ فَالصَّبْرُ مَا لَا يُصَابُ وَالْجُلْدُ  
أَيْنَ الْبَنَانِ الَّتِي إِذَا كُتِبَتْ ❀ وَأَيْنَ النَّاسِ خُطْهَا سَجَدُوا  
مَا فَقَدْتُكَ الْإِخْوَانَ يَا وَلَدِي ❀ وَإِنَّمَا شَمْسُ أَنْسُهُمْ فَقَدُوا  
مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ عَدَدًا ❀ وَمَا لِمَا لَيْسَ يَنْتَهِي عَدَدُ  
مَاذَا عَلَى الْغَاسِلِينَ إِذَا قُرْبَ ❀ الْأَمْلاكَ مِنْهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ بَعَدُوا  
قَدْ حُمِلَتْ نَفْسُهُ الْعُلُومُ إِلَى ❀ الْفِرْدَوْسِ وَالنَّعْشِ فَوْقَهُ الْجَسَدُ  
أَبْكَيْتَ خَالَاتِكَ الضَّوَّاحِ مِنْ ❀ قَبْلَ وَمَا مِنْ صِفَاتِكَ النُّكَدُ  
لِي كِبَرُ سِنِّي وَأُمُّكَ قَدْ ❀ شَاخَتْ فَمَنْ ابْنِ لِي يُرَى وَلَدُ  
وَهْبُهُ قَدْ كَانَ لِي فَمِثْلِكَ لَا ❀ يُرْجَى وَأَيْنَ الزَّمَانُ وَالْأَمَدُ  
يَا لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ أَبَا لَكَ أَوْ ❀ يَا لَيْتَ مَا كُنْتَ أَنْتَ لِي وَلَدُ»<sup>(2)</sup>.

ومما أنشده في الغزل قوله:

«لَا تَلُمْ صَوْتِي فَمَنْ حَبَّ يَصْبُو ❀ إِنَّمَا يَرْحُمُ الْمُحِبَّ الْمُحِبُّ  
كَيْفَ لَا يوقدُ النَّسِيمُ غَرَامِي ❀ وَلَهُ فِي دِيَارِ لَيْلِي مُهَبُّ  
مَا اعْتَذَارِي إِذَا خَبَتْ لِي نَارُ ❀ وَحَبِيبِي أَنْوَارُهُ لَيْسَ تَخْبُو»<sup>(3)</sup>.

(1) سعد بوفلافة، أوراق تلمسانية، مرجع سابق، ص 142.

(2) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ج 2، (د.ط)، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 429.

(3) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج 1، مصدر سابق، ص 366.

## 7- سعيد العقباني:

«إنَّ من أشهر الأسر الماجدة والبيوتات الناهجة في العلم والرئاسة بالجزائر بيت العقباني بتلمسان فهو صنو بيت آل مرزوق وأبناء الإمام بتلمسان، والمشدالي ببجاية- أو المنكلاقي- بزواوة وابن باديس في قسنطينة فأهلها هم جلة الوقت وأقطاب الزمان والمكان في ذلك العصر».<sup>(1)</sup>

«هو سعيد بن محمد بن محمد النجيب العقباني التلمساني، إمام تلمسان وعلامتها في عصره، قاضي، من أكابر فقهاء المالكية، من أهل تلمسان».<sup>(2)</sup>

«وعقبان قرية بالأندلس أصله منها، تحي النسب»<sup>(3)</sup>، «ترجم له ابن فرحون فقال: إمام عالم فاضل، فقيه في مذهب مالك، متفنن في العلوم، سمع من ابني الإمام أبي زيد وأبي موسى، وتفقه بهما، وأخذ الأصول عن أبي عبد الله الأبلبي وغيره، وصدارته في العلم مشهورة».<sup>(4)</sup>

«ولد العقباني بتلمسان عام 720هـ/1320م فأخذ علمه عن ولدي الإمام، وأخذ الأصول عن أبي عبد الله الآبلي وغيره وأخذ الفرائض عن الحافظ السطبي، وروى البخاري والمدونة عن السلطان أبي عنان المريني بسنده عن عز الدين عن جماعة وغيره».<sup>(5)</sup>

«ومن مهامه توليه التدريس بالمدرسة التاشفينية بتلمسان، كما أنه تولى قضاء الجماعة بعدة مدن منها بجاية وتلمسان وسلا ومراكش، وذكر ابن فرحون فقال: إنَّ له ولاية القضاء مدة تزيد على أربعين سنة وكان معاصراً، أثنى عليه ابن سعد التلمساني فقال: كان فقيهاً علامة خاتمة قضاة

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص244.

(2) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص236.

(3) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص244.

(4) ابن فرحون، الديباج. المذهب، مصدر سابق، ص233.

(5) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، مصدر سابق، ص244.

العدل بتلمسان، ولغزارة علمه كان يقارن بأبي سعيد بن لب، والشاطبي والقباب، وابن عرفة،  
والشريف التلمساني، وكان ينعت برئيس العلماء والعقلاء».<sup>(1)</sup>

من بين تلامذته نذكر: ابنه قاسم العقباني، الإمام أبو الفضل بن الإمام، أبو مرزوق الجدي،  
إبراهيم المصمودي، أحمد بن زاغو، وكذلك الإمام النظار محمد بن عفان الجذامي.<sup>(2)</sup> ومن بين  
تلامذته نذكر أبو يحيى الشريف.<sup>(3)</sup>

\* أهم شيوخه: « ذكره ابن فرحون في الأصل وقال إنه فقيه في مذهب مالك، متفنن في  
علوم سمع من ابني الإمام وتفقه بهما، وأخذ الأصول عن أبي عبد الله الأبلبي وغيره».<sup>(4)</sup>

\*أهم تصانيفه: « شرح الصوفية لا نظير له ولم يؤلف عليها مثله، وشرح جمل الخونجي في  
المنطق وتلخيص ابن البنا وقصيده ابن الياسمين في الجبر والمقابلة وتفسير سورتي الأنعام والفتح، أتى  
فيه بفوائد جليلة وشرح البردة وشرح خليل على ابن الحاجب الأصيلي»،<sup>(5)</sup> وكذلك « شرح  
العقيدة البرهانية في أصول الدين».<sup>(6)</sup>

«توفي أبو عثمان العقباني بتلمسان عام 811هـ/1408م، فخلفه على قضاء الحماية بها ولده  
أبو الفضل قاسم (- 854هـ/1450م)، وكان له أحفاد كلهم اشتهروا بالعلم والأدب منهم أحمد بن  
قاسم (- 871هـ/1466م)، وأبو سالم إبراهيم بن قاسم (- 880هـ/1475م)، وعبد الواحد ابن أحمد  
بن قاسم (- 896هـ/1491م)».<sup>(7)</sup>

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، مصدر سابق، ص244، ص245.

(2) ينظر: أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص313.

(3) ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مصدر سابق، ص245.

(4) ابن مريم المليلي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص221.

(5) ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، مصدر سابق، ص360.

(6) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مصدر سابق، ص800.

(7) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص245.



## 8- إبراهيم التلمساني:

«هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام التلمساني، نزيل فاس ومن بين مناقبه أنه الفقيه الحافظ، الحجة المشارك، المتفنن ابن شيخ الإسلام الإمام العلامة المجتهد أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام له علوم حجة وفتاوى، نقل عنه الونشريسي والمازوني في فتاويهما، ووافته المنية بفاس ودفن بباب الجيسة\* سنة سبع وتسعين وسبعمائة 797هـ، وهو والد العلامة أبي الفضل ابن الإمام»<sup>(1)</sup>.

## 9- ابن أبي حجلة التلمساني:

«شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى أبي بكر بن عبد الواحد التلمساني المعروف بابن أبي حجلة، قيل سمي بذلك لأن حجلة باضت على كم جدّه الأعلى عبد الواحد الذي تنسب إليه كرامات صوفية»<sup>(2)</sup>.

«ولد ابن حجلة التلمساني بتلمسان بزاوية جدّه الشيخ أبي حجلة عبد الواحد عام 725هـ/1325م»<sup>(3)</sup>. «ورحل مع أبويه وإخوته، فزار الحجاز ودخل دمشق، فأقام فيها مدة، ثم انتقل إلى القاهرة واشتغل بالأدب وولع به حتى مهر، ثم ولي مشيخة الصوفية بصهرنج منحك بظاهر القاهرة»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص152.

\*الجيسة: وهو الباب الذي أمر بإنشائه الأمير عجيسة بن المعز، وكان يحمل اسمه ثم أعاد بناءه محمد الناصر الموحي وأمر الناس بتغيير الاسم فسمى باب الجيسة، ثم تهدم معظم الباب، فأمر يعقوب بن عبد الحق المريني ببنائه وإصلاحه فجدد بأسره ما عدا القوس البراني في سنة 684هـ / 1285م.

(2) أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص128.

(3) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص109.

(4) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص364.

«اشتهر بمكارم الأخلاق وكان صاحب نكت ونوادر، وله مهارة في الأدب ولاسيما إذا كتب أو شعر، ومذهبه حنفي مع ميله إلى مذهب الحنابلة كثير الحظ من أهل الحلول القائلين منهم بوحدة الوجود».<sup>(1)</sup>

«صنّف الشاعر ابن حجلة ديواناً شعرياً سمّاه "الصباية" في المحبة وقدمه إلى السلطان الناصر حسن من المماليك البحرية سنة 756هـ/1355م، وكان الشاعر يتولى إدارة خانقاه "سعيد السعداء" بالقاهرة، وهو الرباط الذي يتزل فيه الفقراء من رجال التصوف الغرباء، وقد جمع في ديوانه الكثير من أخبار العشاق وشعر الشعراء من القدماء والمعاصرين له أو قبله من شعراء مصر والمغرب والأندلس أظهر فيه ظرفة وخفة روحه ورشاقة تعبيره، وميله إلى التحرر من قيود التزمّت».<sup>(2)</sup>

«عرف عن ابن أبي حجلة أنّه كان شاعراً وأديباً وكاتباً مقتدرًا وأنّ حياته القصيرة كانت حافلة بالإبداع الأدبي والفكري والعلمي حتى نثّقت على الثمانين مصنّفًا في شتى فروع العلم والمعرفة مابين حديث وفقه ونحو وأدب منها: غرائب العجائب وعجائب الغرائب».<sup>(3)</sup>

- ومن بين آثاره أيضًا: «\* سكر دان السلطان. \* الأدب الغض. \* منطق الطير. \* الطارئ على السكر دان. \* أسنى المقاصد في مدح المجاهد. \* مجيبي الأدباء. \* قصيرات الحجال. \* حاطب الليل. \* رسالة الهدهد. \* ديوان الصباية».<sup>(4)</sup>

وقد ذكر في كتاب غرائب العجائب وعجائب الغرائب الذي يقول فيه:

«هَذَا الْكِتَابُ ذَكَرْتُ فِيهِ عَجَائِبًا ❀ تَغْنِي النَّدِيمُ عَنِ الْمَدَامَةِ وَالطَّرِبِ  
يَهْتَرُ سَامِعُهَا لِطَيْبِ حَدِيثِهَا ❀ إِلَّا حَسُودًا لَيْسَ يَعْجِبُهُ الطَّرِبُ

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، المصدر السابق، ص242.

(2) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، المرجع السابق، ص403.

(3) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص112.

(4) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص112.

كما له « سلوة الحزين في موت البنين، وجوار الأخيار في دار القراز وهو يتعلق بأخبار عقبة وتربته وحسن جواره، يشتمل على 340 صفحة، توجد منه نسخة بالمكتبة الخديوية بمصر، وكذلك كتاب الطب المسنون في دفع الطاعون وله مقامات وست قصائد نظمها خاصة بحرب الإسكندرية عام 771هـ، وخمسة دواوين وسبع أراجيز أكثرها مدائح نبوية، ورغم كل قصائده وأشعاره المتفرقة فيما بين كتبه ودواوينه فقد قيل عنه أنه لا يحسن فن العروض وعابوه بقولهم، كان كثير العشرة للظلمة ومدمني الخمر»<sup>(1)</sup>.

ولديه مصنفات عدة منها: «\*السجع الجليل فيما جرى من النيل.\* \*أطيب الطيب.\* \*النعمة الشاملة في العشرة الكاملة.\* \*دليل الموت على الشهادة.\* \*كتاب في معارضة ابن الفارض»<sup>(2)</sup>.

بنية هذه القصيدة تجمع ما بين المدح والغزل على نهج عصر الشاعر.

#### – السند الشعري:

|    |                              |   |                               |
|----|------------------------------|---|-------------------------------|
| 1  | تبادره بالبدر منه بواذره     | ❁ | وتحلوه عند المرور نواذره      |
| 2  | فقيه له في كل يوم وليلة      | ❁ | حبيب ملثم أو نديم يسامر       |
| 3  | ولي فيه نظم إن تصوع نشره     | ❁ | ففي طيه حر الكلام ونادره      |
| 4  | ولي فيه منشور غدا في مقامه   | ❁ | وعرف سناه مشرق الروض عاظه     |
| 5  | ولي فيه من سحر البيان رسائل  | ❁ | إذا ما جفاني أحور الطرف ساجره |
| 6  | ولي فيه أسرار الحروف لائه    | ❁ | ينقطة دمعي فتبدو سرائره       |
| 7  | فمنثور دمعي مثل نظم سطوره    | ❁ | خدودي إذا ما خط فيها دفاتره   |
| 8  | تمد مداد الدمع أقلام هذبه    | ❁ | قدمي حبري والسواد محابره      |
| 9  | خدمت بديوان الصبابة عاملا    | ❁ | فباشر قتلي من سباني ناظره     |
| 10 | فلولا الهوى ما مات مثلي عاشق | ❁ | ولا عمرت بالعامري مقابر       |
| 11 | وفي غزلي ذكر الغزال ومربع    | ❁ | تطارحني فيه الحديث جاذره      |
| 12 | أنزله عن وصف خدر غيرة        | ❁ | ومنزل قفر سرن عنه أبايره      |

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص.243.

(2) محمد أحمد درنيقة، أعلام الحضارة الإسلامية من المسلمين غير العرب، (د.ط)، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، د.ت، ص.77.

- |    |                                                        |   |                                                             |
|----|--------------------------------------------------------|---|-------------------------------------------------------------|
| 13 | تَجَرُّ قَوَافِيهِ مَعَانٍ غَدَا بِهَا                 | ✽ | جَرِيرٌ كَعَبْدٍ أَوْثَقْتَهُ جَرَائِرُهُ                   |
| 14 | يَشْيِبُ بِهَا فُؤَدُ الْوَلِيدِ لِأَنَّهُ؛            | ✽ | يَسِيرُ وَجُنْحُ اللَّيْلِ سَوْدٌ ضَفَائِرُهُ               |
| 15 | وَلَسْتُ أَرَى يَوْمًا بَدَارَةً جُلْجُلٍ؛             | ✽ | سَوَى شَاعِرٍ دَارَتْ عَلَيْهِ دَوَائِرُهُ                  |
| 16 | إِذَا مَا نَسِي ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ             | ✽ | فَإِنِّي لَمَنْ أَهْوَاهُ مَا عَشْتُ ذَاكِرُهُ              |
| 17 | أَجَاوِرُ فِي سَفْحِ الْمَقْطَمِ جِيرَةً               | ✽ | فِيَا حَبْدَا الْمَحْبُوبِ حِينَ تَجَاوِرُهُ                |
| 18 | فِيَا طَيْفَ مَنْ أَهْوَاهُ طَرْفِي إِنْ غَفَا         | ✽ | أَتَهْجُرُهُ بِاللَّهِ أَمْ أَنْتَ زَائِرُهُ                |
| 19 | وَحَقَّكَ لَوْ سَايَرْتَهُ بَعْضَ لَيْلَةٍ             | ✽ | لَسَايَرْتَ صَبَاً مَاتَ فِي الْحَبِّ سَائِرُهُ             |
| 20 | يَمْتَلِكُ الشَّوْقُ الشَّدِيدَ لَطَرْفِهِ             | ✽ | فَتَجْرِي بِهِ كَالْحَاجِرِيِّ مُحَاجِرُهُ                  |
| 21 | وَيَأْتِيهِ طَيْفٌ مِنْ خِيَالِكَ طَارِقٍ              | ✽ | فَيَطْرُقُ إِجْلَالًا كَأَنَّكَ حَاضِرُهُ                   |
| 22 | وَبِي مَنْ يَحْجُ الْعُصْنُ رُمْحُ قِوَامِهَا          | ✽ | إِذَا بَاتَ فِي الرَّوْضِ النَّصِيرُ يَنَاطِرُهُ            |
| 23 | إِذَا أَقْبَلْتَ فِي الْحَلِيِّ وَالطَّيِّبِ قِيلَ لِي | ✽ | حَبِيبُكَ بُسْتَانٌ تَضُوعُ أَزَاهِرُهُ                     |
| 24 | فَإِنْ رَمْتَ مِنْهَا وَهِيَ غَضْبِي التَّفَاتَةِ      | ✽ | ثَنَتْ عِطْفَهَا نَحْوَ الْغَزَالِ تُشَاوِرُهُ              |
| 25 | أَبْرَدَ مَا أَلْقَاهُ مِنْ حَرِّ هَجْرِهَا            | ✽ | وَقَدْ حَمَيْتَ يَوْمًا عَلَيَّ هَوَاجِرُهُ                 |
| 26 | تَحَصَّنَتْ فِي حِصْنِ الْهَوَى مِنْ عَوَازِلِي        | ✽ | وَبَاتَ لِقَلْبِي جَيْشٌ هُمْ يُحَاصِرُهُ                   |
| 27 | وَلَوْ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى الْبَصِيرَةِ عَازِلِي       | ✽ | لَمَّا عَمَيْتُ عَمَّنْ هَوَيْتُ نَوَاطِرُهُ                |
| 28 | يَشْتَبِهَا بِالْغَصْنِ وَالْغَصْنُ عِنْدَهَا          | ✽ | يَشَاهِدُهَا يُغْضِي وَيَطْرُقُ نَاطِرُهُ                   |
| 29 | وَلِلْغَصْنِ قَدْ كَالشَّقِيقِ إِذَا بَدَا             | ✽ | وَشَعَرَ كَجُنْحِ اللَّيْلِ سَوْدٌ غَدَائِرُهُ              |
| 30 | لَنْنُ طَابَ ذَلِي فِي هَوَاهَا فَإِنِّي               | ✽ | وَحَقَّكَ مِمَّنْ عَزَّ فِي مَصْرٍ نَاصِرُهُ <sup>(1)</sup> |

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 117، ص 118.

## - التحليل الفني:

لقد كان التضافر في هذا القسم الأول دور كبير حيث وظّفه النَّاص لتبليغ رسالته إلى الملتقى، وتقاطعت فيه البنى الإفرادية بطريقة تستقطب النَّظْر؛ ولكنَّ هذا التضافر لم يكن دائما ذا أثر على تزيين الأسلوب؛ بل إنّه كان أحيانا سببا في ما أصاب رقّة شعريته معاذلة، وهذا التشابه أثرٌ بخاصة في مثل: تبادره/بالبدر/بوادره (البيت 1).<sup>(1)</sup>

وهذا يذكرنا ببيت مسلم بن الوليد المتداول بين البلاغيين وهو:

سَلَّتْ وَسَلَّتْ ثُمَّ سَلَّ سَلِيلُهَا ❁ فَأَتَى سَلِيلُهَا مَسْلُولا

مما جعل ابن سنان يستثقل هذا التكرار قائلا: لولا أنَّ هذا البيت مروى لمسلم وموجود في ديوانه لكنت أقطع على أنَّ قائله أبعد النَّاس ذهنا، وأقلّهم فيها، وممّن لا يعدّ في عقلاء العامّة فضلا عن عقلاء الخاصّة.<sup>(2)</sup>

ومن المحسنات البديعية التّصريح في المطلع:

تبادره بالبدر منه بوادره ❁ وتحلو له عند المرور نوادره.<sup>(3)</sup>

ومن المحسنات ما يتعلق بالجناس الذي كان في معظمه جناس تصحييف؛ والذي يتحدّد في قول الشاعر:

-تبادره/البدر/بوادره(البيت 1).

- أسرار/سرائره(البيت 6).

- تمدّد/مداد(البيت 8).

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص. 118.

(2) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص. 119.

(3) المرجع نفسه، ص. 121.

- حبري/محابرته (البيت 8).
- عمرت/العامري (البيت 10).
- في غزلي/الغزال (البيت 11).
- تجرّ/حرير/جرائره (البيت 13).
- أجاور/جيرة/تجاوره (البيت 17).
- سايرت/سائره (البيت 19).
- كالحاجري/محاجره (البيت 20).
- طارق/يطرق (البيت 21).
- النّضير/يناظره (البيت 22).
- هجرها/هواجره (البيت 25).<sup>(1)</sup>

إذا كان الجناس قد ورد اثنتي عشرة مرّة، فإنّ التّقابل قد سجّل حضوره بقوة حتى إنّ لم يكد يخلو منه بين من أبيات هذا القسم والذي يتضح في الشكل التالي:

- يوم/ليلة (البيت 2).
- رسائل/جفاني (البيت 5).
- أسرار/تبدو (البيت 6).
- منشور/نظم (البيت 7).
- نسي/ذاكره (البيت 18).
- تمجره/زائره (البيت 25).
- أبرد/حرّ (البيت 25).

<sup>(1)</sup> محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 122، ص 123.

- ذلي/عزّ (البيت 30).<sup>(1)</sup>

#### 10- محمد الخطيب:

«محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي، الخطيب المشهور بالجد وبالخطيب أبو عبد الله شمس الدين، فقيه، أصولي، محدث، مفسر، ولد بتلمسان».<sup>(2)</sup>

«اختلف المؤرخون في تحديد سنة ميلاده فحددها صاحب البستان عام 710هـ/1310م وذكرها صاحب بغية الرواد سنة 711هـ/1311م وقيددها البعض الآخر بسنة 712هـ/1312م، وسجلها ابن مرزوق ذاته في مجموعة بأن أمّه حملت به ببيتهم الكائن بزقة جحافة بمدينة فاس، عندما كان والده يقيم بها وولدت له في أوائل ذي القعدة».<sup>(3)</sup>

ينحدر من أسرة عريقة كبيرة أصلها من القيروان، هاجرت بعد نزول بني هلال وبني سليم بلاد المغرب واستقرت بتلمسان وهو من علماء المالكية له مشاركة في التاريخ والأدب ولد بعاصمة الدولة الزيانية، وقد لقب بالخطيب لأنه خطب على ثمانية وأربعين منبراً في الإسلام شرقاً وغرباً، ودرس على أزيد من تسعين عالماً وكاعتراف منه بفضلهم عليه جعل لهم كتاب «عجالة المستوفى المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز».<sup>(4)</sup>

- رحلاته: اختلف المؤرخون في عدد سفراته مع والده إلى بلاد المشرق، ولم يتفقوا على تحديد السنوات التي أقام فيها في بلاد الحجاز ومصر، وكذلك لم يستطيعوا تحديد السنة التي عاد فيها إلى أهل والديار بمدينة تلمسان، فقد سجلها صاحب البستان سنة 718هـ/1318م وأغلبهم يحددون تاريخ عودته بين سنتي 733هـ/1333م و735هـ/1335م وقد اجتهدت المستشرقّة ماريا

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص. 124.

(2) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ص. 243.

(3) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج3، مصدر سابق، ص. 310.

(4) فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، مرجع سابق، ص. 43.

خيسوس، التي حققت كتابة المسند في تحديد سفره ما بين سنتي 717هـ/1317م و720هـ/1320م وذكرت بأن عودته استمرت نحو سنتين أي ما بين سنتي 733هـ/1333م و735هـ/1335م إلى أن وصل مدينة تلمسان سنة 737هـ/1337م، وقد اعتمد كثير من الباحثين المحدثين هذه التواريخ التي فيها اضطراب وتناقض»<sup>(1)</sup>.

«لم يفرغ ابن مرزوق الجد للعلم والأدب والتدريس فحسب بل كان قريباً من أهل السياسة ومن دوائر صناعة القرار، حيث خدم ملوك بني زيان في تلمسان وملوك بني مرين بفاس وملوك بني الأحمر بغرناطة وملوك بني حفص»<sup>(2)</sup>، ثم عاد إلى تلمسان عام 737هـ/1337م يطلب من أبيه وقد صادفت عودته نهاية حصار مدينة تلمسان من قبل أبي الحسن المريني، قرأ أبو عبد الله محمد بن مرزوق مختلف العلوم على مشايخ تلمسان مسقط رأسه، ثم انتقل إلى بجاية فدرس على علمائها وحنط رحاله بمدينة تونس فتعلم على مشيختها، ثم ارتحل إلى المشرق فانتصب للدرس والتحصيل في الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة وبيت المقدس ومسجد الخليل بفلسطين، والتقى بكبار شيوخ هذه المدن وعلمائها وحضر مجالسهم ورأى من الأولياء الصالحين عدداً كثيراً فألبسوه مع والده خرقة التصوف»<sup>(3)</sup>.

- شيوخه: «أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي، وابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى وأبي عبد الله بن هدية القرشي وأبي عثمان سعيد بن علي المعروف بابن إسحاق الخياط، وأبي محمد المجاصي وعلي حسن بن يحيى الحسن وإبراهيم الآبلي»<sup>(4)</sup>.

- أشهر تلاميذه: «أبو إسحاق الشاطبي، ابن قنفذ القسنطيني»<sup>(5)</sup>.

(1) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، مرجع سابق، ص331.

(2) فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، مرجع سابق، ص43.

(3) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، مرجع سابق، ص333.

(4) عبدلي الحضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص557.

(5) المرجع نفسه، ص559.



«وفي آخر سنة 762هـ ثار الوزير عمر بن عبد الله ضدّ أبي سالم وأطاح بملكه وقتله وشحن ابن مرزوق وأزاد حسابه، فلم يساعدهم عمر على ذلك وأطلق سراحه ثم رحل إلى تونس سنة 766هـ؛ فترّل على السلطان أبي إسحاق الحفصي فأكرمه وولاه الخطابة بجامع الموحدين والتدريس ببعض المدارس وأقام هناك إلى عهد أبي العباس الحفصي وفي سنة 776هـ مع الرحلة إلى المشرق ونزل بالإسكندرية ثم بالقاهرة فاتصل بالسلطان الأشرف فأكرم مجلسه وولاه التدريس وقضاء المالكية، واستقر ابن مرزوق بالقاهرة إلى أن توفي بها سنة 781هـ»<sup>(1)</sup>.

\*تأليفه: «عجالة المستوفر والمستجاز في ذكر من سمع من المشايخ، مرت من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز ذكر فيه أسماء شيوخه، وتيسير المرام في شرح عمدة الأحكام في خمسة أجزاء، شرح علي بن الحاجب الفرعي، عنوانه إزالة الحاجب على فرع بن الحاجب، وشرح على الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشيلي، وشرح الشفاء للقاضي عياض لم يكمله، و"تحفة الطرق إلى الملك الأشرف"، و"شرح البردة"، و"شرح صحيح البخاري والمسند الصحيح الحسن في مآثر محاسن" مولانا أبي الحسن وكتاب الإمامة، وإيضاح المرشد فيما يشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد وديوان خطب وقصائد وكتاب في التنجيم وجني الحنين في فضل الليلتين القدر والمولد والأربعين المسندة في الخلافة والخلفاء وكتاب جمع فيه ما قيل في الصبر»<sup>(2)</sup>.

(1) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص. 559.

(2) المرجع نفسه، ص. 560.

## 11- الحسن بن مخلوف (أبركان):

\*اسمه ولقبه وكنيته: « هو الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد بن سعيد المزيلي \* الراشدي اشتهر بين قومه بأبركان\*»<sup>(1)</sup> هو الشيخ، الإمام، العالم، الولي الصالح، القطب الغوث»<sup>(2)</sup>.

- طريقة تدرسيه أو منهجه في التدريس: اهتدى الشيخ أبركان منذ القرن السابع الهجري إلى رسم طريقة تربوية في التدريس خاصة به، فقد أوضح الشيخ سيدي محمد بن السنوسي (895هـ/1490م) أن الإمام أبركان كانت له طريقة خاصة في التدريس لخصها فيما يلي: « قد حضرته يقرئ الرسالة، ومختصر ابن الحاجب، يبدأ أولاً بإيضاح صورة المسألة حتى يفهمها كل أحد، ثم بعد ذلك يتسع في نقل كلام الشراح ويبحث معهم ثم بعد ذلك ينقل من الأمهات والدواوين الكبار كاللخمي، وابن رشد والنوادر، ونحوها، يحقق به فقه المسألة»<sup>(3)</sup>.

- دراسته: تلقى دراسته الأولى في بجاية على يد سيدي عبد الرحمن الوغليسي، وقرأ بقسنطينة على الشيخ أبي عبد الله المراكشي، وبعد أن عاد من الحج استوطن تلمسان، ولقي بها إبراهيم المصمودي كما درس على أيدي أئمة تلمسان بعامة فتلقى عنهم علوم العربية واللسان والفقه وعلم الكلام والتوحيد، من أشهرهم الإمام ابن مرزوق الحفيد، والشيخ سيدي يحي المطغري»<sup>(4)</sup>؛ «وكذلك أخذ عن الحافظ التنسي والشيخ السنوسي»<sup>(5)</sup>.

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص45.

\*مزيلة: فقد من قبيلة بني راشد ( ولاية تلمسان ).

\*تعني الكلمة بالبربرية الأسود، ولا ندري إن كان لون الشيخ يتفق مع هذه الصفة أم هي مجرد تسمية شاعت وانتقلت بين الناس.

(2) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص169.

(3) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص47.

(4) المرجع نفسه، ص46.

(5) ابن مريم المليتي، البستان، مصدر سابق، ص169.

\* تلامذته: « ترك الشيخ من بعده طلبة كثيرين معظمهم يريدون أو علماء دين، منهم الشيخ الزاهد نصر الزواوي، وأخوه لأمه الشيخ السنوسي الذي لازمه كثيراً وانتفع به والحافظ التنسي، وعلي التالوتي، وكثيراً ما كانت مجالسه العلمية محل اهتمام معاصريه من العلماء الأفاضل وكانوا يدعونون لنقله وفهم عرضه وطريقة شرحه، ومن هؤلاء الشيخ محمد بن العباس والشيخ محمد بن النجار والشيخ سليمان البوزيدي»<sup>(1)</sup>.

- تعظيمه للعلم: « وكان رضي الله عنه شديد التعظيم للعلم، لا يقدر أحد أن يتجاسر - يتجاوز - ويكلمه في حاجة، وهو يقرئ للعلم، ولا يقدر أحد من الطلبة أن يتكلم مع صاحبه في مجلس العلم، أو يلتفت إليه، أو ينظر إلى الداخل أو يجيب سائلاً للشيخ قيل أن يفاوضه الشيخ في أمر السؤال ومن تعظيمه للعلم ما حكاه لي أخي سيدي علي قال: ابتدأنا القراءة يوماً على الشيخ، فنحن في دويلة الرسالة، وإذ بهدير المحمل وصوت التحرك وقد قرب السلطان أحمد من باب المسجد يريد الدخول عند الشيخ، فتقدم مزوارة\* الشيخ عمر فدخل علينا ونحن نقرأ، فلم يستطع أن يتقدم إلى الشيخ لشدة مهابته فوقف ورائي وأنا القارئ لدويلة الرسالة، وينحسني برجله إذ رأى الشيخ معرضاً عن جهتي، فإذا رفع الشيخ بصره إلى جهتي، ضمّ رجله هيبة من الشيخ، فبقي مدة ورائي والسلطان عند الباب - المسجد - واقف، ولم يقطع الشيخ كلامه، ولا التفت إلى جهتهم، ولا قدر أحد أن يكلمه أصلاً فلما طال وقوفهم وأيسوا من تفريق الشيخ المجلس لأجلهم، انصرفوا زائرين للشيخ سيدي أحمد الداودي وأطالوا الغيبة هناك حتى يقنوا فراغ الشيخ من الدويلة التي يقرأ رجعوا إليه، فوجدوه قد فرّق المجلس»<sup>(2)</sup>.

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص. 47.

(2) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مصدر سابق، ص. 190.

\* المزوار: أو أمزوار بالبربرية هو البكر من الأولاد ونقيب الشرفاء وعريف القوم ومقدمهم ويؤكد ذلك قول البيدق: «ولكن فخذ هذه الأفخاذ مزوار».

«ومن العلماء التي كان يتقنها هذا العالم الذي اتصف بالزهد والتصوف حسبما ذكر ابن مريم في ترجمته: الحديث وعلم الفرائض والحساب وعلم الفقه، كان يدرس الرسالة لابن أبي زيد، والمدونة لسحنون ومختصر ابن الحاجب»<sup>(1)</sup>.

«كما كان يقرأ ألفية ابن مالك قراءة حسنة يقتصر في النظر على شرحها للمكودي وكان أعجب العجائب في قراءة الرسالة، يسترح منها منطوقاً ومفهوماً وإثارة مطابقة والتزاماً جميع الفقه المنتشر في ابن الحاجب والمدونة والأمهات، ينتبه فيها وينتبه إلى ما لا ينتبه به إليه أحد»<sup>(2)</sup>.

- آراء الآخرين فيه: قال فيه الشيخ نصر الزواوي: «هبطت يوماً إلى باب زير\* فحضرت مجلس الشيخ سيدي الحسن، فكأنني اقتصرت علمه بالنسبة لما رأيت من الشيخ سيدي محمد بن مرزوق، فتمت تلك الليلة، فرأيت أتاقي آتٍ في المنام وقال لي: اذهب إلى الشيخ سيدي الحسن وإقرأ عليه من أول مختصر ابن الحاجب الفرعي إلى موضع سماه منه، فلما أصبحت ذهبت إلى الشيخ وطلبت في قراءة ابن الحاجب عليه، فأذن لي ولم أعلمه بالرؤيا، فكنت أقرأ عليه في كل يوم حتى بلغت الموضع الذي سماه في النوم، فبنفس ما بلغته قال لي الشيخ مكاشفاً: هذا حدّ القراءة بيتنا، وامتنع من الزيادة على ذلك الحد»<sup>(3)</sup>.

كما كشف الشيخ سعيد بن عبد الحميد العصنوني عن كرامة أخرى فقال: «دخلت في يوم جَوٍّ على سيدي الحسن فوجدته في تعب عظيم والعزف يسيل عليه فقال: أتدري مع هذا التعب الذي أنا فيه؟ قلت: لا، يا سيدي، فقال: إني كنت آنفاً جالساً بهذا الموضع فدخل عليّ

(1) التنسي، تاريخ بني زيان، تح. محمود بوعياذ، مصدر سابق، ص 17.

(2) ابن مريم المليلي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بلمسان، مصدر سابق، ص 189.

\*باب زير: بكسر الزاي وسكون الراء إحدى بوابات تلمسان، وهي تقع محاذية لدرب السنسلة حالياً بالقرب من حنفية السبع، والمفضية إلى دهايز المباني العتيقة للمدينة (حي أجادير).

(3) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 49.

الشیطان فی الصورة التي هو عليها، فقامت إليه فهرب أمامي فتبعته وأنا أؤذن فما زال يهرب بين يدي ويضطر عما ذكر في الحديث إلى أن غاب عني....»<sup>(1)</sup>

توفي الشيخ العالم الزاهد المتصوف الفقيه في شوال عام 708 هـ الموافق 1453 م.

## 12- عبد الله الشريف التلمساني:

- حياته ومناقبه: هو عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني، العلامة المحقق، الحافظ، المتقن الجليل، ابن الإمام العلامة، الحجة النظار، الأعلم أبي عبد الله الشريف.

- مناقبه: كان من أكابر علماء تلمسان ومُحققهم، نظاراً بارعاً، وقال بعض تلاميذه ولد سنة ثمان وأربعين وسبعمائة 748 هـ فنشأ على عفة وصيانة، وكان مرضي الأخلاق، محمود الأحوال، موصوف بنيل وفهم وحذق وحرص على طلب العلم، وكان قد بُشِّر به والده في النوم، وهو في بطن أمه، رأى قائلاً يقول له: يزداد عندك ولد عالم لا تموت حتى تراه يقرئ العلم، فكان كذلك.<sup>(2)</sup>

- شيوخه: تعلّم القرآن على الأستاذ النحوي "أبي عبد الله بن زيد بفاس" وأبوه بها حينئذ، وكان الأستاذ يُقرئ أولاد الأشراف العظماء لعلو قدره في النحو والقراءة، وظهر من حينئذ بنجاحته، فحفظ القرآن وقرأه بحرف نافع، وختم عليه جمل الزجاجي وألفية ابن مالك، ثم قرأ على الفقيه النحوي الأستاذ الصالح أبي عبد الله ابن حياقي الجمل والمُقرب، ثم جملة صالحة من كتاب سيبويه والتسهيل، وانتفع به، واعتمد عليه.

وقرأ على الخطيب ابن مرزوق جملة صالحة من البخاري، وجملة من المدونة على الفقيه أبي عمران موسى العبدوسي، وكتاب التلقين والرسالة والكيفية في أصول الدين على الفقيه الصالح أبي العباس القباب، وحضر على الشيخ الفقيه الحسن الونشريسي، والشيخ الصالح أبي العباس ابن

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 50.

(2) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص 239.

الشمّاع كتاب ابن الحاجب الفرعي، وعلى القاضي أبي العباس أحمد بن الحسن موطأ مالك تفقهًا،  
والتهذيب وابن الحاجب الفرعي.<sup>(1)</sup>

– تتلمّذه على أبيه: ثم أقبل أبوه عليه، وقد كملت تهيبته لقبول الحقائق، وتمّ استعداده لفهم الدقائق فنث فيه وأودعه سرّه في أصول الدّين، فقرأ عليه الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، {ومحصل الإمام الفخر، وبعض كتب النجاة لابن سينا، وكتاب المقاصد للغزالي، ومختصر ابن الحاجب}، والطبيعات والإلهيات من إشارات ابن سينا. وقرأ عليه في أصول الفقه كتاب شفا الغليل للغزالي، ومختصر ابن الحاجب وتأليفه المسمى مفتاح {الوصول} في بناء الفروع على الأصول، وقرأ عليه في البيان الإيضاح والتلخيص، وفي الجدل كتاب المقترح للبروي، وفي الهندسة كتاب إقليدس، وفي المنطق جمل الخونجي مرات عديدة بلفظه وبغيره، ومطالع الأنوار للسراج الأرموي، وفي التصوف ميزان العمل للغزالي؛ وسمع منه أكثر الصحيحين رواية عن شيخه بطر الحجازي وغيره وكثيراً من الأحكام الصغرى لعبد الحق فقهًا وسماعًا وسيرة ابن إسحاق، وشفاء عياض، وحضر تفسير القرآن بين يديه من سورة النحل إلى الختم، ومن أوله في المرة الثانية إلى قوله: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ}.<sup>(2)</sup>

– اشتغاله بالتدريس ومنهجه فيه:

وكان يقرأ عليه كتابًا في التفسير ليلاً، فاشتغل رحمه الله بكثير من هذه العلوم في حياة أبيه، وقرأها وعلمها ودرّس فيها، فقرأ العربية مدّة طويلة، وانتفع به فيها انتفاعًا عظيمًا؛ وختم إقرأ رسالة ابن أبي زيد في حياة أبيه، وكانت نشأته في وفد عظيم من طلبة أبيه وأهل فهم وحفظ ودراية وفطنة، وكانوا إذا تباحثوا في فهم مسألة أمرهم الشيخ بالتقييد فيها تدرييًا لهم. وكان يحضر مجلسه أكابر الفقهاء؛ وصدر عنه أجوبة تشهد العقول بصوابها وحسنها حتى يقوم بعض

(1) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص234.

(2) المصدر نفسه، ص240.

الأشياخ فيقبله بين عينيه، وحين جلس مجلس أبيه بعد موته، وحضر عليه من يحضر أباه اشتغل به، ولم يشذ عنه أحد من أصحاب أبيه، واعترفوا بتقديمه عليهم حتى كان القاضي أبو الحسن علي المغربي رحمه الله تعالى يعترف بفضلته، ويقول: انتفعت به في أصول الفقه أكثر من انتفاعي بأبيه لبسطه وحسن تقريره وترتيبه، ثم انتقل للجامع الأعظم، فأقرأ فيه الأحكام الصغرى لعبد الحق وفرعي ابن الحاجب وبحضرة جماعة الطلبة الفاسيين، ومن شأهم حفظ المسائل والنقل على عادتهم خلاف عادة التلمسانيين، فيحضره الفريقين، فيوفي لكل واحد مطلبه.<sup>(1)</sup>

— إشادة العلماء بقوة حفظه: حدثني الفقيه العدل محمد بن صالح الفاسي أنه كان في جماعة من طلبة العلم الفاسيين يحضرونه، ويختبرون حفظه وصحة نقله، فيأتون بالتقييد وغيره من الكتب التي ينقل منها، فإذا قال: قال أبو محمد أو اللّحمي نظر الذي بيده منهم فيه، فيسرد نصّه، ولا يغير منه حرفاً وكذلك في كلّ شرح حتى اعترفوا له بالحفظ والثبات والتحقيق، ثم بعد فراغه من النقل أخذ في الترجيح والتوجه بما له من فقه النفس وقوة الذكاء وشدة الفطنة حتى تعرف الفقيه أبو القاسم بن رضوان، رئيس كتبة المغرب، حاله فعرف به السلطان عبد العزيز\* وبين له قدره في العلم، وعلو درجته فيه، فأجرى له مرتباً وافراً يؤتى به إلى داره كل شهر من غير سعي فيه ولا تعرض لأجله.<sup>(2)</sup>

— تلامذته: لقد تلقى العلم على يديه أفواج وجماعات، ومرّوا كأن شيئاً لم يكن من هؤلاء التلاميذ:

(1) ابن مرزوق الحفيد: (أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمد): الذي ولد بتلمسان 766هـ ونشأ بها، وتعلّم على أيدي طائفة من العلماء منهم «الشريف»، وتنقل في مختلف الأقطار العربية

(1) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص241.

\*السلطان عبد العزيز: هو أبو فارس علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المربني، ببيع يوم الأحد الثاني والعشرين لذي الحجة 767هـ / 1365م. وتوفي في ربيع الآخر في 774هـ / 1372م.

(2) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص242.

رغبة في الاستزادة من العلم، فأتقن النحو والعربية اللّين تلقّاهما في فاس، وتفقه في الدّين على يد ابن عرقة في تونس ثم انتقل إلى الحرمين الشريفين حاجاً وراغباً في الغرف من منابع العلم. وترك عدّة مؤلفات من بينها: تفسير سورة الإخلاص، وشرح صحيح البخاري (غير تام)، وإسماع الصّم في إثبات الشرف من قبل الأمّ، وإظهار صدق المودّة في شرح البردة.

(2) القاضي الأندلسي أبو بكر بن عاصم.

(3) الشيخ الزاهد أبو العبّاس أحمد بن موسى البجائي.<sup>(1)</sup>

– عودته إلى تلمسان وانتفاع أهلها بعلمه:

فلّما عادت الدولة الزيانية، رجع إلى الإقراء بمدرسته على رسمه السابق، فأقرأ فيها الأحكام الصغرى لعبد الحق والكتاب بعده من صلاة الصبح إلى قرب الزوال، وكان يكثر النقل، ويحقق الفقه تحقيقاً بالغاً عدّة أعوام، وفي الصيف يقرئ العلوم العقلية من الأصول والبيان والعربية وسائر العلوم، يقطع جميع نهاره في ذلك، لا يفتر عنه غالباً إلّا في أوقات الصلاة، وإذا تشاح الطلبة لصيق الوقت، قسّموا الوقت بالرملة حتى لم يكن في المغرب أكثر اجتهداً منه في الإقراء. وقد قال لي الشيخ الفقيه، الصالح المجدّد، الرئيس الزاهد الورع أبو العبّاس أحمد بن موسى البجائي، وكان رحل للقراءة عليه، واخذ عنه علوماً جمّة، وانتفع به، لا يوجد اليوم من يريد الرحلة عن هذا البلد مثل شيخنا أبي محمد في غزارة العلم وسهولة الإلقاء، وخفض الجناح، وكان أبو العبّاس هذا يثني عليه ثناءً عظيماً، ويذكر أنّه لم يذكر من شفى غليله في العلم إلّا عنده.<sup>(2)</sup>

– آراء الآخرين فيه:

لقد كثرت آراء مادحيه، وتعددت جوانب الإشادة بشخصه وعلمه: فقد قال القاضي أبو الحسن المغربي «انتفعت به في أصول الفقه أكثر من أبيه لحسن تقريره وبسطه».

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص186، ص187، ص188.

(2) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص242.



وحين تناهت شهرته إلى الفقيه أبي القاسم بن رضوان رئيس كتّاب المغرب على عهده، أشاد بما وصل إليه شأ وعلمه ومقدرته، وذكره: «للسلطان عبد العزيز وبين له علو قدره، وفور له في جرائته من غير سعي فيه». وقال فيه الشيخ الفقيه أبو العباس البجائي - أحد تلامذته أيضاً -: «لا يجد (كذا) اليوم من يرحل عن هذا البلد مثل شيخنا أبي محمد في غزارة العلم وسهولة الإلقاء، وخفض الجناح». وكان دائم الثناء على شخصيته والإشادة بعلمه وكثرة حفظه مؤكداً غير ما مرّ أنّه لم يرو غلة فهمه إلى العلم والمعرفة إلّا عنده.

وأثنى عليه الشيخ محمد بن العباس قائلاً: «كان الشريف أبو محمد هذا فقيهاً عالماً علامة، حافظاً رواية متبحراً، آخر الحفاظ في الفتوى العلمية، ذا نفس طاهرة زكية، شيخ شيوخنا».<sup>(1)</sup>

#### - رحلته إلى الأندلس ووفاته:

قلت: ثم رحل، ودخل غرناطة من بلاد الأندلس، وأخذ عنه هناك جماعة، وتوفي في انصرافه إلى مالقة غريقاً في البحر، قاصداً بلده تلمسان في صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة 792هـ هكذا ذكر وفاته تلميذه الإمام أبو الفضل ابن مرزوق الحفيد - وعمره نحو خمس وأربعين سنة - وممن أخذ عنه القاضي أبو بكر بن عاصم وغيره، ووقع النقل عنه في المعيار.<sup>(2)</sup>

وقال محمد بن العباس: كان الشريف أبو محمد هذا فقيهاً عالماً، علامة حافظاً، رواية متبحراً، آخر الحفاظ في الفنون العلمية، ذا تنس طاهرة زكية، شيخ شيوخنا.

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص188، ص189.

(2) ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص243.

## 13- ابن خميس التلمساني:

- حياته وشعره: هو أبو عبد الله بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن خميس الحميري الحجري الرعيني، نسبة إلى حجر ذي رعين، وهو أبو قبيلة يمنية، أمّا كنيته فهو أبو عبد الله، وكان يعرف عند معاصريه بابن خميس التلمساني والدليل على ذلك أن ابن مسقط رأسه ومعاصره ابن هدية القرشي في شرحه المعنون «بالعلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس» وفي شرحه يذكر الشاعر باسم ابن خميس أو عبد الله بن خميس يقول عنه الحديث عن محاكمة الشاعر بمدينة فاس: «وتفننوا(الفقهاء) في الكلام إلى أن أخذوا في علم الكلام استدراجاً لابن خميس... فامتد مجال الجدل بينهما(ابن خميس والشريف وأبو البركات)، فلم يكن بأسرع من أن فاس ابن خميس... وبسببه وقعت مخاطبة أبي عبد الله بن خميس أبا الفضل بن عتيق بهذه الرسالة، إذ كان أبو البركات هذا هو متولي مناظرته(ابن خميس) حال حلوله بمدينة فاس واجتيازها بها»<sup>(1)</sup>.

ولد بتلمسان عام 648هـ/1247م وقيل سنة 650هـ نشأ بتلمسان وتعلّم على علماء عصره فصار نسيج وحده زاهداً وانقباضاً وأدباً وهمةً حسن الشبهة جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع بعيداً عن الرياء، عارفاً بالمعارف القديمة مضطلعاً بتفاريق النحل، قائماً على العربية والأصليين طبقة الوقت من الشعر وفحل الأوزان من المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، حافظاً لأشعار العرب وعارفاً بأخبارهم وأقوالهم، وله مشاركات في العقلية واستشراف على الطب.<sup>(2)</sup>

ولقد صرّح الشاعر نفسه بنسبه، وافتخر به أيما افتخار سوا في شعره أم في نثره وهذا كان في رسالة قد وجهها إلى أبي الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدري مشرف مدينة فاس يومئذ يشكر فيها أبا البركات الذي سجله في ديوان الكفر والضلال عند محاكمته بمدينة فاس وفيها يذكر ويفخر بنسبه، ويقول:

(1) طاهر توات، ابن خميس التلمساني حياته وشعره، ط1، الملكية للطباعة والنشر والتوزيع، الحراش، سنة 2007، ص55.

(2) عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان، مرجع سابق، ص691.

«وإن انتسبتُ فَإِنِّي مِنْ دَوْحَةِ ❀ تَتَقِيلُ الْأُنْسَابُ بِرْدُ ظِلَالِهَا  
مِنْ حَمِيرٍ مِنْ ذِي رُعَيْنٍ مَنْ ذَرَا ❀ حِجْرٍ؛ مِنَ الْعَظَمَاءِ مِنْ أَقْيَالِهَا»<sup>(1)</sup>

«ولد شاعرنا عام 650هـ أو قبلها بقليل حسب ما ارتآه صاحب مزية المرية فكانت أسرة الشاعر أسرة فقيرة، فهذا صاحب بغية الرواد يقول بأن الشاعر كان مسكنه بيت فندق كما أن فرشه كانت من سلايخ الضأن لا غير بل حيث يورد لنا هذا النص في كتابه: «فمن أغربها ما حد ثنيه غير واحد من الثقات أن الفقيه المذكور كان مسكنه بيت فندق فرشه سلايخ الضأن لا غير»<sup>(2)</sup>.

«وهناك أيضاً دلائل غير مباشرة توحى بأنه كان من أسرة فقيرة، إذ كان شاعراً مادحاً متكسباً فهو كان يمدح ملوك بني عبد الواد كما مدح أمراء بني العزفي في سبتة وبعض سلاطين غرناطة ووزراءها منهم محمد الثالث المسمى بالملخوع، ووزيره ابن الحكيم يضاف إلى ذلك أنه كان كما وصفه الرحالة العبدري، في حالة انزواء وتغلغل من الدنيا بل كان نسيج وحده زهداً وانقباضاً»<sup>(3)</sup>.

الشاعر نفسه أشار إلى فقره، بل أشار إلى الفقر بصفة عامة؛ يقول:

«يَأْتِي ثَرَاءُ الْمَالِ عِلْمِي، وَهَلْ ❀ يَجْتَمِعُ الضِدَانُ: عِلْمٌ وَمَالٌ

ويقول:

الْفَقْرُ عِنْدِي لَفْظٌ دَقٌّ مَعْنَاهُ ❀ مِنْ رَامِهِ مِنْ ذَوِي الْغَايَاتِ عَنَاهُ  
كَمْ مِنْ غَيْبٍ بَعِيدٍ عَنْ تَصَوُّرِهِ ❀ أَرَادَ كَشْفَ مُعَمَّاهُ فَعَمَّاهُ

<sup>(1)</sup> طاهر توات، ابن خميس حياته وشعره، مرجع سابق، ص 57.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 58.

<sup>(3)</sup> المرجع نفسه، ص 59.

وفي موضوع آخر يقول:

وَأَنَا الْفَقِيرُ إِلَى تَعَلَّةٍ سَاعَةٍ ❁ وَمِنْهَا، وَتَمْنَعُنِي زَكَاةَ جَمَالِهَا».<sup>(1)</sup>

«فلقد استطاع الشاعر أن يفرض وجوده مع أبناء عصره، بل لقد تفوّق عليهم حتى سميّ فيما بعد بشيخ الأدباء».<sup>(2)</sup>

– تلامذته: «لقد تتلمذ على يده كثيرون منهم: محمد بن علي بن الفخار الجذامي الذي كانت وفاته عام 723هـ؛ والشاعر الأديب محمد بن إبراهيم بن عيشون البلفيقي وبعده عبد المهيمن الحضرمي رئيس الكتاب بالحضرة السلطانية في غرناطة أحد أصدقائه المقربين، وهذا ما جعله يروى شعره ويجمع ديوانه الذي ضاع أكثره كما كان أبو غالب المغيلي قاضي فاس أحد أصدقائه المشهورين».<sup>(3)</sup>

– ميزاته وصفاته: «وعرف عن ابن خميس أنّه كان كثير الحفظ، وافر الذكاء، حاضر البديهة ممّا أهله لتبوء المكانة التي ارتقى إليها، علماً بأنّ حفظه لم يقتصر على ما كان في عصره بل تجاوزه إلى من سبقه من فطاحل الشعراء كالمعلقات، ولامية العرب، والإمام بكثير من شعر الخنساء وحسان بن ثابت،

وشعر النقائض وشعر الأحزاب وشعر الغزل بنوعيه العفيف والإباحي، أضف إلى ذلك إلمامه بشعر العصر العباسي حيث أتى حفظاً على كثير ممّا تركه المتنبّي وأبو تمام، والبحري وأبو العلاء المعري، وهذا ما أهله لاكتساب ثقافة شاملة ومتخصصة في الآن ذاته فهو شاعر وصوفي وفيلسوف وفقه، كما كان لديه إلمام بكثير من الوقائع والأحداث التاريخية إلى جانب تبحره في الشعر والأدب كان خلوقاً متديناً زاهداً وهذا ما جعل لسان الدين بن الخطيب يصفه بأنّه: «كان

(1) طاهر توات، ابن خميس التلمساني حياته وشعره، مرجع سابق، ص 62.

(2) المرجع نفسه، ص 64.

(3) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 62.

حسن الشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، بعيداً عن الرثاء والهوى، عاملاً على السياحة والعزلة»، وكان ابن خميس دائم الترحال على غرار أنداده من المثقفين، كثير الأسفار، حيث ارتحل إلى فاس وسبتة قبل أن يستقر في غرناطة<sup>(1)</sup>.

«يعتبر ابن خميس شاعراً فحلاً متضلّعاً في الأدب والعربية كالنحو والبلاغة وفي فنون من العلم كأصول الفقه وأصول الدين والمذاهب والحكمة والمنطق والطب، وكانت في شعره دعاية ونزعة دينية تصوفية أشبه بترعة المقرّي<sup>(2)</sup>».

- آراء الآخرين فيه: قال محمد العبدري البلنسي في كتابه الرحلة العبدرية أو المغربية: «وما رأيت بمدينة تلمسان فن ينتمي إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس، وهو في السن مولده عام خمسين، وله عناية بالعلم مع قلة الراغبين فيه والمعين عليه، وحظ وافر من الأدب، وطبع فاضل في قرض الشعر، وقد أنشدنا ابن خميس كثيراً من شعره<sup>(3)</sup>».

وقال أيضاً: «بأنّه كان في حالة إنزواء، وتقلّل من الدنيا<sup>(4)</sup>».

قال لسان الدين بن الخطيب عنه في مؤلفه الإحاطة في أخبار غرناطة: «بأنّ الرجل متميز ومن بين ما كان يتميز به الزهد، وحسن السيرة، أو السلوك والهمة وبُعده عن الرياء بالإضافة إلى كلّ هذا كان على اطلاع واسع بالمعارف القديمة ومضطلعاً بتفاريق التّحل<sup>(5)</sup>» وقال أيضاً: «كان سليم الصدر، بعيداً عن الريا والهوى<sup>(6)</sup>».

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 59.

(2) عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، مرجع سابق، ص 169.

(3) محمد العبدري، الرحلة العبدرية أو المغربية، تح. أحمد بن جدو، (د.ط)، نشر كلية الآداب، جامعة الجزائر، سنة 1964، ص 11.

(4) المصدر نفسه، ص 12.

(5) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م 2، مصدر سابق، ص 528.

(6) المصدر نفسه، ص 529.

قال عبد الرحمن بن خلدون أخبرنا بأنه: « كان لا يجارى في البلاغة والشعر». <sup>(1)</sup>

وتحدث عنه ابن خاتمة الأنصاري في كتابه « مزية العربية على غيرها من البلاد الأندلسية» وقال: «كان من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء حافظاً لأشعار العرب». <sup>(2)</sup>

قال لسان الدين بن الخطيب: « قائماً على العربية والأصلين، طبقة الوقت من الشعر وفحل الأوزان في المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب». <sup>(3)</sup>

قال ابن هدية القرشي: «... كذلك لعمرى كل ما تقدّم من قوله جرى هذا المجرى، إلى أن يقول فأنت ترى ما في كلام ابن خميس هذا من القحة والجرأة على معاطاة الرفقة التي ناطته بمناط الخمول والضعة على أنه لم يقف هنا ولا جعله حدّه، بل أضرب عنه...». <sup>(4)</sup>

– آثاره: العالم الأديب الأريب العالم المشهور الحامل راية المنظوم والمنثور، يعدّ من فحول الشعراء وأعلام البلغاء، أثني عليه كثيراً في نفح الطيب وأزهار الرياض وذكر كثيراً من شعره من ذلك قصيدته التي أولها:

عَجَبًا لَهَا أَيْذُوقُ طُعْمَ وَصَالِهَا ❁ من لَا يُؤْمِلُ أَنْ يَمُرَّ بِبَابِهَا. <sup>(5)</sup>

«ولابن خميس ديوان جمعه أبو عبد الله القاضي محمد بن إبراهيم الحضرمي سمّاه "الدّر النفيس في شعر ابن خميس"، لكن هذا الديوان مفقود، وقام عبد الوهاب بن منصور بعد ذلك بجمع كثير من قصائد الشاعر سماها "الدّر النفيس من شعر ابن خميس" وله رسالتان نثريتان». <sup>(6)</sup>

<sup>(1)</sup> ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م7، مصدر سابق، ص832.

<sup>(2)</sup> محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص63.

<sup>(3)</sup> ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، مصدر سابق، ص341.

<sup>(4)</sup> طاهر توات، ابن خميس التلمساني حياته وشعره، مرجع سابق، ص57.

<sup>(5)</sup> ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، مصدر سابق، ص308.

<sup>(6)</sup> محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص62.

- وفاته: «شاعر المائة السابعة مات قتيلاً بغرناطة ضحوة يوم عيد الفطر عام 708هـ/14 مارس 1309م؛ طعنه الرئيس علي بن نصر الشهير بالأبكم فأصماه وذلك أثر الانقلاب الحكومي الذي أودي بصديق ابن خميس الوزير ابن الحكيم ومن غرائب الاتفاق وعجائب الصدف ما يقال أن الوزير «ابن الحكيم» كان قد اقترح على ابن خميس نظم قصيدة هائية الروى، فنظم مطلعها:

لِمَنْ الْمَنَازِلُ لَا يُجِيبُ هَوَاهَا ❀ مُحِيتْ مَعَالِمُهَا وَصَمَّ صَدَاهَا !

وكان الشاعر هنا نعاه ونعى نفسه معه فيه، وكان ذلك آخر شهر رمضان، وما كادت شمس يوم العيد تذكو وتحسر قناعها، إلا وهما مقتولين معاً - رحمهما الله - فكان هذا البيت آخر ما صدر عنه من الشعر».<sup>(1)</sup>

- الأعمال التي تقلدها: تذكر المصادر بأن الشاعر قد تولّى رئاسة ديوان الإنشاء في أيام السلطان أبي سعيد بن يغمراسن والشاعر ابن خميس كان يدافع عن بني زيان أو هو من الحزب العبد الوادي وفي هذا يقول:

«دَافَعْتُ عَنْهُمْ بِشِعْرِي انْتِصَارًا ❀ فَكَانَ الْجَزَاءُ جَلَايَ الْمُتَاحَا».<sup>(2)</sup>

«كما كان يهوى التعليم، ويفضله على غيره من المناصب، ولو كانت مناصب سياسية».<sup>(3)</sup>

- منهجه وطريقته: «إن ابن خميس كان شاعراً تقليدياً أو كلاسيكياً، إذ لم يخرج عن مألوف القصيدة العربية في الشكل وتارة في المضمون». تأثر ابن خلدون بثقافة الإغريق عامة وبكتابات أرسطو بشكل خاص وكان لمعلمه الآيلي الأثر الواضح في اتباع ابن خلدون منهج شيخه الذي يتمثل في الابتعاد عن الدراسة النظرية واتباع الأسلوب العلمي. فمثلاً المنهج المتبع في تحليل الظواهر

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص240.

(2) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، مرجع سابق، ص240.

(3) طاهر توات، ابن خميس حياته وشعره، مرجع سابق، ص68.

الاجتماعية على معرفة الروابط بين الأسباب والمسببات وتقوم أيضاً على الملاحظة والتحليل والتفكير ثم التوصل إلى النتيجة.

- خطابه الشعري: من هذه الأغراض نذكر:

■ الحنين إلى تلمسان.

■ مظاهر الطبيعة.

■ الزهد.

■ التصوف.

■ المدح.

■ الفخر.

■ الغزل.

1. الحنين إلى تلمسان: يأتي هذا الغرض في طليعة الأغراض الشعرية التي تستقطب اهتمام الدارس أو الباحث في أدب ابن خميس ولاسيما في الخطاب الشعري؛ فتلمسان موطن السحر والجمال بما تحويه من مناظر طبيعية فتانة، وما تزدان به من بيئة طبيعية تحفها وتحيط بها من جوانبها المختلفة، فلا غرابة أن يصف الشاعر ويتألق في الوصف، ويحن ويحترق في الحنين.

فقال:

- |   |                                                 |   |                                                         |
|---|-------------------------------------------------|---|---------------------------------------------------------|
| 1 | تِلْمَسَانُ لَوْ أَنَّ الزَّمَانَ بِهَا يَسْخُو | ❁ | مُنَى النَّفْسِ لَا دَارُ السَّلَامِ وَلَا الْكَرْخُ    |
| 2 | وَدَارِي بِهَا الْأُولَى الَّتِي حِيلَ دُونَهَا | ❁ | مَنَارُ الْأَسَى لَوْ أَمَكْنَ الْحَنِقَ اللَّبْخُ      |
| 3 | وَعَهْدِي بِهَا وَالْعُمُرُ فِي عُنُقَوَانِهِ   | ❁ | وَمَاءُ شَبَابِي لَا أَجِينُ وَلَا مَطْخُ               |
| 4 | قَرَارَةَ تَهْيَامٍ، وَمَغْنَى صَبَابَةٍ        | ❁ | وَمَعْدُ أَنْسٍ لَا يَلْذُ بِهِ لَطْخُ                  |
| 5 | مَعَاهِدُ أَنْسٍ عَطَلَتْ فَكَانَهَا            | ❁ | ظَوَاهِرُ أَلْفَاظٍ تَعَمَّدها النَّسْخُ <sup>(1)</sup> |

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص 65، ص 66.



فهو يعدّ جوانبها الإيجابية التي توحى كلّها بالهيام بها، والذّوبان في محاسنها، والإقبال عليها؛ لأنّ في الحديث عنها تنفيساً عن كربهِ.<sup>(1)</sup>

**2-مظاهر الطبيعة:** ابن خميس مع كيان المظاهر الطبيعية، وانغمس بمناظرها الخلابة، فوصفها وصفاً دقيقاً فوصف النرجس والشلالات والأقحوان وغيرها.

«ومن المظاهر التي لمسناها في إبداعه ما قاله واصفاً الوريث ضمن قصيدة تلمسان:

|                                 |   |                                                |
|---------------------------------|---|------------------------------------------------|
| وإنّ أنسَ لا أنسَ الوريثَ ووقفة | ✽ | أنافحُ فيها روضه وأفاوحُ                       |
| مُطلاً على ذاك الغدير وقد بدتْ  | ✽ | لإنسانٍ عيني من صفاه صفائحُ                    |
| لئن منّت ملأنا بدمعي طافحا      | ✽ | فإني سكرانٌ بحبك طافحُ                         |
| قراحٌ أتى ينصبُّ من رأسٍ شاهقٍ  | ✽ | بمثل حلاه تستحثّ القرائحُ                      |
| أرقُّ من الشوقِ الذي أنا كاتمٌ  | ✽ | وأصفي من الدمع الذي أنا سافحُ». <sup>(2)</sup> |

انبهار الشاعر من شلالات الوريث وانغماسه في وصفها بأحلى صورة بغية من الشوق فالشاعر يوضح ويؤكد لنا أنّ هذا المظهر الطبيعي من رؤيته لشلالات الوريث لا مثيل له من السحر والإبداع الإلهي.

**3-الغزل:** لقد حفل شعر ابن خميس بالغزل - وإن لم يكن منه - وورد معظمه في غضون القصائد الأخرى؛ ولكن ما وجد منه كان غاية في الدقة والوصف الجميل، والتفوذ إلى محاسن المحبوبة، يقول:

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِمِثْلِ عَيْنِي جُودِرُ ✽ وَتَبَسَّمتُ عَنْ مِثْلِ سَمَطِي جَوْهَرُ  
عَنْ ناصِعٍ كَالدَّرِّ أَوْ كَالْبَرْقِ أَوْ؛ ✽ كَالطَّلَعِ أَوْ كَالأُقْحَوَانِ مُؤَشِّرُ.<sup>(3)</sup>

(1) أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، مصدر سابق، ص.370، ص.371.

(2) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص.68.

(3) أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج7، مصدر سابق، ص.92.

4-المدح: كما أن الشاعر بصفته تلمسانيا عاش تحت ظلّ حكم الزيانيين ولاحظ تصرفاتهم التي كانت تتماشى مع أمانيه ومطامحه؛ فراقه ذلك وهزّ أريجته، وفجّر شاعريته؛ فأطلق العنان لنفسه متغنياً بهم في صدق وإعجاب:

- |   |                                            |   |                                                            |
|---|--------------------------------------------|---|------------------------------------------------------------|
| 1 | لَوْلَا بَنُو زِيَانٍ مَا لَذِي الْـ       | ✽ | عَيْشُ وَلَا هَانَتْ عَلَيَّ اللَّيَالِ                    |
| 2 | هُمْ خَوَّفُوا الدَّهْرَ، وَهُوَ خَفَّفُوا | ✽ | عَلَى بَنِي الدَّهْرِ خَطَاهُ الثَّقَالِ                   |
| 3 | لَقَيْتُ مَنْ عَامَرَهُمْ سَيِّدَا         | ✽ | عُمُرُ رِذَاءِ الْحَمْدِ جَمَّ النَّوَالِ                  |
| 4 | وَكَعْبَةِ الْجُودِ مَنْصُوبَةٍ            | ✽ | يَسْعَى إِلَيْهَا النَّاسُ مِنْ كُلِّ بَالِ                |
| 5 | خَذَهَا أَبَا زِيَانٍ مِنْ شَاعِرٍ         | ✽ | مُسْتَمْلِحُ النَّزْعَةِ عَذْبُ الْمَقَالِ                 |
| 6 | يَلْتَفِظُ الْأَلْفَافَ لَفْظَ النَّوَى    | ✽ | وَيُنْظِمُ الْأَلَاءَ نَظْمَ اللَّالِ                      |
| 7 | مُجَارِيًا مَهْيَارَ فِي قَوْلِهِ          | ✽ | «مَا كُنْتُ لَوْلَا طَمَعِي فِي الْخِيَالِ» <sup>(1)</sup> |

5-الفخر: إن غرض الفخر يطغى على قصائده؛ يقول:

وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنْ أَقِيمَ بِلَدَةٍ ✽ يَوْمًا، وَأُسَلِّمَ مَنْ أَدَى جُهَاْلَهَا  
شَغَلُوا بِدُنْيَاهُمْ، أَمَّا شَغَلَتْهُمْ ✽ عَنِّي، فَكَمْ ضَيَّعْتُ مِنْ أَشْغَالِهَا.<sup>(2)</sup>

6-الزهد: لقد طبعت حياة الشاعر طبيعة الزهد في الدنيا ولاسيما بعد نزوحه عن مدينته، وبعد أن فارق الأخلاء والأحباب. ويتجلّى قوله ناصحاً لغيره ورغباً إياه عن الدنيا:

فَلَا تَرْجُ مِنْ دُنْيَاكَ وَدًّا وَإِنْ يَكُنْ ✽ فَمَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ ظِلِّ سَحَابٍ  
وَمَا الْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ إِلَّا اجْتِنَابُهَا ✽ فَأَشْقَى الْوَرَى مِنْ تَصْطَفِي وَتُحَابِي.<sup>(3)</sup>

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص72.

(2) المرجع نفسه، ص73.

(3) أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج7، مصدر سابق، ص288.

## 7- التصوف:

ابن خميس الذي زهد في الدنيا إلى درجة تطليقها بعد أن علم بخباياها وتذوق حلوها ومرّها، فانعكس أثر ذلك كلّ على حياته الخاصّة قبل أن يسيل على حواشي قصائده الكثيرة التي كثيراً ما كان يحلّيها بطائفة من أفكار صوفيّة في بيت أو أكثر، بيد أن الشّعر الصّوفيّ عنده جاء بالجا استقلّت به مطوّلته التي اشتهر بها كما اشتهر امرؤ القيس بمعلّته «قفا نَبْكَ» لأنّها مليئة بتخيّلات متسامية قلّما يدركها المتلقّي العادي الذي لم يحاول أن يعايش الفكر الصّوفيّ أو يقترب من صفاته.

ويقول في بيت آخر:

أَبْعَدَ صِيَامِي وَاعْتِكَافِي وَخُلُوتِي ❀ يُقَالُ فَلَانٌ ضَيِّقُ الصَّدْرِ نَائِحٌ.<sup>(1)</sup>

❖ الخصائص الفنية:

## أ- لغته وأسلوبه:

«إنّ لغة الشاعر ابن خميس وأسلوبه تتبع الأغراض أو هي وليدة الأنماط التي يخوض فيها، فهي في غرض المدح والفخر تتسم بالجزالة والضحامة، وهي في الغزل والحنين تتسم بالعدوبة والسلاسة، وتكاد قصائده التي وصلت إلى أيدينا تسير على نمط واحد؛ وذلك من حيث اللفظ والأسلوب، ولعلّ هذا أيضاً راجع إلى صفاته الخلقية فكان الرجل متحلّياً بالصمت كما كان وقوراً، وإلى ثقافته الواسعة ولاسيما الفلسفية والصوفية منها وأعني بذلك أنّ عواطفه لم تكن لتطغى عليه كثيراً، وإنّه لم يكن شاعراً متصنعاً بمعنى الكلمة، فأما الألفاظ الغريبة التي كان يأتي بها فإنّما كانت تعود في نظرنا إلى تضلعه في اللغة بالإضافة إلى ميله للغريب ذلك المبدأ الذي لا يكاد يجيد عنه فيتبعه في كلّ قصيدة، وقد دافع الشاعر عن مذهبه هذا بقوله:

(1) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مرجع سابق، ص76.

ما ذاق طَعْمَ بلاغةٍ ❀ من ليس للحوشيِّ ماضٍ<sup>(1)</sup>.

«وقد حكم عليه ابن الخطيب من قبل بأنّه» كان أقدر النَّاس على اجتلاب الغريب» وهذه الألفاظ الغريبة التي كان يأتي بها الشاعر لم تكن لتخلّ بمعانيه وأسلوبه، بل كانت تزيده رونقاً وجمالاً، وقدرة فائقة على التصرف في اللغة، ولعلّ هذا يرجع إلى سمة التوليد أو الاشتقاقات الكثيرة، ووضع كل لفظ في مكانه المناسب وهي مهارة لغوية عرف بها ابن خميس، ويجدر بنا أن نأخذ بعض الأمثلة عن هذا الغريب وذلك قصد الإستدلال والتوضيح، فيقول في تشوقه إلى تلمسان:

وَلَمْ أَطْرُقْ الدَّيْرُ الَّذِي كُنْتُ طَارِقًا  
بَلِيلٍ، وَبَدْرِ الأفقِ أَسْلَغَ مَسْنَاءَ  
أَطِيفُ بِهِ حَتَّى تَهْرُ كِلَابُهُ  
وَقَدْ نَامَ عَسَّاسٌ وَهَوَّمَ سَيَّاءُ<sup>(2)</sup>.

«إنّ ابن خميس قلّد الشعراء العباسيين أسلوباً ومضموناً، وشعره في بعض الأحيان إن لم نقل في الغالب يشبه شعر بشار بن برد، وأبي نواس، والبحري، وابن الرومي، والمتني، وأبي فراس، ومعنى هذا فألفاظه وتعايره هي ألفاظ وتعاير المتني في ضخامتها وقوتها، وصوره هي صور البحري وأخيلته في الوصف، بالإضافة إلى كلّ هذا أنّ ابن خميس كان فيلسوفاً وصوفياً له فكر الفيلسوف والصوفي إذ كانت له مشاركة في العقليات على حد تعبير ابن خاتمة الأنصاري، ولهذا وجدنا عند الشاعر هذه الألفاظ العلمية التي تظهر جليلة وواضحة حين عدّد بعض مثالب الدنيا وغيرها، يقول:

مَثَالِبُ مِثْلِ الرَّمْلِ لَا تَقْلُ إِنَّهَا ❀ تُعَدُّ فَتَحْوِيهَا ضُرُوبُ حِسَابٍ<sup>(3)</sup>.

(1) طاهر توات، ابن خميس التلمساني حياته وشعره، مرجع سابق، ص 282.

(2) لابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 2، مصدر سابق، ص 529.

(3) طاهر توات، ابن خميس حياته وشعره، مرجع سابق، ص 292.

ب- الصنعة الفنية:

«هذا وعلى الرغم من تنوع الصنعة الفنية التي استخدمها الشاعر من طباق وجناس وغيرهما، فإنّ هذا لم يؤثر في معانيه، وسلاسة أسلوبه، وكأنّ الشاعر جاء بها عفويًا فلم يبذل أي مجهود في يذكر، ومن المعلوم أنّ الجناس وغيره وغالبًا ما يؤدي إلى التعقيد إذا كان مقصودًا لذاته، ويليق بنا في هذا المجال أن نأتي بقول ابن خلدون في حكمه على الشاعر بأنّه: «كان لا يجارى في البلاغة والشعر»، ولقد أشرنا من قبل بأنّه كان يأتي بالألفاظ الغربية ولعلّ هذا راجع إلى تضلعه في اللغة العربية وآدابها، وابن خميس لا يلام على هذا الغريب أو على هذه الألوان من الصنعة الفنية المتمثلة في علم البديع وغيره، ومن الراجح أنّه كان مهتمًا بها، ولهذا راح يذكرها ويعددتها حتى في آثاره الشعرية، يقول:

سَحَّتْ بِسَاحِكِ يَا مَحَلَّ الْأَدْمُعِ ❁ وَتَضَرَّمَتْ أَسْفًا عَلَيْكَ الْأَضْلُعُ<sup>(1)</sup>.

ج- الموسيقى الشعرية:

«إنّ استخدام الشاعر، ولجوءه إلى الألوان الفنية من طباق، وجناس، وكذلك اختياره للألفاظ، وتكرارها على وزن واحد أو وزنين أو ثلاثة كما يظهر من قصيدته الحائية هذا بالإضافة إلى عاطفته الصادقة التي كان لها أثرها الواضح في التركيب الداخلي لموسيقا شعره، كل ذلك كان واضحًا في شعر ابن خميس، وللاستدلال على ذلك نأتي ببعض الأبيات التي تبين دعوانا هذه، يقول:

يَطِيرُ فُؤَادِي كُلَّمَا لَاحَ لَامِعُ  
وَيَنْهَلُ دَمْعِي كُلَّمَا نَاحَ صَادِحُ  
فَفِي كُلِّ شَفَرٍ مِنْ جُفُونِي مَاتِحُ  
وَفِي كُلِّ شَطْرِ مِنْ فُؤَادِي قَادِحُ

(1) طاهر توات، ابن خميس حياته وشعره، مرجع سابق، ص 297.

خَلِيلِي لَا طَيْفَ لِعُلُوءَةِ طَارِقُ  
 بَلِيلٍ وَلَا وَجْهَ لَصُبْحِي لَائِحُ  
 نَظَرْتُ فَلَا نُورُ مِنَ الصُّبْحِ ظَاهِرُ  
 لِعَيْنِي وَلَا نَجْمُ إِلَى الْغَرْبِ جَانِحُ  
 فَطَرَفِي عَلَى تِلْكَ الْبَسَاتِينُ سَارِحُ  
 وَطَرَفِي عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينُ جَامِحُ  
 لِّئِنْ كُنْتُ مَلَأْنَا بَدْمَعِي طَافِحَا  
 فَإِنِّي سَكْرَانٌ بِحُبِّكَ طَافِحُ  
 وَإِنْ كَانَ مُهْرِي فِي تِلَاعِكَ سَائِحَا  
 فَذَاكَ غَزَالِي فِي عِبَابِكَ سَابِحُ  
 قِرَاحُ غَدًا يَنْصَبُ مِنْ فَوْقِ شَاهِقُ  
 بِمِثْلِ حَالَةٍ تَسْتَحْثُ الْقَرَائِحُ  
 أَرْقُ مِنَ الشَّوْقِ الَّذِي أَنَا كَاتِمُ  
 وَأَصْفَى مِنَ الدَّمْعِ الَّذِي أَنَا سَافِحُ.

ويكاد في قصيدته تلك أن يأتي كل قافيتها على وزن اسم الفاعل الذي يحمل بدوره بعض خصائص فعله، ولعلّ اشتراك أو اقتراب الألفاظ في الحروف، وفي الميزان الصوتي، وتكرار الصوت الذولقي لللام، والصوت المهموس للحاء، ساعد على التوافق الموسيقي الانسيابي لهذه الأبيات<sup>(1)</sup>.

(1) طاهر توات، ابن خميس حياته وشعره، مرجع سابق، ص 325، ص 326.

د- الأوزان والقوافي:

«يبدو أنّ ابن خميس لم يخرج عن البحور الشعرية التي اكتشفها الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهذا فيما وصل إلى أيدينا من شعره، ولكن حسب تفننه وإطلاعه الواسع في الشعر العربي فإننا نرجح بأنّه تناول بحوراً أخرى غير التقليدية التي تحدثنا عنها.

أمّا البحور التي استخدمها الشاعر فهي البحور المتداولة مثل البحر الطويل، والكامل، والوافر، والبسيط، والسريع، والمتقارب، ومجزوء الكامل، إلّا أنّ البحر الطويل والكامل أخذتا نصيب الأسد، فأكثر من سبعين وثلاثمائة (370) بيت جاء بها الشاعر على البحر الطويل، وأكثر من خمسين ومائتي بيت (250) جاء بها على البحر الكامل، وهناك ثمانون بيتاً جاء بها على البحر المتقارب، وخمسون بيتاً على البحر السريع، ولقد استخدم الشاعر البحر الطويل من جهة أخرى في القصائد الطوال، والمتوسطة، والقصار، وحتى في البيتين كما استخدم البحر الكامل في القصائد الطوال، والمتوسطة، وفي البيتين والبيت، وأمّا البسيط، والوافر فاستخدمهما في البيتين والبيت الواحد»<sup>(1)</sup>.

«وكان الشاعر قد نظم قوافيه بكثرة في الحاء، والهمزة، والتاء، والجيم، والكاف، واللام، والهاء، والعين، والميم، والباء، وبقلة قليلة في شكل بيت وبيتين في السين، والنون، والراء، كما جاء بقصيدتين على حرف الهاء، وبقصيدتين على حرف الدال، وبقصيدتين على حرف اللام»<sup>(2)</sup>.

(1) طاهر توات، ابن خميس حياته وشعره، مرجع سابق، ص 334.

(2) المرجع نفسه، ص. 335.

## هـ- مزلته الشعرية:

«حكى الرحالة العبدري حين التقى مع ابن خميس بتلمسان أنه كان قد أنشده الكثير من أشعاره كما تناقشا في الميادين الأدبية، واللغوية، ومن تلك القصائد التي أنشدها ابن خميس على العبدري قصيدته البائية التي مطلعها:

أُبِتُّ وَلَكِنْ بَعْدَ طُولِ عِتَابٍ  
وَبَعْدَ لَجَاجٍ ضَاعَ فِيهِ شَبَابِي  
وَمَا زِلْتُ وَالْعَلِيَّا تُغْنِي غَرِيمُهَا  
أُعَلِّلُ نَفْسِي دَائِمًا بِمَتَابٍ  
وَهِيَهَاتَ مَنْ بَعْدَ الشَّبَابِ وَشَرْحِهِ  
يَلِدُ طَعَامِي أَوْ يَسُوغُ شَرَابِي»<sup>(1)</sup>

«وكان حكم العبدري على هذه القصيدة بقوله للشاعر ابن خميس بأنها: «مهدبة الألفاظ، والمعاني، وألذ من نغمات المثلث والمثنوي»<sup>(2)</sup>.

(1) أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج7، مصدر سابق، ص286.

(2) العبدري، الرحلة العبدرية أو المغربية، مصدر سابق، ص14.



خاتمة

يعدّ المغرب العربي إشعاع حضاري في شتى نواحي الحياة - السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية - ولاسيما الحياة الثقافية التي برزت بشكل خاص فكانت منبع العلم والعلماء، ومن بين النتائج المتوصل إليها:

- إعجاب رواة المغرب من حاضرة القيروان خاصة من موقعها، فقد كان محط اهتمامهم وفي أناشيدهم الشعرية.
- إسهاب وإطناب الشعراء والأدباء في وصف القيروان وذكر فضائلها ومفاتها كأمثال الإدريسي والدّباغ.
- عدّت القيروان من أزهى عواصم العالم العربي في القرن السادس للهجرة إلى جانب دمشق والكوفة وقرطبة
- كانت القيروان هي العاصمة الدينية والسياسية لإفريقية إبان نشأتها فقد شهدت عدّة وقائع حربية وتطورات تاريخية في عهود مختلفة.
- تنوّع محاصيل القيروان وغنائها، كما ازدهر النشاط الاقتصادي بها بعد تعمير الحفصيين فيها، فقد وجدت بها الثروة المائية.
- وجود عدّة فئات مع الأجناس كالعرب والبربر وفئات أخرى واليهود.
- تكوّن المجتمع الحفصي من عدّة قبائل منهم الرّحل وشبه الرّحل.
- انقسام المجتمع الحفصي إلى طبقات منها طبقة الحكام والتّجار وطائفة المثقفين وأصحاب الحرف والجنود النظاميين.
- ظهر في الساحة القيروانية عدّة مدارس ومكتبات ومساجد وزوايا ودواوين أسسها كبار رجال الفكر والعلم في قصور الأمراء.
- حرص المسلمون على دراسة فنون اللّغة العربية فظهر عدد من خيرة الأعلام سواء في العلوم العقلية أم النقلية.

- تكتسب حاضرة فاس أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي بصفة عامة؛ وتاريخ المغرب الأقصى بصفة خاصة.
- شهد المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين فترة مزدهرة حيث نشأت في أرضه أضخم دولتين في التاريخ الإسلامي هما الدولتين المرابطية والموحدية.
- شهد مجتمع مدينة فاس في عهدي المرابطين والموحدين تنوعاً في طبقاته وطوائفه نتيجة للظروف السياسية والاتجاهات الدينية والفكرية.
- وجود عدد الهجرات الاستيطانية قرابة الثمانين هجرة من مختلف المدن الأندلسية.
- وجود العديد من الهجرات كانت من أجل طلب العلم.
- لقد نالت بجاية حظ وافراً في كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين نظراً لمكانتها كعاصمة علم وثقافة ومعرفة.
- كانت مدينة بجاية مصدر إلهام الشعراء والأدباء والرحالة، كما شجّع كل خليفة كان يرأسها ويقدم لهم العطايا والأموال.
- تأثير المجتمع الأندلسي بحاضرة تلمسان في شتى الجوانب العمرانية والاقتصادية وأكثرها العلمية.
- وجود فئات عديدة من الطبقات الاجتماعية والأجناس.
- شهدت حاضرة تلمسان حياة ثقافية وعلمية واسعة، امتد تأثيرها وإشعاعها إلى المدن والعواصم الإسلامية.
- اهتمام السلطان يغمراسن بن زيان بالحركة الثقافية، وكان أول من شجع الحالة الفكرية.
- استدعاء السلاطين أشهر المدرسين الأكفاء ومحاولة استقطابهم داخل تلمسان للتدريس بها.
- إنشاء مجموعة من المدارس والمساجد ليُقام بها التدريس والحلقات والزوايا.
- وجود عائلات أندلسية عرفت بالعلم، وبروز أعلام نشطوا في الساحة الفكري.

## قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- 01 - القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- 02 - الإدريسي، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ط1، عالم دار المعرفة، الرباط، 1989م.
- 03 - الأثير، أبو الحسن، عز الدين علي بن الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني، الكامل في التاريخ، ج1، (د.ط)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 1967م.
- 04 - (—، —)، الكامل في التاريخ، ج3، (د.ط)، المكتبة الأزهرية، القاهرة، 1301هـ.
- 05 - الإدريسي، أبو عبد الله الشريف، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق واختراق الآفاق، تحقيق إسماعيل العربي، ج1، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
- 06 - (—، —)، وصف إفريقية الشمالية والصحراوية، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق واختراق الآفاق، وقد اعتنى بتصميمه هنري بيرس، (د.ط)، (ب.د.ن)، الجزائر، 1957م.
- 07 - الإصطخري، ابن إسحاق، إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، مسالك الممالك، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1927م.
- 08 - الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر، روضة السرّين في دولة بني مرّين، (د.ط)، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، 1962م.
- 09 - بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الله، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، ج2، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989م.

- 10- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، (كان حيًّا في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري)، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق بروفنسال، (د.ط)، (ب.د.ن)، باريس، 1928م.
- 11- بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللّواني الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظر في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، (د.ط)، دار الكتب العلمية، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، بيروت، لبنان، مكة المكرمة، (د.ت).
- 12- بكر، المالكي، أبو عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق حسين مؤنس، ج1، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951م.
- 13- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم التجاني، الرحلة، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، المجلد 1، (د.ط)، (ب.د.ن)، تونس، 1957م.
- 14- التنبكي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الدياج، ط1، مطبعة الفحاميين، مصر، 1351م.
- 15- جلال الدين عبد الرحمن، السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، ط1، مطبعة عيسى الحابي الحلبي وشركاه، الجزائر، 1964م.
- 16- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن ثغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدّم له وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، ج1، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 17- الجزري، شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد، غاية النهاية في طبقات القراء، ج2، (د.ط)، نشر برجشتراسر، مطبعة السعادة، مصر، 1923م.

- 18- الحميري، أبو عبد الله، محمد بن عبد المنعم السبتي، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.
- 19- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسنطيني، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج1، (د.ط)، وكالة المعارف، إسطنبول، 1360م.
- 20- (—، —)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج1، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- 21- الحافظ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام المراسي، ج2، (د.ط)، دار الفكر، (د.ب.ن)، 1995م.
- 22- الحاج، محمد بن محمد المالكي الفاسي، المدخل، المجلد 1، ج1، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة، 1981م.
- 23- حجر، أحمد بن علي بن حجر الكتاني العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل، الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد عاد الحق، ج1، (د.ط)، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ت).
- 24- حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م.
- 25- خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، (د.ط)، الفكر العربي للطباعة، بيروت، 2007م.
- 26- (—، —)، المقدمة، ط4، دار القلم، بيروت، 1981م.
- 27- الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب التلمساني، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ج3، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م.

- 28- (—، —)، تاريخ المغرب العربي، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعمال، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، (د.ط)، نشر وتوزيع دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.
- 29- (—، —)، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، (د.ط)، (ب.د.ن)، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 30- خلكان، أبو العباس، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، نشره محمد الدين عبد الحميد، ج3، (د.ط)، (ب.د.ن)، القاهرة، 1948م.
- 31- دحية الكلبي، المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، (د.ط)، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1954م.
- 32- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قيمان، شمس الدين أبو عبد الله، سير أعلام النبلاء، جماعة من المحققين، ج2، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402هـ
- 33- (—، —)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ج19، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م.
- 34- الرقيق، أبو إسحاق إبراهيم القاسم القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم، محمد عزب، ط1، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، 1994م.
- 35- رشيق القيرواني، حسن بن رشيق القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمعه وحققه محمد العروسي المطوي وبكوش بشير، (د.ط)، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، تونس، 1986م.
- 36- زيد، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي الدّباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلّق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ج1، (د.ط)، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت).



- 37- الزبير، ابن أبي جعفر أحمد العاصمي الغرناطي، صلة الصلة البشكوالية، صححه وعلق عليه ليفي بروفنسال، ج7، (د.ط)، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1937م.
- 38- زرع، علي بن عبد الله الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط2، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م.
- 39- (—، —)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، ط1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 — 1982م.
- 40- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج11، (د.ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).
- 41- سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط1، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1970م.
- 42- (—، —)، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط، (د.ط)، (ب.د.ن)، تطوان، 1958م.
- 43- (—، —)، الغصون الياصرة في شعر المائة السابعة، تحقيق محمد الأبياري، ج1، (د.ط)، دار المعارف، مصر، (د.ت).
- 44- (—، —)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ج2، ط3، دار المعارف، (د.ب.ن)، 1980م.
- 45- الضياف، ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الزمان، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، ج1، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1963م.

- 46- عزّ الدين الأثير الجوزي، أبي الحسن علي بن أبي بكر بن محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد، اللّباب في تهذيب الأنساب، ج1، (د.ط)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).
- 47- عبد الرحمن بن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، سبعة أجزاء، (د.ط)، دار الكتب العلمية الوطنية للكتاب، الجزائر، (1985-1992-1961م).
- 48- عبد الواحد المراكشي، محي الدين محمد بن عبد الواحد بن علي التميمي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2008م.
- 49- (—، —)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق محمد سعيد العريان، (د.ط)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1963م.
- 50- عبد الله الترجمان الميورقي، أبي محمد عبد الله، تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب، تحقيق عمر وفيق الداعوق، ط1، دار البشائر الإسلامية للطباعة، بيروت، 1988م.
- 51- عمري، أحمد بن يحيى، شهاب الدين ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تقديم حمزة أحمد عبّاس، ج3، (د.ط)، (ب.د.ن)، أبو ظبي، الإمارات، 2002م.
- 52- عبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد الحياحي، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، (د.ط)، (ب.د.ن)، الرباط، 1968م.

- 53- علي الجزنائي، أبو الحسن علي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط2، مؤرخ المملكة عضو أكاديمية المملكة المغربية، المطبعة الملكية، الرباط، 1991م.
- 54- عبد الصمد كنون، جني زهرة الآس في شرح نظم عم لفاس، (د.ط)، مطبعة الشروق، مصر، (د.ت).
- 55- عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات فاس، تحقيق د. علي بن المنتصر الكتاني، ج1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002م.
- 56- عبد الله محمد بن أحمد، بن قاسم العقباني التلمساني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، نسخة الخزنة العامة، الرباط، ك 691.
- 57- عباس، أحمد بن بد الله الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة، تحقيق رابع بونار، ط2، دوائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984م.
- 58- عباس، أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج1، (د.ط)، دار النضال، الدار البيضاء، 1954م.
- 59- (—، —)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م.
- 60- عُبَيْد، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، (د.ط)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1857م.
- 61- عذارى، أبو العباس أحمد بن علي المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان بروفنسال، ج1، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1982م.

- 62- (—، —)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4، ط3، المكتبة الأندلسية، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1983م.
- 63- (—، —)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن باويت، محمد زبير، عبد القادر زمامة، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985م.
- 64- عبد الله الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت).
- 65- عبد الله، بن محمد بن أحمد بن الشّماع، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، (د.ب.ن)، 1984م.
- 66- عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عبّاس، السفر الأوّل والخامس، القسم الأوّل والثاني، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، 1964 - 1965م.
- 67- فرحون، القاضي إبراهيم بن علي بن محمد بن نور الدين المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج1، (د.ط)، دار السلام، المدينة، 1972م.
- 68- (—، —)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحدي أبو النور، ج2، ط2، مكتبة دار التراث، القاهرة، 2005م.
- 69- قلقشندي، أبو العبّاس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، نهاية الأرب في معرفة لسان العرب، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1984م.
- 70- (—، —)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، ج3، ج5، (د.ط)، وزارة الثقافة والإرشاد العربي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، (د.ب.ن)، (د.ت).

- 71- (—، —)، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد خراج، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1980م.
- 72- قاسم مخلوف، الشيخ محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرّج حواشيه عبد المجيد خيالي، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- 73- قصادي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الأندلسي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأحنان، (د.ط)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.
- 74- قنفذ، أبو العبّاس أحمد بن الخطيب القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1956م.
- 75- (—، —)، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، (د.ط)، مؤسسة نويهض الثقافية، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1982 — 1971م.
- 76- (—، —)، أنس الفقير وعز الحقيّر، نشره محمد الفاسي وأودلف فور، (د.ط)، المركز الجامعي، مطبعة أكران، الرباط، 1965م.
- 77- قاضي، أبو العبّاس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج1، (د.ط)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.
- 78- قاسم محمد الحفناوي الديسي بن إبراهيم الغول، تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسيني، ج1، (د.ط)، موقم للنشر، الجزائر، 1951م.
- 79- كتاني، الشريف أبي عبد الله بن محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني،

- حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، ج1، (د.ط)، المطبعة الأحرجية، دار الثقافة، فاس، الدار البيضاء، 1990 — 2004م.
- 80- مراكشي، أبو الفضل عباس محمد بن إبراهيم، الإعلام بما حلّ بمراكش وأغماث من الأعلام، (د.ط)، المطبعة المالكية، الرباط، 1993م.
- 81- محمد بن شاكر بن أحمد، الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- 82- محمد بن عبد الله التنسي، بن عبد الجليل الحافظ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان «مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان»، حققه وعلّق عليه محمود آغا بوعباد، (د.ط)، موقم للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 — 2011م.
- 83- محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المعروف بابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحبة، (د.ب.ن)، 1286م.
- 84- مقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الشامي المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (د.ط)، مكتبة خياط، بيروت، (د.ت).
- 85- محمد بن محمد الأندلسي، الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ج1، القسم الرابع، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م.
- 86- مقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، ج3، ط1، دار الفكر للطباعة، بيروت 1998م.
- 87- (—، —)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج4، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1968م.

- 88- (—، —)، أزهار الرياض في أخبار القاضي عيَّاض، تحقيق سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس، ج1، (د.ط)، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1980م.
- 89- مجهول، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، (د.ط)، (ب.د.ن)، إسكندرية، 1958م.
- 90- مجهول، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، (د.ط)، دار الرشاد، الدار البيضاء، 1979م.
- 91- مجهول، كتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تحقيق أويثي ميراندا، المجلد التاسع والعاشر، (د.ط)، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1961-1962م.
- 92- محمد العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد الحياحي، الرحلة العبدرية أو المغربية، تحقيق أحمد بن جذو، (د.ط)، نشر كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1964م.
- 93- مريم، أبو عبد الله محمد بن أحمد، المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق أ.د. عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م.
- 94- موسى الأندلسي، علي بن موسى الأندلسي، الغصون الياينة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، (د.ط)، مطبعة دار المعارف، مصر، 1967م.
- 95- نويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أحمد كمال زكي، ج1، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ب.ن)، 1980م.
- 96- (—، —)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصّار، مراجعة د.عبد العزيز الواهرني، ج24، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م.

- 97- نميري، ابن الحاج، برهان الدين بن عبد الله، فيض العباب وإفاضة قدّاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
- 98- نباهي، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس، (د.ط)، (ب.د.ن)، بيروت- لبنان، (د.ت).
- 99-(—، —)، تاريخ قضاة الأندلس، المسمّى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا، تحقيق ليفي برونسفال، (د.ط)، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948م.
- 100- وزان، ليون الإفريقي، الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، الشركة المغربية للنشر والمتحدين-، بيروت، لبنان، 1983م.
- 101- ونشريسسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجّي، ج7، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
- 102- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، ج1، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1955م.
- 103-(—، —)، معجم البلدان، ج5، ط1، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1997م.
- 104- يحيى بن خلدون، أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن، بغية الرواد ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج1، (د.ط)، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.



ثانيا: المراجع العربية:

- 1 - إبراهيم المسدلي ومحمد الظريف، الأدب المغربي إشكاليات وتجليات، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2006م.
- 2- إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
- 3- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، (د.ط)، مؤسسة الثقافة الجامعة، الإسكندرية، 2001م.
- 4- أحمد إسماعيل راشد، تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر، (د.ط)، دار النهضة العربية، لبنان، 2004م.
- 5- أحمد عامر، الدولة الحفصية، صفحات خالدة من تاريخها المجيد، (د.ط)، دار الكتب الشرقية، تونس، (د.ت).
- 6- إلهام حسين دحروج، قابس من الهلاليين إلى الحفصيين، (د.ط)، جامعة القاهرة، (د.ب.ن)، 2000م.
- 7- أنور محمود زناتي، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، (د.ط)، جامعة عين شمس، المملكة الأردنية، 2011م.
- 8- إبراهيم أحمد الوافي، التفسير وعلوم القرآن بالغرب الإسلامي من القرن 2 هـ إلى 8هـ، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1996م.
- 9- إسماعيل العربي، المدن المغربية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 10- أحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ب.ن)، 2001م.
- 11- بخوش عبد المجيد، الأدارسة بتلمسان، فاس وقرطبة وفروع السلالة في بلاد العرب، (د.ط)، عاصمة الثقافة الإسلامية، الجزائر، 2011م.

- 12- بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، مراجعة تاريخية أحسن بومالي، (د.ط)، دار المعرفة، الجزائر، 2010م.
- 13- بشير رمضان التيسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن 4 للهجرة الموافق 10 ميلادي، (د.ط)، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2003م.
- 14- بناصر البعزاتي، العلم والفكر العلمي في العصر الوسيط بالغرب الإسلامي، (د.ط)، كلية الآداب والعلوم، الرباط، 2001م.
- 15- بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.
- 16- بورقية، الجزائر عبر التاريخ، ج2، ج3، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 17- البهنسي عفيف، الفن الإسلامي، ط1، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، 1986م.
- 18- جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 19- (—، —)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوس ط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م.
- 20- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين 448هـ/1056م إلى 668هـ/1269م، دراسة سياسية وحضارية، (د.ط)، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، إسكندرية، 2001م.
- 21- حسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ط1، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1411م.

- 22- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ج1، (د.ط)، مكتبة المنار، تونس، (د.ت).
- 23- حميدي عبد المنعم محمد حسين، التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في عصر المرابطين، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، (د.ب.ن)، 1997م.
- 24- حسان حلاق، مدن وشعوب إسلامية، (د.ط)، دار الراتب الجامعية سوفيتير، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 25- حميدة بن عمر هادي، مساهمة رياض الأندلس في المادّة العلمية بإفريقية خلال القرون الوسطى، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1996م.
- 26- حساني مختار، الحواضر والأمصاير الإسلامية الجزائرية، ج1، (د.ط)، دار الهدى، الجزائر، 2011م.
- 27- حاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.
- 28- حسان عوض، جغرافية المدن المغربية، (د.ط)، مطبوعات المركز الجامعي، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 29- حسن محمد أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، (د.ط)، (ب.د.ن)، القاهرة، 1967م.
- 30- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، (د.ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.
- 31- حسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء، (د.ت).
- 32- حبيب الجناحي، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.

- 33- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، (د.ط)، دار الرشاد والحديث، الدار البيضاء، 1993م.
- 34- حريري محمد عيسى، تاريخ المغرب والأندلس الإسلامي في العصر المريني، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987م.
- 35- حسن علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتركة في ضوابط دار السكة، (د.ط)، طبعة مدريد، (د.ب.ن)، 1958م.
- 36- خالد بلعربي، تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية، ط1، دار الأملية، الجزائر، 2011م.
- 37- (—، —)، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ط1، دار الأملية، الجزائر، 2011م.
- 38- خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956، (د.ط)، دار البصائر، (د.ب.ن)، 2009م.
- 39- ديب صفية، التربية والتعليم في المغرب الأندلس في عصر الموحدين بين القرن 6 و7 هـ الموافق 12-13م، (د.ط)، كنوز الحكمة، الجزائر، 2011م.
- 40- دالي يوسف عثمان، الحركة الفكرية على عهد بني زيان 633هـ-957م، قرطاس الدراسات الحضارية، العدد التجريبي، تلمسان، 2008م.
- 41- رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981-1968م.
- 42- رضوان البارودي، دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، (د.ط)، مركز الإسكندرية للكتاب، (د.ب.ن)، 2007م.

- 43- راس الناصر العسكري، لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بني زيان وأئه من بني زيان ملوك تلمسان، دراسة وتحقيق حمدادوين عمر، ط2، قرطبة للنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، 2012م.
- 44- رشيد بورويبة، الجزائر في عهد الحماديين، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، تعريب محمد بلغراد، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 45- (—، —)، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م.
- 46- زهير إحدّاد، شخصيات ومواقف تاريخية، (د.ط)، دحلب، الجزائر، 2011م.
- 47- سليمان حاشي، جميل عيساني، بجاية مركز إشعاع للمعرفة، (د.ط)، وزارة الثقافة، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2008م.
- 48- سيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج2، (د.ط)، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
- 49- سامية مصطفى السيد، العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، ط1، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (د.ب.ن)، 2000م.
- 50- سليمان زبيس، حول مدينة تونس العتيقة، (د.ط)، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، 1981م.
- 51- سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في المغرب من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة، (د.ط)، دار النهضة العربية، لبنان، 2003م.
- 52- سعد بوفلاحة، أوراق تلمسانية، ط1، منشورات بونة، الجزائر، 2011م.
- 53- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2، (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت).

- 54- شوقي الجميل، المغرب العربي الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر، (د.ط)، المكتب المصري، القاهرة، 2007م.
- 55- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ج9، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
- 56- صابرة خطيف، فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- 57- صالح أبو دياك، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000م.
- 58- صالح بعيزيق، بحاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، (د.ط)، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006م.
- 59- صالح يوسف بن قرية، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في العصر الإسلامي (دراسة تاريخية وأثرية)، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.
- 60- طاهر توات، ابن حميس التلمساني، حياته وشعره، ط1، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007م.
- 61- طاش كبرى زاده، عصام الدين أحمد العريقي، مفاتيح السعادة (د.ط)، مطبعة الاستقلال، القاهرة، (د.ت).ن.
- 62- عبد العزيز شهبي، الزوايا الصوفية والاحتلال الفرنسي في الجزائر، (د.ط)، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
- 63- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984م.
- 64- عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، (د.ط)، موقم للنشر، (د.ب.ن)، 2011م.

- 65- عمران الشيخ وفريق من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، (د.ط)، منشورات دحلب، الجزائر، 2007م.
- 66- عزّ الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1983م.
- 67- عبد الله التنسي، تاريخ دولة الأدارسة: من كتاب نظم الدر والعقيان، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.
- 68- عبد الواحد ذنون طه، تاريخ المغرب العربي، (د.ط)، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2004م.
- 69- عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتي، (د.ط)، دار سداس للنشر، تونس، 1981م.
- 70- علاوة عمارة، مغرب أوسطيات، دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط، (د.ط)، مكتبة إقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2013م.
- 71- (—، —)، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والمغرب الإسلامي، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م.
- 72- عبد الرحمن حسين العزاوي، المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط1، دار الخليج، الأردن، 2014م.
- 73- عزوق عبد الكريم، الآثار الإسلامية ببجاية، ط1، مؤسسة الضحى، الجزائر، 2013م.
- 74- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام من العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض للتأليف، (د.ب.ن)، 1980م.
- 75- عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ط1، مكتبة البعث للنشر، قسنطينة، 1965م.

- 76- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م.
- 77- عثمان الكعّاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.
- 78- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط8، دار الأمانة، الجزائر، 2007م.
- 79- عبدلي لخضر، تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان (962-633هـ/1554-1236م)، ط1، دار الأوطان، (د.ب.ن)، 2011م.
- 80- عبد القادر بوطبل، تاريخ مدينة هو موسى في الماضي والحاضر، (د.ط)، موقع للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- 81- عبد العزيز لعرج، المساجد الزيانية بتلمسان عمارتها وخصائصها، حوليات جامعة الجزائر، ع06، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م.
- 82- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، دمشق، 1957م.
- 83- عبد السلام بن سوده، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج2، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1965م.
- 84- العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (د.ط)، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، (د.ت).
- 85- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، د.ب.د.ن، بيروت، 1961م.
- 86- (—، —)، ذكر مشاهير رجال المغرب، (د.ط)، مطبعة كريمة داس، تطوان، (د.ت.ن).



- 87- عبد العزيز عبد الله، الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب، (د.ط)، (ب.د.ن)، الرباط، 1960م.
- 88- فوزي مصمودي، تلمسان بعيون عربية، ط1، دار السبيل، الجزائر، 2011م.
- 89- قدرى طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ط3، دار القلم، القاهرة، 1973م.
- 90- قاسم محمد كرو، عصر القيروان، ط1، ط2، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، تونس، دمشق، 1973-1989م.
- 91- قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
- 92- كمال أبو مصطفى، جوانب حضارية من نوازل الونشريسي، (د.ط)، شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م.
- 93- (—، —)، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998م.
- 94- كمال السيد أبو مصطفى، محاضرات في تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته، (د.ط)، مركز الإسكندرية للكتاب، (د.ب.ن)، 2007م.
- 95- لطيفة البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة (فهد الوطنية)، الرياض، 2001م.
- 96- لخضر عبدلي، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، (د.ط)، ابن النديم للنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، 2011م.
- 97- مبارك بن محمد الملي، تاريخ الأدب القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الملي، ج2، (د.ط)، مكتبة النهضة الجزائرية، (د.ب.ن)، 1932م.

- 98- محمد حسين العيدروس، المغرب العربي في العصر الإسلامي، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008م.
- 99- محمد الطّمّار، تاريخ الأدب الجزائري، تقديم عبد الجليل مرتاض، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006م.
- 100- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية «الأحوال الاقتصادية والثقافية»، ج2، (د.ط)، منشورات الحضارة، (د.ب.ن)، 2002 - 2009م.
- 101- محمد بن عمرو الطّمّار، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 102- محمد بن رمضان شاوس والغوتي بن حمدان، الأدب العربي الجزائري عبر النصوص أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1، ط1، الصندوق الوطني، تلمسان، 2001م.
- 103- محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار، القاهرة، 1988م.
- 104- محمود إسماعيل عبد الرزاق، الأغلبة وسياستهما لخارجية، (د.ط)، مكتبة سعيد رأفت، (د.ب.ن)، 1972م.
- 105- محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، (د.ط)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1964م.
- 106- محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، تذييل واستدراك ابن المؤلف علي النيفر، ج1، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.

- 107- مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين (524-876هـ/1130-1472م)، ط1، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982م.
- 108- محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الأزهار والذبول من القرن السابع الهجري إلى ختام القرن الثالث عشر، (د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 109- محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، دار سوس، (د.ب.ن)، 1993م.
- 110- محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، ط1، دار الحياء الكتب العربية، (د.ب.ن)، 1963م.
- 111- محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب وتأثيراتها الأندلسية، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ب.ن)، 1987م.
- 112- محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.
- 113- محمد سويس، أنماط العمران البشري بإفريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، (د.ط)، المركز الجامعي، تونس، 2001م.
- 114- محمد ابن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، ترجمة حمادي الساحلي، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- 115- مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، (د.ط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1596م.
- 116- محمد رزوق، دراسات في تاريخ المغرب، (د.ط)، (ب.د.ن)، الدار البيضاء، (د.ت).

- 117- مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج3، ط2، دار الحكمة، الجزائر، 2007م.
- 118- مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6- 9هـ/12-15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري، (د.ط)، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2011م.
- 119- مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق محمد بعلي، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، إسبانيا، 1996م.
- 120- محمد العبدري البلسي، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جذو، (د.ط)، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، (د.ت).
- 121- مسعود بن ساري، جماليات المكان في حاضرة تلمسان، (د.ط)، منشورات بن سنان، الجزائر، 2011م.
- 122- محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي: ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، (د.ب.ن)، 2000م.
- 123- محمود بوعباد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن 9هـ/15م، ط1، منشورات الشركة الوطنية، الجزائر، 1982م.
- 124- محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني، ج1، (د.ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.
- 125- محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تقديم وتحقيق محمد عبد المولى، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 126- محمد مرتاض، من أعلام تلمسان (مقاربة تاريخية فنية)، (د.ط)، دار الغرب للنشر والتوزيع، تلمسان، 2004م.

- 127- مختار جبار، شعراء الجزائر على عهد الدولة الحمادية (سير ونصوص)، تقديم بقلم عبد الملك مرتاض، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، 1998م.
- 128- محمد سعودي، معالم جغرافية الوطن العربي، (د.ط)، (ب.د.ن)، بيروت، 1991م.
- 129- محمد رياض، إفريقيا، (د.ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1966م.
- 130- محمد الهادي شعيره، المرابطون وتاريخهم السياسي، (د.ط)، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1969م.
- 131- محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، (د.ط)، مطبعة المخزن، تطوان، 1993م.
- 132- (—، —)، العلوم والآداب على عهد الموحدين، (د.ط)، المطبعة المهدية، تطوان، 1950م.
- 133- (—، —)، ورقات عن الحضارة المرينية، ط3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية، 2000م.
- 134- محمد عبد الرحيم غنيم، تاريخ الجامعات الإسلامية، (د.ط)، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1953م.
- 135- محمد بن باويت، محمد الصادق، الأدب المغربي، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960م.
- 136- محمد الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج3، (د.ط)، مطبعة النهضة، تونس، (د.ت).
- 137- محمد أحمد درنيقة، أعلام الحضارة الإسلامية من المسلمين غير العرب، (د.ط)، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، (د.ت).
- 138- ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مظاهرات التأثير الأيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.

- 139- ناضوري رشيد، تاريخ المغرب الكبير، (د.ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
- 140- نخبة من الأساتذة والمؤرخين، مآثر تلمسان ماضياً وحاضراً، تعليق محمد بوزواوي، (د.ط)، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- 141- وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق محمد زينهم، (د.ط)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1482م.
- 142- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، (د.ط)، دار الهدى، الجزائر، 2009م.
- 143- (—، —)، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، (د.ط)، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007م.
- 144- (—، —)، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ط1، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 1985م.
- ثالثاً: المراجع الأجنبية المعرّبة:
- 1 - ألفرديل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمان بدري، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت).
- 2- جورج مارسلي، تلمسان، مدن الفن الشهيرة، تحقيق سعيد دحماني، (د.ط)، دار النشر التل، الجزائر، 2004م.
- 3- روبا برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1988م.
- 4- روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين، ترجمة د. نقولا زيادة، (د.ط)، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1967 - 1968م.

- 5- (—، —)، فاس قبل الحماية، ج1، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (د.ت).
  - 6- شارل أندي جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية(تونس،الجزائر،المغرب الأقصى)من الفتح الإسلامي إلى سنة1830، تعريب محمد مزاي والبشير بن سلامة، ج2، (د.ط)، الدار التونسية للنشر والتوزيع، الجزائر، تونس، 1398 - 1978م.
  - 7- لي تورنو روجي، حركة الموحدين في المغرب خلال القرنين الثاني والثالث عشر ميلادي، ترجمة. أمين الطيبي، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م.
  - 8- ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، (د.ت).
  - 9- مارمول كونجال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زبير، ج3، (د.ط)، دار المعرفة، الرباط، 1989م.
  - 10- هنري تراس، موجز دائرة المعارف الإسلامية - فاس -، ج20، مجلد 25، ط1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، (د.ب.ن)، 1998م.
- رابعا: دوائر المعرفة والموسوعات:
- 1 - أحمد الطويلي، دراسات في الحضارة العربية التونسية في العهد الحفصي والحسيني، (د.ط)، دار المعارف، سوسة- تونس، (د.ت).
  - 2- أحمد عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى(العلوم العقلية)، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991م.
  - 3- أحمد الشنتاوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، ج3، المجلد الثالث، (د.ط)، وزارة المعارف، (د.ب.ن)، (د.ت).
  - 4- ألفريدل، دائرة المعارف الإسلامية، ج5، (د.ط)، موسوعة، القاهرة، 1933م.

- 5- إبتسام مرعي، العلاقة بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1985م.
- 6- بومهلة تواتي، بجاية حاضرة البحر ونادرة الدهر، (د.ط)، دار المعرفة، (د.ب.ن)، 2010م.
- 7- بوزياني الدراجي، أدباء وشعراء من تلمسان، ج3، (د.ط)، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- 8- شاكر مصطفى، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ج2، (د.ط)، دار العلم للملايين، لبنان، 1993م.
- 9- علي محمد الطلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ط2، دار المعرفة، بيروت، 2005م.
- 10- عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، (د.ط)، دار المعارف، مصر، 1971م.
- 11- الغنيمي عبد الفتاح مقلد، موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج5، ط1، مكتبة مدبولي، (د.ب.ن)، 1994م.
- 12- محمد لخضر حسين، دائرة المعارف الإسلامية، مادة تونس، مجلد6، نقلها إلى اللغة العربية أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي، خورشيد وعبد الحميد يونس، حافظ جلال، وزارة المعارف العمومية، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 13- محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار العلم، الكويت، 1987م.
- 14- محمد أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
- 15- نجيب زيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج4، ط1، دار الأمير، (د.ب.ن)، 1415هـ/ 1995م.



16- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م.

خامسا: الرسائل الجامعية:

1- أمينة بوتشيش، بحاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 1428 - 1429هـ/2007 - 2008م.

2- بلحسن إبراهيم، العلاقات الثقافية بين المغربين الأوسط والأدنى من القرن 7هـ إلى القرن 9هـ/13-15م، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2004 - 2005م.

3- جميلة مبطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 621هـ وحتى سنة 893هـ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2000م.

4- عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية معدول المغرب والأندلس 626-981هـ/1228 - 1573م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1991م.

5- عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، رسالة دكتوراه، ط1، دار الغرب الإسلامي، جامعة الأزهر، 1993م.

6- عبد القادر بوحسون، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، 2008م.

7- عبد الرحمن الأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والممالك، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، 2007 - 2008م.

8- العربي لقريز، مدارس السلطان أبي الحسن (مدرسة سيدي بومدين)، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2001م.

- 9- علي محمود عبد اللّطيف الجندي، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، 2004م.
- 10- فاطمة عبد القادر رضوان، مدينة القيروان في عهد الأغالبة (184هـ/296هـ)، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1991م.
- 11- فطيمة مطهري، المظاهر الحضارية في القيروان وتيهرت إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين - دراسة مقارنة -، أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، 2014 - 2015م.
- 12- مريم هاشمي، العلاقات الثقافية بين مدينتي تلمسان وبجاية خلال القرنين 7-9هـ، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2010م.
- 13- محي الدين سليمان إمام مدبلي، ابن أبي زيد القيرواني، عقيدته وموقفه من الفرق ومقاومته للبدع، رسالة دكتوراه في العقيدة، جامعة أم القرى، السعودية، م1، 2001م.
- 14- رحيم عائشة، المؤسسات العلمية في مدينة بجاية خلال القرون 7 - 10هجرية، رسالة ماجستير في التاريخ السياسي والثقافي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2008م.
- 15- هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسياً وثقافياً، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة تلمسان، 2007 - 2008م.

سادسا: الدوريات والمجلات:

- 1- أحمد سويلم، القيروان، سلسلة مدائن إسلامية، سفير للطبع والنشر، ع05، القاهرة، (د.ت).
- 2- إسماعيل العربي، بحاية من خلال النصوص العربية، مجلة الأصالة، ع19، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.
- 3- أبو الوليد أيوب الخريكي، أبو الحسن الصغير، مجلة دعوة الحق، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، (د.ت).
- 4- جمال الدين الشيال، الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الإسكندرية، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية، المجلد (م) السادس والسابع، 1952 - 1953م.
- 5- حبيب رزاق، مراكز التعليم ومناهجه في العهد الحمادي بقلعة بني حماد وبحاية الناصرية، مجلة الفكر الجزائري، ع04، يصدرها مخبر الرجعية الفلسفية والفنية للتفكير البلاغي والنقدي، الجزائر، 2005م.
- 6- سحر عبد الحميد المجالي، القيروان ودورها العسكري والعلمي، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م40، ع2، الجامعة الأردنية، 2013م.
- 7- سعيد أعراب، المقامة الفاسية، مجلة البحث العلمي، ع06، (د.ب.ن)، 1965م.
- 8- عبد الحميد حاجيات، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط (مجلة)، إصدار وزراء الاتصال والثقافة، ع114، الجزائر، 1997م.
- 9- عبد العزيز فيلاي، أبرز علماء قسنطينة وأثرهم في بلاد الغرب والشرق خلال العهد الحفصي بين القرنين 7 و10هـ، مجلة، جامعة قسنطينة، دار نوميديا، 1990م.

- 10- علياء هاشم المشهداني، المعطيات العلمية لانتقال العلماء وطلاب العلم بين الأندلس وتلمسان خلال القرن السادس للهجرة، ملتقى دولي تاريخ حاضرة تلمسان ونواحيها، جامعة تلمسان، أيام 20 - 21 و 22 فيفري، 2011م.
- 11- عبد القادر زمامة، معالم وأعلام من فاس القديم، مجلة البحث العلمي، ع17، (د.ب.ن)، 1970م.
- 12- عبد القادر زمامة، اكتشاف نص جديد يتعلق بتاريخ الموحدين، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، ع(4-5)، (د.ب.ن)، 1981-1982م.
- 13- عبد العزيز ابن عبد الله، المرأة المراكشية في الحقل الفكري، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد السادس، ع(1-2)، (د.ب.ن)، 1958م.
- 14- عبد العزيز العلوي، صناعة النسيج في المغرب الوسيط، مجلة كلية الآداب بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ع2، (د.ب.ن)، 1986م.
- 15- عبد القادر زمامة، معالم وأعلام من فاس القديم، ع74، (د.ب.ن)، 1975م.
- 16- عبد العزيز عبد الله، الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب، مجلة الدائرة، السنة الخامسة، ع03، (د.ب.ن)، 1980م.
- 17- عبد الله العمراني، فاس وجامعتها، مجلة البحث العلمي، ع(11-12)، (د.ب.ن)، 1967م.
- 18- فؤاد طوهارة، النشاط الاقتصادي في تلمسان خلال العصر الزياني (7-9هـ/13-15م)، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع2، الجزائر، جوان 2014م.
- 19- لمياء عز الدين الصَّبَّاح، القيروان ملتقى الأندلسيين، مجلة التربية والعلم، مج.18، ع04، جامعة الموصل، (د.ب.ن)، 2011م.

- 20- محمد مرتاض، أثر جهود علماء الحديث النبوي في تلمسان على المشرق الإسلامي شفاء علي الفقيه، مجلة الفضاء المغاربي، إصدار مخبر الدراسات الأدبية والنقدية أعلامها في المغرب العربي، ع (6-7)، تلمسان، نوفمبر، (د.ت).
- 21- مريم هاشمي، إسهام علماء بجاية في الحركة العلمية بالمغرب الإسلامي خلال القرنين (7-8هـ/14-15م)، دورية علمية عالمية محكمة، ع21، سبتمبر، (د.ب.ن)، 2013م.
- 22- محمد ناجي بن مامي، مدارس تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني القرن 7هـ/13م، مجلة المؤرخ العربي، ع34، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 23- المهدي البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير علماء زواوة (القبائل الصغرى والكبرى)، مجلة الأصالة، ع 14 - 15، عضو المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، (د.ت).
- 24- محمد الشريف سيدي موسى، التربية والتعليم بالجزائر في العصر الوسيط (بجاية نموذجاً)، حولية المؤرخ، ع22، الجزائر، 2002م.
- 25- نجاح القابسي، المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، مجلة المؤرخ العربي، ع19، (د.ب.ن)، (د.ت).
- 26- يحي بوعزيز، مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية في نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا، مجلة الحضارة الإسلامية، يصدرها المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران، 1993م.

# قائمة الفهارس

|          |                                                                 |
|----------|-----------------------------------------------------------------|
| .....    | الدعاء الافتتاحي                                                |
| .....    | ج شكر وتقدير                                                    |
| .....    | إهداء                                                           |
| .....    | مقدمة                                                           |
| .....    | أ-د                                                             |
| 6.....   | مدخل: «الحياة الثقافية بالمغرب العربي» القرن 6 - القرن 7 للهجرة |
| 20.....  | الفصل الأول: حاضرة القيروان وفاس                                |
| 21.....  | أولاً: حاضرة القيروان                                           |
| 21.....  | المبحث الأول: الحياة التاريخية والجغرافية                       |
| 34.....  | المبحث الثاني: الحياة السياسية                                  |
| 69.....  | المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية                                |
| 82.....  | المبحث الرابع: الحياة الاجتماعية                                |
| 98.....  | المبحث الخامس: الحياة الثقافية                                  |
| 129..... | ثانياً: حاضرة فاس                                               |
| 129..... | المبحث الأول: الحياة التاريخية والجغرافية                       |
| 142..... | المبحث الثاني: الحياة السياسية                                  |
| 170..... | المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية                                |
| 179..... | المبحث الرابع: الحياة الاقتصادية                                |
| 191..... | المبحث الخامس: الحياة الثقافية                                  |
| 223..... | الفصل الثاني: حاضرة بجاية وتلمسان                               |
| 224..... | أولاً: حاضرة بجاية                                              |
| 224..... | المبحث الأول: الحياة الجغرافية والتاريخية                       |

|     |                                                     |
|-----|-----------------------------------------------------|
| 230 | المبحث الثاني: الحياة السياسية.....                 |
| 238 | المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية.....               |
| 246 | المبحث الخامس: الحياة الثقافية.....                 |
| 257 | ثانيا: حاضرة تلمسان.....                            |
| 257 | المبحث الأول: الحياة الجغرافية والتاريخية.....      |
| 264 | المبحث الثاني: الحياة السياسية.....                 |
| 278 | المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية.....               |
| 285 | المبحث الرابع: الحياة الاجتماعية.....               |
| 297 | المبحث الخامس: الحياة الثقافية.....                 |
| 315 | <b>الفصل الثالث: أعلام حواضر المغرب العربي.....</b> |
| 318 | المبحث الأول: علماء حاضرة القيروان:.....            |
| 323 | المبحث الثاني: علماء حاضرة فاس.....                 |
| 357 | المبحث الثالث: علماء حاضرة بجاية:.....              |
| 381 | المبحث الرابع: علماء حاضرة تلمسان.....              |
| 429 | <b>خاتمة.....</b>                                   |
| 432 | قائمة المصادر والمراجع.....                         |
| 467 | قائمة الفهارس.....                                  |



## الملخص:

المغرب العربي لؤلؤة الحضارات ومهد العلوم بشتى نواحيه ومعالمه العلمية والثقافية فقد أنجب هذا الصرح التاريخي الطبيعي مجموعة من الأفاض العلماء الذين لمع صيتهم في السماء العليا وجعلت مصارهم نهلاً للبعيد والقريب؛ فالمغرب العربي أنتج لنا بئراً قيّماً من الأعلام في شتى الأقطار فاكتمست حاضرة المغرب الأوسط تلمسان فطاحل العلماء والأدباء والمفكرين شاركوا في بناء الصرح الحضاري دون نسيان جارتها المغرب الأقصى فاس التي أخرجت من أضلعها خيرة الأعلام وكان لحاضرة بجاية عدّة علاقات وطيدة مع عدّة دول ولمع بنياؤها مع جلّ الأعلام الذين أنجبته وكذلك حاضرة القيروان التي زحرت ونهضت بكيانها العلمي، فجلّ هذه الحواضر الأربعة صعدت وتألفت خلال القرنين السادس والسابع للهجرين.

**الكلمات المفتاحية:** حواضر المغرب العربي؛ أعلام المغرب العربي؛ حاضرتي القيروان وفاس؛ حواضر بجاية وتلمسان؛ حواضر العلماء خلال القرنين السادس والسابع؛ أعلام الأدب في الحواضر المغربية.

## RESUME:

Le Maghreb arabe représente la perle des civilisations et le berceau de la science sous tous ses aspects, ceci étant dû à ses repères scientifiques ainsi que par rapport à ses pôles culturels. Sur le plan historique le Maghreb arabe a donné naissance à une pléiade de scientifiques remarquables dont la réputation a brillé au plus haut des cieux et dont les destinées furent bénies pour les échéances lointaines et les plus proches. Le Maghreb central représenté par Tlemcen surnommée «la grenade de l'Afrique» sous le règne de la dynastie zianide, une ville qui a été illuminée par la grandeur de ses savants, de ses écrivains et de ses penseurs. Ce sont ces érudits ; épris de savoir et de connaissances qui ont participé à la construction de l'édifice civilisationnel du Maghreb central sans oublier les villes du Maghreb occidental en l'occurrence la ville de Fès qui a connu une période faste sous la dynastie mérinide. La ville historique de Bejaia capitale des hammadites, entretenaient de nombreuses relations fortes avec plusieurs pays ; sa notoriété avait brillé avec la plupart des savants et érudits qu'elle a produits à travers des siècles. A l'est du Maghreb, la ville de Kairouan fondée par «Okba ibn nafie» dont son riche patrimoine architectural en fait foi; témoigne de la grandeur de cette capitale ancestrale. Notons que ces quatre métropoles avaient brillées sur le plan civilisationnel, scientifique et culturel, au cours du sixième et septième siècles de l'hégire.

**Mots-clés:** *Les métropoles du Maghreb arabe; Les savants du Maghreb arabe; La métropole de Kairouan et Fès; Les métropoles de Bejaia et Tlemcen; Les métropoles des érudits aux sixième et septième siècles de l'hégire ; Les savants littéraires dans Les métropoles du Maghreb.*

## ABSTRACT:

The Arab Maghreb represents the pearl of civilizations and the cradle of science in all its aspects, this being due to its scientific landmarks as well as its cultural poles. On a historical level, the Arab Maghreb gave birth to a host of remarkable scientists whose reputation shone in the highest heavens and whose destinies were blessed for near and future times. The central Maghreb represented by Tlemcen "the grenade of Africa" under the reign of the Zianid dynasty, a city which was illuminated by the greatness of its scholars, writers and thinkers. These are scholars; which participated in the built of the civilizational edifice of the central Maghreb without forgetting the cities of the western Maghreb in this case the metropolis of Fez which experienced a prosperous period under the Marinid dynasty. The historic city of Béjaïa, capital of the Hammadites, maintained many strong relations with several countries; its notoriety had shone with most of the scholars and scholars it produced over the centuries. In the east of the Maghreb, the city of Kairouan founded by «Okba ibn Nafie» whose rich architectural heritage bears witness to this; testifies to the greatness of this ancestral capital. Note that these four metropolises shone on the civilizational, scientific and cultural level during the sixth and seventh centuries(A.H) after Hegire.

**Keywords:***The metropolis of the Arab Maghreb; Scholars of the Arab Maghreb; The metropolis of Kairouan and Fez; The metropolises of Bejaia and Tlemcen; The metropolises of scholars in the sixth and seventh centuries(AH); Literary scholars in The metropolises of the Maghreb.*